

تاريخ الخلفاء الراشدين

بين الحقائق والأباطيل

تأليف الدكتور

محمد عبد العال محمد حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد بجامعة الأزهر

دار الإيمان للمعرفة

١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ / ٢٠١٩م

رقم الإيداع
١٧٢٧٨ / ٢٠١٩



دار الإيمان للمعرفة
١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

تليفون/٠١٠٠٥٧٦٠٦٦٣ - ٠١١١٨٩٣٣٦٢٤
بريد الكتروني/ elhbibmohamed@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين، وسيّد الأولين والآخرين.

وبعد،،،

فيطلق مصطلح "الخلافة الراشدة"^(١) على الثلاثين عاما التي تعاقب فيها الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ؛ وذلك لأنهم ساروا على نهج رسول الله ﷺ حسب الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده، فكانت مدتهم تتمّة لعهد النبي ﷺ، والصورة الصحيحة للحكم الإسلامي في كل جوانبها ومعطياتها^(٢)، ويؤكد هذا قول الرسول ﷺ لأمتّه: "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"^(٣).

وقد نصّ القرآن الكريم والسنة النبوية على خيرية الخلفاء الراشدين خاصّة، وصحابة رسول الله ﷺ عامّة على غيرهم، فقال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٤)، وقال نبينا ﷺ: "خَيْرُ

(١) يختلف مصطلح "الخلافة الراشدة" عن "خلافة النبوة"، حيث تمتد خلافة النبوة (الأولى) في الدولة الإسلامية المحمدية إلى نهاية عهد الحسن بن عليّ سنة ٤١هـ/٦٦١م، كما بيّن ذلك الحافظ المؤرخ ابن كثير. البداية والنهاية، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ، ج٦، ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، (الجزء الثالث)، الخلفاء الراشدون، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٥.

(٣) أبو داود: السنن، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ طبع، (كتاب السنة، باب في لزوم السنة)، ج٤، ص ٢٠٠، ٢٠١، ح ٤٦٠٧؛ الترمذي: السنن، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، وآخرين، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، (كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع)، ج٥، ص ٤٤، ح ٢٦٧٦. وعلق الترمذي على الحديث فقال: "حسن صحيح".

(٤) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

النَّاسَ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ^(١)، وثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: "كُنَّا نُخِيرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَخَيْرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه"^(٢).

وعلى الرغم من أهمية تاريخ الخلفاء الراشدين والصحابة الذين نقلوا القرآن والسنة لأمة الإسلام، فقد أوغل المغرضون وأهل الأهواء في تزيف حقائق تاريخهم وتشويه أحداثه، وكان لزاما على علماء المسلمين عامة والباحثين في التاريخ الإسلامي خاصة أن يهتموا بتاريخ تلك الفترة ويقدموها للناس في صورة أقرب إلى الحقيقة النقية التي كانت عليها، وقد نهض بعض علماء المسلمين قديما وحديثا لتنقية مادتها من الأباطيل والأكاذيب التي لحقت بها، لكن مما يؤسف له أن كثيرا من الكتاب المسلمين لا يزالون ينقلون مادة تاريخ الخلفاء الراشدين من بطون المصادر التاريخية والأدبية على أنها حقائق مقررة، دون تمحيص للروايات ومحاكمة للأخبار، وإن كان فيها ما يستنكره القارئ، أو يستشنع السامع، كما نبه على ذلك شيخ المؤرخين محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ / ٩٢٣م) في مقدمة تاريخه.

ولم يعد مقبولا من المشتغلين بتاريخ صدر الإسلام في زماننا أن يأخذوا مادتهم عن تاريخ الخلفاء الراشدين من الإخباريين الذين روى عنهم الإمام الطبري، أو من تاريخ اليعقوبي الشيعي (ت: ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، وصنوه المسعودي (ت: ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٠هـ / ٨٨٣م)، وأغانى أبي الفرج الأصفهاني (ت: ٣٥٦هـ / ٩٦٧م)، وعقد ابن عبد ربّه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)، وغيرها من المؤلفات التي تحوي الغث والسمين، دون محاكمة أخبارها، وتبيين صحيحها من سقيمها، وخاصة بعد كثرة الكتب التي اهتمت بتحقيق تلك الفترة، وسهولة الحصول عليها.

(١) البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ)، ج ٣، ص ١٣٣٥، ح ٣٤٥١؛ مسلم: الصحيح، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ طبع، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة، ثم الذين يلونهم)، ج ٤، ص ١٩٦٣، ح ٢٥٣٣.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ)، ج ٣، ص ١٣٣٧، ح ٣٤٥٥.

ولئن كانت مكتبات الجامعة الأزهرية مكتظة بالرسائل والأبحاث التي تعنى بتخريج الأحاديث والآثار وتحقيقها، فإنني لأرجو وآمل أن يسارع المسؤولون بتكليف نخبة من الباحثين الجادين للقيام بجمع الروايات التاريخية الصحيحة لتاريخ صدر الإسلام من مختلف الرسائل العلمية الأزهرية ونشرها لعموم الناس؛ لما لذلك من أثر كبير على تشكيل وعي الأمة بتاريخ أولئك الصفوة الراشدين الذين أمرنا أن نفتدي بسنهم.

ولئن كانت غالبية الدراسات التاريخية المصرية المنشورة لا تزال بعيدة عن تبیین الروايات الصحيحة من الضعيفة على قواعد علم الجرح والتعديل ومحاكمة المتن بعد الإسناد فينبغي علينا أن نستفيد من جهود علماء العرب والمسلمين الذين سبقونا في هذا الشأن، وأن نسارع بمجارة الركب حتى لا يضيع تاريخنا العلمي الذي لا نزال نحيا عليه. ولقد شغفت بتاريخ الخلفاء الراشدين منذ اطلعت عليه في تاريخ الإمام السيوطي (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م) أيام الدراسة الجامعية، ولكنني لم أجد فيه ما تطمئن إليه النفس آنئذ من صحيح التاريخ، فلما وقفت على "العواصم من القواصم" لمحمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ/١١٤٨م)، استشعرت عظم المسؤولية، وعكفت على البحث والدرس، حتى يسر الله ﷻ كتابة هذه المادة المتواضعة بعد بضعة عشر عاما.

وقد آثرت -قدر الإمكان- صحيح روايات المحدثين والمؤرخين في تصنيف هذا الكتاب، وقرنتها غالبا بأحكام العلماء القدامى والحديثين، لتكون عند القراء أكثر وثوقا، وأشدّ تثبيتا.

وسلاحظ القارئ الكريم أن كثيرا من المعلومات المشهورة التي أُلقيت على مسامعنا منذ المراحل التعليمية المبكرة، وحفظناها في أعمارنا الباكرا غير موجودة في هذا الكتاب؛ وذلك لأنني أطلت العكوف على تنقية أخباره، وعرفت فيه عن بهرج الزيف، ودأبت على التحقيق والتدقيق، وابتعدت -قدر الإمكان- عن روايات الأخباريين المتهمين بالتحيّز لمذاهبهم وقبائلهم على حساب الحقيقة التاريخية، وعلى رأسهم سيف بن عمر التميمي (ت: ١٨٠هـ/٧٩٦م) الذي كاد أن يجعل الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين من مآثر قومه التميميين.

ولولا المسؤولية ما خطّ المداد حرفاً واحداً في أحداث الفتنة بين الصّحابة الكرام، والتي طال وقوفي معها أكثر من عشر سنين، وكلّما قدّمت رجلاً أخرت أخرى، وكثيراً ما سطرت فقرة في المساء ومحوتها في الصّباح، أملاً في الله تعالى أن يجنّبني القواصم، وأن يحفظني بالعواصم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

وأسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا صواباً حسناً، خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرجّح حسناتي يوم الدّين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

دكتور

محمد عبد العال محمد حسن

كتب بمدينة أسبوط - ذوالقعدة ١٤٣٨هـ / يولييه ٢٠١٧م

وعدّل في المحرم ١٤٤١هـ / سبتمبر ٢٠١٩م

الباب الأول

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

(١١ - ١٣هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م)

الفصل الأول

موجز حياة الصديق قبل الخلافة

نسبه وكنيته ولقبه:

هو عبد الله، بن عثمان، بن عامر، بن عمرو، بن كعب، بن سعد، بن تيم، ابن مرة، بن كعب، بن لؤي، التيمي، القرشي، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابنة عم أبيه، ويكنى بأبي بكر^(١)، كما يكنى أبوه عثمان بأبي قحافة^(٢). ولأبي بكر ﷺ ألقابٌ عديدة تدلّ على سموّ مكانته، وعلوّ منزلته، وشرف حسبه^(٣)، فقد سُمّي عتيقاً عندما قال له النبي ﷺ: "أَنْتَ عَتِيقُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ"^(٤)، كما سمّاه النبي ﷺ صديقاً^(٥)؛ وذلك أنّه صعدَ أحياناً، هو وأبو بكر، وعمر، وعثمانُ فرجف بهم، فقال: "أَثَبْتُ أَحَدًا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصَدِيقٌ، وَشَهِيدَانِ"^(٦)، وقد اجتمعت الأمة على تسميته بالصديق، لأنّه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ، ولازم الصّدق، فلم تقع منه هناة ما، ولا وقفة في حال من الأحوال^(٧).

(١) البكر: الفتي من الإبل. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٤، ص٧٩. ولذا كان المرتدون في عهده يقولون لا نبأح أبا الفصيل أبداً، يريدون تصغير الصديق ﷺ.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج٢، ص١٦٩؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٤، ص١٤٤، ١٤٥.

(٣) علي محمد محمد الصلابي: الانتسراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص١٧.

(٤) الترمذي: السنن، وقال: "حديث غريب"، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق ﷺ)، ج٥، ص٦١٦، ح٣٦٧٩؛ ابن حبان: الصحيح، ترتيب/ علاء الدين ابن بلبان (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان)، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، (ذكر السبب الذي من أجله سمّي أبو بكر عتيقاً)، ج٥، ص١٥، وصحح المحقق إسناده.

(٥) ابن حبان: الصحيح، (ذكر تسمية النبي ﷺ بأبي بكر بن أبي قحافة ﷺ صديقاً)، ج٥، ص٢٨٠.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر")، ج٣، ص٣٤٤، ح١٣٧٢.

(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٣١؛ الصالح: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج١١، ص٢٣٧.

❏ أشهر صفاته الخلقية:

كان أبو بكر أبيض اللون، نحيف البدن، خفيف اللحم^(١)، حتّى إن إزاره ليسترخي أحيانا من أحد شقيّه^(٢)، وقدم المدينة وهو أشمط^(٣) اللحية، فخضبها بالحناء، والكتّم^(٤).

❏ حياة أبي بكر ومكانته في الجاهلية:

كان أبو بكر عاقلا عفيفا، فقد حرّم على نفسه الخمر في الجاهليّة^(٥)، وذلك أنّه مرّ برجل سكران يضع يده في العذرة، ويدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صرفها عنه، فحرّمها أبو بكر على نفسه^(٦)، ورؤي أنّه رفض الاستجابة لأبيه في عبادة الأصنام، ولم يسجد لصنم قطّ^(٧).

وكان الصديق أنسب قريش لقريش، وأعلمها بما كان فيها من خير أو شرّ، وكان مألّفاً (مؤلفاً) لقومه محبباً سهلاً، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، ولذلك كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته^(٨).

ولهذا كلّه كان أبو بكر من وجهاء قريش وأشرفهم وأحد رؤسائهم، وذلك أنّ الشرف في قريش في الجاهلية قد انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن، وكانت لأبي بكر الأشناق، وهي الديّات، فكان إذا حمل شيئاً صدقته قريش وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه^(٩).

(١) رواه أحمد بن منيع عن قيس بن أبي حازم مشاهدة بإسناد صحيح. ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق/ مجموعة من الباحثين، دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، جـ ٥، ص ٦٩٣.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأدب، باب من أثنى على أخيه بما يعلم)، جـ ٥، ص ٢٢٥٢، ح ٥٧١٥.

(٣) أشمط: اختلط الشيب بسواد شعره. ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق/ علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، جـ ٣، ص ٢٩٨.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، جـ ٣، ص ١٤٢٦، ح ٣٧٠٥. والكتّم: نبت فيه حمرة كما قال الأزهري. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٢، ص ٥٠٨.

(٥) أبو نعيم: معرفة الصحابة، تحقيق/ عادل يوسف العزازي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، جـ ١، ص ٣٣. وجود السيوطي إسناد أبي نعيم، وصحح رواية ابن عساكر في ترك أبي بكر وعثمان شرب الخمر. تاريخ الخلفاء، ص ٣٤.

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، جـ ٧، ص ١٦٠.

(٧) ابن حديدة الأنصاري: المصباح المضيّ في كتاب النبي الأميّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربيّ وعجميّ، تحقيق/ محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ ١، ص ٣٨.

(٨) ابن إسحاق: السّير والمغازي، تحقيق/ سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ١٤٠.

(٩) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، جـ ٣، ص ٩٦٦.

وقد خاطب ابن الدُّعْنَة -سيد القارة- أبا بكر ﷺ عندما خرج مهاجرا إلى الحبشة بقوله: "إِنَّ مِثْلَكَ لَا يُخْرَجُ وَلَا يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌّ، فَارْجِعْ فَأَعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ"^(١)، فوصفه بنظير ما وصفت به خديجة النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا بعث، فتواردتا فيهما على نعت واحد من غير أن يتواطئا على ذلك، وهذا غاية في مدح الصِّديق، لأنَّ صفات النَّبِيِّ ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات^(٢).

❏ إسلامه:

تعارض الروايات الصحيحة في أولية من أسلم من الذكور بين أبي بكر الصِّديق وعلي بن أبي طالب ﷺ؛ فقد صحَّ عن زيد بن أرقم ﷺ أنه قال: "أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ عَلِيٌّ"^(٣). وصحَّ في شأن أبي بكر ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ"^(٤)، وهذا كالنص على أنه أول من أسلم كما رآه الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)^(٥)، وفي حديث لأبي بكر ﷺ يخاطب فيه جمعا من الصحابة فيقول: "أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا؟ أَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ؟ أَلَسْتُ صَاحِبَ كَذَا، أَلَسْتُ صَاحِبَ كَذَا؟"^(٦).

ولهذا وغيره جزم بعض العلماء بأولية إسلام أبي بكر ﷺ، وكذبوا الرواية الأخرى؛ لأنَّ عليًّا كان صغير السن آنذ، لم تجر عليه الأحكام والفرائض والحدود^(٧).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر)، جـ ٢، ص ٨٠٤، ح ٢١٧٥.

(٢) ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ١٤٩.

(٣) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب ﷺ)، جـ ٥، ص ٦٤٢، ح ٣٧٣٥، وصحح الحاكم إسناده، وأقره الذهبي، المستدرک على الصحيحين، تحقيق/ مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، جـ ٣، ص ٣٤٧. وفي أثر لابن عباس أن عليًّا ﷺ "أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ خَدِجَةَ". أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، جـ ٥، ص ٤٧٥، وضعف المحقق إسناده.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلاً)، جـ ٣، ص ١٣٣٩، ح ٣٤٦١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، ص ٣٧.

(٦) الترمذي: السنن، (كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر ﷺ)، جـ ٥، ص ٦١١، ح ٣٦٦٧، وقد رواه الترمذي من طريقين وقوى إحداهما في الصححة عن الأخرى، ورواه ابن حبان في صحيحه، جـ ١٥، ص ٢٧٩، ح ٦٨٦٣، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط فقال: "رجاله ثقات". ورواه المقدسي في الأحاديث المختارة، تحقيق/ عبد الملك دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، جـ ١، ص ١٠٠، ١٠١، ح ١٨، وقال المحقق: "إسناده صحيح".

(٧) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، جـ ١، ص ٣٤٣.

❏ دعوته إلى الإسلام وجهاده في سبيل الله:

كان أبو بكر رضي الله عنه كنزاً أدخره الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ لأنّ إسلامه أوّل تحرّك إيجابيّ في سير الرّسالة، وأوّل أثر عمليّ للدّعوة التّبليغيّة للإيمان بالله تعالى، وتصديق رسوله فيما جاء به من الحقّ والهدى، وأوّل ثمرة جنيّة ظهرت في دوحة تبليغ الرّسالة^(١).

ولقد جمع الله للصدّيق كلّ الصّفات التي يحتاجها الدّاعية إلى الإسلام، ولذلك كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته، فلمّا أسلم أظهر إسلامه، وجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف^(٢).

وبلغت ثروة أبي بكر رضي الله عنه عند بعثة النّبي ﷺ أربعين ألف درهم^(٣)، فكان يُعْتَق منها ويقوّي المسلمين حتّى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم، ثمّ كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكّة^(٤)، ومات ولم يترك ديناراً ولا درهما^(٥)، ولذا قال النّبي ﷺ في حقّه: "مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يَكْفِيهِ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِي مَالٌ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ^(٦)".

وقد شهد أبو بكر رضي الله عنه المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، واختصّ بمصاحبته للنّبي ﷺ في الهجرة المباركة^(٧)، ومرافقته له في الغار^(٨)، وأمره النّبي ﷺ بالصّلاة بالنّاس في

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، ص ٢٦.

(٢) محمد الصادق إبراهيم عرجون: محمد رسول الله ﷺ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، جـ ١، ص ٤٧٠، جـ ١، ص ٥٢٦.

(٣) ابن إسحاق: السيرة والمغازي، ص ١٤٠؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ٤، ص ١٤٧.

(٤) أبو داود: الزهد، تحقيق/ ياسر إبراهيم وآخرين، دار المشكاة، حلوان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص ٥٨. والأثر عن عروة بن الزبير بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ١٤٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ١٧٢؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٦) أبو داود: الزهد، ص ٥٨. والأثر عن عائشة بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ١٤٧.

(٧) الترمذي: السنن، وقال: "حسن غريب"، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق)، جـ ٥، ص ٦٠٩، ح ٣٦٦١.

(٨) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النّبي ﷺ وأصحابه)، جـ ٣، ص ١٤١٨، ح ٣٦٩٢.

(٩) ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ١٤٨.

حياته، ولم يسمح لأحد من الصحابة بالتقدم للإمامة في حضوره^(١)، وأمره على الناس في الحج سنة تسع من الهجرة^(٢).

علم الصديق وفننته:

كان أبو بكر رضي الله عنه أعلم الصحابة وأذكاهم^(٣)، ويدلّ على ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بآخر خطبة للنبي ﷺ^(٤)، وفيها جلس على المنبر فقال: "إِنَّ عَبْدًا خَيْرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَهُ"، فبكى أبو بكر، وقال: فدينك بآبائنا وأمّهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، وهو يقول: فدينك بآبائنا وأمّهاتنا! فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، فقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَمَنَ النَّاسَ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خَلَّةَ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْفَةٌ إِلَّا خَوْفَةُ أَبِي بَكْرٍ"^(٥).

ونصّ غير واحد من العلماء على أنه من كبار الصحابة الذين حفظوا القرآن كله^(٦)، واستدلّ أبو الحسن الأشعري (ت: ٣٣٤هـ/٩٣٦م) بتقديم النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه في الصلاة على أنه أعلم الصحابة وأقروهم، وذلك لقول النبي ﷺ: "يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمُهُمُ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً،

(١) أبو داود: السنن، (كتاب السنة، باب في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه)، جـ٤، ص٢١٥، ح٤٦٦٠؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣١، ص٢٠٣، ح١٨٩٠٦، وجود الألباني إسناده. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، جـ٢، ص٣٠٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الحج، باب لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)، جـ٤، ص١٧٠٩، ح٤٣٧٨؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الحج، باب لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)، جـ٢، ص٩٨٢، ح١٣٤٧.

(٣) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٢، ص١٩٠؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٢.

(٤) الحاكم: المستدرک، جـ٤، ص٣١٤، ح٧٧٥٦، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، جـ٣، ص١٤١٧، ح٣٦٩١؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، جـ٤، ص١٨٥٤، ح٢٣٨٢؛ الترمذي: السنن، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق)، جـ٥، ص٦٠٨، ح٣٦٦٠.

(٦) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، جـ٢، ص١٩١، ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، ومحَبّ الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، جـ٩، ص٥١؛ السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، جـ١، ص٢٤٧.

فَأَقْدَمُهُمْ هَجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهَجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا^(١)، وَعَلَّقَ الْحَافِظُ ابْنَ كَثِيرٍ فَقَالَ: "وَهَذَا مِنْ كَلَامِ الْأَشْعَرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُكْتَبَ بِمَاءِ الذَّهَبِ"^(٢).

وقد عنون الإمام البخاري - رحمه الله - (ت: ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) لباب في صحيحه بقوله: "باب: أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ"، وأدرج تحته خمسة أحاديث في تقديم النَّبِيِّ ﷺ أبا بكر للصلاة بالناس^(٣)، وعنوان البخاري يدل دلالة صريحة على أن أبا بكر ﷺ كان أعلم الصحابة بالقرآن والسنة وأفضلهم على الإطلاق.

ويدل على سبق أبي بكر ﷺ للصحابة في العلم بالسنة أنهم رجعوا إليه في غير موضع، فبرز عليهم بنقل سنن عن النَّبِيِّ ﷺ ليست عندهم، وكان يحفظها ويستحضرها عند الحاجة إليها^(٤)، وكان أبو بكر وعمر ﷺ يفتيان الناس في زمن رسول الله ﷺ^(٥)، ويؤيد هذا قول النَّبِيِّ ﷺ: "إِنِّي لَا أَدْرِي مَا بَقَائِي فِيكُمْ، فَأَقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي"، وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ^(٦).

وكان الصديق ﷺ أعلم الناس بأنساب العرب لاسيما قريش، وكان غاية في علم تعبير الرؤيا، وعرف ذلك عنه في زمن النَّبِيِّ ﷺ، كما كان أفصح خطباء أصحاب رسول الله ﷺ، وأسد الصحابة رأيا، وأكملهم عقلا^(٧).

❏ ثبات الصديق عند وفاة النَّبِيِّ ﷺ:

لقد كان وقع خبر وفاة النَّبِيِّ ﷺ شديدا على الصحابة، حتى أنكره الفاروق عمر ﷺ فقال: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ رَبَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ كَمَا أَرْسَلَ إِلَيَّ مُوسَى

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة)، جـ ١، ص ٤٦٥، ح ٦٧٣؛ وفي رواية بنفس المكان أكبرهم سنًا مكان "سلما"، والمقصود بالسلم الإسلام. وانظر: أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٨، ص ٣٢٠، ٣٢١، ح ١٧٠٩٢.

(٢) البداية والنهاية، جـ ٥، ص ٢٥٦.

(٣) (كتاب الأذان)، جـ ١، ص ٢٣٩ - ٢٤١.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٢.

(٥) رواه ابن سعد عن عبد الله بن عمر من طريق الواقدي. الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ٤٧٩.

(٦) الترمذي: السنن، وحسنه، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق ﷺ)، جـ ٥، ص ٦٠٩، ٦١٠، ح ٣٦٦٤، ٣٦٦٥؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، تحقيق/ وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ /

١٩٨٣م، جـ ١، ص ١٨٦، ح ١٩٨، وحسن الألباني إسناده الحديث. السلسلة الصحيحة، جـ ٣، ص ٢٣٥.

(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٢.

فَمَكَثَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي رِجَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُسْتَنْتَهَمِينَ يَزْعُمُونَ - أَوْ قَالَ يَقُولُونَ - إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَاتَ^(١).

وكان أبو بكر ؓ قد ظنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ برأ من مرضه لما نظر إليهم في صلاة الصَّبح وضحك إليهم يوم الاثنين الذي توفي فيه، فخرج إلى مسكنه بالسُّنْح - أعلى المدينة - فلما بلغه الخبر أقبل مسرعاً على فرسه، فلم يكلم النَّاسَ حَتَّى دخل على النَّبِيِّ ﷺ وهو مُسَجَّى بِبِرْدٍ حَبْرَةٍ^(٢)، فكشف عن وجهه، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ، ثُمَّ بَكَى فَقَالَ: "بِأَبِي أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا". ثُمَّ خرج إلى النَّاسِ وقد هالهم الأمر، فهم بين منكر ومصدق، وعمر يخطبهم منكرًا الوفاة، فأمره أبو بكر ؓ بالجلوس فأبى عليه، فتشهد فمال إليه النَّاسُ، وتركوا عمر، فقال: "أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ"، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٣)، فتلقاها منه النَّاسُ، وكأنهم لم يكونوا يعلمون أَنَّ اللَّهَ أنزلها حَتَّى تلاها أبو بكر ؓ فما يسمع بشرًّا إِلَّا يتلوها. وأمَّا عمر فهو إلى الأرض ما تقله رجلاه إذ علم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَاتَ^(٤).

وقد ظهر في هذا الموقف رجحان علم الصَّدِيق، ورباطة جأشه، وشجاعته وجراته، وقوة رأيه^(٥).

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٠، ص ٣٣٠، ٣٣١، ح ١٣٠٢٨؛ ابن حبان: الصحيح، جـ ٥، ص ٢٩٦، وصححه محققو المسند وصحيح ابن حبان.

(٢) برد حبرة: الحبرة والحبرة: ضرب من برود اليمن منمر، والجمع حبرٌ وحبرات. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ١٥٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته)، جـ ٤، ص ١٦١٨، ح ٤١٨٧.

(٥) ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٣٠، جـ ٨، ص ١٤٦.

الفصل الثاني

استخلاف أبي بكر الصديق

❏ إشارات النبي ﷺ باستخلاف أبي بكر:

تحتوي كتب السنة النبوية عدة روايات تشير إلى استخلاف النبي ﷺ لأبي بكر ؓ من بعده، ولكن العلماء يختلفون حول هذه الإشارات بين التلميح والنص الصريح، كما سيتبين من هذا العرض السريع.

فقد كان النبي ﷺ ذات يوم في مجلس مع أصحابه فقال: "إني لا أدري ما بقائي فيكم، فاقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي"، وأشار إلى أبي بكر وعمر^(١).

وجاءت امرأة إلى النبي ﷺ فسألته شيئاً، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت يا رسول الله، إن لم أجدك؟ {كأنها تعني الموت} فقال: "إِنْ لَمْ تَجِدْنِي، فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ"^(٢).

ولما بعث بنو المصطلق^(٣) أنس بن مالك ؓ إلى رسول الله ﷺ بسؤالهم له: "إِلَى مَنْ نَدْفَعُ صَدَقَاتِنَا بَعْدَكَ؟ فقال: "إِلَى أَبِي بَكْرٍ"^(٤).

وروى أبو هريرة ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلْبٍ عَلَيْهِ دَلْوٌ، فَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَنَزَعَ بِهَا ذُنُوبًا أَوْ ذُنُوبَيْنِ،

(١) الترمذي: السنن، وحسنه، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصديق)، ج ٥، ص ٦٠٩، ٦١٠، ح ٣٦٦٣، ٣٦٦٤؛ أحمد

ابن حنبل: فضائل الصحابة، ج ١، ص ١٨٦، ح ١٩٨، وحسن الألباني إسناده. السلسلة الصحيحة، ج ٣، ص ٢٣٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، ج ٦، ص ٢٦٣٩، ح ٦٧٩٤؛ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة،

باب الأحكام التي تعرف بالدلائل)، ج ٦، ص ٢٦٧٩، ح ٦٩٢٧؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل

أبي بكر الصديق ؓ)، ج ٤، ص ١٨٥٦، ح ٢٣٨٦.

(٣) بنو المصطلق: بطن من خزاعة غزاهاهم النبي ﷺ في الغزوة المعروفة بالمريسيع، وتزوج جويرية بنت سيدهم الحارث

ابن أبي ضرار فأعتق الصحابة أسراهم، فدخلوا في الإسلام. يحيى عصمت عبد العزيز هبيلة: دور خزاعة في نشر

الإسلام، من فجر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ،

ص ٧٤-٨٢.

(٤) الحاكم: المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ٨٢، ح ٤٤٦٠، وصحح الحاكم إسناده على شرط الشيخين، وأقره

ورجال هذا الحديث ثقات، ونصر بن منصور المروزي، لم يذكر فيه جرح ولا تعديل، ورجح الألباني أنه مقبول الحديث.

سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيئ على الأمة، دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م،

ج ١٣، ص ٤١٦.

(٥) القلب: البئر التي لم تطو، وقيل هي البئر القديمة العادية التي لا يعلم لها صاحب، وهي تذكر وتؤنث. ابن منظور: لسان

العرب، ج ١، ص ٦٨٩.

وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ فَلَمْ أَرْ عَبْقَرِيًّا^(١) مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بَعْطَنَ^(٢).

وَلَمَّا اشْتَدَّ الْمَرَضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ وَفَاتِهِ وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَالَ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ"، فَقَالَتْ عَائِشَةُ ؓ: "إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَأَعَادَ قَوْلَهُ ثَلَاثَ مَرَارٍ لِمَعَاوِدَتِهَا، وَزَادَ فِي الثَّالِثَةِ: "مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، فَإِنَّكَ صَوَاحِبُ يُوسُفَ"^(٣).

وَعِنْدَمَا قَدَّمَ الصَّحَابَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ فِي غِيَبَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ تَكْبِيرَهُ قَالَ: "فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ، يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ"^(٤).

وَرَوَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهَا فِي مَرَضِهِ الْأَخِيرِ: "ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ، أَبَاكَ، وَأَخَاكَ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ"^(٥).

وَلَأَهْلُ السُّنَّةِ قَوْلَانِ فِي إِمَامَةِ الصَّدِيقِ ؓ مِنْ حَيْثُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا بِالنَّصِّ الْخَفِيِّ أَوِ الْجَلِيِّ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ بِثَبُوتِ إِمَامَتِهِ بِالنَّصِّ الْخَفِيِّ وَالْإِشَارَةِ، كَمَا فِي رَوَايَةٍ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ (ت: ٢٤١هـ/٨٥٥م)، وَتَرَى طَائِفَةً أُخْرَى أَنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ ؓ ثَابِتَةٌ بِالنَّصِّ الْجَلِيِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ الظَّاهِرِيُّ (ت: ٤٥٦هـ/١٠٦٤م)، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ^(٦).

(١) العبقري: يطلق على سيد القوم وكبيرهم وشديدهم وقويهم، كما يطلق على فائق الذكاء، والمتفوق المبرز النابغة. ابن منظور: لسان العرب، جـ٤، ص٥٣٥؛ أحمد مختار عبد الحميد: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، جـ٢، ص١٤٥٢.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام)، جـ٣، ص١٣٢٩، ح٣٤٣٤؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر ؓ)، جـ٤، ص١٨٦٠، ح٢٣٩٢. وشرح الإمام الشافعي قوله: "وفي نزعه ضعف"، فقال: "قصر مدته، وعجلة موته، وشغله بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والتزيد الذي بلغه عمر في طول مدته". الأم، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، جـ١، ص١٨٩.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة)، جـ١، ص٢٤٠، ح٦٤٦؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر)، جـ١، ص٣١٦، ح٤٢٠. وقد شبهها بصواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ابن حجر: فتح الباري، جـ٢، ص١٥٣.

(٤) أبو داود: السنن، (كتاب السنة، باب في استخلاف أبي بكر ؓ)، جـ٤، ص٢١٥، ح٤٦٦؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣١، ص٢٠٣، ح١٨٩٠٦، وجود الألباني إسناده. السلسلة الصحيحة، جـ٢، ص٣٠٥.

(٥) مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ؓ)، جـ٤، ص١٨٥٧، ح٢٣٨٧.

(٦) ناصر علي عائض حسن الشيخ: عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، جـ٢، ص٥٤٧، ٥٤٨.

والناظر في مواقف الصحابة ﷺ وفي مقدمتهم بنو هاشم يراهم متفقين على أن النبي ﷺ لم يصرح بالخليفة من بعده، ويؤيد هذا أن عبد الله بن عباس ؓ أخبر "أن علي بن أبي طالب ﷺ خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإنني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إنني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإنني والله لا أسأله رسول الله ﷺ" (١).

وتؤكد هذا مواقف الصحابة ﷺ في اختيار خليفة للنبي ﷺ عقب وفاته (٢)، ولما قيل لعمر بن الخطاب ؓ: "ألا تستخلف؟ قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني، أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، رسول الله ﷺ" (٣).

وجزمت السيدة عائشة ؓ بأن رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحداً (٤)، ولما سئلت: "من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم من؟ قالت: عمر، قيل لها: ثم من؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح" (٥).

وجدير بالذكر أن أم المؤمنين عائشة ؓ هي التي أمرها النبي ﷺ أن تدعو له أباه وأخاه في مرضه الأخير ليكتب كتاباً، كما في أبين رواية يستدل بها القائلون بالنص الجلي، ولو كان عند أحد من المهاجرين والأنصار نص من النبي ﷺ على تعيين أحد بعينه للخلافة لما اختلفوا في ذلك ولا تفاوضوا فيه، وهذا قول جمهور أهل السنة، واستند من قال إنه نص على خلافة أبي بكر بأصول كلية، وقرائن حالية، تقتضي أنه أحق بالإمامة وأولى بالخلافة (٦).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته)، جـ ٤، ص ١٦١٥، ح ٤١٨٢؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤، ص ٢٠٥، ح ٢٣٧٤، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) سيأتي الحديث عنها في الفصل القادم.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، جـ ٦، ص ٢٦٣٨، ح ٦٧٩٢.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤٠، ص ٤٠٤، ح ٢٤٣٤٦، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٥) مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ؓ)، جـ ٤، ص ١٨٥٦، ح ٢٣٨٥.

(٦) القرطبي (ت: ٦٥٦هـ/١٢٥٨م): المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق/ محبي الدين ديب مسيو وآخرين، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ ٦، ص ٢٤٨؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٣٢.

وأما قول الشيعة بوصية رسول الله ﷺ لعلّي بالإمامة من بعده فهو محض افتراء، وفيه اتهام للصحابه ﷺ بالنفاق، ولو وصّى النبي ﷺ لعلّي ﷺ لكان الصديق أسرع الناس إلى تنفيذ أمره، ولما بايع عليّ أبا بكر وسكت عن الوصية، وهو الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، وكيف للصحابه جميعاً أن يتواطئوا على السكوت عن الوصية، ويظهروا غير ما يبطنون!!^(١).

❏ اجتماع الصحابة لاختيار خليفة لرسول الله ﷺ:

توفي النبي ﷺ ضحى يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من الهجرة على المشهور^(٢)، فلما علم الصحابة ﷺ بوفاة النبي ﷺ اجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ﷺ يتشاورون في ولاية أمر الأمة، وبلغهم أنّ الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، والتفوا حول سيّد الخرج سعد بن عبادة ﷺ^(٣)، فقرّروا الاجتماع بهم، لينظروا ما صنعوا^(٤)، وليدخلوهم معهم في هذا الأمر^(٥)، لأنّ لهم في هذا الحق نصيباً^(٦).

والتفكير الطبيعي يقرّر أنّ الأنصار هم السكّان الأصليّون للمدينة، وقد آووا المهاجرين ونصروا الإسلام بأرواحهم وأموالهم، وهينوا له فرص الاستقرار والانتشار، وعرفوا بإيثارهم وصبرهم وجهادهم وتضحياتهم، ولهذا فلهم الحقّ في رئاسة الدولة ورعاية الإسلام^(٧).

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، (الخلفاء الراشدون)، ص ٥٥، ٥٦.

(٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٢٧٢، ٢٧٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ، ص ٩٤. وقد جزم ابن سعد بتحديد يوم الاثنين بالثاني عشر، وأفاد ابن كثير أنّه المشهور. البداية والنهاية، ج ٦، ص ٣٣٢.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت)، ج ٦، ص ٢٥٠٣، ح ٦٤٤٢.

(٤) ابن حبان: الصحيح، ج ٢، ص ١٤٨، ح ٤١٣، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، كما قال شعيب الأرنؤوط.

(٥) ابن أبي عاصم: الأحاد والمثاني، تحقيق/ باسم فيصل الجوابرة، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ج ٣، ص ١٤، ح ١٢٩٩.

(٦) النّسائي: السنن الكبرى، تحقيق/ عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (كتاب الوفاة، باب كيف صلّي على رسول الله ﷺ)، ج ٤، ص ٢٦٣، ح ٧١١٩؛ البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج ٨، ص ٢٤٩، ح ١٦٥٤٩.

(٧) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٤٧.

ويتبين من مجموع الروايات أنّ عدد المهاجرين الذين توجهوا إلى سقيفة الأنصار كان قليلا، ويبدو أنّ أبا بكر وعمر وأبا عبيدة ؓ ذهبوا أولاً، ثمّ تلاحق بهم المهاجرون^(١).

وبالرغم من الذُهل الذي أصاب كبار الصحابة وعامة المسلمين فإن أهمية إقامة السُّلطة في الإسلام جعلتهم يتحركون في اتجاه اختيار الحاكم قبل أن ينتهوا من تشييع الجسد الشريف إلى مثواه^(٢).

وقد يقف خلف هذا التحرك السريع إدراك سادات الصحابة بخطورة الأوضاع المحيطة بالدولة الإسلامية التي لم يمض عليها عقد واحد من السنين، تأسست فيه الدولة واتسعت رقعتها وكسبت أنصارا لها داخل المدن الحجازية الثلاث خاصة، في حين بقيت القبائل الكبيرة في أعدادها والمنتشرة في البوادي والصحراء تحيط بالمراكز الإسلامية من كل مكان^(٣).

ويحكي عمر بن الخطاب ؓ ما دار بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة فيقول: "كَانَ مِنْ خَبَرِنَا حِينَ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَهُ ﷺ أَنَّ الْأَنْصَارَ خَالَفُونَا، وَاجْتَمَعُوا بِأَسْرِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَخَالَفَ عَنَّا عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا، وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاَنْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ، نَقِينَا مِنْهُمْ رَجُلَانِ صَالِحَانِ^(٤)، فَذَكَرَا مَا تَمَلَّأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ، فَقَالَا: أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقُلْنَا: نُرِيدُ إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَقْرِبُوهُمْ، اقْضُوا أَمْرَكُمْ^(٥)، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ، فَاَنْطَلَقْنَا

(١) ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٢، ص ١٥٣.

(٢) تختلف الروايات في اليوم الذي دفن فيه النبي ﷺ بين ليلة الثلاثاء وليلة الأربعاء، والراجح ليلة الأربعاء؛ فقد رواها ابن إسحاق بإسناد حسن. ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق/ مصطفى السقا وآخرين، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، جـ ٢، ص ٦٦٤؛ مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دار إمام الدعوة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، جـ ٢، ص ٢٧٨.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٦.

(٤) الرجلان هما: عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ (الأوسي)، وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ البلوي، (حليف لبني عمرو بن عوف الأوسيين). البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدر)، جـ ٤، ص ١٤٧٥، ح ٣٧٩٦.

(٥) ويدل موقف هذين الرجلين على أنّ موقف الأنصار لم يكن واحدا منذ البداية. ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٢، ص ١٥١.

حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَإِذَا رَجُلٌ مُزْمَلٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقُلْتُ: مَا لَهُ؟ قَالُوا: يُوعَكُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا قَلِيلًا تَشَهَّدَ خَطِيبُهُمْ، فَأَتَنِي عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ، وَقَدْ دَفَّتْ دَافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلَانَا، وَأَنْ يَحْضُنُونَا مِنَ الْأَمْرِ. فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ مَقَالَةً أَعْجَبْتَنِي أُرِيدُ أَنْ أَقْدِمَهَا بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي بَكْرٍ، وَكُنْتُ أَدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الْحَدِّ^(١)، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَلَى رِسْلِكَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ، فَتَكَلَّمْتُ أَبُو بَكْرٍ، فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ، وَاللَّهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبْتَنِي فِي تَرْوِيرِي، إِلَّا قَالَ فِي بَدِيعَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ، فَقَالَ: مَا ذَكَرْتُمْ فَيَكُمُ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ، وَلَنْ يُعْرِفَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا^(٢)، وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَبَايَعُوا أَبَاهُمَا شَيْئًا، فَأَخَذَ بِيَدِي وَبِيدَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا، فَلَمْ أَكْرَهُ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا، كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أَقْدَمَ فَتَضْرَبَ عُنْقِي، لَا يَقْرَبْنِي ذَلِكَ مِنْ إِيَّاهُ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوَّلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ الْمَوْتِ شَيْئًا لَا أَجِدُهُ

(١) الحد: والحدّة من الغضب. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٣، ص ١٤١.

(٢) وقد ذكرت روايات أخرى تفصيلاً لبقيّة كلام أبي بكر ﷺ، ففي رواية للإمام أحمد: " فتكلّم أبو بكر، ولم يترك شيئاً أنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم، إلا وذكره، وقال: ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: "لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ وَادِيًا، سَلَكَتْ وَادِي الْأَنْصَارِ". المسند، جـ ١، ص ١٩٩، ح ١٨، وهو مرسل صحيح عن التابعي عبد الرحمن بن حميد الحميري. ومما قال للأنصار كما رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَصَدَّعُوا الْإِسْلَامَ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ". المصنّف في الأحاديث والآثار، تحقيق/ كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، جـ ٧، ص ٤٣٢، ح ٣٧٠٤٣. وذكر ابن العربي المالكي أن أبا بكر استدل على أن أمر الخلافة في قريش بوصيّة رسول الله ﷺ بالأنصار خيراً، وأن يقبلوا من محسنهم ويتجاوزوا عن مسيئتهم، ومما احتج به أبو بكر على الأنصار قوله: إِنَّ اللَّهَ سَمَانَا (الصادقين) وسَمَاكُمْ (المفلحين) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنُ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحشر، آية: ٨-٩). وقد أمرهم أن تكونوا معنا حيثما كنا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. (سورة التوبة، آية: ١١٩). إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلة القويّة. فتذكرت الأنصار ذلك وناقذت إليه. العواصم من القواصم، تحقيق/ محب الدين الخطيب، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٦١، ٦٢.

الآن. فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ^(١): أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ^(٢)، وَعَذِيقُهَا الْمُرَجَّبُ^(٣)، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ^(٤). فَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، حَتَّى فَرَّقَتْ مِنَ الْاِخْتِلَافِ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتُهُ، وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ بَايَعْتُهُ الْأَنْصَارُ. وَتَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقُلْتُ: قَتَلَ اللَّهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ^(٥)، قَالَ عُمَرُ: وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا فِيهَا حَضَرًا مِنْ أَمْرِ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ، خَشِينَا إِنْ فَارَقْنَا الْقَوْمَ وَلَمْ تَكُنْ بَيْعَةً أَنْ يَبَايَعُوا رَجُلًا مِنْهُمْ بَعْدَنَا، فِيمَا بَايَعْنَاهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى، وَإِمَّا نُخَالِفُهُمْ فَيَكُونُ فَسَادٌ، فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَتَابِعْ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ، تَغَرَّةٌ^(٦) أَنْ يُقْتَلَ^(٧).

وكان عمر رضي الله عنه قد دُلَّ على تقديمه لأبي بكر رضي الله عنه بدلائل مقنعة فقال للصديق عندما عرض على الأنصار مبايعة عمر، أو أبي عبيدة بن الجراح: "بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"^(٨)، وقال للأنصار قبل أن يبايع أبا بكر: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَوْمَّ النَّاسِ؟ فَأَيْكُمْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ؟ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ"^(٩).

(١) صرحت رواية أخرى للبخاري بأن الحباب بن المنذر رضي الله عنه هو صاحب هذه المقولة. صحيح البخاري، (كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا")، ج ٣، ص ١٣٤١، ح ٣٤٣٧.

(٢) جذيلها المحكك: هو عود ينصب للجرباء من الإبل لتحك به، وأراد أنه يستشفى برأيه كما تستشفى الإبل الجربى بالاحتكاك. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٠، ص ٤١٣.

(٣) عذيقها المرجب: هو أن تُعَدَّ النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها وكثرة حملها أن تقع، ويقصد بقوله أن له عشيرة تمنعه وتعضده، وترفده. المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٢.

(٤) كان رد أبي بكر صريح على هذا العرض فقال: "لَا، وَلَكِنَّا الْأَمْرَاءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ". صحيح البخاري، (كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا")، ج ٣، ص ١٣٤١، ح ٣٤٦٧. كما كان لعمر رضي الله عنه عليه فقال: "سَيِّفَانِ فِي غَمَدٍ وَاحِدٍ إِذَا لَا يَصْلُحَانِ". رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح. المصنف، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، ج ٥، ص ٤٤٤.

(٥) دفع الله شره.

(٦) تغرة: خوفًا وحذرًا من نقائلهما. ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٣.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت)، ج ٦، ص ٢٥٠٣، ح ٦٤٤٢.

(٨) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا")، ج ٣، ص ١٣٤١، ح ٣٤٣٧.

(٩) النسائي: السنن الصغرى، تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية،

١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، (كتاب الإمامة، باب ذكر الإمامة والجماعة: إمامة أهل العلم والفضل)، ج ٢، ص ٧٤، ح ٧٧٧؛

أحمد بن حنبل: المسند، ج ١، ص ٢٨٢، ح ١٣٢، وقد حسنه ابن حجر: فتح الباري، ج ١٢، ص ١٥٣.

وخاطب الفاروق عمرُ الأنصار بين يدي أبي بكر ﷺ فقال: "من له مثلُ هذه الثلاثة: «ثَانِيَانِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»^(١)، من هما؟ ثم بسط يده فبايعه، وبايعه النَّاسُ بيعةً حسنةً جميلةً"^(٢).

وانتهى ما عزم عليه الأنصار في بداية اجتماعهم وسلّموا للمهاجرين، وبايعوا أبا بكر ﷺ عن طيب خاطر، وكان لكتاب الوحي زيد بن ثابت الخزرجي ﷺ موقفٌ مشرفٌ في مؤتمر السقيفة، فإنّه لما رأى تتابع خطباء الأنصار في عرض فكرة ولاية رجلين معاً قام فقال: "إنَّ رسولَ الله ﷺ كان من المهاجرين، وإنَّ الإمامَ إنّما يكون من المهاجرين، ونحن أنصارُه كما كنّا أنصار رسول الله ﷺ"، فقام أبو بكر، فقال: "جزاكم الله خيراً من حيٍّ يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم"^(٣).

وقد وردت عدّة روايات تفيد أنّ المهاجرين احتجّوا على الأنصار بحديث "قُرَيْشٌ وُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ"، ولكن يبدو أنّ الحديث لم يخطر على بالهم، لأنّه كان سيقطع الأمر لصالح المهاجرين دون استمرار الحوار^(٤).

وأما ما ينسب إلى سعد بن عبادة ﷺ بأنّه لما طلبت منه البيعة لأبي بكر ﷺ قال للمهاجرين: "لا والله، حتّى أرميكم بما في كنانتي، وأخضب سنان رمحي، وأضرب بسيفي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني، ولو اجتمع معكم الجنُّ والأُنسُ ما بايعتكم حتّى أعرض على ربّي، وأعلم ما حسابي"، وأنّه كان "لا يصلي بصلاتهم، ولا يجمع معهم، ولا يحجّ، ولا يفيض معهم بإفاضتهم"^(٥)، فهو خبرٌ مفترى من قبل لوط بن يحيى الأزديّ الشّهير بكنيته أبي مخنف، وهو أخباري تالف^(٦)، وشيعي محترق^(٧)، ولا يعتمد عليه في مثل هذا الموطن.

(١) سورة التوبة: من الآية ٤٠.

(٢) الترمذي: الشمائل المحمدية، المكتبة التجارية، مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٣م، ص ٣٣٦، وإسناده صحيح. الألباني: مختصر الشمائل المحمدية، المكتبة الإسلامية، الأردن، ص ١٩٨-٢٠٠، ح ٣٣٣.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج ٣٥، ص ٤٨٩، ح ٢١٦١٦، وقال المحققون: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٩.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٦) الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق/ علي محمد البجّاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/

١٩٦٣م، ج ٣، ص ٤١٩.

(٧) ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية،

بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٧، ص ٢٤١.

والظاهر أن سعد بن عبادة ؓ لما رأى الأتصار قد أعدته للخلافة يوم السقيفة، ثم رأى إجماع الصحابة ؓ على أبي بكر ؓ وانصرافهم عن البيعة له استوحش نفسه بين الناس، وكان سعد رجلاً عزيز النفس، فخرج من المدينة ولم يرجع إليها حتى مات، ولم ينقل عنه طعن في بيعة الصديق ولا نواء بخروج، فتخلفه عن البيعة لا يقتضي رفضه لها ولا مخالفته فيها^(١).

وقد بايع الحباب بن المنذر الذي كان متحمساً لإمارة قومه للصديق، ولكنه في فورة ثورته وغضبه كان يحمل الاعتذار لسادة المهاجرين فيقول: "فإنا والله ما ننفسُ عليكم هذا الأمر، ولكننا نخاف أن يليها أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم"^(٢)، ويؤيد هذا نصّ الصحيح، فقد قال خطيب الأتصار لأبي بكر ورفاقه: "وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر"^(٣).

ويتحصّل من أقوال جمهور الأتصار في بدء اجتماع السقيفة أنهم نظروا إلى الخلافة من زاوية محدودة بظروف المجتمع المدني والعلاقة التاريخية بين المهاجرين والأتصار، أما المهاجرون فنظروا نظرة واسعة على مستوى الدولة كلّها وما يترتب على خروج السلطنة عن قريش من عواقب كبيرة؛ لأنّ العرب يمكن أن ترضى بقيادة قريش لمكانتها فيهم، أما لو تولّاها الأتصار فقد تقع انشقاقات خطيرة تؤدي إلى تفكك الدولة الإسلامية^(٤)، كما يدلّ عدول الخزرج عن فكرتهم إلى اتّباعهم للحق ومراعاتهم للمصلحة الإسلامية، ولم يكن تنازلهم بسبب عدم رغبة الأوس في توليهم الخلافة^(٥).

وهكذا تمت مبايعة أبي بكر الصديق ؓ خليفة لرسول الله ﷺ من غالية أهل الحلّ والعقد وعامة المسلمين من المهاجرين والأتصار، ولم يتخلف عنها إلا عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام في ثلثة آخرين، وبويع أبو بكر ببيعة العامة في يوم الثلاثاء من غد وفاة رسول الله ﷺ^(٦).

(١) محمد الطاهر بن عاشور: نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم، ص ٣٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ١٨٢، وهو مرسل صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج ١٢، ص ١٥٣.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت)، ج ٦، ص ٢٥٠٣، ح ٦٤٤٢.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٥٠. والقول بعدم رغبة الأوس في تولي الخزرج للخلافة هو زعم أبي مخنف الشيعي.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٠.

وكان أبو بكر وعمر وسائر الصحابة معذورين في تقديمهم البيعة على دفن رسول الله ﷺ؛ لأنهم رأوا المبادرة بها من أعظم مصالح المسلمين، وخافوا من تأخيرها حصول خلاف ونزاع تترتب عليه مفسدٌ عظيمةٌ، وحتى لا يقع نزاع في مدفن النبي ﷺ أو كفنه أو غسله أو الصلاة عليه أو غير ذلك وليس لهم من يفصل الأمور^(١).

ويتحصّل من استعراض الروايات الصحيحة لمؤتمر السقيفة ومبايعة الصديق بالخلافة أنّ الاجتماع لم يدم طويلاً، ولم تجر فيه مناقشات طويلة بين المهاجرين والأنصار، ولم يحدث صراع على تولي الخلافة، أو تهديدات، أو عراك بالأيدي، كما صورته بعض الروايات الضعيفة التي تناقلها المؤلّفون المعاصرون فشوّها الصورة الوضاعة لذلك الاجتماع التاريخي الرفيع والذي قرّر مصير الخلافة والدولة الإسلامية بحزم وترفع وإحساس كبير بالمسؤولية يستعلي على التفاهات والأهواء^(٢).

❏ المتخلفون عن بيعة الصديق ﷺ في السقيفة:

عرفت بيعة أبي بكر في السقيفة بالبيعة الخاصة، وكانت يوم وفاة النبي ﷺ، وخرج الصديق في اليوم التالي (الثلاثاء) إلى المسجد فبايعه الناس "البيعة العامة"^(٣). وقد نصّت رواية الصحيح على تخلف عليّ والزبير في جماعة آخرين عن مجلس شورى المهاجرين الذين اجتمعوا للتشاور في ولاية أمر الأمة، وكذلك عن اجتماع سقيفة بني ساعدة الذي جمع المهاجرين بالأنصار^(٤)، وهذا قاطع في عدم حضور عليّ والزبير بيعة أبي بكر في مؤتمر السقيفة.

وتتضارب أقوال الرواة بعد ذلك في مبايعة علي لأبي بكر في أوّل خلافته، أو بعد ستة أشهر، بعد وفاة السيّد فاطمة ؓ.

وقد حدّثت السيّد عائشة ؓ: "أنّ فاطمة بنت النبي ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأل ميراثها من رسول الله ﷺ ممّا أفاء الله عليه بالمدينة، وفدك، وممّا بقي من خمس

(١) النووي: شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، جـ ١٢، ص ٧٧، ٧٨.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥١.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٢.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت)، جـ ٦، ص ٢٥٠٣، ح ٦٤٤٢؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٤٤٩، ح ٣٩١.

خَيْرٌ^(١)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَا نُورُثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا الْمَالِ"^(٢)، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا، فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ، فَهَجَرَتْهُ فَلَمْ تَكَلِّمْهُ حَتَّى تُوَفِّيَتْ، وَعَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَلَمَّا تُوَفِّيَتْ دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِيٌّ لَيْلًا، وَلَمْ يُؤْذَنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا، وَكَانَ لِعَلِيِّ مِنَ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ^(٣)، فَلَمَّا تُوَفِّيَتْ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وَجُوهَ النَّاسِ^(٤)، فَالْتَمَسَ مُصَالِحَةَ أَبِي بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَبَايِعُ تِلْكَ الْأَشْهُرَ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ: أَنْ ائْتِنَا وَلَا يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ، كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ^(٥)، فَقَالَ عُمَرُ: لَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا عَسَيْتُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي، وَاللَّهِ لَا تَيْتُهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، فَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ وَمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، وَلَمْ نَنْفُسْ عَلَيْكَ خَيْرًا سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّكَ اسْتَبَدَدْتَ عَلَيْنَا بِالْأَمْرِ، وَكُنَّا نَرَى لِقَرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَصِيبًا، حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِقَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي، وَأَمَّا الَّذِي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمُوالِ، فَلَمْ أَلْ فِيهَا عَنِ الْخَيْرِ، وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلَّا صَنَعْتُهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِأَبِي بَكْرٍ: مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةَ^(٦) لِلْبَيْعَةِ، فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَقِيَ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَتَشَهَّدَ، وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيٍّ وَتَخَلَّفَهُ عَنِ الْبَيْعَةِ، وَعَذَرَهُ بِالَّذِي اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ، فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ، وَحَدَّثَ: أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الَّذِي صَنَعَ

(١) روى أبو داود بإسناد حسن أن عمر رضي الله عنه كان يقول: "كانت لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا بنو النضير، وخيبر، وفدك، فأما بنو النضير فكانت حُبسًا لنوائبه، وأما فدك فكانت حُبسًا لأبناء السبيل، وأما خيبر فجزأها رسول الله ﷺ، ثلاثة أجزاء، جزأين بين المسلمين، وجزءًا نفقةً لأهله، فما فضل عن نفقة أهله جعله بين فقراء المهاجرين". سنن أبي داود، (كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال)، جـ ٣، ص ١٤١، ح ٢٩٦٧.

(٢) أي يأكل آل محمد ﷺ بعض هذا المال، وبقيته لمصالح المسلمين. ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٢، ص ٧.

(٣) أي كان الناس يحترمونه إكرامًا لفاطمة، فلما ماتت واستمر على عدم الحضور عند أبي بكر قصر الناس عن ذلك الاحترام لإرادة دخوله فيما دخل فيه الناس. ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٤٩٤.

(٤) كأنهم كانوا يعذرونه في التخلف عن أبي بكر في مدة حياة فاطمة لشغله بها، وتمريضها، وتسليتها عما هي فيه من الحزن على أبيها ﷺ، ولأنها لما غضبت من رد أبي بكر عليها فيما سألته من الميراث رأى عليٌّ أن يوافقها في الانقطاع عنه. ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٤٩٤.

(٥) يرجع السبب في ذلك إلى ما ألفوه من قوة عمر وصلابته في القول والفعل، وكان أبو بكر رفيقًا لنا، فكأنهم خشوا من حضور عمر كثرة المعاتبة التي قد تفضي إلى خلاف ما قصدوه من المصافاة. ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٤٩٤.

(٦) موعدك العشية: أي بعد الزوال. ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٤٩٥.

نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَلَا إنْكَارًا لِلَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ، وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ نَصِيبًا، فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا، فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا، فَسَرَّ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَالُوا: أَصَبْتَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا^(١)، حِينَ رَاجَعَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ^(٢).

وقد استدلل بعض شراح الصحيحين بهذا الحديث على تأخر مبايعة عليٍّ ﷺ لأبي بكر ﷺ ستة أشهر^(٣)، وهو ما تناقضه رواية لأبي سعيد الخدري ﷺ تنص على أن أبا بكر صعد المنبر -بعد السقيفة- "فَنَظَرَ فِي وَجُوهِ الْقَوْمِ فَلَمْ يَرَ الزُّبَيْرَ، فَدَعَا بِهِ فَجَاءَ فَقَالَ: قُلْتُ ابْنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَوَارِيَّهُ، أَرَدْتُ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ: لَا تَتْرِيبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَ فَبَايَعَهُ، ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجُوهِ الْقَوْمِ فَلَمْ يَرَ عَلِيًّا، فَدَعَا بِهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: قُلْتُ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنُهُ عَلَى ابْنَتِهِ، أَرَدْتُ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: لَا تَتْرِيبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعَهُ"^(٤).

ومما يؤكد صحة هذه الرواية أن عليًّا ﷺ صلى العصر خلف أبي بكر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ لبليال، ثم انصرفا يتماشيان معا بعد الصلاة، فوجد أبو بكر الحسن بن علي يلعب مع غلمان، فأحتمله على رقبتة وهو يقول: "بِأَبِي شَيْبَةَ النَّبِيِّ، لَيْسَ شَبِيبًا بِعَلِيٍّ، وَعَلِيٌّ يَضْحَكُ"^(٥).

(١) أي وُدَّهم له. ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص ٤٩٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، جـ٤، ص ١٥٤٩، ح ٣٩٩٨؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقةً)، جـ٣، ص ١٣٨٠، ١٣٨١، ح ١٧٥٩.

(٣) النووي: شرح صحيح مسلم، جـ١٢، ص ٧٧، ٧٨؛ البدر العيني: عمدة القاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، جـ١٧، ص ٢٥٩.

(٤) هذه رواية البيهقي من طريق محمد بن إسحاق بن خزيمة، وعلق عليه الحافظ ابن كثير فقال: "هذا إسناد صحيح محفوظ". البداية والنهاية، جـ٥، ص ٢٧٠، وروى البيهقي عن أبي علي الحافظ أنه قال: "سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنَ خُزَيْمَةَ يَقُولُ: جَاءَنِي مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ فَسَأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، فَكَتَبْتُ لَهُ فِي رُفْعَةِ وَقَرَأْتُهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ يَسُوَّى بِذَنَّةٍ، بَلْ يَسُوَّى بِدُرَّةٍ!". السنن الكبرى، جـ٨، ص ٢٤٦، ح ١٦٥٣٩، ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي. المستدرک، جـ٣، ص ٨٠، ح ٤٤٥٧؛ ورواه البيهقي من طريق شيخه الحاكم في الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تحقيق/ أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ص ٣٥٠، وصحح الصالح إسناده البيهقي بطريقه عن شيخه الحاكم، وابن خزيمة. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، جـ١٢، ص ٣١٦، وأشار ابن حجر لحديث أبي سعيد الخدري، وذكر أن ابن حبان وغيره ممن صححوا الحديث. فتح الباري، جـ٧، ص ٤٩٥.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص ٢١٣، ح ٤٠، وصحح المحققون إسناده على شرط البخاري.

وجمع ابن كثير وابن حجر (ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) بين الأحاديث الصحيحة بأن علياً بايع أول الأمر مع الناس، ثم بايعه بعد وفاة فاطمة تأكيداً للأولى وإزالة لما حدث من جفوة بسبب الاختلاف حول الميراث^(١).

ويرى البيهقي (ت: ٤٥٨هـ/١٠٦٦م) أن النص الذي يتضمن تخلف عليٍّ عن مبايعة الصديق أبي بكر ستة أشهر ليس من قول عائشة، إنما هو من قول الزهري، فأدرجه بعض الرواة في الحديث في قصة فاطمة، وحفظه معمر بن راشد فرواه مفصلاً، وجعله من قول الزهري منقطعاً من الحديث^(٢)، ورجح أن الزهري أراد قعوده عنها بعد البيعة، ثم نهوضه إليها ثانياً، وقيامه بواجباتها^(٣).

ويعجبني ما ذهب إليه البيهقي؛ لأن نص رواية الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها لا يمنع قيام عليٍّ بمبايعة الصديق في البيعة العامة، ففي الرواية: "وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الْأَشْهُرَ"، بلفظ المضارع الذي يتكرر باستمرار، مما يدل على أن المقصود منه الحضور عند الخليفة؛ لأن المبايعة لا تطلب أكثر من مرة، ويتضح المعنى من ختام الرواية: "وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا، حِينَ رَاجَعَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ"^(٤)، فهذه الجملة تفيد بأن علياً رضي الله عنه رجع إلى أمر فعله مع الصديق قبل ذلك. وفي رواية معمر عند الإمام مسلم (ت: ٢٦١هـ/٨٧٥م): "حِينَ قَارَبَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ"^(٥)، وهذا أدل على أن الذي رجع إليه عليٌّ وقاربه لم يكن في أصل البيعة بالخلافة، بل الحضور عند أبي بكر والقرب منه.

ولذا قال ابن حجر: "فيحمل قول الزهريّ "لَمْ يُبَايِعْ عَلِيٌّ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ" على إرادة الملازمة له والحضور عنده وما أشبه ذلك، فإن في انقطاع مثله عن مثله ما يوهم من لا يعرف باطن الأمر أنه بسبب عدم الرضا بخلافته، فأطلق من أطلق ذلك، وبسبب ذلك أظهر عليّ المبايعة التي بعد موت فاطمة لإزالة هذه الشبهة"^(٦).

(١) البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٧٠؛ فتح الباري، ج٧، ص ٤٩٥؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٤.

(٢) السنن الكبرى، ج٦، ص ٤٨٩.

(٣) البيهقي: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، ص ٣٥٢.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، ج٤، ص ١٥٤٩، ح ٣٩٩٨.

(٥) الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة)، ج٣، ص ١٣٨١، ح ١٧٥٩؛ أحمد بن

حنبل: فضائل الصحابة، ج١، ص ٣٦٢، ح ٥٣١.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص ٤٩٥.

وربما تكون البيعة الثانية لم تحدث أصلاً؛ لأنّ في رواية معمر: "فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ انْصِرَافَ وَجْهِ النَّاسِ عَنْهُ، أَسْرَعَ إِلَى مُصَالِحَةِ أَبِي بَكْرٍ"^(١)، ولا ذكر للبيعة. ولأجل اختصاص علي عليه السلام بأمر فاطمة رضي الله عنها فلم يذكر شيء في رواية الصحيحين عن الزبير بن العوام عليه السلام وهل بايع ثانية أم لا، وكذلك من تخلف من بني هاشم عن مؤتمر السقيفة.

وبعد هذه الجولة مع روايات المحدثين وأقوال العلماء يظهر للمتأمل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم ينصّ على الخلافة عينا لأحد من الناس، لا لأبي بكر، كما تقوله طائفة من أهل السنة، ولا لعلي كما زعمته طائفة من الرافضة، ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق عليه السلام^(٢).

ولم يحدّد القرآن الكريم نظاماً معيناً لاختيار الخلفاء، ولم يشر الرسول صلى الله عليه وآله إلى مثل ذلك^(٣)، غير أنّ انتخاب أبي بكر عليه السلام للخلافة يوضّح استعلاء قيم الإيمان وخضوع مقاييس الشخصيّة لها، لأنّ أبا بكر عليه السلام من بني تيم، وهم من أضعف عشائر قريش^(٤).

(١) عبد الرزاق: المصنّف، (كتاب المغازي، باب خصومة عليّ والعباس)، جـ ٥، ص ٤٧٢، ٤٧٣، ح ٩٧٧؛ أبو عوانة: مستخرج أبي عوانة، تحقيق/ أيمن عارف الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، جـ ٤، ص ٢٥١؛ المروزي: مسند أبي بكر الصديق، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٨٨. ولفظ أبي عوانة والمروزي: "فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ انْصِرَافَ وَجْهِ النَّاسِ عَنْهُ ضَرَعَ إِلَى مُصَالِحَةِ أَبِي بَكْرٍ".

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٥، ص ٢٧٠.

(٣) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، (الخلفاء الراشدون)، ص ٥٧، ٥٨.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٣.

الفصل الثالث

منهج أبي بكر الصديق في الحكم

لم تكن الخلافة عند الصديق ﷺ مغنماً يستغله في الإكثار من الثروة، ولا جاهاً يستطيل به على الناس، بل كان ﷺ يكره الإمارة، ولولا المسؤولية ما تولّاها، ولذلك قال في البيعة العامة: "وَاللّٰهُ مَا كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الْإِمَارَةِ يَوْمًا وَلَا لَيْلَةً قَطُّ، وَلَا كُنْتُ فِيهَا رَاغِبًا، وَلَا سَأَلْتُهَا اللَّهَ ﷻ فِي سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ، وَلَكِنِّي أَشْفَقْتُ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَمَا لِي فِي الْإِمَارَةِ مِنْ رَاحَةٍ، وَلَكِنْ قُلْدْتُ أَمْرًا عَظِيمًا مَا لِي بِهِ مِنْ طَاقَةٍ وَلَا يَدٍ إِلَّا بِتَقْوِيَةِ اللَّهِ ﷻ وَلَوْ دِدْتُ أَنَّ أَقْوَى النَّاسِ عَلَيْهَا مَكَانِي الْيَوْمَ"^(١)، ولهذا حدّد منهجه الذي سيسير عليه منذ البداية، ووضع الدستور الذي يحدّد العلاقة بينه وبين الرعية.

إعلان أبي بكر ﷺ لمنهجه:

لَمَّا بَويعَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ الْبَيْعَةَ الْعَامَّةَ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيفَةِ، خُطِبَ النَّاسُ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصَّدَقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى أَخْذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدْعُ قَوْمُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرْبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قَوْمُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ"^(٢).

وقد تضمنت هذه الخطبة الوجيزة علاقة الحاكم بالمحكومين، فبين الصديق أن مجيئه للخلافة بإرادة الأمة وبتعاقد واضح، الطاعة من الناس مقابل التزام الحاكم بالشريعة، ورقابة الأمة على سياسته، وإعانتة في الخير، وتصحيح سياسته إذا انحرف، وأكد على مبدأ العدل والمساواة بين الناس، كما فيها بيان الالتزام بإقامة العدل والجهاد وتنظيف المجتمع من الانحراف الخلقي، بالإضافة إلى ما تكشف عنه مقدمة الخطبة من تواضع الصديق الجسم^(٣).

(١) الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، ج٣، ص٧٠، ح٤٤٢٢، وقد صححه الحاكم علی شرط الشیخین، وأقرّه الذهبي، ورواه البيهقي. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد علی مذهب السلف وأصحاب الحديث، ص٣٥٠، ٣٥١.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٦٦١؛ معمر بن راشد: الجامع، (منشور كملحق لمصنف عبد الرزاق)، ج١١، ص٣٣٦، ح٢٠٧٠٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٣٧؛ وصح ابن كثير إسناده هذه الخطبة. البداية والنهاية، ج٥، ص٢٦٩.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٥٣.

وقد تعرّض الصّدّيق ﷺ للاختبار العمليّ فيما قطعه على نفسه من مبدأ خلافته إلى منتهائها، فأصرّ إصراراً شديداً على تنفيذ منهجه على أتم صورة إلى أن لقي الله، ويتبيّن ذلك من خلال العرض الآتي:

أولاً: التمسك بسنن النبي ﷺ:

يتّضح من سيرة أبي بكر ﷺ أنّه كان حريصاً أشدّ الحرص أثناء خلافته على اتّباع سنن النبي ﷺ وظهر ذلك في سياسته منذ اليوم الأوّل لخلافته وحتى لقي الله، وها هي بعض النماذج التي توضّح ذلك.

(١) بعث أسامة بن زيد ﷺ:

كان رسول الله ﷺ قبيل وفاته قدّ جهّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء الأردنيّة^(١)، والداروم^(٢)، الفلسطينيّة^(٣)، حيث موضع مقتل أبيه^(٤)، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: "إِنْ تَطَعْنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعُونَنِي فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيفًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ، وَإِنْ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ بَعْدَهُ"^(٥)، فتجهّز الناس عند ذلك، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأوّلون^(٦).

ومرض رسول الله ﷺ بعد البدء في تجهيز الجيش واشتدّ وجعه، في الوقت الذي عسكر أسامة ﷺ بالجرف^(٧)، في ثلاثة آلاف^(٨)، فأوصى النبي ﷺ بإنفاد البعث^(٩).

(١) البلقاء: إقليم بالأردن، وهو الذي تتوسطه العاصمة الأردنيّة عمّان. عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٤٩.

(٢) الداروم: كانت تقع على الطريق بين غزّة ومصر، وهي قريبة من غزّة، ولا توجد الداروم اليوم في فلسطين ولا في الأردن. عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ١٢٥.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٠٦.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٩٠.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة زيد بن حارثة)، ج ٣، ص ١٣٦٥، ح ٣٥٢٤؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد)، ج ٤، ص ١٨٨٤، ح ٢٤٢٦.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٠٦، ٦٤٢.

(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٥٠؛ أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٨) الواقدي: المغازي، تحقيق/ مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ج ٣، ص ١١٢٢. وانفرد الواقدي بتقدير العدد. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٩) رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٥٣؛ ورواه موسى بن عقبة بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر. ابن قاضي شهبة: أحاديث منتخبة من مغازي موسى بن عقبة، تحقيق/ مشهور حسن سلمان، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص ٨٢.

وتغيرت الأحوال عقب وفاة رسول ﷺ واستخلاف أبي بكر، حيث "كفر من كفر من العرب"^(١)، حتى قالت عائشة ؓ: "قبض النبي ﷺ فارتدت العرب، واشرب النفاق بالمدينة، فلو نزل بالجلال الرواسي ما نزل بأبي لهاضها"^(٢)، وصار المسلمون "كالغنم في الليلة المطيرة الشتائية، لفقد نبيهم ﷺ وقتلهم، وكثرة عدوهم"^(٣).

ودخل أسامة وجيشه المدينة عند وفاة النبي ﷺ، فلما بويع أبو بكر ﷺ أمر بخروج البعث^(٤)، فعرض عليه أسامة البقاء في المدينة حتى تستقر الأمور، فرفض الصديق وقال: "ما كنت لأستفتح بشيء أولى من إنفاذ أمر رسول الله ﷺ؛ ولأن تخطفني الطير أحب إلي من ذلك"^(٥).

ولما راجع بعض الصحابة^(٦) أبا بكر ﷺ في قراره بحجة انتقاض العرب عليه، وأنه يفرق الناس عنه، أصر على أن تستمر الحملة العسكرية في تحركها إلى الشام مهما كانت الظروف والأحوال والنتائج، وقال: "والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع أكلتني بهذه القرية لأنفذت هذا البعث الذي أمر رسول الله ﷺ بإنفاذه"^(٧).

وأسرع أبو بكر ﷺ لحسم هذا التردد فخرج إلى معسكر المسلمين، فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامه راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فاعترض أسامة ﷺ على مشي خليفة رسول الله ﷺ وقال: "والله لتركبن أو لأزلن"! ولكن الصديق أصر على المشي وقال: "والله لا تنزل، والله لا أركب! وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة"^(٨).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ)، جـ ٦، ص ٢٦٥٧، ح ٦٨٥٥؛

مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله)، جـ ١، ص ١٥، ح ٢٠.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ص ٩٨، ح ٦٨؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٤٣٤، وإسناده الأثر صحيح.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٤٥؛ من طريق الأخباري المجروح سيف بن عمر التميمي. وانظر ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٦، ص ٣٣٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ١٩١.

(٥) رواه عروة بن الزبير مرسلًا. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٠.

(٦) كان أشد الصحابة على الصديق في أمر بعث أسامة عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة. الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،

١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، جـ ٢، ص ٨٩.

(٧) من رواية منقطعة لابن إسحاق. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٠، ١٠١.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٤٦. من طريق سيف بن عمر.

وأحسن الخليفة أنه بحاجة إلى وجود عمر بن الخطاب ؓ بالمدينة ليستفيد من رأيه وخبرته في مواجهة المرتدين فاستأذن أسامة في بقاءه، فأذن له^(١)، وفي هذا احترام شديد من الصديق لتنفيذ البعث على صورته التي انفصل عليها من المدينة في حياة النبي ﷺ، كما أنه يحترم أمراءه، ولا يتدخل في ما يخصهم بالأمر والنهي مع استطاعته ذلك. وأمر الصديق أسامة أن يصنع ما أمره به النبي ﷺ، وأن يبدأ ببلاد قضاة، ثم يأتي آبل^(٢)، ولا يقصرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ^(٣).

ومضى أسامة ؓ حتى بثّ الخيول في قبائل قضاة، وأغار على آبل، فسلم وغنم، وعاد إلى المدينة بعد أربعين يوماً^(٤)، ولم يصب من المسلمين أحد^(٥).

وأثبتت الأيام والأحداث صواب رأي الصديق، فقد كان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين داخل الجزيرة العربية وخارجها؛ لأنّ العرب قالت: "لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفّوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه"^(٦)، وكان له أثر بالغ في رفع معنويات المسلمين وإضعاف معنويات المنافقين والمرتدين^(٧)، ونقلت المخابرات البيزنطية نبأ وفاة النبي ﷺ على هرقل وإغارة أسامة في ناحية أرضه خبراً واحداً، فقالت الروم: "ما بالي هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا"^(٨).

وغدا الروم في خوف من المسلمين على حدودهم، فأرسلوا جيشاً للمرابطة بالبلقاء، فلم يزل مقيماً حتى قدمت البعوث إلى الشام في خلافة أبي بكر وعمر^(٩).

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٠.

(٢) آبل: موضع بالأردن من مشارف الشام. ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج ١، ص ٥٠.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٤٦. من طريق سيف.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٤٦، ويقال بأنّ جيش أسامة غاب عن المدينة سبعين يوماً، ولكن الطبري يقلل من صحته. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٣، وقوله جيد؛ لأنّ أسامة وأصحابه كانوا في خوف شديد من هجوم الأعراب المرتدين على المدينة، وهذا يدفعهم للنشاط في أداء مهمتهم وإنجازها في أسرع وقت.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٩١.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ٢، ص ١٩٦.

(٧) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، (الخلفاء الراشدون)، ص ٦٤.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ٦٧.

(٩) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ١١٢٤؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٩٢.

وكان من فوائد هذا الجيش في حروب الردّة أن أمست جبهة الشمال أضعف الجبهات، ولعلّ من آثار هذا أن كسر الروم على جبهة الشام في وقت الفتوحات كان أهون على المسلمين من كسر جبهة العدو في العراق، وكل ذلك يؤكّد أن أبا بكر ؓ كان في الأزمات أثقّب الصحابة نظراً، وأعمقهم فهماً^(١).

وصدقت عائشة ؓ عندما وصفت الخلاف الذي حدث بين أبي بكر ؓ والمسلمين فقالت: "فَوَاللَّهِ مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ نَقْطَةً إِلَّا طَارَ أَبِي بَعْلِيَّاهَا وَغَنَائِهَا"^(٢).

(٢) ميراث السيدة فاطمة:

لم يكن موقف أبي بكر ؓ من بعث جيش أسامة ؓ هو الوحيد الذي اختلف فيه مع بعض الصحابة، فقد جاءته فاطمة ؓ تطلب ميراثها من رسول الله ﷺ كما مرّ، ولكن الصديق أبي أن يدفع إليها شيئاً، محتجاً بقول النبي ﷺ "لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا الْمَالِ"، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئاً مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمَلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، "فَوَجَدْتُ فَاطِمَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ، فَهَجَرْتُهُ فَلَمْ تَكَلِّمْهُ حَتَّى تُوَفِّيَتْ"^(٣)، ولم تؤثر قرباتها وغضبها عليه في زحزحته عن الحق الذي رآه واقتنع به، وقال: "وَاللَّهِ لَا أَدْعُ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهِ إِلَّا صَنَعْتُهُ"^(٤)، وعلل الصديق تمسكه برأيه باتّباعه لرسول الله ﷺ بقوله: "فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَرَكْتُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أُزَيِّغَ"^(٥).

(٣) جمع القرآن الكريم:

استشهد كثير من حفاظ القرآن الكريم تحت راية خالد بن الوليد ؓ في حرب مسيلمة الكذاب باليمامة^(٦)، فأشار الفاروق عمر ؓ على الصديق بجمع القرآن؛ لنلا يضيع شيء من سوره وآياته مع استشهاد مزيد من حفظة القرآن الكريم، فأبدى الصديق خوفه من الإقدام على مثل هذا الأمر الذي لم يحدث في حياة النبي ﷺ.

(١) علي العنّوم: حركة الردّة، مكتبة الرسالة الحديثة، عمّان، الأردن، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص ١٦٨؛ علي محمد محمد الصلابي: أبو بكر الصديق، ص ١٨٨.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ص ٩٨، ح ٦٨؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٧، ص ٤٣٤، وإسناد الأثر صحيح.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، ج ٤، ص ١٥٣٦، ٣٩٩٨م؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة)، ج ٣، ص ١٣٨٠، ١٣٨١، ح ١٧٥٩.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة)، ج ٦، ص ٢٤٧٤، ح ٦٣٤٦.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب فرض الخمس، باب غزوة خيبر)، ج ٣، ص ١١٢٦، ح ٢٩٢٦.

(٦) سيأتي الحديث عن حروب الردّة في الفصل القادم.

ويحدث زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ عن جمع القرآن في عهد أبي بكر فيقول: "أُرْسِلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِدَلِّكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌ^(١) عَاقِلٌ، وَلَا نَتَهَمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَّبِعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعْهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقُمْتُ فَتَتَّبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُ مِنَ الرَّقَاعِ، وَالْأَكْتَفِ، وَالْعُسْبِ، وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ^(٢)، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣)،

(١) كان زيد بن ثابت ابن أحد عشر عاما عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وخطبه أبو بكر ﷺ بهذا الخطاب بعد موقعة اليمامة في السنة الثانية عشرة من الهجرة، فيكون عندئذ في الثالثة والعشرين أو قريبا منها. البدر العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج ١٨، ص ٢٨١.

(٢) لم يقبل زيد بن ثابت ﷺ شيئا من القرآن دون شهادة رجلين إلا من خزيمة بن ثابت الأنصاري ﷺ فقط؛ وذلك "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتِاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَبْعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَاسْرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَشْيَ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رَجُلٌ يَغْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ، فَيَسَاوِمُونَهُ بِالْفَرَسِ وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتِاعَهُ، فَنادى الْأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسَ وَإِلَّا بَعْتُهُ؟ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ: "أَوْ لَيْسَ قَدْ ابْتِغْتَهُ مِنْكَ؟" فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا، وَاللَّهِ مَا بَعْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بَلَى، قَدْ ابْتِغْتَهُ مِنْكَ"، فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ، يَقُولُ هَلُمَّ شَهِيدًا، فَقَالَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: "يَمُ تَشْهَدُ؟" فَقَالَ: بِصَدِّيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ". أبو داود: السنن، (كتاب الأقضية، باب إذا علم الحاكم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يحكم به)، ج ٣، ص ٣٠٨، ح ٣٦٠٧، (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن)، ج ٣، ص ٣٠٨، ح ٣٦٠٧، أحمد ابن حنبل: المسند، ج ٣٦، ص ٢٠٥، ٢٠٦، ح ٢١٨٨٣. وصححه محققو المسند.

(٣) سورة التوبة: الآيتان ١٢٨، ١٢٩. وفي رواية عن زيد بن ثابت ﷺ أنه قال: "لَمَّا كُتِبَتِ الْمَصَاحِفُ فَقَدْتُ آيَةَ كُنْتُ أَسْمَعُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدْتُهَا عِنْدَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»، (الأحزاب: ٢٣)، فَكَانَ خُزَيْمَةُ يُدْعَى ذَا الشَّهَادَتَيْنِ"، أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ". أحمد بن حنبل: المسند، ج ٥، ص ٥١٠، ح ٢١٦٥٢، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وَكَاثَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ^(١).

وقد جمع الصحابة القرآن الذي أنزله الله ﷺ على رسوله ﷺ في موضع واحد، باتفاق من جميعهم، من غير أن زادوا فيه، أو نقصوا منه شيئاً، وكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ، من غير أن قدموا شيئاً أو أخرّوا، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذه من رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه، ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل عليه السلام إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السور التي يذكر فيها كذا^(٢).

وبهذا فإن سعي الصحابة كان في جمع القرآن في موضع واحد، لا في ترتيبه، لأن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا، أنزله الله تعالى جملة واحدة في شهر رمضان ليلة القدر إلى السماء الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٣)، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٤).

وكان اختيار زيد رضي الله عنه لهذه المهمة الثقيلة لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره، إذ كان من حفاظ القرآن، ومن كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياة النبي ﷺ، وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله، وشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه^(٥)، ويدل على كمال إتقانه وحفظه أنه تعلم السريانية في سبعة عشر يوماً^(٦)، وعندما توفي قال أبو هريرة رضي الله عنه: "اليوم مات حبر هذه الأمة، وعسى الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً"^(٧).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله: لقد جاءكم رسول من أنفسكم)، جـ ٤، ص ١٧٢٠، ح ٤٤٠٢، (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن)، جـ ٤، ص ١٩٠٧، ح ٤٧٠١. (كتاب الأحكام، باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً عاقلاً)، جـ ٦، ص ٢٦٢٩، ح ٦٧٦٨.

(٢) البغوي: شرح السنة، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، جـ ٤، ص ٥٢١، ٥٢٢.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(٤) سورة القدر: الآية ١. وينظر البغوي: شرح السنة، جـ ٤، ص ٥٢٢.

(٥) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، جـ ١، ص ١٧٤.

(٦) ابن أبي داود: كتاب المصاحف، تحقيق/ محمد عبده، دار الفاروق الحديثة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٣٤.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ٣٦٢. وصحح ابن حجر إسناده. الإصابة، جـ ٤، ص ١٢٧.

ولم يترك الصديق والفاروق زيد بن ثابت ؓ لتحمل المسؤولية وحده، بل بإشراف وتابعه وأعانه، فقال أبو بكر لعمرَ وزيد: "اقْعُدُوا عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَمَنْ جَاءَكُمْ بِشَاهِدَيْنِ^(١) عَلَى شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَآكُتْبَاهُ"^(٢).

وبهذا يكون العمل الحضاري العظيم الذي حفظ الله به كتابه قد تم على يد الصديق بالرغم من تحرجه في أول الأمر من أن يفعل شيئاً لم يفعله النبي ﷺ، وأظهر لنا أن الاتباع لا يعني إلغاء الاجتهاد فيما لا نص فيه، وفيما تقتضيه المصالح المتجددة للأمة^(٣).

(٤) مقاتلة مانعي الزكاة:

لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وارتد من ارتد من العرب، وقال بعضهم: نصلي ولا نركي، أتى عمرُ أبا بكر ناصحاً، وطلب منه أن يتألف الناس ويرفق بهم لأنهم بمنزلة الوحش، فقال أبو بكر: "رَجَوْتُ نَصْرَكَ، وَجِئْتَنِي بِخِذْلَانِكَ، جَبَّارٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، خَوَّارٌ فِي الْإِسْلَامِ، مَاذَا عَسَيْتَ أَنْ أَتَأَلَّفَهُمْ بِشَعْرٍ مُفْتَعَلٍ، أَوْ بِسِحْرِ مُفْتَرَى، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، مَضَى النَّبِيُّ ﷺ وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَاللَّهُ لِأُجَاهِدَنَّهُمْ مَا اسْتَمْسَكَ السَّيْفُ فِي يَدِي"^(٤).

وحاول عمر ؓ جاهداً أن يقنع الصديق بترك جمع الزكاة من قبائل العرب في تلك السنة؛ لأنهم شحوا بأموالهم، وأن التشدد فيها لن يؤدي إلا إلى تفريق العرب عنه، غير أن الصديق ؓ أصر على مقاتلتهم. وقدم الأعرابيَّان عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس التميمي في رجال من أشراف العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين فأخبروهم بارتداد قبائل العرب عن الإسلام وامتناعهم عن دفع شيء من أموالهم إلى الصديق، وطلبوا جعلاً ليكفوا الأعراب عن مهاجمة المدينة في غيبة جيش أسامة، فرفض الصديق دفع رشوة لأحد على الإسلام، وأعلن أنه يتأسى بالنبي ﷺ في مجاهدة عدوه^(٥).

(١) اختلفوا في الشاهدين، ف قيل: المراد بهما الحفظ والكتابة، ورجحه ابن حجر، وقيل يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن، وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ. ابن حجر: فتح الباري، جـ ٩، ص ١٤، ١٥.

(٢) ابن أبي داود: كتاب المصاحف، ص ٥١، ورجال الأثر ثقات مع انقطاعه. ابن حجر: فتح الباري، جـ ٩، ص ١٤.

(٣) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، دار القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ٤٧.

(٤) البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق/ عبد المعطي قلجعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، جـ ٢، ص ٤٧٦؛ ابن كثير: مسند عمر بن الخطاب، تحقيق/ عبد المعطي قلجعي، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، جـ ٢، ص ٦٧٣. وعلق بقوله: إسناده غريب من هذا الوجه، ولكن له شواهد كثيرة من وجوه أخر.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، جـ ٢، ص ٩٠.

وثبت أن عمر قال للصدّيق: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: "أُمرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالُهُ وَنَفْسُهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابِهِ عَلَى اللَّهِ"، فقال: "وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالاً^(١) كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ"، قال: "فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ"^(٢).

ثانيا: عدم تمييز الصدّيق على رعيته وشفقته عليهم:

لم يختص الصدّيق ﷺ نفسه بعد الخلافة بشيء يميّزه على المسلمين، ولذلك عزم على ممارسة أعماله التي كان يزاولها قبل الخلافة إضافة إلى أعباء الولاية العامة. يروى أن أبا بكر ﷺ لما استخلف أصبح غاديا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقبه عمر وأبو عبيدة، فسألاه عن وجهته؟ فأخبرهما أنه يريد السوق ليتكسب لنفسه وعياله، فطالباه بالرجوع؛ لأن مزاولته للبيع والشراء ستعطله عن النظر في أمور الرعيّة، وفرضوا له كل يوم شطر شاة، وماكسوه^(٣) في الرأس والبطن^(٤).

وثبت في الصحيح عن عائشة ؓ أنها قالت: "لَمَّا اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ، قَالَ: لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنَّ حِرْفَتِي لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ عَنْ مَوْنَةِ أَهْلِي، وَشَغَلْتُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَسَيَأْكُلُ آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَيَحْتَرِفُ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ"^(٥).

وحدّدت بعض الروايات أن المسلمين عرضوا على أبي بكر ﷺ نفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف، وإذا أخلق برديه أن يضعهما ويأخذ مثلهما، ويأخذ ظهرا يركبه إذا سافر، مقابل أن يتفرغ لأمر المسلمين، فرضي أبو بكر ﷺ^(٦).

(١) العقائق: الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدفة، وفي أكثر الروايات "عناقاً"، وفي أخرى جدياً، والعناق هي الأنثى من أولاد المعز. مجد الدين ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق/ طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٣، ص٢٨٠، ٣١١.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ)، ج٦، ص٢٦٥٧، ح٦٨٥٥؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ج١، ص٥١، ح٢٠.

(٣) ماكسوه: انتقصوا منه.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص١٨٤، وهذا الأثر يروى عن عطاء بن السائب، وهو تابعي صغير لم يدرك هذه الحادثة. ولذا فروايتها ضعيفة. الألباني: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٨، ص٢٣٣.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده)، ج٢، ص٧٢٩، ح١٩٦٤.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص١٨٤.

وكان أبو بكر رضي الله عنه رعوفا بالرعية، حتى قال فيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: "ولينا أبو بكر، فكان خير خليفة، أرحمه بنا، وأحناه علينا"^(١). ولما احتضر أبو بكر رضي الله عنه قال: "يا عائشة انظري اللقحة التي كنا نشرب من لبنها، والجفنة التي كنا نصطبج فيها، والقطيفة التي كنا نلبسها، فإننا كنا ننتفع بذلك حين كنا في أمر المسلمين، فإذا مت فاردديه إلى عمر، فلما مات أبو بكر رضي الله عنه أرسلت به إلى عمر رضي الله عنه، فقال: رضي الله عنك يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك"^(٢).

وقد لخص عمرو بن العاص رضي الله عنه نظرة أبي بكر الصديق للأموال فقال: "لئن كان أبو بكر وعمر يحل لهما هذا المال الذي أصبناه بعدهما فتركاه فقد غبنا، ونقص رأيهما، وما كنا مغبونين، ولا ناقصي رأيي، ولئن كان يحرم عليهما فتركاه لقد هلكنا، وما كان الوهن إلا من قبلنا"^(٣).

ثالثا: تسوية أبي بكر بين الرعية في العطاء:

بالرغم من المكانة الكبيرة للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على غيرهم من المسلمين فإن الصديق رضي الله عنه نظر لعموم الأمة في توزيع العطاء نظرة سواء، فكان يسوي في قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى، ولما أشير عليه بتفضيل أهل السبق على قدر منازلهم، رفض ذلك وقال: "إنما أسلموا لله، ووجب أجرهم عليه يوفيههم ذلك في الآخرة، وإنما هذه الدنيا بلاغ"^(٤)، "وهذا معاش، فالأسوة فيه خير من الأثرة"^(٥).

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج١، ص٤٣٩، ح٦٩٩، البغوي: معجم الصحابة، تحقيق/ محمد الأمين محمد الجكني، دار البيان، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٣، ص٤٥١، واستدركه الحاكم على الشيخين، وصحح إسناده، وأقره الذهبي، ج٣، ص٨٤، ح٤٦٨. وجوّد ابن حجر إسناده البغوي. الإصابة، ج٤، ص١٤٩.

(٢) رواه الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنه المعجم الكبير، ج١، ص٦٠، ح٣٨، وقال الهيثمي: "رجاله ثقات". مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٥، ص٢٣١، ح٩١٧٠.

(٣) ابن زنجويه: الأموال، تحقيق/ شاهر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص٦٠٣، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج٥، ص٢٣٢.

(٤) أحمد بن حنبل: الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٩١، البغوي: شرح السنة، ج١١، ص١٤١.

(٥) أبو يوسف: الخراج، تحقيق/ طه عبد الرؤوف سعد، وسعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، بدون تاريخ، ص٥٣، من مرسل عبد الله بن أبي نجیح، وهو ثقة. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٢٢٩.

الفصل الرابع

حروب الردّة

يطلق مصطلح "الردّة" في أغلب الدّراسات على جميع الحركات التي واجهها الصّدّيق ﷺ عقب تولّيه الخلافة، سواء كان أتباعها رافضين للإسلام كديانة، أو منكرين لبعض أركانه، أو متمرّدين على سلطة الدّولة الإسلاميّة.

ولم تكن هذه الحركات كلّها وليدة عهد الصّدّيق ﷺ، بل إنّ حركات المتنبّئين قد ظهرت في حياة النّبّي ﷺ، فادّعى عبهلة بن كعب الشّهير بالأسود العنسيّ ومسيلمة الكذاب الحنفيّ وطليحة بن خويلد الأسديّ النّبوة في العهد النّبوي^(١)، وقد أراد هؤلاء أن يقيموا دولا وكيانات لأنفسهم، وتخيّلوا أنّ ادّعاء النّبوة هو الذي يمكنهم من تحقيق طموحاتهم.

ولمّا صدمت جموع الأعراب بوفاة النّبّي ﷺ ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم ويتعرّفوا على حقيقة الإسلام نكص كثير منهم على أعقابهم، فرجع بعضهم إلى عبادة الأوثان، وانضوى بعضهم في حركات المتنبّئين، وتحلّل آخرون من فرضيّة الزكاة التي رأوها ثقلا على عواقبهم، كما حنّ صنف آخر إلى حياة الجاهليّة التي لا تلزم أصحابها بالبعد عن الموبقات والالتزام بالأخلاق.

ولم تكن الدّوافع والأسباب موحّدة عند المرتدّين، بل كان للردّة عدّة عوامل يمكن إجمالها في الآتي:

❏ العامل الديني:

أنت خبير بأنّ إسلام أغلب الأعراب كان ضعيفا، فلم يتغلغل الإيمان في قلوبهم؛ لتأخّر إسلامهم، وقصر المدة التي تمّ فيها تبليغ الدّعوة إليهم، بل ربما استسلم بعضهم لسلطان الدّولة الإسلاميّة ولم يعتنقوا الإسلام كدين^(٢)، وقد وصفهم القرآن بضعف الدّين في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ ٣، ص ١٢٦٦.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٩٢.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٤.

وقال عنهم أيضاً: «الأعراب أشدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ ألا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أنزلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(١)، فهم أشدُّ جحوداً لتوحيد الله، وأشدُّ نفاقاً، وأقلُّ علماً بحقوق الله من أهل الحضرة؛ بسبب جفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير^(٢).

العامل السياسي:

كانت العرب في الجاهلية قد ألفت النزعة القبلية التي تجعل من القبيلة وحدة سياسية واجتماعية توجه حياة أبنائها وتحدد مصيرهم، وبالرغم من دخول العرب في دين الله أفواجا في حياة النبي ﷺ فقد ظلت القبائل البدوية تعيش في مضاربها، ولا تشعر بالسلطة المركزية في المدينة إلا في أضيق الحدود التي تتمثل في وجود أحد الدعاة الذي يكلفه النبي ﷺ بتعليم الناس أحكام الإسلام، أو عامل الصدقات الذي يأتيهم من الحول إلى الحول ليجمع زكواتهم فينفق منها في فقرائهم، ثم يحمل ما زاد منها إلى المدينة، ولم يطل عهدهم بتلك المظاهر التي لم يألوها؛ إذ سرعان ما قبض النبي ﷺ، فعادت النزعة الاستقلالية تلح على أبناء القبائل العربية^(٣).

ولهذا فقد نظر المرتدون إلى الزكاة على أنها إتاوة فرضت عليهم لإذلالهم من قبل قبيلة أخرى بالرغم من أنها لا تساوي شيئا بجوار الحقوق المالية التي كانوا يدفعونها طواعية لشيوخ القبائل وزعمائها، وهؤلاء بدورهم قاموا بدور كبير في استرجاع مكاسبهم السياسية وحقوقهم المالية.

ويتضح هذا من حديث دار بين قرّة بن هبيرة القشيري العامري وعمرو ابن العاص الذي أرسله النبي ﷺ إلى عمان، فقد نزل عمرو على قرّة منصرفه من عمان - عقب وفاه النبي ﷺ - فاستقبله وأكرم مثواه، ثم نصحه بإعفاء العرب من الإتاوة؛ حتى لا تخرج عن سلطان المسلمين وتسمع لهم وتطيع، فاستنكر عمرو ﷺ كلام قرّة، وسأله عن حقيقة إسلامه، فهدد عمراً بجموع قومه الذين تحلقوا حوله، ولكن عمراً لم يعبأ بهم، فقال له: "أَتَوْعَدُنَا بِالْعَرَبِ وَتُخَوِّفُنَا بِهَا! مَوْعِدُكَ حَقٌّ"^(٤) أُمّك، فوالله لأوطئن عليك الخيل"، وقدم على المسلمين، فأخبرهم^(٥).

(١) سورة التوبة: الآيات ٩٧ - ٩٩.

(٢) الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ٤، ص ٤٢٩.

(٣) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٥٦.

(٤) الحفش: البيت الصغير من بيوت الأعراب، والدرج الذي يوضع فيه البخور. ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٢٨٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبير، تحقيق/ علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج ٦، ص ٢٠٢، من طريق الواقي، والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٣. من طريق سيف.

❏ العامل القبلي:

لا يخفى أن العصبية القبلية هي أبرز ما يميّز التاريخ العربي في الجاهلية، والمستقرئ للسيرة النبوية يرى أن قبائل الأحلاف المناوئين لبني هاشم وحلف المطيبين لم ينصبوا العداوة لرسول الله ﷺ إلا لكونه من منافسيهم، وكان هذا الأمر مسيطرا على عقلية أبرز زعمائهم أبي جهل المخزومي، والذي كان يعتبر نبوة سيدنا محمد ﷺ سيادة لبني هاشم على غيرهم^(١).

ولما دخل الناس في دين الله أفواجا، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية التي تدين بنبوة محمد ﷺ نظر الأعراب إلى هذا الوضع على أنه سيطرة لقريش على غيرها من القبائل، حتى روي أن طلحة النمرى قال لمُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب عندما عاينه وسمع كلامه: "أشهد أنك كذاب، وإنَّ محمداً صادقٌ، ولكنَّ كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادقٍ مضر"^(٢).

وقد تحدّث أحد شعراء الردّة عن إنكار قومه لإمارة قريش فقال^(٣):

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا * * * فَيَا لِعِبَادِ اللَّهِ مَا لِلْأَبْيِ بَكْرٍ
أَيْمَلُكُنَا بَكْرٌ إِذَا كَانَ بَعْدَهُ * * * فَذَاكَ وَبَيْتِ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

وبالجملة فقد كانت العصبية القبلية لا تزال عميقة بين القبائل التي ترى أنها أضخم عددا وعددا من قريش، وبالتالي فهي أولى بالزعامة، ولذا لم تكن ترضى بالخضوع لحكم قريش^(٤).

❏ التدخل الخارجي:

لم تتخذ دولة الفرس موقفا حياديا مما حدث في بلاد العرب بعد وفاة النبي ﷺ، وإنما تدخلت تدخلًا سافرا فيما دار بين العرب على سواحل الخليج شرقا، فقد ارتدت

(١) محمد عبد العال محمد حسن: مواقف غير المسلمين في مساندة النبي ﷺ وأصحابه خلال العهد النبوي، بحث منشور في

مجلة كلية الآداب، جامعة سوهاج، العدد ٣٥، أكتوبر ٢٠١٣م، ص ٢٤٨ - ٢٥١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٧. من طريق سيف.

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة، تحقيق/ علي محمد دندل، وباسين سعد الدين بيان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ،

ج ١، ص ٢٩٥، وانظر ابن سعد: الطبقات الكبير، ج ٦، ص ٢٥٠.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٩٢.

بعض بطون بكر بن وائل بالبحرين^(١)، وخرج وفد منهم إلى كسرى يسأله أن يولي عليهم رجلاً من قبله، ويعينهم على محاربة بني عبد القيس^(٢) الذين ثبتوا على إسلامهم، فأمر عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر المعروف بالغرور، وضم إليه سبعة آلاف فارس، فاجتمع البكريون والفرس على محاربة المسلمين بالبحرين^(٣)، وكان هذا هو السبب الذي عجل بدخول المسلمين بلاد العراق.

ولهذا وجد الصديق نفسه مسئولاً عن أمن الدولة الإسلامية وسلامة المجتمع، وحرمة العقيدة، فوجب عليه معاقبة المعاندين، والمتمردين، والمفتريين الكذابين.

❏ أول صدام مع المرتدين في عهد الصديق:

يروى سيف بن عمر التميمي^(٤) أن أتباع طليحة بن خويلد الأسدي وحلفاءه من الأعراب، لم يمهلوا الصديق حتى يعود جيش أسامة، فقصدوا المدينة النبوية، ولما وجدوا أن هذه الجموع لا يمكن لها الإقامة في مكان واحد افترقوا إلى فرقتين؛ فأقامت فرقة منهم بالأبرق^(٥)، وسار الباقر حتى عسكروا بذى القصة^(٦).

(١) البحرين: اسم جامع للبلدان الواقعة على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمان، ويتلفظ بها بالياء والنون في جميع الأحوال على الأغلب المشهور. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٤٦، ٣٤٧.

(٢) عبد القيس: قبيلة ربيعة عظيمة، تنسب إلى عبد القيس بن أفضى بن دُعْي بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج ٢، ص ٣١٤.

(٣) الواقدي: الردة، تحقيق/ يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ١٤٨؛ ابن أعم: الفتوح، تحقيق/ علي شيري، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج ١، ص ٣٨.

(٤) سيف: هو الأخباري سيف بن عمر الأسدي التميمي الكوفي، توفي نحو: ١٨٠هـ/٧٩٦م، وروايته التاريخية "لا شيء" عند العلماء النقاد. الفسوي: المعرفة والتاريخ، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج ٣، ص ٥٨. ولا يحتج بأخباره التي تخالف قول أهل العلم. الخطيب البغدادي: موضح أوهم الجمع والتفريق، تحقيق/ عبد المعطي أمين فلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ج ١، ص ٢٦٣. غير أن الطبري أثر النقل عنه في الردة والفتوح والفتنة، فاعتز كثير من المؤرخين بصنيعه! على الرغم من تنبيهه في مقدمة تاريخه على ضرورة محاكمة ما يستكره القارئ، أو يستشعنه السامع من الأخبار، بل إن جماعة من كبار النقاد يتهمون سيفاً بالوضع والزندقة. ولذا لا ينبغي الاعتماد عليه قبل محاكمة أخباره. محمد عبد العال محمد حسن: سيف بن عمر التميمي ومروياته في ميزان النقد الموضوعي، بحث منشور في مؤتمر "التاريخ بين التصحيح والتحريف"، كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ج ١، ص ٤٩٨-٥١٤.

(٥) الأبرق: هو أبرق الربرة، كان من منازل بني ذبيان في نجد، وتبعد الربرة عن المدينة مائة كيلو متر في طريق الرياض. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٦٨؛ محمد محمد حسن شراب: المعالم الأثرية في السنة والسيرة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ص ١٢٥.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٤. وذو القصة: موضع قريب من المدينة في طريق الربرة يقال له بقعاء، وهو الذي خرج إليه الصديق لتوجيه الجيوش لمحاربة المرتدين. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧١؛ عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ٢٥٥.

ويقصّ علينا سيفٌ خبر معركة كبيرة بين المسلمين بقيادة أبي بكر الصديق وبين المرتدين خارج المدينة، تراجع فيها المسلمون في البداية، ثم كرّ الصديق بجنوده عليهم وبيّتهم عند طلوع الفجر، فما طلعت الشمس حتى حسمت المعركة، وغنم المسلمون عامة ظهرهم، واتّبع أبو بكر المرتدين، حتى نزل ذا القصة، ووضع بها مسلحة بقيادة النعمان ابن مقرن رضي الله عنه، ورجع الصديق إلى المدينة^(١).

لكن سيفاً لا يتابع على ذلك، فيذكر غيره أن أبا بكر رضي الله عنه أمر بالجهاز، وتقدّم إلى ذي القصة في قلّة من الناس^(٢) لتوجيه الزحوف إلى أهل الردّة، وكان خارجة بن حصن ابن حذيفة بن بدر الفزاري قد خرج في خيل من غطفان^(٣)، ليخذل الناس عن الخروج، أو يصيب غرة منهم، فلما رأى قلّة المسلمين هاجمهم وهم غافلون، فتحيّز المسلمون، ولاذ أبو بكر رضي الله عنه بشجرة لئلا يعرف، وبرز طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه على مكان مرتفع، ونادى بأعلى صوته يثبّت المسلمين، ويخبرهم بقدوم الأمداد، فتراجع الناس، وتلاحق المسلمون، فانكشف المرتدون، واتّبعهم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فأدرك رجلاً منهم فقتله، ولاذ الباقيون بالفرار، فأعجزوا المسلمين^(٤)، وأقام أبو بكر بذي القصة ينتظر الناس، وبعث إلى الثابتين على الإسلام حول المدينة من أسلم، وغفار، ومزينة، وأشجع، وجهينة، وكعب، يأمرهم بجهاد أهل الردّة، والخوف إليهم، فسارعوا إليه حتى شحنت منهم المدينة^(٥).

ويتفق محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت: ١٢٤هـ/٧٤٢م) وأبو معشر السدي (١٧٠هـ/٧٨٧م) على تأريخ خروج أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى ذي القصة بعد رجوع جيش أسامة^(٦).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) كان الصديق في مائة من المهاجرين، أو من المهاجرين والأنصار. الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٩٥.

(٣) غطفان: بطن عظيم من العدنانية، كثير الشعوب والأفخاذ، وهم بنو غطفان بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وينقسم الغطفانيون إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة: أشجع بن ريث بن غطفان، وعيس، وذبيان ابنا بغض بن ريث بن غطفان، وفزارة من بني ذبيان. عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، جـ ٣، ص ٨٨٨، ٩١٨.

(٤) الطبري من طريق أبي معشر. تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٥٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق/ طه عبد الرؤوف سعد، وعمرو أحمد عطوة، دار ابن خلدون، الإسكندرية، مصر، بدون تاريخ، ص ١٢٠، ١٢١؛ المقدسي: البدء والتاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م، مج ٢، جـ ٥، ص ١٥٦، ١٥٧؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٩٥، ٩٦.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٩٦.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٥٣. ويعتمد خليفة قول الزهري.

المواجهة الشاملة للمرتدين:

لقد واجه الصديق ﷺ موقفاً حرجاً عقب وفاة النبي ﷺ، فقد ارتدّ كثير من قبائل العرب عن الإسلام كلياً أو جزئياً، وتمسك بالإسلام من بين المسجدين، وأسلم، وغفار، وجهينة، ومزينة، وكعب، وثقيف، وهذيل، وبجيلة، ودوس، وتجب، وهمدان، وأهل السراة، والأبناء^(١).

وقد كان للثابتين على الإسلام من أبناء القبائل العربية دورٌ كبيرٌ في مواجهة المرتدين من أقوامهم، بداية من الوعظ والتحذير بالكلمة من سوء المصير الذي ينتظرهم إلى الجهاد بالسيف، ولم تكن نتائج هؤلاء الداعين إلى الإسلام واحدة، فمنهم من استضعفهم قومهم فسخروا منهم وأخرجوهم بل وقتلوه في بعض الأحيان، ومنهم من نجح في تثبيت من هم بالردة من أقوامهم، فلقد اختفى عتابُ بنُ أسيد بن أبي العاص بن أمية -عامل مكة- عندما شعر بهم بعض القرشيين بالردة عن الإسلام، فوقف سهيل بن عمرو العامري موقفاً مشرقاً كان له أثره في تثبيت الناس على الإسلام، وقام فيهم بمثل خطبة أبي بكر بالمدينة "كأنه كان يسمعها"^(٢)، وزاد: "يا أهل مكة، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتدّ، والله ليؤمنن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ"^(٣)، وقال أيضاً: "إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن ربنا ضربنا عنقه"، فكف الناس عما هموا به، وظهر عتابُ بن أسيد بعد اختفائه^(٤).

وهمت طييء بالردة عن الإسلام، فقام سيدهم عدي بن حاتم الطائي ﷺ فخطبهم قائلاً: "إنكم إن أقمتُم على دين الإسلام أصبتم الدنيا والآخرة، وإن رجعتُم عنه خسرتُم الدنيا والآخرة، واستغنى الله عنكم"، وطالبهم بدفع صدقاتهم إلى الخليفة، واستنفرهم إلى قتال أهل الردة، كما أكد زيد الخيل الطائي على كلام عدي ﷺ، فثبتت قبائل طييء على الإسلام، وقامت بجمع صدقاتها، وخفت إلى الجهاد^(٥)، كما وقفت بعض التجمعات التي ثبتت على الإسلام في مجادلة أقوامهم المرتدين حتى أنجدهم الخليفة بالجيش^(٦).

(١) الكلعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، جـ ٢، ص ٩٠، ٩١.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٨٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ١٨٦.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٦٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٥، ص ٣٠٠.

(٥) الواقدي: الردة، ص ٦٣ - ٦٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٥، ص ٣٠٠.

(٦) علي محمد محمد الصلابي: أبو بكر الصديق، ص ٢٠١.

ولما رجع جيش أسامة استخلف الصديق عبد الله بن مسعود ﷺ على حرس أنقاب المدينة، وخرج لقتال المرتدين حتى ضرب معسكره بذي القصة^(١)، وهمّ بالمسير بنفسه، فطالبه الصحابة أن يبعث رجلا يثق به، ويرجع إلى المدينة، وألحوا عليه في ذلك، فعقد لخالد بن الوليد ﷺ على عامة الناس^(٢).

وزعم سيف التميمي أن أبا بكر ﷺ قسم الجيش الإسلامي من ذي القصة إلى أحد عشر لواءً وجعل على كل لواء أميراً، وأمر قائد كل جند باستنفار من مرّ به من المسلمين من أهل البلاد التي يمرّ بها^(٣)، وهذا مخالف لجمهور أهل الأخبار الذين يجمعون على تولية خالد بن الوليد ﷺ على عامة الجيش الذي اجتمع للصديق بذي القصة^(٤)، في نحو ثلاثة آلاف^(٥).

ولم يأمر الصديق ﷺ خالد بن الوليد بالهجوم على المرتدين فجأة وأخذهم على غرة، وإنما كتب للمرتدين يدعوهم للعودة إلى الإسلام^(٦)، وكلف جنده أن يمسكوا عن الغارة "إن سمعوا أذاناً، أو رأوا صلاة"^(٧)، وعهد إليهم أن يقاتلوا الناس على أركان الإسلام الخمسة^(٨).

وهذا عرض سريع لأهم الجيوش الإسلامية التي سيرها الصديق لمقاتلة

المرتدين وما دار بين الفريقين من مواجهات:

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٤) روى الإمام أحمد بسنده إلى وحشي بن حرب أن أبا بكر عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردّة. المسند، ج ١، ص ٢١٦. وينظر الواقدي: الردّة، ص ٦٩، ٧٠؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٤٦٦؛ خليفة بن خياط: تاريخ

خليفة، ص ١٠٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢١؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٩٧.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٢.

(٦) الواقدي: الردّة، ص ٧١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٤.

(٨) الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٩٧.

❏ القضاء على ردة طليحة الأسدي:

كان طليحة بن خويلد الأسدي قد قدم مع وفد قومه - بني أسد - على رسول الله ﷺ في أول عام الوفود سنة تسع من الهجرة^(١)، ولما دخلوا على رسول الله ﷺ تكلموا فقالوا: "يَا رَسُولَ اللَّهِ قَاتَلَتْكَ مُضَرُّ كُلُّهَا وَلَمْ نُقَاتِكَ، وَلَسْنَا بِأَقْلَهُمْ عَدًّا، وَلَا أَكْلَهُمْ شَوْكَةً، وَصَلْنَا رَحِمَكَ"، فقال النبي ﷺ: "إِنَّ فَهْمَهُمْ لَقَلِيلٌ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِمْ"، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

ولما بعث النبي ﷺ المصدقين في قبائل العرب استعمل حامية بن سبيع الأسدي على صدقات قومه^(٣)، ولم يلبث طليحة أن ادعى النبوة ببلاذ نجد في حياة النبي ﷺ^(٤)، فاتبعه العوام، وكان أول ما صدر عنه، واستغوى الناس به، أنه كان مع بعض قومه في سفر، فأعوزهم الماء وغلب العطش عليهم، فقال: "ارْكَبُوا أَعْلَاءَ - اسم فرسه - واضربوا أميالاً، تَجِدُوا بِلَالاً"، ففعلوا، فوجدوا الماء، فكان ذلك سبب وقوع الأعراب في الفتنة^(٥).

واشتد أمر طليحة وقويت شوكته عقب وفاة النبي ﷺ^(٦)، واجتمع عليه الأعراب بنجد، وتمادى في سجع الأكاذيب، وأمر الناس بترك السجود في الصلاة^(٧)، لذلك وجه إليه الصديق سيد الأمراء وبطل الشجعان خالد بن الوليد^(٨)، وقال له عندما عقد له على قتال أهل الردة: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يَعْمَ عَبْدُ اللَّهِ وَأَخُو الْعَشِيرَةِ خَالِدُ ابْنُ الْوَلِيدِ، وَسَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ سَلَّهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ"^(٩)، ولما عزم الصديق

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٩٢.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٧. التَّسَانِي: السنن الكبرى، (كتاب التفسير، باب قوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾)، ج٦، ص٤٦٧، ح١١٥١٩؛ أبو يعلى: المسند، تحقيق/ حسين سليم أسد، دار المأمون، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج٤، ص٢٥٠، ح٢٣٦٣، وعلق المحقق على الحديث بقوله: "رجاله رجال الصحيح". والحديث يرتقي بمجموع طرقه إلى درجة الحسن. سليم عيد الهلالي ومحمد موسى آل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج٣، ص٢٨٧.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩١. ويقال استعمل عليهم الأباة بن قيس الأسدي. خليفة: تاريخ خليفة، ص٩٨.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، ص١٢٦٦.

(٥) ابن حبان: الثقات، دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٢، ص١٦٦؛ الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص١٦٠.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٢.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٠٢.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١.

(٩) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢١٦، ح٤٣، وقد صحح محققو المسند هذا الحديث بشواهده.

على مفارقة خالد في ذي القصة واعدّه بأنّه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء، وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب^(١).

وتوجّه خالد ﷺ بجيشه إلى طليحة بن خويلد في الوقت الذي اجتمع عليه المرتدّون من بني أسد وغطفان ببزاحة^(٢)، ورأى الصّدّيق أنّ انفضاض بعض القبائل التي استغواها المتنّبئ طليحة الأسديّ تضعف قوّته وتفتّ في عضده، ولذلك أرسل عديّ بن حاتم إلى قومه ليدركهم قبل أن يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، "فَلَمْ يَزَلْ عَدِيٌّ يَقْتُلْ لَهُمْ فِي الذَّرْوَةِ وَالْغَارِبِ"، حتّى لاثّوا له، واستمهلوه في استخراج إخوانهم (بني جديلة) الذين استغواهم طليحة^(٣).

وقدّم خالد ﷺ ثابت بن أقرم البلوي^(٤)، وعكاشة بن محصن^(٥) طليعة، فلقبيهما حبال بن خويلد الأسديّ فقتلاه، فتلقّاهما طليحة وأخوه سلمة فيمنعهما، فحمل طليحة على عكاشة فقتله، وقتل سلمة ثابت بن أقرم^(٦).

والتقى المسلمون بجموع طليحة فاقتتلوا قتالا شديدا^(٧)، حتّى أشير على خالد ﷺ بالتحيز إلى جبلي طيّئ، فرفض إلا الاقتحام قائلا: "بل إلى الله الملجأ"، وصمد إلى حامل راية طليحة فقتله، وضرّس في القتال حتّى قطع سيفين، وجعل يتقدّم ويقحم فرسه في المرتدّين، حتّى لامه جنده لمكانه من الإمارة، فاعتذر لهم بخوفه من الهزيمة، وأنّه لا يستطيع الصّبر على الأعداء^(٨).

وكان عيينة بن حصن الفزاريّ قد انضمّ لطليحة في سبعمئة من قومه^(٩)، فلمّا اشتدّت الحرب ضجر من القتال، وجعل يتردّد على طليحة الذي قعد يتنبأ لهم، ويسأله عن

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ص ٣٤٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ص ٣٤٩.

(٤) ثابت بن أقرم: حليف للأنصار، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ١، ص ١٩٩.

(٥) عكاشة بن محصن: حليف بني عبد شمس بن عبد مناف، وهو من بني أسد بن خزيمة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٩٢.

(٦) الواقدي: الردّة، ص ٨٦؛ ابن خياط: تاريخ خليفة، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢١.

(٨) الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٠٢، ١٠٣.

(٩) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٣.

جبريل!! فلما جاءه المرة الثالثة، أخبره طليحة أن جبريل قال له: "إِنَّ لَكَ رَحًا كَرَحَاهُ، وَحَدِيثًا لَا تَنْسَاهُ"، فقال عيينة: "قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَدِيثٌ لَا تَنْسَاهُ"، ثم خرج إلى قومه فأخبرهم بكذب طليحة، وأمرهم بالانصراف، فانهزم المرتدّون، وظهر المسلمون^(١).
وتعجّب طليحة الأسدي من انهزام أعرابه الأشداء؟ فقال له أحدهم: "تَحْنُ قَوْمٌ نُقَاتِلُ نَرِيدُ الْبَقَاءَ، وَهَؤُلَاءِ يُقَاتِلُونَ وَيَحِبُّونَ الْفَنَاءَ"، فقالت لهم "النّوّار" امرأة طليحة: "أَمَّا إِنَّهُ لَوْ كَانَتْ لَكُمْ نِيَّةٌ صَادِقَةٌ لَمَا اِنْهَزَمْتُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ"، فقال لها رجل آخر: "لَوْ كَانَ زَوْجُكَ هَذَا نَبِيًّا لَمَا خَذَلَهُ رَبُّهُ"^(٢).

وهرع بعض المرتدّين إلى طليحة يسأله عما يفعلون؟ فما كان منه إلا أن ركب فرسا كان قد أعدّها لنفسه، وأركب زوجه "النّوّار" على بعير له، ثم انطلق بها تجاه الشّام وهو يقول لأتباعه: "من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل"^(٣)، فانفضّت جموعهم عند ذلك، وهاموا على وجوههم^(٤). وأقام خالدٌ ؓ شهرا بنواحي بزاخة يقاتل المرتدّين وينكّل بهم^(٥)، حتّى أشار بعض الصحابة على الصّدّيق بعزله، فرفض أن يشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين^(٦)، وكان حامية بن سبيع بن الحساس الأسدي الذي استعمله النّبيّ ﷺ على صدقات قومه من بين الهالكين على الرّدة^(٧).

ولما قدم وفد بزاخة -أسدٍ وغطفان- على الصّدّيق، خيّرهم بين الحرب المجلية والسّلم المخزية، فقالوا: ما السّلم المخزية؟ قال: تُؤَدُّونَ الْحَقَّةَ وَالْكَرَاعَ^(٨)، وَتَتْرَكُونَ أَقْوَامًا^(٩)، تَتَّبِعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ، حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَغْذَرُونَكُمْ

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢١؛ ورواه الطبري من طريق ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) الواقدي: الردّة، ص ٩٢؛ ابن أعمش: الفتوح، ج ١، ص ٤١، ١٥.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٢؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٠٣.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ١٥.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٥.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٣.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٠٥.

(٨) الكراع: اسم يجمع أنواع الخيل. ابن منظور: لسان العرب، ج ٨، ص ٣٠٧.

(٩) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٤٣٧؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج ٢، ص ٨٩٣.

به^(١)، فأجاب خارجة بن حصن الفزاري بموافقتهم، فجردوا من الأسلحة والكراع، حتى ردها عليهم الفاروق عمر ؓ عندما تولّى الخلافة^(٢).

ووقع عيينة بن حصن الفزاري في الأسر، وسبق إلى المدينة موثقاً، فتلّقا الغلمان ينخسونه بالجريد، ويقولون: "أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ، أَكْفَرْتَ بَعْدَ إِيْمَانِكَ! فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ آمَنْتُ بِاللَّهِ قَطُّ"^(٣)، وجئ به إلى أبي بكر ؓ، فأعلن توبة نصوحاً، واعتذر عما كان منه، فحقن الصديق دمه، وخلّى سبيله^(٤).

وقد أسلم طليحة في خلافة الصديق، لكنه استحيا أن يواجهه مدّة حياته، وأتى عمر ؓ حين استخلف، فذكره بقتله عكاشة وثابتاً، وأقسم بالله أنّه لا يحبه أبداً، فأجابه بأنهما رجلان أكرمهما الله بيده، ولم يهنه بأيديهما، فبايعه عمر، ثمّ رجع إلى دار قومه، فأقام بها حتى خرج إلى العراق، وقد كان إسلامه صحيحاً، ولم يُطعن عليه فيه^(٥).

وكان قرّة بن هبيرة القشيري يتربّص ببني عامر، فلما أوقع المسلمون بطليحة رجعوا إلى الإسلام، ووقع قرّة في الأسر، وسبق إلى أبي بكر ؓ فعفا عنه لإعلانه بالإسلام، وخروجه في مائة من قومه لحماية عمرو بن العاص عند عودته من عُمان^(٦).

❏ ردة بني تميم وسجاح بنت الحارث:

كان بنو تميم قد دخلوا في الإسلام عام الوفود^(٧)، ففرّق النبي ﷺ في عشائهم ستة عمّال، فلما بلغتهم وفاة النبي ﷺ اختلفت آراؤهم في دفع الصدقات، فمنهم من أداها، ومنهم من تردّد فيها، وكان مالك بن نويرة اليربوعي على رأس الممتنعين عن أدائها^(٨). وتشاغل مسلمو تميم بالمرتابين والمرتدين، حتى أقبلت عليهم المتنبئة سجاح بنت الحارث^(٩)، من الجزيرة الفراتية في أتباعها، وهي عازمة على غزو المدينة النبوية،

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، جـ ٦، ص ٢٦٣٩، ح ٦٧٩٥.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٠٨، ١٠٩.

(٣) الواقدي: الردّة، ص ٩٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٦٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢١.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبير، جـ ٦، ص ١٥٦.

(٦) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٠٥ - ١٠٧.

(٧) الواقدي: الردّة، ص ٤٩.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٦٨.

(٩) سجاح: هي سجاح بنت الحارث بن عقفان، إحدى نساء بني يربوع بن حنظلة التميميين، وتكنى بأمّ صادر. البلاذري:

فتوح البلدان، ص ١٢٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٦٩.

فاستجاب لها مالك بن نويرة وعطارد بن حاجب، في جماعة من سادات بني تميم، لكنهم اختلفوا في العشيرة التي يبدؤون بها، فقطعت المتنبة الخلاف بقولها: "أَعِدُّوا الرِّكَابَ، وَاسْتَعِدُّوا لِلنَّهَابِ، ثُمَّ أَغِيرُوا عَلَى الرَّبَّابِ، فَلَيْسَ دُونَهُمْ حَجَابٌ"، ولكنَّ الرِّبَابَ قاومتَ المرتدَّين مقاومةً شديدة^(١)، فاضطرت سجاح لمصالحتهم بشرط أن يطلقوا لها الأسرى^(٢).

وأدرك رؤساء أهل الجزيرة أنَّ التَّمِيمِيِّينَ لن ينصروهم، وصارحوا نبيَّتهم في ذلك، فأشارت عليهم بقصد اليمامة، لأخذها من مسيلمة الكذاب، ولكنَّ الرؤساء هابوه لاستفحال أمره، فسجعت لهم قائلة: "عَلَيْكُمْ بِالْيَمَامَةِ، وَدَفُّوا دَفِيفَ الْحَمَامَةِ، فَإِنَّهَا غَزْوَةٌ صَرَامَةٌ، لَا يُلْحَقُكُمْ بَعْدَهَا مَلَامَةٌ"، فأجابوها، وتوجَّهوا لحرب بني حنيفة^(٣).

وسمع الكذاب مسيلمة الحنفيَّ بمسيرها إليه فخافها على بلاده، وأهدى لها، وبعث إليها يستأمنها ليأتيها، فأذنت له، فركب إليها في أربعين من قومه، واجتمع بها في خيمة، فلما خلا بها عرض عليها نصف الأرض الذي كان لقريش فقبلت ذلك، وتجاريا في الأسجاع فشهدت له بالنبوة، ثم أغراها بالزواج منه قائلاً: "هَلْ لَكَ أَنْ أَتَزَوَّجَكَ وَأَكَلَ بِقَوْمِي وَقَوْمِكَ الْعَرَبُ"^(٤)؟ فوافقته، وجعلت دينها ودينه واحداً^(٥)، وأقامت عنده ثلاثة أيام، ولكنها لم تطلب منه صداقاً، فلما رجعت إلى أتباعها قَبَّحُوا لها الزَّوْجَ دون صداق، فبعثت إليه تسأله صداقاً، فأجاب طلبها، وأعطاهها صداقاً يتناسب مع عقول أتباعها، حيث أمر مؤذنها أن ينادي في أصحابه: "أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ وَضَعَ عَنْكُمْ صِلَاتَيْنِ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ: صَلَاةَ الْفَجْرِ وَصَلَاةَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ"^(٦).

ويبدو أنَّ بعض التَّمِيمِيِّينَ قد استاءوا من صنيع سجاح، وشعروا بانحطاط سمعتهم بين القبائل، حتَّى قال شاعرهم عطارد بن حاجب^(٧):

أَمْسَتْ نَبِيَّتُنَا أَنْتَى نَطُوفُ بِهَا * وَأَصْبَحْتَ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا

(١) تنص رواية البلاذري بأنَّ الرِّبَابَ هزمت سجاح وجموعها. فتوح البلدان، ص ١٢٥. وسجعا في فتوح البلدان: "إنَّ ربَّ السَّحَابِ يأمركم أن تغزوا الرِّبَابَ".

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٠. وعند الواقدي أنَّ سجاح هي التي طلبت الزواج من مسيلمة. الردة، ص ١١١.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٥.

(٦) الواقدي: الردة، ص ١١١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧١.

(٧) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق/ ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م، ص ٤٠٥؛ الطبري:

تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧١.

ولمّا سمعت سجاح بدنو خالد بن الوليد من اليمامة كرّت راجعة إلى بلاد الجزيرة بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، وأقامت في أخوالها بني تغلب إلى زمان معاوية رضي الله عنه فأجلاهم منها عام الجماعة، وأسكنهم الكوفة، فانتقلت معهم، وقد حسن إسلامها^(١).

❏ القضاء على ردة بني تميم:

رجع كثيرٌ من مرتدة تميم إلى الإسلام بعد رحيل سجاح إلى بلادها، وجمعوا زكواتهم فاستقبلوا بها خالد بن الوليد رضي الله عنه ولم يبق إلا مالك بن نويرة في جمع من أتباعه بمكان يقال له البطح، فلمّا بلغه خالدٌ بثّ السرايا لدعوة الناس إلى الإسلام ومعاودة الطّاعة، فاستقبله أمراء بني تميم بالسمع والطّاعة، وبذلوا الزكوات، ولم يتخلّف منهم إلا مالك ابن نويرة، فوقع أسيرا مع جماعة من أتباعه، ولكن السريّة اختلفت في أمرهم، فشهد أبو قتادة -الحارث بن ربعي الأنصاري- أنّهم أقاموا الصلّاة، وخالفه آخرون فأנקروا أذانهم وصلاتهم، فأمر خالدٌ بأنظارهم حتّى يتّضح أمرهم^(٢).

وتختلف الروايات التاريخية في سبب مقتل مالك، فتزعم إحداها أنّ الأسارى حبسوا في ليلة باردة، فلمّا اشتدّ بردها في عمق الليل نادى منادي خالد: "أدْفِنُوا أُسْرَاكُمْ"، وكان كلام خالد في لغة القائمين عليهم يعني القتل، فأجهز ضرار بن الأزور الأسديّ على مالك ابن نويرة، وفرغ أصحابه من الباقيين، وسمع خالدٌ الواعية فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا أَصَابَهُ"^(٣)، وفي الرواية الأخرى أنّ خالدًا استدعى مالكا فأنبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزكاة، فقال مالك: "مَا أَخَالَ صَاحِبَكُمْ إِلَّا وَقَدْ كَانَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا"، فقال خالدٌ: "أَوْ مَا تَعُدُّهُ لَكَ صَاحِبًا!" ثمّ أمر بقتله^(٤).

وفي رواية عن أبي قتادة الأنصاري أنّ خالدًا رضي الله عنه بعثه في سريّة فلقبهم رجل من بني حنظلة التميميين، فسألوه عن الممتنعين عن الصدقة حتّى وقتهم ذلك، فأخبرهم

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧١.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٧٢.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٣. ويظهر على هذه الرواية أنّها من أكاذيب سيف التميمي.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٣، ٢٧٤. من طريق محمد بن إسحاق بإسناد ضعيف. عبد السلام محسن

آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، عمادة البحث العلمي،

الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، جـ ١، ص ٥٣٥.

بمكانهم، فأتوهم سراعا عند مطلع الشمس، فثاروا إلى السلاح، وقالوا إنا مسلمون، فأمرهم بوضع السلاح والاستسلام، ففعلوا، فقبضوا عليهم، وهم اثنا عشر رجلا، فيهم مالك بن نويرة، وجاءوا بهم إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، فشهد أبو قتادة وبعض الجند أنهم مسلمون، وحلف آخرون أنهم ما أسلموا، وأن قتلهم وسيبهم حلال، فأخذ خالد برأيهم وأمر بقتلهم^(١).

وقدم أبو قتادة الأنصاري على الصديق فأخبره بمقتل مالك، فجزع لذلك جزعا شديدا^(٢)، وغضب عمر رضي الله عنه وطالب الصديق بعزله؛ وقال: "إِنَّ فِي سَيْفِهِ رَهَقًا"، ولكن الخليفة لم يعبا بإكثار عمر عليه، ولم يتأثر بمراشي متم بن نويرة التميمي الذي قدم المدينة وطفق يشهر بقتل خالد رضي الله عنه لأخيه مالك، ثم أصدر الصديق في ذلك أمرا واضحا في الرد على عمر رضي الله عنه فقال: "لَمْ أَكُنْ لِأُشِيمَ سَيْفًا سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ"^(٣).

وقد اختلفت آراء الأقدمين ومذاهب الحديث حول مقتل ابن نويرة، وهل قتل مسلما مظلوماً، أم أكافراً مستحقاً للقتل؟ وبالنظر فيما تناقلته الرواة، فإن القول بمقتل مالك خطأ على يد جند خالد لا يعدو أن يكون إسطورة من اختلاق سيف التميمي، الذي عمل على تبرئة خالد من القتل العمد، وتبرئة مالك بن نويرة من الردة والكفر^(٤).

وقد استدعى الصديق رضي الله عنه الأمير المجاهد وعاتبه في أمر مالك، فشرح له موقفه، وذكر أنه سمع منه كلاما استحل به قتله^(٥)، واعتذر للخليفة، فعذره وقبل منه، ثم أصدر حكمه في القضية بأن خالدًا تأول فأخطأ، وأمر بدفع دية مالك بن نويرة^(٦)، وعندها سكت الفاروق عن الكلام^(٧)، ولم يختلف الرواة في هذا الحكم عن الصديق، ولا نقلوا تعليقا لعمر ولا لغيره من الصحابة على الحكم أو اعتراضا منهم على الإطلاق.

(١) أورده ابن حبيش الأندلسي من كتاب يعقوب بن محمد الزهري (المفقود) بسنده إلى ابن شهاب الزهري. الغزوات، تحقيق ونشر/ أحمد غنيم، مطبعة حسان، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٧٤، ٧٥.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج ٦، ص ١٦٧، عن الواقدي، والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣، عن سيف.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، (دراسة في المتن)، مكتبة المؤلف، ص ٣٠.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١١١.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٥.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

والناظر في أخبار ردة مالك بموضوعية يدرك إلقاءه لنفسه في المهالك؛ لأنه السبب الرئيس في ردة قومه، حيث كان عاملاً للنبي ﷺ على الصدقة^(١)، فلما توفي النبي ﷺ حبس صدقة قومه، وفرقها فيهم^(٢)، فلما اقترب خالد من البطاح خرج من امتنع بالصدقة من عمال بني تميم فاستقبلوا بها خالدًا ﷺ قبل دخوله أرضهم، ولم يبق إلا مالك^(٣)، فلا هو خرج بالصدقة، ولا أرسل للأمير يضمن له جمعها وأداءها، وهذا يرجح رواية اعتراضه على دفع الزكاة في محاورته لخالد، ويؤيد ذلك قول محمد بن سلام الجمحي، (ت: ٢٣١هـ/٨٤٦م): "والمجتمع عليه أن خالدًا حاوره ورأه، وأن مالكًا سمح بالصلاة والتوى بالزكاة"^(٤).

والظاهر أن القول بمقتل أتباع مالك معه من زيادات الرواة الذين اخترعوا قصة قتلهم خطأ؛ لأنه لم يرد عن الصديق إلا دفعه دية مالك فقط، كما رد السبي والمال^(٥).

❏ فتنة مسيلمة الكذاب:

قدم مسيئمة الكذاب^(٦) في وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ عام الوفود في بشر كثير، فطفق يقول: "إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ"، فأقبل إليه النبي ﷺ ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريد، فوقف على مسيلمة وهو في أتباعه فقال له: "لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أُعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُو أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَنْ أَدْبُرْتَ لِعَفْرَتِكَ اللَّهُ، وَإِنِّي لَأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ، وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي"، ثم انصرف عنه^(٧).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٦٠٠.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٩٢.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٢.

(٤) طبقات فحول الشعراء، تحقيق/ محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، بدون تاريخ، جـ ١، ص ٢٠٧.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٥.

(٦) هو مسيئمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الشهير في التاريخ الإسلامي بالكذاب. السهيلي: الروض الأنف، تحقيق/

عمر عبد السلام السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، جـ ٧، ص ٤٦٨؛

المقرئزي: إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق/ محمد عبد الحميد النميسي، دار

الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ ٢، ص ٩٩.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام)، جـ ٣، ص ١٣٢٥، ح ٣٤٢؛ مسلم: الصحيح،

(كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ)، جـ ٤، ص ١٧٨٠، ح ٢٢٧٣.

وكان رسول الله ﷺ قد حدث أصحابه فقال: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِخَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَ فِي كَفِّي سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فَكَبَّرَا عَلَيَّ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ أَنْ أَنْفَخَهُمَا، فَفَخَّخْتُهُمَا فَذَهَبًا، فَأَوَلَّتُهُمَا الْكَذَابَيْنِ الَّذِينَ أَنَا بَيْنَهُمَا، صَاحِبَ صَنْعَاءَ، وَصَاحِبَ الْيَمَامَةِ"^(١).

ولما رجع وفد بني حنيفة إلى اليمامة ادعى مسيلمة النبوة، وطفق يتنبا لقومه^(٢)، ويسجع لهم، فكان مما زعم أنه وحي يأتيه: "يَا ضِفْدَعُ بَنَاتِ الضَّفَدَعِينَ، نُقِّي مَا تَنْقِينَ، أَغْلَاكِ فِي الْمَاءِ، وَأَسْفَلْكَ فِي الطِّينِ، لَا الشَّارِبَ تَمْنَعِينَ، وَلَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينَ"^(٣).

وبالرغم من وضوح كذب هذا الهراء وركاكته التي لا تخفى على الجهلاء، فقد "أصفت معه حنيفة على ذلك"^(٤)، وتعصب له الأعراب، فعندما علم به طلحة النمرى جاء إلى اليمامة، فقال: "أَيْنَ مُسَيْلِمَةُ؟ قَالُوا: مَهْ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: لَا، حَتَّى أَرَاهُ، فَلَمَّا جَاء قَالَ: أَنْتَ مُسَيْلِمَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَنْ يَأْتِيكَ؟ قَالَ: رَحْمَنٌ، قَالَ: أَفِي نُورٍ أَمْ فِي ظُلْمَةٍ؟ قَالَ: فِي ظُلْمَةٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ كَذَّابٌ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ، وَلَكِنْ كَذَّابٌ رَبِيعَةٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَادِقٍ مُضَرٍّ، وَاتَّبَعَهُ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ الْجَلْفُ حَتَّى قَتَلَ مَعَهُ يَوْمَ عَقْرَبَاءَ"^(٥).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة)، جـ ٤، ص ١٥٩١، ح ٤١١٦. وعلق ابن حجر على هذا الحديث بقوله: "وسياق هذه القصة يخالف ما ذكره ابن إسحاق أنه قدم مع وفد قومه، وأنهم تركوه في رحالهم يحفظها لهم، وذكروه لرسول الله ﷺ، وأخذوا منه جائزته، وأنه قال لهم: "إِنَّهُ لَيْسَ بِشَرْكُم"، وأن مسيلمة لما ادعى أنه أشرك في النبوة مع رسول الله ﷺ احتج بهذه المقالة، وهذا مع شذوذه ضعيف السند لانقطاعه، وأمر مسيلمة كان عند قومه أكثر من ذلك، فقد كان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم، وكيف يلتزم هذا الخبر الضعيف مع قوله في هذا الحديث الصحيح: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اجتمع به وخاطبه وصرح له بحضرة قومه أنه لو سألته القطعة الجريدة ما أعطاه، ويحتمل أن يكون مسيلمة قدم مرتين الأولى كان تابعاً، وكان رئيس بني حنيفة غيره، ولهذا أقام في حفظ رحالهم، ومرة متبوعاً، وفيها خاطبه النبي ﷺ، أو القصة واحدة وكانت إقامته في رحالهم باختياره أنفةً منه واستكباراً أن يحضر مجلس النبي ﷺ، وعامله النبي ﷺ معاملة الكرم على عادته في الاستئلاف، فقال لقومه: "إِنَّهُ لَيْسَ بِشَرْكُم"، أي بمكان، لكونه كان يحفظ رحالهم، وأراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل، فلما لم يقف في مسيلمة توجه بنفسه إليهم ليقيم عليهم الحجة ويُعزِّرَ إليه بالإنذار". فتح الباري، جـ ٨، ص ٨٩، ٩٠.

(٢) ذكر الجاحظ أن مسيلمة الكذاب كان يطوف بأسواق العراق قبل تنبيهه بلمس تعلم الحيل واختيارات النجوم والمتنبئين، وأنه أحكم حيل السدنة والحواء وأصحاب الزجر والخط ومذهب الكاهن والعياف والساحر وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعة، ثم استخدم هذه الأمور في التلبيس على الأعراب، وذكر الجاحظ أمثلة لحيله التي كان يفعلها لقومه فتنتلي عليهم. الحيوان، تحقيق/ محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، جـ ٤، ص ٣٦٩-٣٧٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٦، ص ٣٥٩. ونقله الكلاعي من كتاب وثيمة المعنون بالردة، وهو مفقود. الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٤١.

(٤) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١١٣.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٧، من رواية سيف.

وطلب الأعراب من مسيلمة مجارة النبي ﷺ في معجزاته، فتمضمض يوماً في بئر فغارت، ومسح على رأس صبي فقرع، ودعا لآخر فعمي، ودعا لآخر فمات من يومه، ومسح ضرع ناقة لتدرّ فيبست أخلافها وانقطع درّها^(١).

وكان الرجال بن عَنُفُوَة الحنفيّ قد وفد على النبي ﷺ مع قومه، فأظهر الإسلام^(٢)، وجعل في أيام مقام الوفد بالمدينة يختلف إلى الصحابيّ المقرئ أبيّ بن كعب ﷺ ليتعلّم منه القرآن وشرائع الإسلام^(٣)، ولازم قراءة القرآن وفعل الخير والخشوع، حتّى ظنّه الصحابة أفضل من وفد عليهم لما رأوا من حرصه على الخير^(٤).

وبالرغم من معرفة النبي ﷺ لنفاق الرجال فإنّه لم يعيّنهُ صراحة للصحابة، ولم يبده لهم، وإنّما أخفاه في نفر آخرين^(٥)، ويرفع الرواة في شأن الرجال حديثاً إلى رسول الله ﷺ يلمّح فيه بسوء منقلب الرجال، فيروون عن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: جلست مع النبي ﷺ في رهط معنا الرجال بن عَنُفُوَة، فقال: "إِنَّ فِيكُمْ لَرَجُلًا ضَرَسُهُ فِي النَّارِ أَعْظَمُ مِنْ أَحَدٍ"^(٦)، "وإنّ معه لقفا غادر"^(٧)، ويحدّث أبو هريرة ﷺ بأنّ الرهط الذين أشار إليهم النبي ﷺ قد ماتوا على غير ضلالة، وبقي هو والرجال، فلم يزل متخوفاً من قول رسول

(١) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١١٥؛ ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين، جـ ٣، ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١هـ/١٩٥٢م، جـ ٣، ص ٥١٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٣١٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١١٣.

(٤) ابن حجر: الإصابة، جـ ٢، ص ٤٤٦.

(٥) لم يكن النبي ﷺ يحبّ الكشف عن أسماء المنافقين، بل كان يستترهم، غير أنّه أطلع حذيفة بن اليمان ﷺ على أسمائهم، واختصّه بذلك دون غيره، فكان صاحب سرّ رسول الله ﷺ في شأنهم. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق/ علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، جـ ١، ص ٧٠٦.

(٦) رواه الحميدي بسند ضعيف، فالراوي عن أبي هريرة رجل من بني حنيفة مجهول. مسند الحميدي، تحقيق/ حسين سليم أسد، دار السقا، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، جـ ٢، ص ٢٩٧، ح ١٢١١، وقد أورده البوصيري من طريق الحميدي وقال: "هذا إسناده ضعيف". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ ٤، ص ٢٣٣.

(٧) رواه سيف بن عمر التميمي في الفتوح. ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ١، ص ٣٨٩، وسكت عنه الحافظ ابن حجر في الإصابة، جـ ٢، ص ٥٣٩، جـ ٥، ص ٣٥٧. وعند الطبراني أنّ النبي ﷺ تحدّث عن نفر فيهم الرجال، وهم: أبو هريرة الدوسي، وأبو أروى الدوسي، والطفيل بن عمرو الدوسي، ورجال بن عَنُفُوَة، فقال: "أحد هؤلاء النفر في النار". المعجم الكبير، تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، جـ ٤، ص ٢٨٣، ح ٤٤٣٤، وضعفه الهيثمي؛ لأنّه من طريق محمد بن عمر الواقدي. مجمع الزوائد، تحقيق/ حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، جـ ٨، ص ٢٩٠.

الله ﷺ حتى خرج الرّجال مع مسيلمة، فشهد له بالنّبوة، فكانت فتنة الرّجال أعظم من فتنة مسيلمة^(١)، ولما بلغ أبا هريرة ؓ مقتل الرّجال مع مسيلمة خرّ ساجدا^(٢).

وأرى أنّ الرّجال لم يعتنق الإسلام أصلاً؛ وإنّما تظاهر به بالاتّفاق مع الدّاهية الشّيطان مسيلمة الحنفيّ الكذاب، خاصّة وأنّ كثيراً من بني حنيفة كانوا يؤمنون بمسيلمة نبياً في الجاهلية، ويطلقون عليه "رحمان اليمامة"^(٣)، وقد تعلّم الرّجال سوراً من القرآن على يد أبيّ بن كعب ؓ، وأظهر صلاحاً لينطليّ كذبه وخداعه على النّاس، كما بالغ في إظهاره للصّلاح زيادة في النّفاق، وحتىّ تحين الفرصة للدّور الذي سيقوم به في تأييد دعوى مسيلمة^(٤).

وتجرّأ مسيلمة الكذاب في آخر السّنة العاشرة من الهجرة فزعم أنّه أشرك مع رسول الله ﷺ في النّبوة، وكتب إليه يفترى قائلاً: "مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ أَشْرَكْتُ مَعَكَ فِي الْأَمْرِ، وَإِنَّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلِقُرَيْشٍ نِصْفَهَا، وَلَكِنْ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ"^(٥).

فردّ عليه رسول الله ﷺ برسالة قال فيها: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، أَمَّا بَعْدُ، فَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"^(٦).

وكان مسيلمة قد بعث برسائله إلى الرّسول ﷺ مع رجلين من أتباعه، فلمّا اطّلع عليها رسول الله ﷺ سأل المبعوثين عن عقيدتهما في مسيلمة وقولهما في كتابه؟ فقالا:

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٦، ص ٣٥٦.

(٢) ابن حجر: الإصابة، جـ ٢، ص ٥٣٩.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ ٤، ص ٣٧١؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار السّاقى، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، جـ ١١، ص ٨٥.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: الرّدة في العهد النّبوي، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية الأزهرية بأسبوط، العدد ٣٥، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص ٢١٨٩.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٦٠٠؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٠٣. والأثر صحيح، لكنه مرسل عن عروة بن الزبير، وله شواهد بأسانيد يقوّي بعضها بعضاً. ينظر ابن حجر: المطالب العالمة بزائد المسانيد الثمانية، جـ ٩، ص ٥٩٧، ٥٩٨.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٦٠٠، ٦٠١. وقال الهيثمي: "رواه الطبراني من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أشجع، ولم يسمه"، وصرح به في رواية أبي داود. مجمع الزوائد، جـ ٥، ص ٣١٥. ولذا فهو صحيح بطرقه وشاهدته، كما خرّجه محققو مسند الإمام أحمد. جـ ٢٥، ص ٣٦٦، ٣٦٧.

"تَشْهَدُ أَنَّ مُسَيِّمَةَ رَسُولُ اللَّهِ"، فقال رسول الله ﷺ: "أَمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَوْ كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَاتَلْتُكُمْ"^(١)، وعلق عبد الله بن مسعود عليه السلام -راوي الحديث- فقال: "فَمَضَتْ السُّنَّةُ بِأَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ"^(٢).

وأما رسالة رسول الله ﷺ فقد حملها حبيب بن زيد الأنصاري^(٣) إلى مسيلمة، فلما سلّمه الرسالة جعل الكذاب يقول له: "أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول له: أو تشهد أنني رسول الله؟ فيقول: أنا أصم لا أسمع، فعل ذلك مراراً، وكان في كل مرة لا يجيبه فيها إلى طلبه يقطع من جسمه عضواً، ويبقى حبيباً صابراً محتسباً إلى أن قطعه إرباً إرباً، فاستشهد حبيب عليه السلام بين يدي الكذاب^(٤).

وتطبق غالبية المصادر على بعث النبي ﷺ نهار بن عَفْوَة الملقب بالرجال إلى مسيلمة ليخدل عنه الناس، ويظهر لهم كذبه، فلما أتى اليمامة انقلب على وجهه، وأخذ يشهد لمسيلمة أمام الناس أن رسول الله ﷺ أشركه معه في النبوة، فكان هذا الشقي أشد فتنة على الناس من مسيلمة^(٥)، ويبعد أن يرسل النبي ﷺ الرجال لهذه المهمة الدعوية وهو يعلم نفاقه، ولهذا فإن الرواية التي تنص على إرسال الصديق عليه السلام للرجال إلى أهل اليمامة^(٦)، هي الأولى بالقبول^(٧)، بل إن المقرري يصرح بأن الرجال أتى الصديق فأرسله إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الله ويثبتهم على الإسلام^(٨)، وذكرت بعض المصادر أنه رجع إلى اليمامة مرتداً، ولم تقل أرسله رسول الله ﷺ ولا أبو بكر الصديق^(٩).

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٦، ص٣٠٦، ح٣٧٦١. وصحح محققو المسند هذا الحديث بطرقه. وفي رواية نعيم بن مسعود الأشجعي: "أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمْ". ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٦٠٠؛ أحمد ابن حنبل: المسند، ج٢٥، ص٣٦٦، ح١٥٩٨٩. والحديث صحيح بطرقه وشاهده كما قرر محققو المسند.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٦، ص٣٠٦، ح٣٧٦١، والحديث صحيح بطرقه.

(٣) أمه نسيبة بنت كعب المازنية المعروفة بأم عمار. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص٦٧٥.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٣٢٠.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٣١٦، ٣١٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٣؛ ابن حبان: الثقات، ج٢، ص١٧٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٦؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أحوال العرب والعجم والبربر، تحقيق/ خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٢، ص٥٠١.

(٦) يرويه الطبري بإسناده إلى أبي هريرة عليه السلام من طريق سيف بن عمر التميمي. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٨.

(٧) محمد عبد العال محمد حسن: الردة في العهد النبوي، ص٢١٩٠.

(٨) إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، ج٢، ص٢٧٨.

(٩) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٢، ص٣٥٦؛ الصفي: الوافي بالوفيات، تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، وتركى مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١٤، ص٧٤.

❏ القضاء على فتنة مسيلمة الكذاب:

لم تكن حنيفة كلها متابعة لمسيلمة الكذاب، وإنما ثبت فيها عدد من ذوي العقول على الإسلام بزعامة ثمامة بن أثال الحنفي الذي تمكن من الصمود في وجه المرتدين بمساعدة أمداد بني تميم قبل أن تستغويهم سجاح بنت الحارث وتضعف مقاومته، فعندئذ أقام ينتظر جيوش الخلافة^(١).

وصدرت أوامر الصديق لسيف الله المسلول بالتوجه إلى اليمامة والصمود لمسيلمة^(٢)، فلما علمت بنو حنيفة بقرب خالد خافت جماعة منهم لقاءه، ولجئوا إلى ثمامة بن أثال فخرج بهم في جوف الليل، ولحقوا بخالد بن الوليد فأتمهم^(٣).

ولما شارف خالد اليمامة أسر مجاعة بن مرارة الحنفي في نحو عشرين رجلاً من قومه، فلما أصرّوا على نبوة مسيلمة أمر خالد بضرب أعناقهم إلا مجاعة، فإنه استبقاه واستوثق منه بالحديد^(٤)، وكان مجاعة بن مرارة سيداً في بني حنيفة، شريفاً مطاعاً، فكان خالد كلما نزل منزلاً واستقرّ به، دعا مجاعة فأكل معه وحدثه^(٥).

ولما سمع مسيلمة بقدوم خالد عباً جيشه، فجعل المحكم بن الطفيل على ميمنته، والرجال بن عنفة على ميسرته، وعسكر في مكان يقال له عقرباء في طرف اليمامة^(٦)، في مثل عدد المسلمين^(٧).

ولما اصطدم الفريقان انهزم المسلمون مرتين^(٨)، لحشو الصقوف بالأعراب^(٩)، ثم اقتتلوا قتالاً شديداً فانكشف المسلمون^(١٠)، مرةً ثالثة^(١١)، حتى بلغوا الرجال^(١٢)، ودخلت

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٦٨، من طريق سيف.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٧. ورواه المقدسي بإسناد صحيح. الأحاديث المختارة، جـ ١، ص ١٣٢.

(٣) الواقدي: الردة، ص ١١٦، ١١٧.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٨.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١١٩.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٧٨.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٢٨.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٤٦، بإسناد صحيح، وروى المقدسي عن وحشي الحبشي بإسناد صحيح أن جيش المسلمين انهزم أمام حنيفة ثلاث مرار. الأحاديث المختارة، جـ ١، ص ١٣٢.

(٩) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٢٥.

(١٠) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٧. وثبت في صحيح البخاري انكشاف الناس يوم اليمامة. (كتاب الجهاد والسير، باب التحنط عند القتال)، جـ ٣، ص ١٠٤٦، ح ٢٦٩٠.

(١١) المقدسي: الأحاديث المختارة، جـ ١، ص ١٣٢، عن وحشي الحبشي بإسناد صحيح.

(١٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٨.

بنو حنيفة خيمة خالد عليه السلام، وهموا بقتل زوجته "أم تميم"^(١)، فأجارها مجاعة الذي كان محبوبا في خيمة خالد^(٢).

وعمل خالد على إخماء الناس للقتال، فميز المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وجعل كل بني أب على رأيهم، يقاتلون تحتها، حتى يعرف الناس من أين يؤتون^(٣).
وقد أثمرت هذه الخطة التي وضعها القائد العبقرى، فتلاوم المهاجرون والأنصار، وكانوا قريبا من ألفين وخمسمائة، فأقبلوا على الكافرين مستقتلين وتنادوا: "يا أصحاب سورة البقرة"^(٤)، وحرّض زيد بن الخطاب عليه السلام المسلمين على القتال، ثم أقسم بالله "لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي"^(٥)، وغضب ثابت بن قيس بن شماس -حامل لواء الأنصار- وسالم مولى أبي حذيفة^(٦) -حامل لواء المهاجرين- من انكشاف المسلمين، وحفر كل منهما لنفسه حفرة في الأرض، وتبرا ثابت إلى الله مما جاء به المشركون، واعتذر من صنيع المسلمين، وطفق يلوم المسلمين بعدما انهزموا أمام بني حنيفة للمرة الثالثة^(٧)، ويقول: "بئس ما عودتم أقرانكم"، ثم تحنط^(٨)، ولبس أكفانه، وثبت يقاتل المشركين حتى قتل^(٩).

(١) أم تميم: هي أرملة مالك بن نويرة التميمي، وقد تزوجها خالد بن الوليد بعد مقتل مالك. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٢٧٣؛ ابن حبان: الثقات، ج٢، ص ١٦٩.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص ١٢٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص ٣٥٧؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص ١٢٥.

(٤) ثبت هذا الشعر عن أم المؤمنين عائشة بإسناد حسن. أبو داود: مسند عائشة، تحقيق/ عبد الغفور عبد الحق حسين، مكتبة الأقصى، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ص ٨٥، ورواه ابن أبي شيبه عن عروة بن الزبير مرسلا بإسناد صحيح. المصنف، ج٦، ص ٥٤٧. وزعم سيف التميمي أن شعار المسلمين يوم اليمامة كان "يا محمدا". وإسناده ضعيف جدا، ففيه رجل مجهول مع سيف. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٢٨١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص ٣٥٧.

(٦) أخذ سالم مولى أبي حذيفة راية المهاجرين عقب مقتل عبد الله بن حفص بن غانم القرشي. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٢٨٠؛ ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص ٥٤.

(٧) الطبراني: المعجم الكبير، ج٢، ص ٧٠، ح ١٣١٩، من حديث يرتقي إلى درجة الصحيح لغيره، كما في تخريج المطالب العالمة لابن حجر. ج١٦، ص ٥٠٩.

(٨) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب التحنط عند القتال)، ج٣، ص ١٠٤٦، ح ٢٦٩٠.

(٩) الطبراني: المعجم الكبير، ج٢، ص ٦٥، ح ١٣٠٧، وقال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج٩، ص ٣٢٣، ح ١٥٧٨٥. ولما استشهد ثابت سرق رجل درعه، وأكب عليها برمة، وجعل على البرمة رخلا، فرأى رجل من المسلمين ثابتا في منامه، فأخبره بأمر الدرع ومكانها، وأوصاه إذا رجع إلى المدينة أن يخبر الخليفة بدينه، وأن يعتق غلاما له سماه، فوجدوا الدرع كما قال، وأنفذ أبو بكر عليه السلام وصيته، ولا يعلم ذلك عن غيره. الحاكم: المستدرک، ج٣، ص ٢٦٠، ٢٦١، ح ٥٠٣٦، ٥٠٣٦، وقد صحح الحاكم خبر الدرع والوصية من حديث أنس بن مالك على شرط مسلم، وأقره الذهبي. والأثر يرتقي إلى درجة الصحيح لغيره كما قرر محقق المطالب العالمة لابن حجر، ج١٦، ص ٥٠٩.

ونادى أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: "يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِالْفِعَالِ"^(١)، فالتفّ المهاجرون حول سالم مولى أبي حذيفة، وصارحوه بخوفهم على لوائهم: فقال: "بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا إِذَا"، وثبت يقاتل فقطعت يمينه، فأخذ اللواء ببساره، فقطعت يساره، فاعتنق اللواء وهو يحرض المسلمين على القتال، فلما صرع أوصى أصحابه أن يضجعوه بجانب مولاه أبي حذيفة الذي سبقه إلى الشهادة^(٢).

وخرج وحشي بن حرب الحبشي مع المسلمين لقتال مسيلمة فضارب بسيفه في بني حنيفة حتى غري قائم سيفه من دمائهم^(٣).

وكان تراجع المسلمين قد اشتد على سيف الله المسلول ﷺ، فنظر إلى السماء، ثم إلى الأرض - وكان إذا حزبه أمرٌ نظر إلى الأرض ساعة، ثم نظر إلى السماء ساعة، ثم يفرق له رأيه - ثم رفع رأسه، وأمر البراء بن مالك - أخو أنس - أن يحمل على المرتدين، فركب البراء ﷺ فرساً له، وحضّ المسلمين على القتال، ثم هجم على المشركين، وتبعه الناس^(٤)، ووقف مُحَكِّمَ اليمامة للمبارزة فأسرع إليه البراء فصرعه، وأخذ سيفه فضربه به حتى انقطع، فرمى به، وعاد إلى سيفه^(٥).

وحمل خالد ﷺ على المشركين حتى جاوزهم، وهو يرجو أن يصل إلى مسيلمة، ثم رجع فوقف بين الصّفين^(٦)، كما بارز عبد الله بن عمر ﷺ رجلاً فقتله، وأخذ سلبه^(٧).

وصبر المهاجرون والأنصار يومئذٍ صبراً عظيماً، وما زالوا يتقدّمون إلى نحور عدوّهم حتى تلاحق بهم الناس، فدفعوا بني حنيفة دفعة واحدة، حتى أقحموهم في

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٨٠، من طريق سيف، وابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٦، ص ٣٥٧.

(٢) ابن المبارك: الجهاد، تحقيق/ نزيه حماد، الدار التونسية، تونس، ١٩٧٢م، ص ٩٨؛ البغوي: معجم الصحابة، جـ ٣، ص ١٤٤. والأثر مرسل؛ لأنّ راويه حنظلة بن أبي سفيان لم يدرك الحادثة. البخاري: التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، بدون تاريخ، جـ ١، ص ٢٨٣؛ ابن حبان: الثقات، جـ ٦، ص ٢٢٦.

(٣) رواه المقدسي عن وحشي بإسناد صحيح. الأحاديث المختارة، جـ ١، ص ١٣٣.

(٤) ابن المبارك: الجهاد، ص ١٣٤؛ ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٤٧، وإسناده صحيح.

(٥) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٤٦، ٥٤٧، بإسناد صحيح، وخليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٨.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٦، ص ٣٥٧.

(٧) سعيد بن منصور: السنن، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، جـ ٢، ص ٣٠١؛ ابن المنذر: الأوسط من السنن والإجماع والاختلاف، دار الفلاح، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، جـ ٦، ص ١٢٣. والأثر من طريق حجاج بن أرطاة، وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس، وقد عنعنه. ينظر ابن حجر: تقريب التهذيب، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ، جـ ١، ص ١٣٥.

الحديقة^(١)، فتحصنوا بها وفيهم مسيلمة، وأحاط بهم الصحابة، وكان الكفار قد أرادوا هزيمة الأعراب كما بدؤوا بهم في الممرار السابقة فثبتوا لهم^(٢).

وبرز البراء بن مالك رضي الله عنه فطلب من الجند أن يلقوه على المحصورين في الحديقة، فاحتملوه فوق الحَجَف^(٣)، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلهم حتى فتح الباب^(٤)، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من مرتدة اليمامة، حتى خلصوا إلى مسيلمة، وإذا هو واقف في ثلثة جدار كأنه جمل أورك، وهو لا يعقل من الغيظ، فتقدم إليه وحشي قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، فضربه بالسيف فسقط^(٥)، وكان أبو دجانة قد رمى بنفسه في الحديقة فانكسرت رجله، فلم يزل يقاتل عليها حتى استشهد يومئذ^(٦).

وكان لعبد بن بشر الأنصاري رضي الله عنه دور كبير في رفع معنويات قومه بعد انكشافهم، وقد تقدمهم مع البراء وأبي دجانة وهم يدفعون الكفار في حديقة الموت، ولم يزل يجالدهم بسيفه بداخلها حتى لقي الشهادة^(٧)، وبلغ عدد شهداء المسلمين ألفاً ومائتي رجل^(٨)، فيهم جماعة من حملة القرآن^(٩).

ورأى مجاعة ما أصاب المسلمين فخدعهم، وادعى أن أكثر أهل اليمامة لم يخرجوا للقتال، فصالحه خالد على نصف الصقراء والبيضاء والحلقة والكراع وربع

(١) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٢٦. وقد عرفت الحديقة بعد هذا اليوم بحديقة الموت.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٢٩.

(٣) الحَجَف: جمع حَجَفَة، وهي ترس من الجلود مقورة. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٩، ص ٣٩.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٩. وذكر ابن حجر أن بقي بن مخلد رواه في مسنده. الإصابة، جـ ١، ص ٤١٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٦، ص ٣٥٧. وثبت في صحيح البخاري أن وحشي الحبشي قذف حربته نحو مسيلمة،

ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته، وسمع عبد الله بن عمر جارية من فوق بيت تقول: قتله العبد

الأسود. البخاري: (كتاب المغازي، باب قتل حمزة بن عبد المطلب)، جـ ٤، ص ١٤٩٤، ح ٣٨٤٤. وتختلف الروايات

كثيرا في تعيين قاتل مسيلمة. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٤؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٣٧٠.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١١.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٢٦، ١٢٧.

(٨) ورد هذا العدد في كتاب أبي بكر لخالد بعد الوقعة. الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٤٢.

(٩) ذكر الواقدي أنه استشهد من حملة القرآن سبعمائة رجل: الردة، ص ١٤٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢،

ص ٢٨٤. وروى خليفة بن خياط عن سعيد بن المسيب أنهم كانوا خمسين رجلا أو ثلاثين. تاريخ خليفة، ص ١١١.

السَّبي -يريد الخدم- فلما فرغ من الصِّلح فتحت الحصون، وليس فيها إلا النساء والصبيان^(١)، وطلب خالدٌ ﷺ من مجاعة بعدما تمَّ الصِّلح أن يزوجه بابنته، فزوجه منها^(٢)، وأرسل الصَّدِّيق إلى خالد إن أظفره الله أن يقتل جميع البالغين من بني حنيفة، فأتاه رسوله بعدما صالحهم^(٣)، وأتمَّ خالدٌ عقده معهم، ووفَّى لهم، وأسلم أهل اليمامة فأخذت منهم الصدقة^(٤).

ولما علم الصَّدِّيق بزواج خالد ﷺ كتب إليه يلومه فيه ويقرّعه بسبب مصالحته لمجاعة وزواجه بابنته، فبعث خالد إليه كتاباً مع أبي برزة الأسلمي ﷺ يدافع فيه عن موقفه بالحجة الواضحة والمنطق القوي، فلما قرأه الصَّدِّيق رقّ له بعض الرقة، وقام أبو برزة الأسلمي فعذر خالدًا عند الصَّدِّيق فقبل منه^(٥).

وكان البراء بن مالك ﷺ قد أصيب في مقاتلته بني حنيفة على باب الحديقة ببضع وثمانين جراحةً من بين رمية بسهم وضربة بسيف، فحمل إلى رحله يُداوى، فأقام عليه خالدٌ شهراً^(٦).

❏ ردة أهل البحرين:

كانت قبائل عبد القيس، وبكر بن وائل، وتميم تقيم ببادية البحرين التي يحكمها المنذر بن ساوي^(٧) من قبل الفرس^(٨)، فأرسل النَّبِيُّ ﷺ العلاء بن الحضرمي^(٩) إلى المنذر قبل فتح مكة، فأسلم^(١٠)، وتبعته القبائل العربيّة، وبعض العجم^(١١)، وأقام المنذر الإسلام

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٥، ١١٦.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٣٧.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٦.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٠٩.

(٧) يختلف النسابة في القبيلة التي ينتسب إليها المنذر بن ساوي بين عبد القيس وتميم، ويرجح ابن حجر كونه تميمياً، ويخطئ القول بغير ذلك. الإصابة، ج ٦، ص ١٩٦.

(٨) كانت البحرين تابعة لمملكة الفرس، وكان المنذر بن ساوي تابعاً للفرس قبل إسلامه. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٠٤.

(٩) يرجع أصل العلاء إلى حضرموت اليمنية، إلا أنّ أباه عبد الله بن ضمار كان قد سكن مكة، وحالف حرب بن أمية. ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٥٤١.

(١٠) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٧٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٥، ص ٥٨.

(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٠٤.

والعدل في قومه، ولكنه توفي بعد رسول الله ﷺ بمدة قصيرة، فارتد غالبية أهل البحرين عن الإسلام^(١).

وكان الجارود بن المعلّى العبدي قد قدم على النبي ﷺ وتفقه في الدين، ثم رده النبي ﷺ إلى قومه عبد القيس، فأقام بينهم، فلما مات النبي ﷺ قام فيهم حتى ثبتهم على الإسلام^(٢)، وكانت حجتهم: "لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمْ يَمُتْ"، فجمعهم الجارود ﷺ، وسألهم عن مصير الأنبياء السابقين، فأخبروه بموتهم، فقال: "إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ كَمَا مَاتُوا، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ"، فرجعوا إلى الإسلام^(٣).

وهذا موقف يذكر للجارود ﷺ، فقد ثبت الله به قومه عبد القيس فثبتوا على إسلامهم، ويتبين منه مزية التفقه في الدين، وأثر ذلك في توجيه الاعتقاد والسلوك وخاصة عند حدوث الفتن^(٤).

وكان المثنى بن حارثة الشيبانيّ الرّبعيّ قد اتخذ موقفاً معادياً لأبناء عمومته من بكر بن وائل عندما أعلنوا ردتهم، فكتب إليهم يلومهم على فعلهم، وينهاهم عن حربهم لإخوتهم بني عبد القيس، ويهددهم بالمهاجرين والأنصار، ولكنهم تهادوا في غيهم، ولم يقبلوا من المثنى ما أشار به عليهم، واعتبروا كلامه من الحسد لهم^(٥).

وسدرت بنو بكر بن وائل في ردتهم، وأرسلوا إلى كسرى يسألونه أن يولي عليهم رجلاً من قبله، ويعينهم على محاربة بني عبد القيس الذين ثبتوا على إسلامهم، فأمر عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر الشهير بالغرور، وضم إليه نحو سبعة آلاف فارس، فاجتمع المرتدون والفرس على محاربة المسلمين بالبحرين^(٦).

وتزعّم الحطّم بن ضبيعة القيسيّ البكري^(٧) مرتدة البحرين، وقاتل المسلمين فنصر الله جند الإسلام، ثم عاودوا الكرة فانهزم المسلمون، وانحازوا إلى بلدة "جواثا"^(٨).

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٦؛ البلاذري: فتوح البلدان ص ١٠٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٠٩؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٤٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٥. من طريق سيف.

(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، دار الدعوة، الطبعة الأولى، جدة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج ٩، ص ٩٧.

(٥) الواقدي: الردة، ص ١٤٩ - ١٥١؛ ابن أعثم: الفتوح، ج ١، ص ٣٩.

(٦) الواقدي: الردة، ص ١٤٧، ١٤٨؛ ابن أعثم: الفتوح، ج ١، ص ٣٧، ٣٨.

(٧) الحطّم: هو شريح بن ضبيعة البكري الشهير بالحطّم، أحد بني قيس بن ثعلبة. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٠٩.

(٨) جواثا: حصن لعبد القيس في أرض هجر. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٤.

فضرب الكفار عليهم الحصار، وضيّقوا عليهم، ومنعوا عنهم الأقوات حتّى جاعوا جوعاً شديداً، فقال شاعرهم^(١):

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا بَكْرٍ رَسُولًا * * * وَفَتِيَانِ الْمَدِينَةِ أَجْمَعَيْنَا
فَهَلْ لَكُمْ إِلَى قَوْمٍ كِرَامٍ * * * قُعُودٍ فِي جَوَاثِمَا مُحْصَرَيْنَا
كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ فِي كُلِّ فَجٍّ * * * شُعَاعُ الشَّمْسِ يَغْشَى النَّاطِرَيْنَا
تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إِنَّا * * * وَجَدْنَا النَّصْرَ لِلْمُتَوَكِّلَيْنَا

وسارع الصّدّيق بإرسال العلاء بن الحضرميّ لنجدة المحاصرين، فاستنهض المسلمين في طريقه إليهم^(٢)، وسار حتّى نزل بجوارهم، وخندق المسلمون والمشركون، فكانوا يتراوحن القتال، ثم يرجعون إلى خندقهم، وظلّ الأمر على ذلك حتّى سمع العلاء ذات ليلة أصواتاً عالية في جيش المرتدّين، فانتدب رجلاً من أصحابه لكشف خبرهم، فوجدهم سُكاري لا يعقلون من الشرّاب، فهجم العلاء من فوره على الكافرين، فأعمل فيهم السيّف، واستولى على أموالهم وأثقالهم، وقُتل الحطّم زعيمهم^(٣)، وفرت فلول المرتدة إلى جزيرة "دارين" فتوجّه إليهم العلاء، وانقضّ عليهم بجنده فأهلكوهم، ثم رجعوا إلى البحرين، وعزّ الإسلام وأهله في تلك البلاد، وذلّ الشرك وأهله^(٤).

❏ ردة عُمان:

بعث النّبى ﷺ عمرو بن العاص سنة ٨هـ/٦٢٩م لدعوة ملكي عُمان، عبّاد وجيفر ابني الجُلندى (الجُلنداء) إلى الإسلام، فلمّا وصلهما كتاب النّبى ﷺ أسلما، ودعوا أتباعهم من قبائل الأزدي وغيرهم إلى الإسلام فأجابوا إليه ورغبوا فيه، وأقام عمرو بن العاص لجمع زكوات عمان، فلمّا توفي رسول الله ﷺ تنبأ ذو النّاج لقيط بن مالك الأزديّ، وتبعه قومه، وغلب على عمان، وأزاح جيفرا وعبّاداً إلى نواحي الجبال والبحر، فكتب جيفراً إلى الصّدّيق بالخبر، فوجّه إليهم حذيفة بن محصن الغلفانيّ، وعرفجة بن هرثمة البارقيّ الأزديّ، وعكرمة بن أبي جهل، فنصرهم الله على المرتدّين، وقتل ذو النّاج^(٥).

(١) الواقدي: الردّة، ص ١٥٢، ١٥٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٢) الواقدي: الردّة، ص ١٥٥ - ١٥٩؛ ابن أعثم: الفتوح، ج ١، ص ١٤٩؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٤٩.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٠٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٩١، ٢٩٢.

❏ فتنة الأسود العنسي وردة اليمن:

كانت اليمن تابعة للإمبراطورية الفارسية منذ وفاة سيف بن ذي يزن الحميري الذي تمكن من طرد الأحباش بمعاونة الفرس، لأنه لما هلك سيف أصبح قائد الحامية الفارسية أميرا على اليمن، وتزوج الفرس من أهل اليمن وسمي أولادهم بالأبناء^(١).

ولما بعث النبي ﷺ بكتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام عقب صلح الحديبية في أواخر السنة الهجرية السادسة وأوائل السابعة^(٢)، أرسل كتابا إلى كسرى - ملك الفرس - يدعوهم إلى الإسلام مع عبد الله بن خذافة السهمي، فلما قرأه حرّقه^(٣)، فدعا عليهم النبي ﷺ أن يمزقوا كل ممزق^(٤).

وكتب كسرى إلى باذام^(٥) عامله على اليمن أن يبعث رجلين من قبله ليستكشفاه له أمر النبي ﷺ، فقدم المدينة بكتاب من باذام، فلما دفعاه إلى رسول الله ﷺ تبسم ودعاهما إلى الإسلام، وأمرهما أن يأتياه من الغد، فلما دخلا عليه أخبرهما أن الله ﷻ قتل كسرى^(٦)، وعندما رجعا إلى باذام بذلك الخبر أسلم هو والأبناء^(٧).

واستعمل النبي ﷺ باذام على اليمن كلها، فلم يزل منفردا بعملها حتى مات، فأمر النبي ﷺ شهر بن باذام على صنعاء، وفرق جماعة من أصحابه على بقية بلاد اليمن، وبعث معاذ بن جبل عليه السلام معلما، فكان يتنقل في أعمال اليمن وحضرموت كيف يشاء^(٨).

وظلت بلاد اليمن في سلام وإسلام حتى أواخر العام العاشر الهجري، حيث ظهر فيها رجل كاهن مشعوذ يعرف بالأسود العنسي، وادعى النبوة فتبعته قبيلته "عنس" أول الناس، وافتنن به قوم من العوام والأعراب^(٩).

وأشاع العنسي جوا من العصبية القبلية فساق بها أتباعه لطرده عمال النبي ﷺ، وتقدم بهم نحو صنعاء، فتلقاه شهر بن باذام في أهل صنعاء، وتقابل الجمعان خارج

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٩٦.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج ١، ص ٣٨.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر)، ج ٤، ص ١٦١٠، ح ٤١٦٢.

(٤) ألحق الإمام الزهري هذه الفقرة برواية البخاري السابقة وهو يحسبها من مراسيل سعيد بن المسيب.

(٥) يرد في بعض المصادر باسم "بازان".

(٦) رواه ابن أبي شيبة مرسلا عن التابعي عبد الله بن شداد. المصنف، ج ٧، ص ٣٤٦، ٣٤٧؛ وابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص ٧٥٠.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٣٤.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٠.

المدينة، فتقاتلوا قتالاً شديداً قتل فيه شهرٌ، وانهزم أهل صنعاء، فغلب الأسود العنسيّ عليها، واستذلّ الأبناء، وتزوَّج المرزبانية "آداد"، امرأة شهر^(١)، وقسرها على ذلك، فأبغضته أشدّ البغض^(٢)، وتسَلَّط على المستمسكين بالإسلام فأبشع في تعذيبهم حتّى قطع رجلا يدعى النعمان عضوا عضوا^(٣).

ولكنّ الله ﷻ أظهر عجز العنسيّ وكذبه أمام أتباعه بحجّة بالغة، فقد استدعى التّابعي الشّهير أبا مسلم الخولانيّ وطلب منه أن يشهد له بالرسالة مرارا، فلم يزدّه أبو مسلم على قوله لا أسمع، وعندما سأله عن النّبيّ ﷺ شهد له بالرسالة، وجعل يكرّر قوله عليه كلّما سأله، فاستشاط العنسيّ غضبا، وأمر به فألقي في نار عظيمة، فلم تضربه، ولكنّ الضّالّين الذين استغواهم العنسيّ الكذّاب ومألّوه على أكاذيبه وافتراءاته لم تكن لهم عقول يفقهون بها، وتعاموا عن الحقيقة البيّنة، فأشاروا على متنبّيهم بإخراج أبي مسلم لئلا يفسد عليه أتباعه فيعودوا إلى الإسلام، فأمره بالرحيل، فأتى المدينة وقد قبض النّبيّ ﷺ واستخلف أبو بكر، فأنّاخ راحلته بباب المسجد النّبويّ، وقام يصلي إلى سارية فيه، فبصر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقام إليه، وسأله عن بلده، فلمّا علم أنّه من اليمن سأله عن الرّجل الذي أحرّقه العنسيّ الكذّاب بالنّار؟ فورى أبو مسلم، وقال: ذاك عبد الله بن ثوب، ولكنّ التّورية لم تنطل على الفاروق فقال: أنشدك الله أنت هو؟ فاعترف له، فاعتنقه عمر وبكى، ثمّ ذهب به فأجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتّى أراني في أمة محمّد ﷺ من فعل به ما فعل بإبراهيم خليل الله^(٤).

وبلغ النّبيّ ﷺ أمر الأسود الكذّاب فبعث إلى الثّابتين على الإسلام من الأبناء وعرب اليمن يأمرهم بالتّصديّ له والقضاء عليه^(٥)، فاتّفق قيس بن هبيرة المكشوح المراديّ وفروة بن مسيك المراديّ والأبناء على قتال العنسيّ والتّخلّص منه^(٦).

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ، (نصوص من الجزء الأول المفقود)، جـ ٣، ص ٢٦٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٠؛

الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٤٧، ١٤٨.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٥٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٥٣٥.

(٤) ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ٤، ص ١٧٥٨، وإسناد الأثر حسن متصل. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في

المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ٦٠٤.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٥٦.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٠، ١٣١.

ووجد زعماء اليمن من الأبناء والعرب في دعوة النبي ﷺ فرصة للتماسك والتّوحد تحت راية واحدة للقضاء على الأسود العنسي، ولم يكد زعماء الأبناء كفيروز ابن عبد الله الديلمي، وداؤويه، وخرزاذ، وجشيش (جشنس) ^(١) الديلمي -ابن عم آداد- يجتمعون مع قيس بن هبيرة المرادي على التّخلص من العنسيّ حتّى جاءتهم كتب نفر من كبار زعماء الهمدانيين والحميريين يبذلون لهم العون والقيام في حرب الكذاب ^(٢).

وقامت المرزبانة بدور عظيم في التدبير لقتل العنسيّ، فدلت زعماء قومها على الطريق الوحيد الذي يمكن أن يدخلوا منه لاغتياله من خلف البيت، وزاد من صعوبة مهمتها أنّه بدأ يكتشف تدبير هؤلاء القادة عليه، ولكنّ آداد تابعت عليه الشراب حتّى غطّ في النوم ^(٣)، ودخل عليه زعماء الأبناء وقيس ابن المكشوح فقتلوه ^(٤)، ولما سمع أصحابه الضّجة وهموا بالدخول منعتهم آداد، بحجة تنزل الوحي على نبيّهم، ثمّ ألقيت رأس العنسيّ على أصحابه فانتابتهم الرّهبة وعمّهم الخوف، ففروا هاربين، ولم تجاوز فتنة العنسيّ الأربعة أشهر ^(٥).

ويروى أنّ خبر مقتل الأسود أتى النبي ﷺ بالوحي من ليلته، فخرج على أصحابه فقال: "قُتِلَ الْعَنْسِيُّ الْبَارِحَةَ، قَتَلَهُ رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُبَارَكِينَ"، فقيل: ومن هو؟ قال: "فَيْرُوزُ، فَازَ فَيْرُوزُ" ^(٦).

وترك الأبناء أمر صنعاء لقيس ابن مكشوح فكان أميرها ^(٧)، لكنه ما لبث حتّى عمل على التّخلص من زعماء الأبناء وطردهم من صنعاء ^(٨)، فأثار أهل اليمن عليهم

(١) في رواية الفسوي: "جرجست". المعرفة والتاريخ، (نصوص من الجزء الأول المفقود)، جـ ٣، ص ٢٦٢.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٤٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٤٩.

(٤) يروي خليفة بن خياط أنّ الرواية اليمنية التي ينقلها الأبناء عن الآباء تجمع على فيروز الديلمي هو الذي حطّم عنق العنسي وقلته. تاريخ خليفة، ص ١١٧.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٤٩-٢٥٢؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٥٦-١٥٧.

(٦) رواه الطبري عن عبد الله بن عمر من طريق سيف بن عمر التميمي المتهم في الحديث. تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٥١، ورواه ابن منده وابن عساكر عن أبي هريرة من طريق آخر. معرفة الصحابة، تحقيق/ عامر حسن صبري، مطبوعات جامعة الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٥٤٥؛ تاريخ دمشق، جـ ٤٩، ص ١٦.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٥٧.

(٨) تذكر بعض المصادر أنّه فعل ذلك خوفا من قبيلة الأسود العنسيّ، ولذلك عمل على اغتيال زعماء الأبناء، فلم يتمكن إلا من قتل داؤويه، وهرب قيس بجشيش. ابن سعد: الطبقات الكبير، جـ ٦، ص ٢٦٤؛ ابن حبيب: أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام، ص ٩٣.

بالعصبية العربية، واجتمعت عليه فلول العنسي، وطابقوه على إخراجهم، ولكن أنصار فيروز تمكنوا من إحباط محاولة قيس، واستعادوا الأبناء المرحلين، وتمكن فيروز من هزيمة قيس ورجاله، فتذبذبوا بين صنعاء ونجران^(١).

وظل فيروز ومناصروه بين رباط وجهاد حتى أرسل الخليفة إليهم الجيوش والأمداد بقيادة عكرمة بن أبي جهل، والمهاجر بن أبي أمية المخزومي، وجريز بن عبد الله البجلي، فالتقت جيوش الخليفة مع جموع اليمانيين والمرتدين الذين يقودهم قيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب الزبيدي فهزموهم شر هزيمة، واقتادوا قيسا وعمرا إلى أبي بكر رضي الله عنه، وانتهت ردة اليمن^(٢).

❏ القضاء على ردة حضرموت وكندة:

ولّى النبي صلى الله عليه وسلم زياد بن لبيد البياضي الأنصاري رضي الله عنه على قبائل حضرموت^(٣)، وكندة، فلما استخلف أبو بكر رضي الله عنه أقره على عمله، وكان لبيد رجلا حازما صليبا، فاشتد في مطالبة الناس بالصدقة، حتى أخذ قلوفا من رجل كندي، فسأله أن يردّها عليه ويأخذ غيرها فرفض، وكلمه الأشعث بن قيس الكندي فلم يجبه، وأصرّ على أخذها، فانتقضت عليه قبائل كندة، ولم يبق معه إلا السكون^(٤)، وأمسك الأشعث بن قيس عن البيعة ودفع الصداقات، ولم ينطق بالردة، وأظهر أنه يتربص اجتماع الناس فيكون كأحدهم^(٥).

وجمع بنو وليعة الكنديون لقتال زياد بن لبيد فبيتهم، وأعمل السيف في رقابهم، حتى قتل أشرفهم الذين يعرفون بالملوك الأربعة، وأقبل بالأسرى والأموال فمرّ بالأشعث ابن قيس وقومه فصرخ النساء والصبيان، فحمي الأشعث وجماعة من قومه للأسرى، وتعرّضوا لزياد، فأصيب جماعة من المسلمين، ثم هزم الأشعث وأتباعه، فاجتمعت كندة وعظماؤها إليه^(٦).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ٢٩٧ - ٢٩٩.

(٣) حضرموت: تقع شرق اليمن.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبعة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك)، تحقيق/ عبد العزيز عبد

الله السلومي، مكتبة الصديق، الطائف، ١٤١٦هـ، ص ٦٧٤، ٦٧٥.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٦.

ولمّا علم أبو بكر رضي الله عنه بخبر الأشعث الكنديّ حاول استصلاحه، فلمّا ينس منه أمدّ عامله بالمهاجر بن أبي أمية المخزوميّ، فأوقعا بالأشعث وقومه، فلجنوا إلى حصن النّجير، فحصرهم المسلمون حتّى جهدوا^(١)، فطلب الأشعث الأمان من زياد بن لبيد الأنصاريّ (اليمنيّ)^(٢)، واتّفق معه على فتح الأبواب مقابل الأمان على نفسه وولده وماله، حتّى يقدم على أبي بكر^(٣)، وغدر الأشعث بالمحاصرين، فلم يأخذ لهم أماناً^(٤)، ودخل المسلمون الحصن، فأمر لبيد بقتل أشراف المقاتلة^(٥)، وبعث بالأشعث إلى أبي بكر فمنّ عليه وحقن دمه^(٦)، فحسنت توبته.

والظاهر من الحديث عن الحرب بين زياد بن لبيد الأنصاريّ والأشعث الكنديّ أنّها لم تكن على الرّدة بقدر ما كانت على العصبية القبليّة من قبل الأشعث ومتابعيه، كما أنّ زياد بن لبيد يتحمّل جزءاً كبيراً من مسؤوليّة تلك الحروب، وكان عليه أن يلين في جمع الصّدقات ولا يأخذ كرائم أموالهم؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: "إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُوْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فِترَةً فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ"^(٧).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٦.

(٢) صراح الأشعث بن قيس لبيدا بأنّ المهاجر بن أبي أمية القرشي المخزومي سيقنته إن ولي أمره، فقبل لبيد عرض الأمان حتّى لا تتفاقم الأمور.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك)، ص ٦٧٤، ٦٧٥.

(٤) يروى أنّ الأشعث صالح لبيدا على سبعين رجلاً من المحاصرين، ثمّ نزل معهم فكانوا أحداً وسبعين، فطلب من لبيد إرساله إلى أبي بكر ليرى فيه رأيه. الطبقات الكبرى، (الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك)، ص ٦٧٧. وعلق الكلاعي بأنّ القول الأول أثبت من هذا. الاكتفاء، ج ٢، ص ١٦٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبقة الرابعة من الصحابة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك)، ص ٦٧٨.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٦.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا)، ج ٢، ص ٥٤٤، ح ١٤٢٥؛ (كتاب المغازي: باب بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجة الوداع)، ج ٤، ص ١٥٨٠، ح ٤٠٩٠؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام)، ج ١، ص ٥٠، ح ١٩٤.

وهذا يفسّر عدم حرمان الأشعث بن قيس الكنديّ من الإمارة في الفتوح خلال عصر الراشدين^(١)؛ "لأنّهم كانوا في الفتوح لا يؤمّرون إلا الصّحابة"^(٢). وكانت هذه الجولة مع أهم حركات الرّدة وأخطرها، وهناك حركات أخرى استطاع المسلمون أن يقضوا عليها بسهولة، وانتهى الأمر بالقضاء على كافّة حركات الرّدة وإسلام الجزيرة العربيّة كلّها، وتوحّدها تحت راية الخلافة.

❏ أهم نتائج حروب الردّة:

- تعرّف الأعراب على الدّين الصّحيح، وتيقّنوا بأنّه دين الله ﷻ الذي لا يرتبط بحياة أي شخص سواء كان نبياً أو ولياً.
- إعادة وحدة الدّولة، وتجريد البدو من سلاحهم وخيلهم إبان خلافة أبي بكر ؓ.
- أكسبت المسلمين المزيد من الخبرات القتاليّة والمعرفة بجغرافيّة جزيرتهم^(٣).
- كانت حروب الردّة أوّل تدريب عسكريّ عمليّ على الأرض لكافّة العرب المسلمين في الجزيرة العربيّة، على مستوى الجيوش الكبيرة والقيادات، ويمكن وصف هذه الحروب بمثابة جسر عبر المسلمون عليه إلى خارج الجزيرة بهدف الفتح.
- كان لحروب الردّة قيمة فنيّة لا تقدّر، حيث أعطت المسلمين الثّقة بالنّفس، وبالنّظام الذي اختاروه، وبالقدرة على الانتصار، في مواجهة قوى كبرى تتمتع بقدرات ماديّة وكثرة عدديّة^(٤).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢٢؛ الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق/ عبد المنعم عامر، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ، ص ١٣٥.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ١٥٩. وذكر ابن حجر أن ابن أبي شيبة رواه في مصنفه بإسناد لا بأس به.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ١٢٤.

(٤) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٩٠.

الفصل الخامس

فتوح العراق في عهد أبي بكر الصديق

بعد أن تمكّن الصديق ﷺ من القضاء على حركة الردّة العنيفة التي كادت أن تعصف بالدولة الإسلامية إثر وفاة النبي ﷺ شرع في تعبئة الجيوش، لمواصلة حركة الجهاد التي بدأها النبي ﷺ، وكانت الوجهة الإسلامية تتجه إلى بلاد الشام ومنازل الروم، ولكن مناصرة الفرس للمرتدين في البحرين ومطاردة المسلمين لهم سحبت الثابتين على الإسلام في تلك النواحي للاشتباك مع الفرس في أطراف بلاد العراق الجنوبية.

التمهيد لفتح العراق:

كان الشيبانيون يقيمون في أطراف سواد العراق، فلما هُزمت جنود الفرس وجموع المرتدين في البحرين، وتصدّى لهم المثنى بن حارثة الشيباني، تعدّت الفرس على قومه المقيمين في سواد العراق، وآذتهم إيذاءً شديداً^(١)، لكنّ المثنى الذي يتّصف بالشجاعة والشهامة^(٢)، لم يترك قومه عرضة لأذى الفرس، فجمع أصحابه، وجعل يغير على أطراف بلاد الفرس، بناحية الكوفة^(٣) وسوادها، ويهاجم حامياتها العسكرية^(٤)، ويأخذ من الدّهاقين^(٥) ما يقدر عليه، ولم يستطع الفرس أن يضعوا حداً لغاراته؛ لأنّهم كانوا إذا خرجوا لتعقبه يفرّ في الصّحراء، فلا يقدرّون على اتّباعه^(٦).

ولما وصلت أخبار غارات الشيبانيين ووقائعهم بالفرس إلى المدينة، تساءل الخليفة أبو بكر^(٧) أو الفاروق عمر^(٨): "مَنْ هَذَا الَّذِي تَأْتِينَا وَقَائِعُهُ قَبْلَ مَعْرِفَةِ نَسَبِهِ؟

(١) الواقدي: الردّة، ص ٢١٦، ٢١٧؛ ابن أعتم: الفتوح، ج ١، ص ٧١.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٤٥٦.

(٣) هذا باعتبار ما سيكون؛ لأنّ الكوفة مصّرت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وإنما كانوا يغيرون على الحيرة.

(٤) الواقدي: فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، مطبعة المحروسة، القاهرة، ١٣٠٩هـ / ١٨٩١م، ص ٣؛ ابن أعتم:

الفتوح، ج ١، ص ٧٣.

(٥) الدّهقان: لفظ فارسي معرّب يطلق على التاجر، وزعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم. الفيروزآبادي: القاموس المحيط،

مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٥٤٦.

(٦) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١١.

(٧) البلاذري فتوح البلدان، ص ٢٦٣؛ ابن أعتم: الفتوح، مج ١، ص ٧٣؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٥

ص ٥٥؛ ابن حجر: الإصابة، ج ٥، ص ٧٦٦.

(٨) الأزدي: فتوح الشام، طبعة كلّكتة، الهند، ١٨٥٤م، ص ٤٥؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٤٥٧؛ الكلاعي:

الافتاء، ج ٢، ص ٣٧١، والراجح أن القول لعمر؛ لأنّ أبا بكر ﷺ كان يعرف نسب المثنى، وأنّه شيخ شيبان وصاحب

حربهم، لأنّه لقيهم في مكة مع النبي ﷺ في موسم الحجّ الذي تعرّف فيه على الأنصار، ويبدو أنّ من نسب القول للصديق

اعتمد على أنّه خليفة المسلمين، وأنّه المعنى بهذه الأمور.

فأجابه قيس بن عاصم التميمي^(١): "هَذَا رَجُلٌ غَيْرُ خَامِلِ الذَّكْرِ، وَلَا مَجْهُولُ النَّسَبِ، وَلَا قَلِيلُ الْعَدَدِ وَالْمَدَدِ، وَلَا ذَلِيلُ الْعِمَادِ"^(٢)، هَذَا الْمُتْنَى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ.

ولم يلبث المتنى طويلاً حتى قدم على الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، وطلب منه أن يؤمره على من أسلم من قومه؛ ليقاتل بهم أهل فارس^(٣)، ويكفيه أهل تلك الناحية^(٤)، فاستجاب له الصديق، وأعطاه عهداً بالإمارة على قومه، فرجع حتى نزل خفان^(٥)، فنظم أتباعه في كتائب متعددة، وجعل يقاتل الفرس من ناحية الحيرة وما يليها، ويغير على أطرافها، ويتوغل في السّود، فغنم من تلك النّواحي غنائم كثيرة^(٦)، كما أكثر من الإغارة على مدينة فارسية من مدن السّود تسمى "دهشتاباذ أردشير" حتى خربها، فلما قدم المسلمون إلى العراق سموها الخريبة^(٧).

ولم يكتف المتنى بالغارات التي يقودها بنفسه، بل دعا ابن عم له يسمى سويد بن قطبة^(٨) بن قتادة السّدوسيّ الذّهليّ، فجهّز له جيشاً، ووجهه نحو الأبلّة -الميناء الرئيسيّ للعراق على الخليج- فجعل يقاتل الفرس من تلك النّاحية^(٩).

وظل المتنى يقاتل الفرس، ويغير على سواد العراق عاما كاملاً، أو نحواً منه، فلما توغل في الأراضي العراقيّة خشي من تكاثر الفرس، وتجمعهم ضده، فبعث أخاه مسعود بن حارثة إلى الصديق رضي الله عنه ليوقفه على حقيقة الأمر على الجبهة الفارسيّة، ويسأله المدد^(١٠)، فأدرك الخليفة خطورة الموقف إذا اجتمع الفرس على المتنى ومن معه وهزمهم، أو أجلوهم عن الأراضي التي دخلوها، كما أيقن أن فتح هذه البلاد التي

(١) قيس بن عاصم التميمي: من أشراف تميم في الجاهلية، وكان قد حرم على نفسه الخمر، ووفد على النبي ﷺ في وفد تميم سنة ٥٩هـ/٦٣٠م، فأسلم، وقال النبي ﷺ في حقه: "هذا سيد أهل الوبر"، وكان عاقلاً مشهوراً بالحلم، مات نحو سنة ٢٠هـ/٦٤١م. ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ٣، ص ١٢٩٤؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٥، ص ٤٨٣.

(٢) أي ليس بضعيف. الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٥.

(٣) الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٣؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق/محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، العراق، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ص ٣٥٣.

(٤) الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٠٨.

(٥) خفان: موضع قرب الكوفة، يقع في شمال القادسية. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٧٩.

(٦) الواقدي: الردّة، ص ١٧؛ ابن أعمش: الفتوح، جـ ١، ص ٧١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٠٨.

(٧) ياقوت: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٦١. والخريبة: تصغير خربة، وهي موضع بالبصرة، يقع على طرف البرّ منها. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٦٣.

(٨) قائد هذه الغارات عند الطبري هو قطبة وليس ولده. تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٠٧.

(٩) الواقدي: الردّة، ص ٢١٧؛ ابن أعمش: الفتوح، جـ ١، ص ٧١.

(١٠) الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٥، ٤٦.

تسيطر عليها الإمبراطورية الفارسية لا يتم إلا بقوة كبيرة؛ لذلك كتب إلى سيف الله خالد ابن الوليد الذي فرغ من حروب الردّة يأمره بالتحرّك إلى العراق، وولاه إمارة المسلمين بتلك الجبهة لقتال الفرس^(١).

فتح بلاد العراق:

أصدر الخليفة أبو بكر رضى الله عنه أمره لخالد بن الوليد بالتحرّك إلى أرض العراق عقب انتهائه من حروب الردّة^(٢)، وذلك بداية سنة ١٢هـ/٦٣٣م، وكتب إليه أن يأذن لمن شاء بالرجوع، ولا يكره أحداً على القتال معه، وأن يستنفر من قاتل أهل الردّة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله رضى الله عنه، ولا يأخذ معه أحداً من المرتدين حتّى يرى رأيه؛ ولذلك لم يشهد الفتوحات الإسلامية أحدٌ ممّن سبقت له الردّة خلال عهد أبي بكر رضى الله عنه^(٣).

ويزعم سيف التميمي أن الصديق أمر عياض بن غنم رضى الله عنه^(٤) على جيش آخر، ليفتح بلاد العراق من أعلاها في الوقت الذي يأتيها خالدٌ من أسفلها، ويكون أسبقهما إلى الحيرة -قاعدة البلاد- هو الأمير عليها^(٥)، لكن سيفاً لا يتابع على هذا القول.

وقد تزامن تحرّك خالد بن الوليد رضى الله عنه نحو العراق مع كتابة الصديق إلى المثنى بتأمر خالد على العراق، ومسيره إليه، ويأمره باستقباله بمن معه من قومه، وأن ينضم إليه، ويساعده، ويوازره، ولا يخالف رأيه ما أقام معه، فإن غادر العراق، فالمثنى على ما كان عليه من الإمارة^(٦).

وسار خالد رضى الله عنه إلى أرض العراق حتّى نزل النّباج^(٧)، وكان المثنى معسكراً بخفّان في انتظاره، فكتب إليه خالد ليأتيه، فأسرع إليه من فوره^(٨).

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١١؛ ابن أعتم: الفتوح، ج ١، ص ٧٢.

(٢) الأزدى: فتوح الشام، ص ٤٦، ٤٧.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٤) عياض بن غنم: هو عياض بن غنم بن زهير الفهري القرشي، أسلم قبل الحديبية وشهداها، وهو الذي فتح الجزيرة الفراتية وصالحه أهلها، وكان بالشام مع أبي عبيدة بن الجراح، فلما توفي استخلفه على حمص فأقره عمر، ومات سنة ٢٠هـ/٦٤١م. ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٤، ص ٣١٥؛ ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٧٥٧.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٦) الأزدى: فتوح الشام، ص ٥١؛ ابن أعتم: الفتوح، مج ١، ٢، ص ٧٦.

(٧) النّباج: موضع بين البصرة واليمامة، يبعد عن البصرة نحو ١٧٧ كم. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥٥.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٨.

وزعم الدينوري (ت: ٢٨٢هـ/٨٩٥م)^(١) أَنَّ الْمُثَنَّى ڪره ورود خالد عليه؛ لأنه ظنَّ أَنَّ أبا بكر سيوليه الأمر، وتابعه عليها بعض المحدثين^(٢)، مع أَنَّ تصرف المثنى ڪولاً وفعلًا لا يشير من قريب أو بعيد إلى ذلك؛ لأنه عندما وصلتة رسالة الصديق قام من فورهِ، وجمع إليه رجاله، وقال لهم: "لقد ڪرّمنا الصديق غاية التّكریم، كما بَشَرنا بمجيء خالد"^(٣)، ثم سار مسرعاً لا يلوي على شيء حتّى لقيه بالنبّاج^(٤)، بل تصف رواية الطّبري^(٥) سرعة استجابته لخالد بأنّه: "انقضّ إليه جواداً حتّى لحق به"، ممّا يدلّ على شدة فرح المثنى بقدوم خالد عليه.

وقد دفع هذا الموقف أحد المستشرقين^(٦) إلى أن يعترف للمثنى بإخلاصه البعيد عن الأثرة والأنانية للقضية التي يحارب من أجلها، بالإضافة إلى شخصيته العسكرية البارزة، وبراعته في الحروب.

ولمّا التقى القائدان العظيمان تبادلا التّقدير والاحترام، ونعت خالد المثنى "بفارس العرب وخليل كلّ مسلم"، فعندها لم يبق من الصحابة رجلٌ إلا سلّم على المثنى، وعظّم من حقّه^(٧)، وهذا يدلّ على تقدير المسلمين جميعاً لفارس بني شيبان الذي تجرّأ على غزو الفرس قبلهم، وشجّعهم على فتح العراق، والتّخلّص من الأكاسرة وطغيانهم.

وبانضمام المثنى وقواته إلى خالد بن الوليد في معسكره بالنبّاج بلغ عدد الجيش الإسلامي نحو ثمانية عشر ألفاً، وذلك أنّه قدم من اليمامة بألفين، وانضمّ إليه ثمانية آلاف، بين اليمامة والعراق، فقدم في عشرة آلاف، بالإضافة إلى ثمانية آلاف كانوا تحت قيادة المثنى الشّيباني^(٨).

(١) الأخبار الطوال، ص ١١٢.

(٢) جواد على: المِفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٢، ص ٢٢٣؛ أغا إبراهيم أكرم: خالد بن الوليد، تعريب/ إسماعيل كشميري، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٨٤م، ص ٢٠٦؛ هشام جعيط: الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٣٠.

(٣) ابن أَعثم: الفتوح، مج ٢، ١، ص ٧٦.

(٤) الأزدی: فتوح الشام، ص ٥١.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٠٨، من رواية سيف.

(٦) جان باجوت جلوب: الفتوحات العربية الكبرى، تعريب/ خيري حماد، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٢٥٩.

(٧) الأزدی: فتوح الشام، ص ٥١.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٠٩. من رواية سيف بن عمر.

❏ موقعة كاظمة وفتح الأبلّة:

سار خالد نحو العراق في المحرم سنة ١٢هـ / ٦٣٣م، وكان قطبة بن قتادة السدوسيّ يُغيّر على نواحي الأبلّة في جند من قومه فحمل عليهم خالدٌ في خيله فأخبروه أنّهم مسلمون فتركهم، فساروا معه نحو الأبلّة^(١).

وكان القائد الفارسيّ "هُرْمُز" يحكم الأبلّة من قبل الفرس، ولم يكن أحدٌ أعدى للعرب منه، حتّى ضربوا به المثل فقالوا: "أكفر من هرمز"^(٢)، وقد التقى المسلمين بجمع عظيم في كاظمة (بالكويت حالياً)، لكن نهاية المعركة كانت في بدايتها؛ وذلك عندما تمكّن خالدٌ ﷺ من قتل هرمز عن طريق المبارزة^(٣).

وتضيف رواية سيف التميميّ أنّ القائد الفارسيّ طلب مبارزة خالد وهو يضمّر اغتياله بمجموعة من الفرسان، إلا أنّ خالدًا ذبحه كما يذبح الكبش بعدما حمى الققعاق بن عمرو التميميّ^(٤) ظهره، فانهزم الفرس عند رؤيتهم لهذا المشهد الرّهيب الرّعب، وفروا

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٧؛ الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٩، ص ٢٠، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني في الكبير، وفي إسناده رجل مجهول". مجمع الزوائد، ج ١، ص ٢٧. وكذلك رواية خليفة فيها مجهول.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٤، ص ١٠٤، ٢١٣. وإسناده الطبراني ضعيف.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٩. ورواية سيف تجعل "هرمز" طالبا للمبارزة، لكن رواية المحدثين تخالف رواية سيف حيث تجعل خالدًا ﷺ هو الذي يدعو إلى المبارزة، وليس العكس. الطبراني: المعجم الكبير، ج ٤، ص ١٠٤، ح ٣٨٠٣؛ الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ٣٣٨، ح ٥٢٩٨، وسكت عنه الحاكم والذهبي، وعلق الهيثمي على هذا الأثر بقوله: "رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفه". مجمع الزوائد، ج ٥، ص ٣٣١، ٣٣٢، ح ٩٧٠١.

(٤) يرى مرتضى العسكري العراقي وتلميذه بالوجادة حسن فرحان المالكي الزبيدي أنّ الققعاق بن عمرو التميميّ شخصية أسطورية من خيال سيف بن عمر التميميّ وليس له أساس في الحقيقة، وكذلك عاصم بن عمرو التميميّ، بل إنّ العسكريّ يتهم سيفاً باختلاق أكثر من مائة وخمسين صحابياً. (مرتضى العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلق، دار الزهراء، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ج ١، ص ٩١؛ حسن فرحان المالكي: نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي، (قراءة نقدية لنماذج من الأعمال والدراسات الجامعية)، مركز الدراسات التاريخية، عمّان، الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٧٣، ٧٤).

والحق أنّ الققعاق شخصية حقيقية، لكنّه ليس صحابياً كما ذكر سيف، وإنّما هو تابعي، وله ذكر في المصادر الموثوقة. (ابن أبي الدنيا: مكارم الأخلاق، تحقيق/ مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص ١٠٩؛ ابن أبي شبيب: جزء فيه مسائل أبي جعفر محمد بن عثمان بن أبي شبيب عن شيوخه، تحقيق/ عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ١٢٥؛ الكلاعي من طريق المدائني: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ج ٢، ص ٤٧٧).

لكن لا خلاف عند المحققين في مبالغات سيف الشديدة في أخبار الققعاق خاصة وبني تميم عامة. ينظر: محمد عبد العال محمد حسن: مختلفات سيف بن عمر التميميّ في تاريخ قومه، ص ١٣ - ١٦.

هاربين، فتبعهم المسلمون، وأمر خالد بجمع ما خلفه الفرس، فكانت فيه كميات كبيرة من السلاسل التي اقترن الفرس بها قبل المعركة، فسميت لذلك ذات السلاسل^(١).

وبهذا يرفع سيف قعقاعه على خالد بن الوليد ؓ درجات عالية، حيث نسب لصاحبه بطولة خارقة عندما أنام مجموعة من أبطال الفرس المنتخبين بدفعة واحدة، وذلك في الوقت الذي لم يقتل فيه خالد إلا رجلاً واحداً فقط، كما جعل القعقاع أكثر عبقرية في التكتيك الحربي من خالد بن الوليد ؓ^(٢).

وكان سيف قد هب السامع لقبول تلك البطولة الخارقة لابن عمه القعقاع التميمي، فزعم أن الصديق ؓ كان يعلم الغيب، وأنه لما وجه خالد ؓ إلى العراق طلب منه المدد فأمدّه بالقعقاع وحده، وكتب إليه: "لا يهزم جيش فيه مثل هذا"^(٣).

ولا ندري بأي الطرق أو الوسائل أعلم سيف الصديق ؓ مثل هذا الخبر الذي لا يتأتى إلا عن دلائل النبوة!!!^(٤).

والمهم فإن الصديق ؓ لما بلغته أخبار هذه الواقعة وقتل خالد ؓ لهرمز عن طريق المبارزة نفل سيف الله سلب هرمز، فبلغت قلنسوته مائة ألف درهم^(٥). ولما عزم خالد على مغادرة الأبلّة والتحرك لمواصلة فتح سواد العراق استخلف عليها قطبة بن قتادة السدوسي^(٦).

❏ موقعة أليس:

واصل خالد ؓ فتوحاته فمرّ بزندورد^(٧) فافتتحها، وأمن أهلها، وأتى هرمزجرد^(٨) فافتتحها، وأمن أهلها، وصالحوه، ثم توجه إلى ناحية أليس^(٩)، فخرج له جابان - أحد عظماء قادة الفرس - فبعث إليه المثنى بن حارثة، فقاتله فهزمه بعد قتال شديد على

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٣٥ - ٣٦.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٠٩.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: سيف بن عمر التميمي ومروياته في ميزان النقد الموضوعي، ص ٤٨٧.

(٥) الطبراني: المعجم الكبير، جـ ٤، ص ١٠٤؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٦، ص ٣١١.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٨.

(٧) زندورد: مدينة كانت قرب واسط مما يلي البصرة، خربت بعمارة واسط. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٣، ص ١٥٤.

(٨) هرمزجرد: ناحية، كانت بأطراف العراق، غزاها المسلمون أيام الفتوح. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٤٠٢.

(٩) أليس: قرية من قرى الأنبار، (غربي بغداد بنحو ٥٥ كم). ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص ٢٤٨.

جانب نهر، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، وقد سمّي ذلك النهر "نهر الدّم"^(١)، وجاء خالدٌ فصالح أهل أليس على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس وأدلاء وأعواناً^(٢). وقد زعم سيفٌ أن الفرس والعرب جمعوا لخالد ﷺ بقيادة جابان الفارسي، وقاتلوا المسلمين قتالا شديداً، حتّى غضب خالد وقال: "اللّهم إنّ لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقيّ منهم أحداً قدرنا عليه حتّى أجري نهرهم بدمائهم!" فلما انهزموا نادى خالد جنده: "الأسرّ الأسرّ! لا تقتلوا إلا من امتنع"، فظلّ الفرسان يطلبون المنهزمين ثلاثة أيّام ويقبلون بهم يساقون سوقاً حتّى تضرب أعناقهم في النهر، وزعم سيفٌ الكذاب أن خالدًا ظلّ على هذا التّصرف الطّائش حتّى أتاه البطل المنقذ القعقاع وقال له: "لو أنّك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم"، وعلمّه كيف يبرّ يمينه بقوله: "أرسل عليها، الماء تبرّ يمينك، وقد كان صدّ الماء عن النّهر فأعاده، فجرى دماً عبيطاً فسّمّي نهر الدّم لذلك الشّأن إلى اليوم"^(٣).

وبعيداً عن رفع سيف لمكانة القعقاع وتشويهه لصورة خالد ﷺ، فإنّ المؤرّخين يخالفونه في قصّة إراقة الدّماء التي انفرد بها، ولا ذكر عندهم لخالد في المعركة أصلاً، لأنّ قائد جيش المسلمين فيها هو المثنّى بن حارثة الشّيبانيّ^(٤).

وقد شوّه سيفٌ بأكاذيبه صورة الفتوحات الإسلاميّة الرائعة التي حرّرت الشّعوب المغلوبة من المستعبدین ونشرت دين الله في أرضه، وأتاح لغير المسلمين التّقول بأنّ الإسلام انتشر بحدّ السّيف، وإراقة الدّماء، والأعمال الوحشيّة^(٥).

ويعفّر الله لأستاذنا الدكتور عبد الرّازق الطّنطاويّ القرموط، فقد صحح رواية سيف، ظنّاً منه أنّها لثقات المؤرّخين كالطّبريّ وغيره، وطفق يدافع عن صنيع خالد ﷺ ويصوّب رأيه، كما راح يقارن بين سيف الله ومجرمي الحرب في العصر الحديث^(٦)، والحقّ أنّ خالدًا ﷺ براءً من أكاذيب سيف التّميميّ المتّهم بالوضع والزّندقة.

(١) الأزدي: فتوح الشام، ص ٥٣، ٥٤. وكان النهر في زمان الأزدي يسمّى بذلك الاسم "نهر الدّم".

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٤؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص ٣٥٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٣، ٣١٤.

(٤) الأزدي: فتوح الشام، ص ٥٣، ٥٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٠.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٤١.

(٦) في تاريخ الخلفاء الراشدين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج ١، ص ١١٩ - ١٢١.

وقد لقب النبي ﷺ خالداً ﷺ بلقب "سيف الله"^(١)، تشريفاً له، أفلا يكون من المحال أن يصف الوحي بهذا اللقب رجلاً طائشاً سفاكاً للدماء بهذه الصورة الوحشية الغريبة!^(٢).

❏ حقيقة أمر أمغيشيا:

يذكر سيف أن خالداً ﷺ توجه بعد وقعة أليس إلى أمغيشيا، ولكنه وجد أهلها قد جلوا عنها، وتفرقوا في السواد، فما كان منه إلا أنه أمر بهدمها، وهدم كل شيء كان في حيزها، على الرغم من كونها مصراً كبيراً كالحيرة^(٣).

وليس لأمغيشيا ذكر في المصادر من غير طريق سيف المتهم بالوضع والزندقة، ولذا فلا شك أنها من مختلقاته، وقد أثبت سيف بأكاذيبه فظاظة للجيوش الإسلامية دونت في كتب التاريخ، والجيوش الإسلامية براء من ذلك، ولم يصدر منها نظير ذلك في عصر الفتوحات الأولى البتة^(٤)، وإن سيفاً ليتحمل المسؤولية كاملة في اختلاق أعداد القتلى الهائلة التي انفرد بها في سائر فتوح العراق، والتي زاد فيها على غيره أكثر من مليون قتيل^(٥)، ليظهر قوة بني تميم، ويفخر بهم على غيرهم من قبائل العرب.

وينبغي على هواة التاريخ^(٦) أن ينتهوا عن استخلاص العبر والدروس والمواظ من أمثال هذه الروايات الموضوعات والمختلقات التميميات، ونحوها من الأباطيل والأسمار؛ فلم يعد تاريخنا الإسلامي يحتمل مثل هذه الخرافات.

❏ فتح الحيرة (عاصمة العراق):

تابع خالدٌ ﷺ سيره نحو الحيرة حتى بلغ مجتمع الأنهار فاستقبله صاحب مسالح كسرى فيما بينه وبين العرب، فقاتلهم قتالاً شديداً، وخرج عليه "الأزاذبة" حاكم الحيرة، فوجه إليه المثنى بن حارثة الشيباني، فالتقاه وأصحابه، وصمدوا يقاتلون المثنى، ولكنهم

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج ١، ص ٢١٦، ح ٤٣، وصححه محققو المسند بشواهد.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٤١.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٥.

(٤) مرتضى العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلق، ج ١، ص ٢٢١.

(٥) مرتضى العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، دار الزهراء، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ج ٢، ص ٩٦، ٩٧.

(٦) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج ٩، ص ١٤٠ - ١٤٤؛ علي محمد محمد الصلابي: الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، ص ٢٩٩ - ٣٠١؛ أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٨٧ - ١٩٣.

فروا منهزمين بمجرد رؤيتهم لخالد وجنوده^(١)، وانسحب "الأزاذبة" تاركاً إقليم الحيرة يواجه مصيره، خاصة بعد أن علم بمقتل الملك الفارسي "أردشير"، ولكن أهل الحيرة كانوا قد تحصنوا في حصونهم الأربعة التي تعرف بالقصور^(٢)، فأمر خالد بمحاصرتهم، وعيّن لكل حصن قائداً لفتحه^(٣).

دعا المثنى الشيباني وبقية القادة أهل الحيرة إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وأجلّوهم يوماً للاختيار، فأبى أهل الحيرة، واستماتوا في الدفاع عن مدينتهم، فناوشهم المسلمون^(٤)، وأجالوا خيولهم في عرصاتهم^(٥)، فافتتحوا الدور والأديرة، فآلح القسيسون والرهبان على أهل القصور في الاستجابة لنداء المسلمين، فوافقهم، ونزل وفد من أشراف أهل الحيرة لمفاوضة خالد عليه السلام، فصالحهم على أداء الجزية^(٦)، فكانت أول جزية حملت من أرض المشرق، وأول مال قدم به من المشرق على الصديق^(٧).

وكتب خالد لأهل الحيرة: "صالحناكم على ألا تبغونا غائلة، وأن تكونوا لنا عوناً على أهل فارس، فأقرّوا بذلك، وفعلوا، وكان ظهور المسلمين أحبّ إليهم من الفرس"^(٨). وبموجب الصلح الذي تمّ بين خالد عليه السلام وأشراف الحيرة، ودفعهم للجزية، دخلت الحيرة تحت سلطان المسلمين، وذلك في ربيع الأول سنة ١٢ هـ / مايو ٦٣٣ م^(٩)، فاتخذها خالد قاعدة له^(١٠)، وقام بنشر العدل في أرجائها، وأمن أهل الذمة وخاطبهم، حتّى كان ينزل بينهم دون سلاح، وحدث شاهد عيان: أنه "رأى خالد بن الوليد وهو بالحيرة آمناً ما يخاف واحداً، وهو متوشّح ثوباً قد شدّ طرفيه في عنقه"^(١١).

(١) الأزدى: فتوح الشام، ص ٥٤.

(٢) تسمى حصون الحيرة قصوراً؛ لأنّه كان في كل حصن قصر كبير. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٥.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٦.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٧، ٣١٨. وقد نقل الكلاعي مصالحة خالد لأهل الحيرة من طريق ابن

إسحاق وابن الكلبي وغيرهما. الاكتفاء، ج ٢، ص ٣٨٦.

(٧) أبو يوسف: الخراج، ص ١٥٨.

(٨) الأزدى: فتوح الشام، ص ٥٥.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٥.

(١٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢١.

(١١) الأزدى: فتوح الشام، ص ٥٦.

ولم يأخذ المسلمون أهل العراق والفلاحين بجرائم الفرس، فقد أرسل خالدؓ وهو بالحيرة بشير بن سعد أبا النعمان بن بشير الأنصاريؓ في نحو مائتين من الجند لمصالحة أهل بَانِقِيَا^(١)، فوافق ذلك نزول جيش من الفرس على أرضهم بقيادة "فرخبنداد بن هرمز"، فالتقى الفرس المسلمين ورشقوهم بالنشاب، وحمل عليهم المسلمون فقتلوا قائدهم فرخبنداد، ولكن الجراحات فشت في المسلمين لقلة عددهم، وأصيب قائدهم بشير بن سعد بنشابة فرجعوا إلى خالد وأخبروه الخبر، ومات بشير من جراحته بعد ذلك، فأرسل خالد جيشاً من ألف رجل لمعاقبة أهل بَانِقِيَا، ولكن رئيسهم "بُصْبُهْرِي" بن صلوبا خرج إلى المسلمين فاعتذر إليهم من ذلك القتال، وأخبرهم أن الفرس نزلوا أرضه وقراه على كره منه، وعرض عليهم الصلح، فقبلوا عذره وصالحوه^(٢).

وسيكون لسياسة خالد ورجاله في التسامح مع أهل البلاد المفتوحة ومعاملتهم بالعدل، وتنقية بلادهم من الظلم، ونشر أخلاق الإسلام بينهم أثر كبير في دخول الناس في دين الله أفواجا، وكرههم للمحتل الفارسي الذي كان يحتقرهم ويتعالى عليهم ويسومهم سوء العذاب، و "هرمز" الذي ضربوا به المثل في الكفر والخبث من أدل الأدلة على ذلك.

فتح الأنبار:

سار خالدؓ بعد فتح الحيرة إلى مدينة الأنبار^(٣)، فتحصن من أهلها، فضرب عليهم الحصار، وأتى خالداً من دله على سوق بغداد العتيق، فأرسل المثنى بن حارثة الشيبانيؓ في كتيبة من الفرسان للإغارة عليها، {وضرب اقتصاد العدو الفارسي}، فأسرع المثنى إلى السوق وانقض عليها بجنده، فملئوا أيديهم من الذهب والفضة وما خف حمله من المتاع، ثم عادوا مسرعين إلى خالد وهو يحاصر الأنبار، فشددوا عليها الحصار حتى رضخ أهلها^(٤)، وصالحو خالداًؓ^(٥).

(١) بَانِقِيَا: ناحية من نواحي الكوفة. ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٣١؛

(٢) الأزدي: فتوح الشام، ص ٥٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبير، جـ ٦، ص ٢٩٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٦.

(٣) الأنبار: مدينة على الفرات تبعد عن بغداد عشرة فراسخ ناحية الغرب، (حوالي ٦٨ كم). والأنبار بالفارسية الأهراء، وسميت بذلك؛ لأن أهراء الملك كانت فيها، ومنها كان يرزق رجاله. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٨؛ ياقوت: معجم

البلدان، جـ ١، ص ٢٥٧.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٨.

فتح عين التمر:

توجه خالد رضي الله عنه بعد مصالحته أهل الأنبار إلى عين التمر^(١)، وبها مهران بن بهرام جوبين الفارسي في جمع عظيم من العجم^(٢)، وقائد من العرب^(٣)، يقال له هلال بن عقبة النمري^(٤)، قد حشد قبائل النمر وتغلب وإياد ومن حالفهم، فطلب زعيم العرب من مهران أن يدعه وقتال خالد، معللاً ذلك بأن "العرب أعلم بقتال العرب"، فتركه مهران، واتقى به قتال المسلمين قائلاً: "دونكم وإياهم، وإن احتجتم إلينا أعناكم"، فلام العجم أميرهم على تقديم حليفه العربي، فصرح لهم بأن انتصاره إنما هو لأسياده الفرس، وإلا فسيضعف قوة قومه ويبقى الفرس أقوياء، فاعترفوا له بفضل الرأي عليهم، ولما تواجه العرب والعرب تمكن خالد من أسر النمري العربي، فانهزم جيشه دون قتال، وأكثر المسلمون فيهم الأسر، وبلغت مهران هزيمة حلفائه وتوجه خالد إلى حصن عين التمر، فهرب منه وتركه، فاقتحمته فلول العرب والعجم، واعتصموا به، وأتى خالد الحصن فحاصره حتى أجبر المتحصنين على النزول، وأمر بقتل العميل العربي أمامهم، ثم ألحق به المقاتلة^(٥)، وسبى نساءهم وذرائعهم، فكانوا أول ما سبى بالعراق^(٦)، وأخذ خالد ما في الحصن، ثم خرب الحصن، وفرض الجزية على أهل عين التمر^(٧).

فتح دومة الجندل:

كان الصديق رضي الله عنه يتابع أخبار الفتوح، حتى كأنه يشهدها مع المجاهدين في جبهات القتال، ولذا نراه يكتب إلى خالد رضي الله عنه وهو بعين التمر يأمره بالمسير إلى دومة^(٨) الجندل،

(١) عين التمر: بلدة على طرف البرية، قريبة من الأنبار غربي الكوفة، مشهورة بكثرة تمرها. ياقوت: معجم البلدان، جـ، ص ١٧٦.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ، ص ٣٢٤.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص ١٥٩.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٠.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ، ص ٣٢٤. وعند البلاذري أن الحصن فتح عنوة أيضاً. فتوح البلدان، ص ٢٦٨.

(٦) الأزد: فتوح الشام، ص ٦٠.

(٧) أبو يوسف: الخراج، ص ١٥٩.

(٨) دومة: هي دومة الجندل، قرية من الجوف شمال السعودية، تقع شمال تبءاء على مسافة ٤٥٠ كيلو متر، وفي دومة ثلاث لغات، بضم الـ ذال، وفتحها، ودوماء بالمد. ياقوت: معجم البلدان، جـ، ص ٤٨٧؛ ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين، جـ، ص ١٨٩؛ محمد محمد حسن شراب: المعالم الأثرية في السنة والسير، ص ١١٧.

والقضاء على ملكها أكيدر بن عبد الملك^(١)، فيتحرّك سيف الله المسلول بجنده مسرعا من عين التمر إلى أكيدر، فيقتله، ويفتح دومة^(٢)، ويقال إنّ خالدا خرج لفتح دومة من الحيرة، وذلك في طريقه إلى الشّام لإنجاد جيوش المسلمين بأمر الصّدّيق^(٣)، والصّحيح أنّه توجه إليها من عين التمر^(٤).

وقد زعم سيف أنّ الصّدّيق كلّف عياض بن غنم الفهريّ القرشيّ ﷺ بفتح العراق من أعلاها (النّاحية الشّماليّة) في الوقت الذي كلّف فيه خالد بن الوليد بفتح العراق من أسفلها (النّاحية الجنوبيّة)، ويدّعي سيف أنّ عياضا لم يستطع فتح شيء، حتّى أنجده خالد بعد فتح الحيرة، فقتل أكيدر وفتح دومة^(٥).

والحقّ أنّ عياض بن غنم ﷺ لم يشهد شيئا من فتوح العراق في عهد الصّدّيق، وإنّما كان مع المسلمين في بلاد الشّام، وليس له ذكر في العراق إلاّ أنّه جاء في ألف رجل لإمداد المسلمين عقب القادسيّة بأمر من الفاروق عمر ﷺ، وشهد عياض وجنده عبور دجلة وفتح المدائن^(٦).

ولسنا بحاجة إلى استخلاص العبر والدّروس من ثبات عياض ﷺ وصبره في موقعة حربيّة لم يشهدها، ولم يكن له أيّ دور فيها^(٧)، وفي الصّحيح غنية عن الأساطير.

❏ حقيقة وقعة الفِراض وحجّة خالد بن الوليد من شمال العراق:

يزعم سيف أنّ خالدا ﷺ لما بسط راية الإسلام على العراق، وأخضع قبائل العرب قصد تخوم الشّام والعراق والجزيرة التي يقال لها الفِراض، وغدا مجاورا للرّوم، فاشتدّ

(١) كان خالد قد أسره في غزوة تبوك، وأتى به إلى رسول الله ﷺ فمنّ عليه، وكتب له كتاب عهد، ولكنه خان العهد بعد ذلك. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥٢٦. وقد حكى بعضهم إسلام أكيدر دومة، لكن المحفوظ غيره. ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ج ١، ص ١٨٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٨٧. من رواية عوانة بن الحكم.

(٣) يورد البلاذري هذه الرواية من طريق محمد بن عمر الواقدي. فتوح البلدان، ص ٨٧.

(٤) هذا رأي البلاذري. فتوح البلدان، ص ٢٧٢.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٦) الطبري من رواية محمد بن إسحاق إمام المغازي. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٧) محمد الصادق إبراهيم عرجون: خالد بن الوليد، الدار السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٢٢٩-٢٣١؛

عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج ٩، ص ١٦٤؛ علي محمد محمد الصلابي: الانشراح

ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، ص ٣٠٨-٣١٠؛ أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ٢٣٤-٢٣٦.

غیظهم من جرأة خالد، واستعانوا بمن یلیهم من مسالح الفرس، كما استمدّوا العرب من تغلب وإیاد والنمر فأمّدوهم، وأسرع الخلفاء الثلاثة إلى مهاجمة المسلمين منتصف ذي القعدة سنة ١٢هـ/٦٣٤م، ودارت بین الطرفين وقعة شديدة، نصر الله فیها المسلمين، وقتلوا من عدوّهم مائة ألف قتیل^(١).

ویتغنّى بعض هواة الكتابة فی التّاریخ الإسلاميّ بهذه الوقعة، فیرونها نصرا حاسما یعقد بنواصي المسلمين، ونذیرا من الله تعالى للروم^(٢)، وأنّها من آیام الإسلام الفاصلة التي لم تنل من الشّهرة ما نالته المعارك الكبرى^(٣)، ویدّعي أحد التّجاریین^(٤) أنّ المسلمين قتلوا من عدوّهم فی "الفراض" مائة ألف باتّفاق جمیع المؤرّخين.

والحقّ أنّ سیفا الكذوب هو الذي انفراد بذكر هذه الوقعة، ولم یذكرها غیره من المؤرّخين الموثوقین أو المجروحین، ولذلك لم تنل شهرة المعارك الكبرى التي يتفق علیها الرواة، والأولى بها أن تكون من مختلقات سیف.

ویتخیل سیف أنّ خالدا ۞ سرّح جیشه إلى الحيرة لخمس بقین من ذي القعدة سنة ١٢هـ/٦٣٤م وانطلق فی جماعة من أصحابه متخفّيا شطر المسجد الحرام، فی رحلة عجيبة شاقّة حتّى انتهى إلى مكة، فأدرك الحجّ ذلك العام، ثمّ عاد محلّقا، فأدرك ساقّة الجيش قبل أن یصلوا إلى الحيرة، ولم یعلم به إلا من أفضى إليه من السّاقّة، كما لم یعلم به الصّدیق ۞ إلا بعد رجوع أهل الحجّ من الموسم^(٥). ولو حدثت هذه الحجّة لما خفيت على رواة تاریخ الإسلام جمیعا، وكشفت لسیف التّمیمیّ الكذاب خاصّة!!.

❏ مسیر خالد إلى الشّام وعودة المثنى لقيادة الجبهة العراقية:

فی الوقت الذي تمكّن فیهِ خالد ۞ من هزيمة الفرس فی العراق تحرّج موقف المسلمين فی بلاد الشّام، وباتوا لا یقدرون من الروم على شيء^(٦)؛ لاجتماعهم على

(١) الطبري: تاریخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٣٢٨.

(٢) محمد الصادق إبراهيم عرجون: خالد بن الولید، ص٢٣٢.

(٣) عبد العزيز عبد الله الحمیدي: التّاریخ الإسلامي، مواقف وعبر، جـ٩، ص١٧٣؛ علي محمد محمد الصلابي: الانتسراح ورفع الضیق بسيرة أبي بكر الصّدیق، ص٣١٢.

(٤) أحمد عادل كمال: الطریق إلى المدائن، ص٢٥٠.

(٥) الطبري: تاریخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٣٢٨، ٣٢٩.

(٦) ابن عساکر: تاریخ دمشق، تحقیق/ عمرو غرامة العمروي، دار الفكر، بیروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، جـ٢، ص١٦٣.

حربهم، فلما بلغ الصديق ذلك^(١)، كتب إلى خالد ﷺ بالتوجه إلى الشام مددا لأبي عبيدة والمسلمين^(٢)، وأن يخلف في العراق أهله الذين قدم عليهم، ويمضي متخففاً في أهل القوة الذين قدموا معه العراق من اليمامة، والذين صحبوه في الطريق، وقدموا عليه من الحجاز^(٣)، فتحرك خالد إلى الشام في ربيع الأول سنة ١٣ هـ - ٦٣٤ م^(٤)، وشيعة المثنى إلى قراقر^(٥)، وهناك أمره بالرجوع، وعدم التقصير في محاربة الفرس^(٦).

ويعز على سيف أن يحرز خالد ﷺ كل هذا الفخر دون ظهور لقومه التميميين، ولذا يدعي أنه لما جاء أمر الصديق لخالد بالمسير إلى الشام اتهم الفاروق عمر ﷺ بالسعي عليه، وتناوله بلسانه! لكن لما كان القعقاع حاضراً عنده، فقد أنقذه من وساوس الشيطان - كما أنقذه من التصرفات الطائشة قبل ذلك - وردّه إلى الصواب قائلاً له: "ارفع لسانك عن عمر، والله ما كذب الصديق، ولا صدقت على أخيك، قال: صدقني والله، قبّح الله الغضب والظنون، وبالله يا قعقاع لقد أغريتني بحسن الظن، فقال القعقاع: الحمد لله الذي خلّصك، وأبقى فيك الخير، ونفى عنك الشر"^(٧).

وإن كان من تعليق فأقول: قبّح الله كذاباً زنديقاً يفترى هذا وأمثاله على خالد ﷺ الذي مدحه رسول الله ﷺ بقوله: "تعم عبْدُ الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، وسيف من سيوف الله، سلّه الله - عزّ وجلّ - على الكفار والمنافقين"^(٨).

وإن المطالع للتاريخ الصحيح لخالد ﷺ يدرك أنه كان من أكثر القادة العسكريين إخلاصاً رئيساً ومرعوساً، ومن أنقاهم سيرة وسريرة.

وبرحيل خالد ﷺ إلى الشام ينتهي دوره في العراق، ثم لا يعود إليها بعد ذلك، وتبدأ الفتوح العظام في عهد الفاروق عمر ﷺ.

(١) الأزدى: فتوح الشام، ص ٥٧.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ١٥٩.

(٣) الأزدى: فتوح الشام، ص ٥٧، ٥٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٩٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٢.

(٥) قراقر: واد لكب ببادية السماوة من ناحية العراق، نزله خالد بن الوليد عند قصده الشام، والسماوة: مفازة بين الكوفة والشام، وقيل بين الموصل والشام. ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١٧.

(٦) الأزدى: فتوح الشام، ص ٦٠، ٦١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧١.

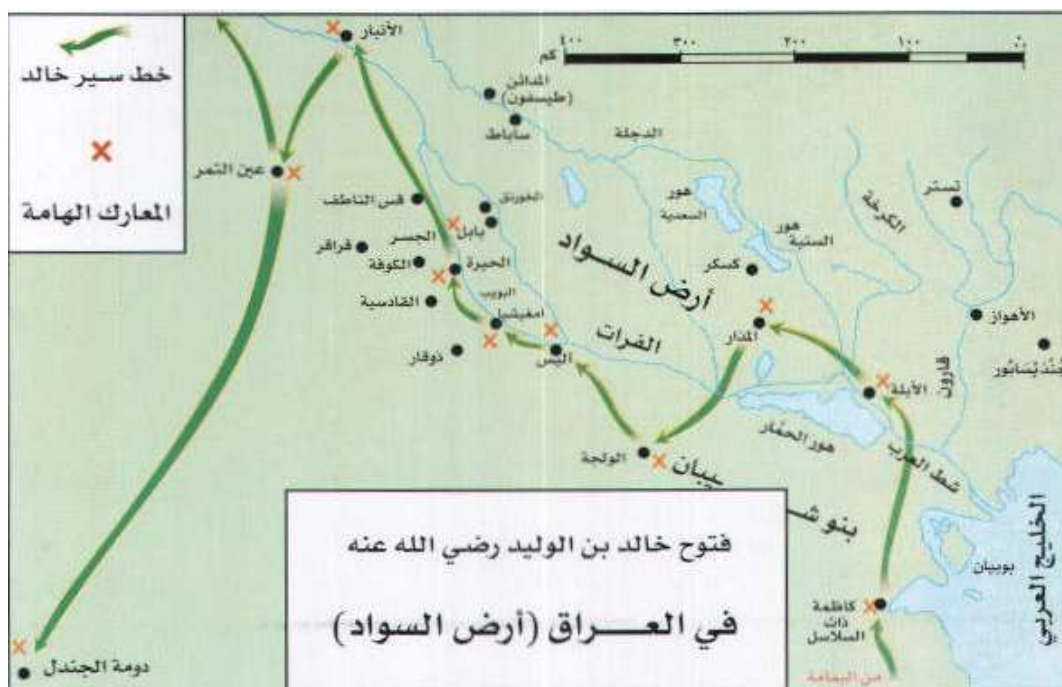
(٧) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٨٤، ٨٥.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، ج ١، ص ٢١٦، ح ٤٣، وصححه محققو المسند بشواهد.

📖 ملاحظتان على الفتوح العراقية في عهد الصديق:

١ - لم يشرك الصديق ﷺ المرتدين في الفتوح، بل جردهم من السلاح، لأنه لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالردة، وعقوبة لهم بإظهار الاستغناء عنهم، ولأنه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلامي فلا يعطون سكان المناطق المفتوحة المثل الصالح للجندي المسلم.

٢ - لم تستقر قدم الفاتحين في المناطق المفتوحة، بل كان السكان وخاصة نصارى العرب يثيرون عليهم، فقد أعيد فتح الحيرة ثلاث مرّات، وهذا يفسّر أسباب تغيير شروط الصلح مرّات عديدة في مناطق السّواد^(١).



خريطة رقم (١)

لتوضيح مواقع المعارك التي حدثت في العراق خلال عهد الصديق. نقلا عن شوقي أبو خليل:
أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ص ٤٣. مع ملاحظة أن
الدكتور شوقي أبو خليل صمم خريطته على رواية سيف التي تذكر مواقع لم تحدث أصلا.

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٦٢ - ٦٩؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٥٦.

الفصل السادس

فتوح الشام في عهد الصديق

بدأت دعوة أهل الشام إلى الإسلام في حياة النبي ﷺ؛ فإنه لما صالح قريشاً عام الحديبية راسل ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وكلف دحية بن خليفة الكلبي بحمل كتابه إلى قيصر ملك الروم بواسطة عظيم بصرى^(١)، كما بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤتة^(٢) عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني^(٣) فقتله صبراً، فاشتد ذلك الخبر على النبي ﷺ^(٤)، فسير إليهم جيش مؤتة سنة ثمان^(٥)، ثم غزاهم غزوة تبوك في السنة الهجرية التاسعة^(٦) عندما سمع باستعدادهم لغزو المدينة^(٧)، كما جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه، وكلفه بالمسير إلى موضع مقتل أبيه، ولكن الوفاة أدركت النبي ﷺ قبل مسير جيش أسامة، فأنفذه الصديق رضي الله عنه في مستهل خلافته.

ولقد اختلف المؤرخون في ترتيب وقائع فتوح الشام وتسلسلها مع اتفاقهم على حدوثها ونتائجها، حتى دهش الطبري من ذلك الاختلاف واستنكره، وعلمه بقرب الوقائع بعضها من بعض^(٨)، ولئن كان قرب الوقائع من بعضها يسبب شيئاً من اللبس في ترتيبها، فإن تأخر تدوين التاريخ الإسلامي بشكل عام عن زمن حدوث تلك المعارك قد أسهم في ذلك أيضاً، وخاصة أن بعض الأحداث قد وقعت في زمن واحد، فحكى الرواة بعضها قبل بعض، كما أن بعض البلدان فتحت مرتين، فاقصر بعض الرواة على أحد الفتحين، واختلف لذلك ترتيب ما فتح بينهما من حيث التقديم والتأخير^(٩).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب دعوة اليهود والنصارى)، جـ ٣، ص ١٠٧٤، ح ٢٧٨٢؛ مسلم: الصحيح،

(كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعو به إلى الإسلام)، جـ ٣، ص ١٣٩٣، ح ١٧٧٣.

(٢) مؤتة: بلدة أردنية، تقع جنوب الكرك، في منتصف المسافة بين معان و عمان، (على بعد ١٠٠ كيلو متر جنوب العاصمة

عمان تقريباً). عاتق غيث البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ٣٠٤.

(٣) شرحبيل الغساني: أحد أمراء ملك الروم على بلاد الشام.

(٤) الواقدي: المغازي، جـ ٢، ص ٧٥٥، ٧٥٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ١٢٨.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٣٧٣.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٥١٥؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ١٦٥.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها)، جـ ٥، ص ١٩٩١، ح ٤٨٩٥؛ الواقدي:

المغازي، جـ ٣، ص ٩٨٩، ٩٩٠.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٥٩.

(٩) عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون، ص ٢٠٥؛ حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٠١.

■ التعبئة العامة لمنازلة الروم وفتح الشام:

عندما فرغ الصديق ﷺ من حروب الردّة رأى توجيه الجيوش إلى الشام^(١)، وعقد لذلك مجلساً شورياً مع وجوه المهاجرين والأنصار بشأن استنفار المسلمين لجهاد الروم، فتنوّعت آراؤهم في كيفية غزوهم مع الإجماع على جهادهم، فأصدر الصديق أمره بإعلان النفير العام لجهاد الروم^(٢).

وقد استنفر الصديق ﷺ جميع العرب الذين ثبتوا على الإسلام لجهاد الروم، فتقاطروا على المدينة من كلّ أوب^(٣)، فضرب لهم معسكرين بالجرف -خارج المدينة- وكلف أبا عبيدة بن الجراح ﷺ بإمامتهم في الصلّة، فلم ينقطع توافدهم طوال شهر المحرم سنة ١٣هـ/٦٣٤م^(٤).

واهتمّ الصديق باستنفار أهل اليمن -ذوي الكثرة العدديّة- فبعث إليهم أنس ابن مالك ﷺ يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله واللّحوق بإخوانهم الذين سبقوهم إليه، فأجابوه خفافاً وثقالاً بأعداد هائلة، وأقبلوا بنسائهم وأولادهم، رغبة في الجهاد في سبيل الله^(٥).

وكان ذو الكلاع الحميريّ أسرع أهل اليمن استجابة لداعي الجهاد، فلما سمع النداء دعا بفرسه وسلاحه ونهض يستنفر قومه من ساعته، فالتفتّ عليه جموعٌ كثيرة، ولم يلبث طويلاً حتّى قدم المدينة النبويّة^(٦).

وتدلّ أقوال أهل اليمن وأفعالهم عند مقابلتهم للخليفة ومخالطتهم للصّحابة على رغبتهم الأكيدة في نصرّة الإسلام وإخلاص الجهاد في سبيل الله، فعندما دخلوا المدينة وسمعوا القرآن، أجهشوا بالبكاء، فبكى أبو بكر ﷺ وقال: "هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتْ الْقُلُوبُ"^(٧).

وكان الزعيم اليمنيّ ذو الكلاع قد أقبل في هيئة الملوك العظماء، يحيط به ألف عبد من الفرسان، فلما رأى زهد الصديق وتواضعه وما هو عليه من الوقار والهيبة تأثّر

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٢.

(٢) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٦٣، ٦٤؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٧٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٥) الأزدي: فتوح الشام، ص ٨، ٩؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٦٥، ٦٦.

(٦) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٨٧.

(٧) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٢٢٤.

به، وتزيًا بزيه، حتى رُئي في سوق من أسواق المدينة، على كتفيه جلد شاة، ففزعت عشيرته، وقالوا له: "فضحتنا بين المهاجرين والأنصار! قال: فأردتم أن أكون جباراً في الجاهلية، جباراً في الإسلام؟ لاها الله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا"، وصنعت ملوك اليمن صنيع ذي الكلاع في التواضع وترك الخلل والتيجان^(١).

وجاء قيس بن هبيرة المكشوح المرادي في جمع كثير، ورأى المعسكر قد ضاق عن تحمل الإبل والخيول، فأتى الصديق واستعجله ببعث الجنود، فأجابته الخليفة بأنه ما كان ينتظر إلا قدومه^(٢)، فقسّم الصديق الجنود عند ذلك إلى أربعة جيوش، وعين لكل جيش قائد^(٣)، وذلك في مستهل شهر صفر سنة ١٣هـ/٦٣٤م^(٤)، على الشكل التالي:

الجيوش الأول:

عقد أبو بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه على هذا الجيش^(٥)، فـ "كان أمير ربع من تلك الأرباع"^(٦)، وأمره بالتوجه إلى دمشق^(٧)، ودعا ربيعة بن عامر القرشي العامري فعقد له، وأمره أن يكون مع يزيد ولا يخالفه، ونصح يزيد أن يجعله على مقدمته إن أراد^(٨)، ثم شيعه الصديق ماشياً^(٩)، وقال له: "إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَذَرَهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُؤُوسِهِمْ مِنَ الشَّعْرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمَرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، إِلَّا لِمَاكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تُغْرِقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُ، وَلَا تَجْبُنَ"^(١٠).

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت،

١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ج١، ص٥١٦.

(٢) الأزدي: فتوح الشام، ص٧؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٧٢، ١٧٣.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٢٩١؛ الفسوي: المعرفة والتاريخ، (نصوص من الجزء الأول المفقود)، ج٣،

ص٢٦٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣١.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٣.

(٥) الأزدي: فتوح الشام، ص٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣١.

(٦) الإمام مالك: الموطأ، تحقيق/ محمد مصطفى الأعظمي، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٣، ص٦٣٥.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٥.

(٨) الأزدي: فتوح الشام، ص٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٧٣.

(٩) أبو يوسف: الخراج، ص١٧؛ الأزدي: فتوح الشام، ص٨.

(١٠) الإمام مالك: الموطأ، ج٣، ص٦٣٥.

📖 الجيش الثاني:

أمر أبو بكر رضي الله عنه شَرْحَبِيل بن حسنة رضي الله عنه -حليف بني جُمح القرشيين- على الجيش الثاني، وسيّره بعد ثلاثة أيام من مسير يزيد بن أبي سفيان^(١)، وحدّد له فتح الأردن^(٢).

📖 الجيش الثالث:

عقد الصّدّيق رضي الله عنه لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على الجيش الثالث الذي ضمّ كثيراً من أشرف العرب، وساداتهم، وصلحاء المسلمين^(٣)، ووجهه ناحية حمص^(٤)، وكان قيس ابن هبيرة المكشوح المراديّ مع أبي عبيدة، فأوصى به الصّدّيقُ أبا عبيدة قبل سفره، ونصحه بأخذ رأيّه ومشورته، كما أوصى قيساً بطاعة أبي عبيدة، وبذل جهده في قتال المشركين، فوعده بذلك، فلما بلغ أبا بكر رضي الله عنه مبارزة قيس البطريقين بالجابية وقتله إيّاهما قال: "صدق قيسٌ وبرّ، ووفّى"^(٥).

وقد اختار خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه الخروج مع أبي عبيدة، فلم يَم على عدم خروجه مع ابن عمّه يزيد بن أبي سفيان، فأجابهم بأنّ أبا عبيدة كان أخاه في دينه وولّيّه وناصره على ابن عمّه على عهد الرّسول ﷺ وهو أشدّ استئناساً وطمأنينة به، وخرج في إخوته ومواليه^(٦)، فودّعه أبو بكر والمسلمون في مشهد مهيب^(٧).

📖 الجيش الرابع:

عزم الصّدّيق رضي الله عنه على توجيه جيش لفتح فلسطين^(٨)، فوقع اختياره على عمرو ابن العاص رضي الله عنه لتولّي قيادته^(٩). وكان العقد لكل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، ولم تزل أعدادهم في زيادة لمتابعة الصّدّيق إليهم بالأمداد، حتّى صار مع كل أمير سبعة آلاف ونصف^(١٠).

(١) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١١؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٧٤.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٣) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٢؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٧٥.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٦.

(٥) الأزدّي: فتوح الشام، ص ٢١، ٢٢.

(٦) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٧؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٧٧.

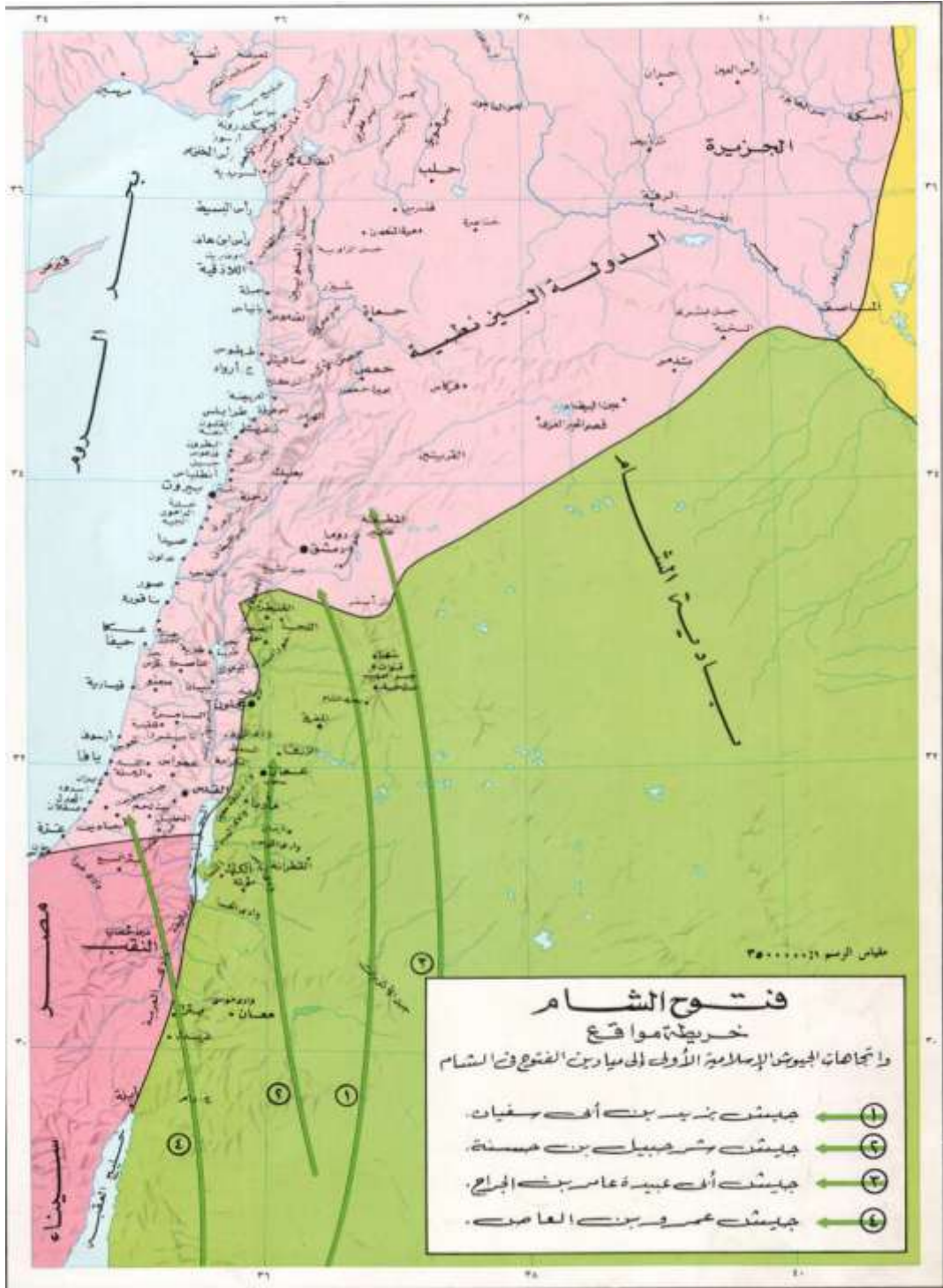
(٧) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ١٧٨.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٤.

(٩) الأزدّي: فتوح الشام، ص ٤٠ - ٤٢؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١١٩؛

(١٠) يرى البلاذري أنّ الصديق أرسل ثلاثة جيوش فقط، ولا يذكر جيش أبي عبيدة. فتوح البلدان، ص ١٣٣. ورواية الإمام

مالك بن أنس أن الجيوش أربعة. الموطأ، ج ٣، ص ٦٣٥.



خريطة رقم (٢)

تبين خطوط سير الجيوش الأربعة كما حددها الصديق عليه السلام. نقلا عن حسين مؤنس: أطلس تاريخ

الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م، ص ١١٠.

المناوشات الأولى مع الروم

زحفت الجيوش الأربعة حسب خطوط السير المحددة لها، فلم تجد كيدا حتى نزلت بلاد الشام^(١)، وكان الصديق عليه السلام قد أوصى أمراء الجيوش أن ينقادوا لمن يقع القتال في عمله، فلما وصل عمرو بن العاص فلسطين تلقاه بطريق غزة بقرية يقال لها **الدائن**^(٢)، فاقتتلوا بها قتالا شديدا، ثم انهزم الروم، وانفصت جموعهم^(٣).

وكان يزيد بن أبي سفيان قد توجه في طلب بطريق غزة، فبلغه أن **بالعربة**^(٤) جمعا للروم، فوجه إليهم فرقة من جيشه فأوقعت بالقوات الرومية وقتلت قائدها^(٥).

موقعة إجنادين:

أدت انتصارات المسلمين الأولى إلى غضب نصارى العرب، فاجتمعوا مع الروم على البطريق "يناق"، فأقبل بجموعه إلى **أجنادين**^(٦)، وكان عمرو بن العاص بالعربات من غور فلسطين، فسارت الجيوش الإسلامية في الشام لإمداده^(٧)، وكانت أول حرب تجتمع فيها ألوية المسلمين في خلافة الصديق بقيادة عمرو بن العاص^(٨).

وقد خاف بعض المسلمين من كثرة عدد الروم، وأشاروا على قادتهم أن يتأخروا إلى نواظير الشام^(٩)، ويطلبوا المدد من أبي بكر، إلا أن هشام بن العاص بن وائل السهمي رفض هذا العرض، وخطب في المسلمين: "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢) دائن: ناحية قرب غزة بأعمال فلسطين. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١٧.

(٣) الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٤.

(٤) إحدى قرى غزة.

(٥) الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٤.

(٦) ابن المبارك: الجهاد، ص ٩٤. وأجنادين: بفتح الهمزة وكسرهما، وفتح الدال وكسرهما، بلفظ التثنية والجمع، وهو بلد بفلسطين بين الرملة وبيت جبرين كما حددها الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٤٦؛ وانظر ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ١٠٣.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٤٦. ويذكر البلاذري أن الجيوش كانت تجتمع على إمارة عمرو بن العاص في الحرب أول أيام أبي بكر. فتوح البلدان، ص ١٤٠.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٢. وقد روى الحاكم عن الواقدي أن أجنادين كانت في جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة في عهد أبي بكر، وأن القيادة كانت لعمرو بن العاص. المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ٢٦٨. وعند الأزدي أن القيادة كانت لخالد ابن الوليد. فتوح الشام، ص ٧٤.

(٩) لعل المراد أطراف الشام.

الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، فَقَاتِلُوا الْقَوْمَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ نَصْرًا مِنْ عِنْدِ أَبِي بَكْرٍ، رَكِبْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى أَلْحَقَ بِهِ"، فَاتَّفَقَ الْجَنْدُ قَاطِبَةً عَلَى الصَّمُودِ لِمُوَاجَهَةِ الرُّومِ^(١).

وبدأت معركة أجنادين بالمبارزات الفردية، فخرج بطريق معلّم يدعو إلى البراز، فبرز إليه عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب الهاشمي، وكان من الأبطال المذكورين والشجعان المشهورين، فاختلف مع الرومي ضربات حتى تمكن منه، فكان البطريق أول قتيل من الروم يوم أجنادين، ولم يعرض عبد الله لسلبه، ثم برز آخر يدعو إلى البراز، فبرز إليه عبد الله فتشاولا بالرمحين ساعة، ثم صارا إلى السيّفين، فحمل عليه عبد الله فضربه -وهو دارع- على عاتقه فأثبته، وقطع سيفه الدرع، وأسرع في منكبه، ثم ولّى الرومي منهزما، فعزم عليه عمرو بن العاص أن لا يبارز، فاعتذر عبد الله بأنه لا يستطيع الصبر على المبارزة^(٢).

وعندما التحمت الحرب اقتتل الفريقان قتالا شديدا، فقتل من المسلمين بشرّ كثير^(٣)، واستشهد عبد الله بن الزبير الهاشمي -وقائم السيّف في يده- بعدما قتل من الروم عشرة كلهم بطارقة أبطال^(٤).

وقد صابر المسلمون في هذا اليوم حتى انهزمت الروم وانتهوا إلى موضع لا يعبره إلا إنسان، فعبروه وقاتلوا عليه، وتقدّم هشام بن العاص فقاتل عليه حتى قتل، ووقع على الثُّمَّة، فسدها، فهاب المسلمون أن يوطئوا الخيل جثته، حتى تقدّمهم في ذلك أخوه عمرو بن العاص، وناداهم باتّباعه، فمروا عليه بخيولهم حتى قطعوه، فلما انتهت الموقعة بنصر المسلمين كرّ إليه أخوه عمرو، فجمع لحمه وأعضائه وعظامه وواراه^(٥).

وأمكن الله المسلمين من يناق -بطريق الشام- فقطعوا رأسه، وأرسله عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى الصديق مع عقبة بن عامر الجهني ؓ، فلما دخل عليه

(١) ابن المبارك: الجهاد، ص ٩٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبعة الخامسة- متمم الصحابة)، تحقيق/ محمد صامل السلمي، مكتبة الصديق، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٢٧.

(٣) ابن المبارك: الجهاد، ص ٩٤.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ٤٧٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٤١.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ١٩٤؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٤، ص ١٥٤٠. وروى ابن المبارك في الجهاد أنه استشهد يوم أجنادين في خلافة أبي بكر. ص ٩٤.

بالرأس أنكر ذلك، ولما أخبره عقبة أن الروم يفعلون ذلك اشتد غضبه، وقال: "فَاسْتَنَانْ بِفَارِسَ وَالرُّومَ؟ لَا تَحْمِلْ إِلَيَّ رَأْسٌ، فَإِنَّمَا يَكْفِي الْكِتَابُ وَالْخَبَرُ"^(١).

رد فعل الروم وتخرج موقف المسلمين:

ارتاع الروم من نكباتهم أمام جيوش المسلمين، وانتشارهم في أجزاء من بلاد الشام، فاجتمع هرقل^(٢) مع مستشاريه وكبار قاداته، وأشرف الروم، وأعلمهم أن العرب الحفاة العراة الجياع لم يطمعوا فيهم إلا بعدما بذلوا وغيروا في أمر دينهم^(٣)، وأمرهم بالاستعداد لهم والخروج إليهم ومقاتلتهم، وأمر عليهم الأمراء، ووعدهم بإمدادهم بالرجال والخيول، ثم توجه إلى دمشق فاستنفر أهلها لمواجهة العرب، وفعل مثل ذلك في حمص، وأتى أنطاكية فأقام بها، وبعث إلى الروم فحشروهم، فأتاه منهم ما لا يحصى، وقد أعظموا دخول العرب عليهم، وخافوا أن يسلبوا ملكهم^(٤).

واستقرت خطة الروم على أربعة جيوش كبيرة لضرب الجيوش الإسلامية منفردة؛ وحتى يضعف كل جيش عن مقاومة الجموع البيزنطية الغفيرة التي تواجهه^(٥). وأدرك القادة المسلمون صعوبة مواجهة جموع الروم الغفيرة، وراسل بعضهم بعضاً في السبيل لمواجهة الروم، فاقترح عليهم عمرو بن العاص تجميع الجيوش الإسلامية، حتى لا يقضى عليها واحداً تلو الآخر، وكتبوا الخليفة بأمرهم، فأجابهم بمثل جواب عمرو بن العاص، ليتصادموا مع الروم في معركة شاملة فاصلة^(٦)، وسارع الخليفة بنذب الناس لإتجادهم، فسيّر إليهم ألفاً مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص^(٧)، وأتبعه بنحو سبعمائة رجل فيهم بلال بن رباح مع سعيد بن عامر بن حذيم الجُمحي^(٨).

(١) النسائي: السنن الكبرى، (كتاب السير، باب حمل الرؤوس)، جـ ٥، ص ٢٠٤، ح ٨٦٧٣؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٩، ص ٢٢٣، ح ١٨٣٥١. وإسناد الأثر صحيح. ابن حجر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، تحقيق/ السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، المدينة المنورة، ١٩٦٤م، جـ ٤، ص ٢٨٨.

(٢) كان يقيم بفلسطين.

(٣) الأزدي: فتوح الشام، ص ٢٢، ٢٣.

(٤) الأزدي: فتوح الشام، ص ٢٣.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٣٤؛ ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٢٥١.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٣٩.

(٧) الأزدي: فتوح الشام، ص ٢٧، ٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٨٣.

(٨) الأزدي: فتوح الشام، ص ٢٩، ٣٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٨٤.

وحضر في تلك الأثناء ألفان من همدان^(١) وفي بعضهم جهلاً وجفاءً فتأذى منهم أهل المدينة، وشكّوهم إلى أبي بكر رضي الله عنه، فناشدتهم الخليفة بالكف عنهم، وطالبهم بتحمل أفعالهم ما لم تبلغ الحدّ، وعلل ذلك بأنّ الله تعالى سيهلك بهم وبأشباههم جموع الرّوم، فلبّى المسلمون رغبة الخليفة، واحتملوا الأعراب حتّى ارتحلوا إلى الشّام^(٢). ولم يقدم على الصّدق أحدٌ في تلك الأيام يريد الجهاد إلا وجهه إلى الشّام لتقوية جيوش المسلمين أمام الرّوم^(٣).

■ موقعة اليرموك:

كان رأي قادة الجبهة الشّامية قد استقرّ على الانسحاب من المواقع المتقدّمة في بلاد الشّام والتّجمّع في اليرموك^(٤) متساندين، كما أمر الخليفة أبو بكر رضي الله عنه، فلمّا علم هرقل باجتماعهم أمر قوّاده بأن يجمعوا جيوشهم في مكان واسع الطّعن ضيق المهرب، فنزلوا الواقوصة^(٥) على ضفّة اليرموك^(٦)، في جموع كثيرة من الرّوم والشّوام وأهل الجزيرة وأرمينية^(٧)، واحتشدوا فيها مستعّلين^(٨)، بقيادة تيودريك أخي هرقل^(٩)، فانتقل المسلمون فنزلوا تجاههم على الطّريق الوحيد لهم، وقال عمرو بن العاص مستبشراً:

(١) همدان: بطن من كهلان من القحطانية، لهم أفخاذ متسعة، كانت ديارهم شرقي اليمن، ولما جاء الإسلام خرج كثير منهم إلى البلاد المفتوحة، وبقي من بقي باليمن، ومن بلادهم: نجران، وشروم، والخنق، ومن جبالهم: شبام. عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، جـ ٣، ص ١٢٢٥.

(٢) الأزدى: فتوح الشّام، ص ٣١-٣٣؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٨٥، ١٨٦.

(٣) الأزدى: فتوح الشّام، ص ٣٣-٣٥؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٨٦-١٨٨.

(٤) اليرموك: نهر من أنهار الشّام، ينبع من مرتفعات حوران، وطوله ٥٧ كيلو متر، منها ١٧ في فلسطين، والباقي في الحدّ الفاصل بين سورية والأردن، وهو من أكبر روافد نهر الأردن، ويلتقي مع الأردن في جنوبي بحيرة طبرية. محمد محمد حسن شرّاب: المعالم الأثرية في السّنة والسيرة، ص ٢٩٧.

(٥) الواقوصة: يقع سهل الواقوصة في استدارة النهر قبل التقائه بالأردن، والواقوصة قرية من أعمال درعا السورية، تقع غربها بمسافة ٦٣ كيلو متر. محمد محمد حسن شرّاب: المعالم الأثرية في السّنة والسيرة، ص ٢٩٧.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٣٤. ويرى مرتضى العسكري أنّ الواقوصة من مختلفات سيف بن عمر التميمي، لكن العلماء الثّقات كمحمد بن الحسن الشيباني وعلي بن محمد المدائني وغيرهم ذكروها في كتبهم. محمد عبد العال محمد حسن: مختلفات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٩٢، ٩٣.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٩.

(٨) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق/ أبي القاسم إمامي، سروش، طهران، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، جـ ١، ص ٢٩٤.

(٩) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٧١.

"حُصِرَتْ وَاللَّهِ الرُّومُ، وَقَلَمًا جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ!"، ولكنَّ المسلمين أقاموا نحو ثلاثة أشهر لا يخلصون إلى الروم، ولا يقدرّون منهم على شيء^(١).

أدرك الصّدّيق ﷺ أنّ الجبهة الشّاميّة في حاجة إلى قائد عبقرٍ سبق له الصّدّام مع الجيوش الكبرى وخبر خططها وتمرّس بقتالها ومواجهتها، فوجد أنّ سيف الله المسلول هو أكفأ قادة المسلمين لتلك المهمّة، وكتب إليه باستخلاف المثنّى الشّيبانيّ على العراق^(٢)، والعجل في التّوجّه إلى الشّام لإيجاد إخوانه^(٣).

وسابق أبو بكر الصّدّيق ﷺ خالد بن الوليد إلى الشّام برسالة إلى أبي عبيدة ﷺ يخبره فيها بتولية خالد عليه، ويأمره فيها بالسمع والطّاعة له، بسبب خبرته الحربيّة، وليس لأفضليّته عليه^(٤)، كما وصلته رسالة خالد ﷺ يخبره بأنّه ما سأل الإمارة على الشّام ولا أرادها، ويصارحه بأنّه لن يغيّر شيئاً من حاله، أو يخالف رأيه، أو يقطع أمراً دونّه؛ لفضله وسيادته في المسلمين، فلمّا قرأ أبو عبيدة الرّسالتين دعا للخليفة، وحيّاً خالداً بالسلام^(٥).

وتتّكشف من تعامل هؤلاء السّادة الكبار معاني الأخوة المنبثقة عن التّوحيد الصّحيح والمحفوفة بالأخلاق الحميدة التي زرّعها فيهم النّبي ﷺ؛ فإنّ خالداً لم تتغيّر نفسه أو يشعر بعلوّ على إخوانه بسبب فتوحاته في العراق وثقة الخليفة به، بل يعترف بالفضل لأهله، ويعلن طاعته لأبي عبيدة بن الجراح الذي ولي الأمر من بعده، وفي مقابل ذلك نجد أبا عبيدة يبارك هذا الأمر ويحيي خالداً، وهذا يدلّ على تجرّد خالد وأبي عبيدة من حظوظ النّفس وإبثارهم لمصلحة الأمّة، وإرادتهم وجه الله في أعمالهم^(٦).

وسارع خالد ﷺ لتنفيذ أمر الخليفة، فتحرّك من العراق بثلاثة آلاف^(٧)، ولكنّه رفض السّير إلى الشّام في الطّرق المعتادة، وأصرّ على اقتحام طريق المفازة القاحلة بين

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٣٤.

(٢) الأزدى: فتوح الشام، ص ٥٧، ٥٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٤٣.

(٣) الفسوي: المعرفة والتاريخ، (نصوص من الجزء الأوّل المفقود)، جـ ٣، ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٤) الأزدى: فتوح الشام، ص ٧٤؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٩٧.

(٥) الأزدى: فتوح الشام، ص ٦٢؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٦) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ ٩، ص ٢٣١.

(٧) السرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيباني، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى،

العراق والشَّام، والتي تخلو من الماء والكلاً طوال خمسة أيَّام بلياليها^(١)، ولم يعبأ القائد الجسور بترهيب الأدلاء له من مخاطر الطريق، فاعتمد على الله ﷻ، وأخذ بنصيحة الدليل الخبير رافع بن عُميرة الطَّائي، وعمد إلى مجموعة من الإبل السَّمان، فأعطشها أيَّاماً، ثمَّ أوردھا الماء حتَّى امتلأت أجوافها، ثمَّ قطع مشافرها حتَّى لا تجترَّ، فكان كلّما نزل مكاناً للرَّاحة ينحر عشراً من تلك الإبل، إلا أنَّ الدليل الطَّائي رَمَدَتْ عيناه في الطريق، فأشرف خالدٌ وجيشه على الهلاك في اليوم الخامس، ولكنَّ الله ﷻ لطف بجند المسلمين، وهدى رافعا إلى بئر قديمة مطمورة فحفرها الجند وشربوا منها^(٢).

وتابع خالد سيره ففتح في طريقه بُصرى^(٣)، وبعض الواحات التي مرَّ بها^(٤)، وشقَّ الأرض حتَّى طلع على المسلمين، "فتسمع بخالد أعراب العرب الذين كانوا في مملكة الرُّوم ففرعوا له؛ لأنَّه كان مشهوراً بالجلادة"^(٥)، ثمَّ انضمَّ لجند المسلمين بالشَّام، فبلغ مجموع عددهم نحواً من أربعين ألفاً^(٦).

استعدادات الروم:

اجتمع الرُّوم للمسلمين في بلاد الشَّام عن آخرهم^(٧)، فقام قائد الحرب الروميَّ^(٨) بتنظيم جيشه لملاقاة المسلمين بنظام الكراديس^(٩) والفرق، كعادة البيزنطيين آنذاك،

(١) تقدر تلك المسافة بحوالي ٨٠٠ كيلو متر عبر الصحراء. جمال الدين محفوظ: فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٨٤.

(٢) الأزدى: فتوح الشام، ص ٦٣، ٦٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٥، ١٣٦.

(٣) الأزدى: فتوح الشام، ص ٦٩ - ٧١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣٧؛ الفسوي: المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٢٩٣. ونظراً لاستقرار الفتح ببصرى فقد اعتبرها بعض المؤرخين أوَّل مدينة فتحت من الشام. وكانت بصرى مدينة حوران، وقد احتلت درعا السورية محلها حتَّى ظنَّها بعض النَّاس أنَّها هي، ودرعا على أكيال من حدود الأردنِّ الشمالية. ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٤١؛ عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ٤٣، ٤٤.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص ١٦٠؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٧١.

(٥) السرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، ج ١، ص ٣٦.

(٦) تختلف الروايات في عدِّ جنود المسلمين باليرموك بين أربعة وعشرين ألفاً وستة وأربعين. الأزدى: فتوح الشام، ص ١٨٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٥٥. وذلك لأنَّ الأعداد كانت تأتيهم تبعاً.

(٧) السرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، ج ١، ص ٣٧.

(٨) يشير الطبري إلى أنَّ قائد الروم العام هو "تذارق"، وأنَّ قائد الحرب هو الفيقلار "سقلاز"، ويجعل باهان على اليمين. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣٤. وتشير أكثر المصادر العربية بأنَّ قائد الروم هو باهان. أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٣٦٤.

(٩) الكرثوس: الفرقة أو الكتيبة من الخيل العظيمة. ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ١٩٥.

ووضع الرّماة في المقدّمة، والخيالة في الجناحين، وقد شكّلت كراديس المشاة قلب الجيش الذي رتب في عشرين صفّاً^(١)، فظهروا بأعداد هائلة كأنّهم الليل^(٢)، وكان العميل العربيّ جبلة بن الأيهم الغسانيّ في مستعربة الشّام على مقدّمة الرّوم^(٣).

وحضر القساوسة والرّهبان لتحريض الجند^(٤)، فطفق معاذ بن جبل ﷺ كلّما سمع أصواتهم يدعو الله قائلاً: "اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التّقوى، وحبّب إلينا اللّقاء، ورضنا بالقضاء"^(٥)، ونهض يمشي بين الصّفوف يقصّ على النّاس ويحرّضهم، ويركّز على حفاظ القرآن خاصّة^(٦).

وقد أتى تحميس القساوسة والرّهبان ثماره عند كثير من جنود البيزنطيّين، حتّى وضع ثلاثون ألفاً منهم أرجلهم في القيود، لئلا يفرّوا^(٧).

❏ تعبئة جيش المسلمين:

صفّ خالدٌ ﷺ جيشه في ثلاثة صفوف، وجعل معاذ بن جبل الأنصاريّ على الميمنة، وقباث بن أشيم الكنانيّ على الميسرة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهريّ على الرّجالة، وكان كلّ واحد من أمراء الجيوش الأربعة على ربع^(٨).

وكان أبو سفيان بن حرب بن أميّة قد استأذن عمر بن الخطّاب في جهاد الرّوم بالشّام، ورغب أن يجاهد بنفسه وماله، ويفيد المسلمين برأيه وينصح لهم، فأذن له عمر ودعا له بخير، فخرج أبو سفيان إلى الشّام في جمع عظيم من المطّوعين، فأحسن صحبتهم حتّى نزلوا على جماعة المسلمين^(٩).

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص ١٧١، ١٩٤.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص ١٩٤، ويختلف الرواة في عدد جنود الروم في اليرموك ما بين مكثر ومقل، فمنهم من يهبط بالعدد إلى مائة ألف، ومنهم من يبالغ ويرتفع إلى أربع مائة ألف. أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق، ص ٣٦٤، ٣٦٥. والأقرب من الأقوال أنّ عددهم كان قريباً من مائتي ألف.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٩.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص ١٦٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٢.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص ١٩٩؛ ابن عسّاكر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥١.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص ١٩٥، ١٩٦.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص ١٩٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٩.

(٨) الأزدي: فتوح الشّام، ص ١٩٤، ١٩٥.

(٩) المصدر السابق، ص ١٩٧.

ولما اجتمع خالد رضي الله عنه بأمراء المسلمين في خباء لإبرام أمر الحرب بينهم، أقبل إليهم أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه يتوكأ على عصاه، وهو يريد أن يخبرهم برأيه في الحرب، وكان مشهوراً بالرأي والمكيدة، فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، وقالوا: "لا تقربنا"، فتحسّر أبو سفيان، وقال: "ما كنت أرى أن أعيش حتى أكون بحضرة قوم من قريش يبرمون أمر حربهم وأنا بينهم ولا يحضروني أمرهم"، فقال بعضهم: "هل لكم في رأي شيخكم، فإن له رأياً في الحرب"، فأذنوا له، وطلبوا مشورته، فقال: "إني أرى أن ترتحلوا حتى تجعلوا ذلك التلّ خلف ظهوركم، ثم تؤمّروا عكرمة بن أبي جهل على خيل، وتجعلوا معه كل نابض بوتّر - أي رام عن قوس - فإن لي به خبراً - أي علماً بأنه يصلح لذلك - فإذا نادى بلال النداء الأول لصلاة الغداة فليخرج عكرمة، وتلك الرّماة معه، فليصف أولئك الرّماة عند صدور خيولهم، فإن هاجهم هيّج من الليل كانوا مستعدّين بإذن الله تعالى"^(١).

قبل القادة رأي أبي سفيان ونصيحته وعملوا بها، وحدث ما توقّعه، حيث أقبلت خيل عظيمة من الرّوم تريد بيات المسلمين فسمعوا رغاء الإبل، فلم يشكّوا أن العرب قد هربت وأقبلوا متفرّقين، وسابق بعضهم بعضاً من غير تعبئة، فوجدوا خيل عكرمة والرّماة مستعدّين لم تعلم الرّوم بهم، وحمل عكرمة ورجاله في وجوههم، فلم يزل الله ينصرهم بقتلهم، حتى إذا كادت الشمس تطلّع ولّوا هاربين إلى عسكرهم^(٢).

وسار خالد بين الصفوف يحمّس الجند، فكان يقف على كل راية، يعظهم ويحضّهم، ويرغبهم، حتى مرّ على الجيش كلّ^(٣)، ونهض القادة والعلماء فألهبوا مشاعر الناس بالمواعظ الإيمانية^(٤)، وطاف القراء بسورة الجهاد - الأنفال - بين الجنود، وجعل أبو سفيان بن حرب يقف على كل كرّدوس ويقول: "الله الله! إنكم ذادة - حماة - العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الرّوم، وأنصار الشّرك! اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك!"^(٥).

(١) السرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، ج١، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٣٨، ٣٩.

(٣) الأزدي: فتوح الشام، ص ١٧٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص ١٢، وما بعدها.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٣٦، وأورده ابن حجر عن إسحاق بن راهويه بإسناد ضعيف فيه رجل مبهم. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ج١٦، ص ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٠٧. وقد روى ابن أبي شيبة الجزء الأخير عن

سعيد بن المسيب، ولكنه لم يسم من حدّثه به. المصنف، ج٧، ص ٨.

❏ التقاء قادة الطرفين قبل القتال:

ولمّا تصافّ الجمعان أرسل المسلمون وفداً فيه أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وأبو جندل بن سهيل، لدعوة الرّوم إلى الإسلام وإقامة الحجّة عليهم، فدخلوا على قائد الرّوم، وجلس معهم حيث أرادوا بعيداً عن فرس الحرير، ولم يجبه الرّوم إلى ما أرادوا، فعادوا إلى معسكرهم، وقد أقاموا الحجّة عليهم^(١).

وطلب قائد الرّوم العام مقابلة قائد المسلمين فأجابه خالد بن الوليد وبرز إليه بين الصّقيين، فقال له الرّوميّ باستعلاء: "إنّا قد علمنا أنّ ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فاهلموا إلى أن أعطي كلّ رجل منكم عشرة دنائير وكسوة وطعاماً وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها". فأجابه خالد: إنّهُ لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنّا قومٌ نشرب الدّماء، وأنّه بلغنا أنّه لا دمٌ أطيبُ من دم الرّوم، فجئنا لذلك". فوقع الرّعب في صفوف الرّوم، وقالوا: "هذا والله ما كنّا نحدّث به عن العرب"^(٢).

❏ نشوب الحرب بين الطرفين:

بدأت الحرب بين الطرفين بالمبارزة، حيث خرج بطريق من شجعان الرّوم وطلب المبارزة، فأراد نفر من فرسان المسلمين أن يبارزوه، ولكنّ خالداً منعهم من ذلك، خوفاً من عجزهم عن الرّوميّ، وتأثير ذلك على معنويات المسلمين، فلمّا فطن قيس بن هبيرة المكشوح لذلك خرج لمبارزة الرّوميّ، وكان قيس أحد أشدّاء المسلمين وأبطالهم، فدنا من البطريق، وضربه ضربة شديدة على رأسه فقطع ما عليه من السّلاح، وفلق هامته، فسقط بين يدي فرسه قتيلاً، وكبر المسلمون^(٣).

وكان عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ من أبطال العرب وأشرف أهل اليمن، وقد شهد يوم اليرموك وقاتل قتالا شديداً، ودعا إلى المبارزة، فخرج له علق روميّ فقتله، ثمّ خرج إليه آخر فقتله، ثمّ خرج آخر فقتله^(٤)، كما كان مالك بن الحارث النّخعيّ الشّهير بالأشتر من أشدّاء النّاس وجلدائهم، فقتل ثلاثة من أبطال الرّوم مبارزة^(٥).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٣.

(٣) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٧١، ١٧٢.

(٤) ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ٥٧٠. وقد نقل ابن حجر هذا الخبر من مغازي ابن عائذ.

(٥) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٧٢.

وقد أثرت هذه المبارزات على المسلمين، فارتفعت معنوياتهم، وتقدّمت عدّة كتائب لمهاجمة الرّوم، وفي مقدمتهم خالد بن الوليد وقيس بن هبيرة المراديّ، فكشفوا خيل الرّوم حتّى ألحقوهم بالصّفوف، ثمّ رجعوا إلى جماعة المسلمين^(١).

أدرك خالدٌ أعداد الرّوم الغفيرة التي اصطدم بها، وتوقّع اغترارهم بأعدادهم واستهانتهم بالمسلمين، ولذلك وضع خطّته العسكريّة على أساس أن يثبت المسلمون أمام هجمات الرّوم حتّى تتضعض هجماتهم وتتصدّع صفوفهم، وأخذ في حسابه إمكان عجز المسلمين عن الصّمود، ولكن سوف يختلّ نظام صفوف الرّوم على أيّ حال، وهنا يكون الوقت مناسباً للقيام بهجوم مضاد^(٢).

ولهذا وقف خالد ﷺ في جماعة من الخيالة وراء الميمنة، وأوقف قيس بن هبيرة المراديّ بخيل وراء الميسرة، وقام أبو عبيدة بن الجراح في خيل خلف القلب^(٣). وأسرع أبو سفيان عندئذٍ إلى نساء المسلمين خلف الصّفوف وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهنّ، وعهد إليهنّ ألا يرجع أحدٌ من المسلمين إلا رمينه بالحجارة وقلن: "من يركوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله وعن النّساء بأرض العدو، فالله الله"، ثمّ رجع فنادى بين صفوف المقاتلين: "يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنّة أمامكم، والشّيطان والنّار خلفكم"، ثمّ أخذ مكانه بين المجاهدين^(٤).

وحدث ما توقّعه القائد العبقريّ سيف الله المسلول، فأقبلت الرّوم ولهم زجلٌ كالرّعد، فأصدر أمره إلى نساء المسلمين بألا يفرّ رجلٌ من المسلمين إليهنّ إلا قتلنه^(٥).

وزحفت صفوف الرّوم كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولّها، فحملت ميسرتهم على ميمنة المسلمين، فقاتلوا الرّوم قتالا عظيما، ولكنهم لم يستطيعوا مواصلة الثّبات أمام الجموع التي ركبتهم أمثال الجبال، فزالوا من الميمنة إلى القلب، وولّى بعضهم الأدبار حتّى اصطدموا بالنّساء خلف المعسكر، فاستقبلت النّساء المنهزمين من سرعان

(١) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٧٢.

(٢) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٠، ١٥١؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٥٦، ٢٥٧؛ أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق، ص ٤٢٤.

(٣) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٩٨؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٤) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٠.

(٥) الأزدّي: فتوح الشام، ص ١٩٨؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٠.

الناس يضربنهم بالخشب والحجارة، فترجعوا إلى مواقعهم، وثبتوا لمقاتلة الروم، وأقامت النساء في مواقعهن^(١)، وتقدمت بعض النساء للقتال، حتى قتلت أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية -ابنة عم معاذ بن جبل- تسعة من الروم بعمود فسطاط^(٢).

واستحر القتال يومئذ في أزد اليمن، وكانوا قد ثبتوا للقتال مع أبي هريرة ؓ وأطافوا به^(٣)، فلما تراجع الناس صارت الروم تجول في مجال واحد، كما تدور الرحي، وما رأى الناس يوماً "أكثر قحفاً ساقطاً، ومعضماً نادراً، وكفاً طائراً، من ذلك الموطن"^(٤). وحملت ميمنة الروم حملة شديدة على ميسرة المسلمين فرالت عن مصافها، وانهزم الناس مما يلي القلب، فركبت الروم أكتافهم حتى دخلوا معهم العسكر، ولكن أهل الرايات والحفاظ ثبتوا للروم مع عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ثباتاً عظيماً^(٥).

وكان الزبير بن العوام ؓ قد شهد اليرموك، فلما حملت عليهم الروم قال له أصحاب رسول الله ﷺ: "أَلَا تَشُدُّ فَنَشُدُّ مَعَكَ؟ قَالَ: إِنِّي إِِنْ شَدَدْتُ كَذَبْتُمْ. قَالُوا: لَا نَفْعُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى شَقَّ صُفُوفَهُمْ، فَجَاوَزَهُمْ وَمَا مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ رَجَعَ مُقْبِلاً، فَأَخَذُوا بِلِجَامِهِ، فَضَرَبُوهُ ضَرْبَتَيْنِ عَلَى عَاتِقِهِ، بَيْنَهُمَا ضَرْبَةٌ ضَرَبَهَا يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ معلقاً: "كُنْتُ أَدْخُلُ أَصَابِعِي فِي تِلْكَ الضَّرَبَاتِ أَلْعَبُ وَأَنَا صَغِيرٌ"^(٦).

وبلغت منهزمة الميسرة مواقف النساء خلف الجيش، فصمدن إليهم بالعمد والحجارة، وصحن في وجوههم: "أين عز الإسلام والأمهات والأزواج؟ فاستحيا الرجال من كلام النساء، وانعطفوا إلى إخوانهم الثابتين للقتال^(٧)، ونزلت هند بنت عتبة بن ربيعة -أم معاوية- تحمس المجاهدين، وتصيح فيهم: "عضدوا الغلفان بسيفوكم"^(٨)، وثبت يزيد ابن أبي سفيان ثباتاً عظيماً يومئذ، وهو على ربع الناس، وكان أبو سفيان قد وصاه

(١) الأزدى: فتوح الشام، ص ١٩٨ - ٢٠٠؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٤، ص ١٥٧، ح ٤٠٣. ورجاله ثقات. الهيثم: مجمع الزوائد، ج ٦، ص ٢١٣.

(٣) الأزدى: فتوح الشام، ص ١٩٩ - ٢٠٢.

(٤) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٢؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٣.

(٥) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٦؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٤؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل)، ج ٤، ص ١٤٦١، ح ٣٧٥٦.

(٧) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٣؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٤.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٩. والمقصود من قولها: قطعوا الروم الذين لا يختنون.

بتقوى الله والصبر على قتال الروم، فكان يومئذ من أعظم الناس غناء^(١)، كما ثبت قبّاث ابن أشيم براءة الميسرة، وقاتل يومئذ قتالا شديدا حتى كسر ثلاثة أرماح وقطع سيفين^(٢). ولما أبصر خالد بن الوليد وهو يراقب جولات القتال أنّ ميسرة الروم قد اخترقت معسكر المسلمين حتى جاؤوا من وراء الميمنة في نحو عشرين ألفا وكادوا أن يلتفوا على الثابتين للقتال حمل عليهم حملة قويّة من وراء الميمنة، فقتل من الروم نحو عشرة آلاف^(٣)، واعترضهم قيس بن هبيرة المراديّ في خيله من وراء الميسرة^(٤)، واضطربت ميمنة المسلمين حتى اختلطت بالقلب، فركب الروم بعضهم بعضا أمام خالد وقيس، واشتدّ المسلمون لشدة خالد، فانصرفوا من ميسرة الروم، وقتلوا قائدها^(٥). واستقتل عكرمة بن أبي جهل يومئذ وصمد للروم^(٦)، ونزل فترجّل، فقاتل قتالا شديدا حتى قتل، فوجد به بضع وسبعون من بين طعنة وضربة ورمية^(٧). ويروى أنّ الحارث بن هشام دعا بشراب يوم اليرموك، فرأى عكرمة ينظر إليه فأثره به، فوجد عكرمة عياش بن أبي ربيعة ينظر إليه فدفعه إليه، فمات الثلاثة وما ذاقوه^(٨). وكان سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدويّ -أحد العشرة المبشرين- على رأس القلب، فلما اشتدّت الحرب لاذ الناس إليه، فجثا على ركبتيه، فلما دنا منه الروم وثب في وجوههم كالأسد، وقاتل راجلا كما يقاتل شديد البأس راجلا^(٩). وحمي مالك الأشتر النخعيّ فقاتل الروم قتالا شديدا وخاض في صفوفهم حتى قتل ثلاثة عشر رجلا من بطارقتهم^(١٠).

(١) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٥؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٥، ١٥٦.

(٢) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٤.

(٣) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٢؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٣.

(٤) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٥) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٦، ٢٠٧؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٥٣، ١٥٤.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٧، ص ٨. بإسناد مرسل؛ لأنّ أبا إسحاق راوي الخبر لم يدرك اليرموك.

(٨) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٣، ص ٢٥٩. وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، وحبيب لم يدرك اليرموك، وفي إسناده من لم

أعرفه". مجمع الزوائد، ج ٦، ص ٢١٣.

(٩) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢٠٥.

(١٠) الأزدى: فتوح الشام، ص ٢١٠.

وفي الوقت الذي احتدم القتال بين المسلمين والروم بعد تراجع المتحيزين خمدت الأصوات كلها إلا صوت أبي سفيان بن حرب، فكان يقول وهو تحت راية ولده يزيد: "يا نصر الله اقترِبْ، يا نصر الله اقترِبْ"^(١)، "الثبات الثبات يا معشر المسلمين"^(٢). ولما حمى الوطيس شمّرت نساء خالد وأصحابه، وكن يحملن الماء للمجاهدين، ويرتجنز بتحميسهم على القتال^(٣).

ولما رجعت راجعة الميمنة والميسرة حمل المسلمون على الروم حملة واحدة، وأظهروا التكبير^(٤)، وقاتلوا الروم أشدّ قتال وأبرحه^(٥)، وتابع سيف الله خالد حملته على الروم وهو في ألف رجل فاعترض سوادا عظيما من الروم فأزالهم، وصبر لهم صبورا عظيما حتى فضّ الله جمعهم^(٦).

وواصل خالد والمسلمون الشدّة على الروم فولى فرسانهم الأندبار، فأفرجوا لهم الطريق، ولم يجرّجوه، فهاموا على وجوههم في البلاد، وتركوا مشاتهم، فأقبل عليهم خالد والمسلمون فاقتحموا في خندقهم، فركبهم المسلمون، فعمدوا إلى الواقوصة فهوى فيها المقترون بالسلاسل^(٧)، وأسرع خالد في تتبّع الروم ومطاردتهم^(٨).

كما قام عمرو بن معدي كرب الزبيدي بتتبّع فالة الروم ومطاردتهم مع خالد بن الوليد وشجعان المسلمين، ثم رجع عمرو، فانصرف إلى خباء عظيم فنزل به، وأتى بجفان الطّعام، فدعا إليها من حوله^(٩).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير، جـ ٦، ص ١١؛ الفسوي: المعرفة والتاريخ، (نصوص من الجزء الأول المفقود)، جـ ٣،

ص ٣٠٠، وإسناده صحيح. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ ٣، ص ٤١٤.

(٢) ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٢، ص ١٥٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٨.

(٣) السرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، جـ ١، ص ١٣٠.

(٤) ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٢، ص ١٥٧.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٩.

(٦) ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٢، ص ١٥٣، ١٥٤.

(٧) الأزدی: فتوح الشام، ص ٢٠٧. وأخرج البخاري وخليفة بن خياط بإسناد حسن عن أبي واقد الليثي أنه رأى الرجل من

العدو يوم اليرموك يسقط فيموت. خليفة بن خياط: مسند خليفة، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت،

الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٧٧.

(٨) الأزدی: فتوح الشام، ص ٢٠٨.

(٩) ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ٥٧٠.

وقام مالك بالأشتر النخعيّ بدور كبير في مطاردة الروم مع خالد بن الوليد، وكانوا قد اجتمعوا عند عقبة ومنعوا المسلمين من تتبّعهم، فهاجمهم الأشتر وقتل أحد عظمائهم فانهمزوا وخلوا العقبة^(١).

وقد أصاب هرقل همًا وحزنًا، لما أصاب جيشه في اليرموك، وانطلق إلى مدينة أنطاكية وودّع سوريا الوداع الأخير^(٢)، وفتحت الطريق أمام المسلمين للانسيحاح في بلاد الشام، وتوفي أبو بكر ؓ في أعقاب اليرموك، وتولى الخلافة عمر ؓ، وهناك رواية أخرى تجعل اليرموك عقب فتح دمشق، وفي عهد الفاروق عمر ؓ^(٣).

تحقيق تاريخ موقعة اليرموك:

لقد ارتبط اختلاف الرواة في تأريخ موقعة اليرموك بين عهدي الصديق والفاروق بالاختلاف في قائد المعركة، وهل هو خالد بن الوليد أم أبو عبيدة بن الجراح، ولهذا رأيت أن أعرض بعض تلك الروايات ليكون القارئ على بينة من الأمر^(٤).

أولاً: ثبت عن قيس بن أبي حازم^(٥) أنّه قال: "أمّا خالد بن الوليد يوم اليرموك، في ثوب واحد، قد خالف بين طرفيه، وخلفه أصحاب محمد ؐ".^(٦)

وهذا الأثر الصحيح عن قيس يدلّ على أنّ خالد بن الوليد ؓ هو الأمير الذي يصلّي الجند بصلاته، وإلا لصلّى الصحابة خاصّة خلف أبي عبيدة ؓ.

ثانياً: صرح عروة بن الزبير بن العوام (ت: ٩٣هـ/٧١٢م) أنّ أخاه عبد الله ؓ شهد موقعة اليرموك وهو ابن عشر سنين^(٧)، وعقب ابن حجر على هذا الأثر فقال: "وموقعة

(١) الأزدی: فتوح الشام، ص ٢١٠، ٢١١.

(٢) الأزدی: فتوح الشام، ص ٢١٢، ٢١٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦١.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٧١.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٩٣ - ٩٦.

(٥) قيس: هو قيس بن أبي حازم البجليّ الأحمسي، من قدماء التابعين، ومن أكثرهم رواية عن الصحابة، شهد فتوح العراق مع خالد بن الوليد، وشهد معه اليرموك بالشام، وعاش حتّى جاوز المائة، وتوفي سنة ٩٨هـ/٧١٦م. ابن سعد:

الطبقات الكبير، ج ٨، ص ١٨٨؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٥، ص ٣٩٩ - ٤٠١.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج ٥، ص ٤٠؛ الطحاوي: شرح معاني الآثار، تحقيق/ محمد زهري النجار، ومحمد سيد جاد الحق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج ١، ص ٣٨٣، ح ٢٢٥٩. وصححه ابن حجر.

الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٥، ص ٤٠٠.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل)، ج ٤، ص ١٤٦١، ح ٣٧٥٦؛ أبو إسحاق الفزاري: السير،

تحقيق/ فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص ٢١٧.

اليرموك كانت أول خلافة عمر بين المسلمين والروم بالشام سنة ثلاثة عشر، وقيل: سنة خمسة عشر، ويؤيد الأول قوله في الحديث الذي بعده إن سنّ عبد الله بن الزبير كان عشر سنين^(١).

وتحديد عروة لسنّ أخيه عبد الله بعشر سنين، "بحسب إلغاء الكسر، وإلا فسنة يومئذ كان على الصحيح مقدار اثنتي عشرة سنة"^(٢)، ولا داعي للتكلف وتحويل الوقعة إلى اليمامة، اعتماداً على لفظ السنّ المذكور^(٣)، فقد ثبت عن عبد الله بن الزبير أنّه كان مع أبيه يوم اليرموك، فلما انهزم المشركون حمل فجعل يجهز على جراحهم^(٤).

ثالثاً: صحّ عن الزهري أنّه قال: "لما استخلف عمرُ نزع خالداً، فأمر أبا عبيدة بن الجراح، وبعث إليه بعهد وهو بالشام يوم اليرموك، فمكث العهد مع أبي عبيدة شهرين لا يُعرفه إلى خالدٍ حيّاً منه، فقال خالدٌ: "أخرج أيّها الرجل عهدك نسمع لك ونطيع"^(٥).

رابعاً: ذهب موسى بن عقبة مولى آل الزبير (ت: ١٤١هـ/٧٥٨م) وهو ثقة فقيه إمام في المغازي^(٦) إلى أنّ قيادة المسلمين في اليرموك كانت لخالد رضي الله عنه^(٧).

خامساً: ذكر الإخباري الحافظ الصادق عليّ بن محمد المدائني (ت: ٢٢٥هـ/٨٤٠م) أنّ خبر عزل الفاروق خالداً عن القيادة العامة بالشام أتى المسلمين وهم يقاتلون الروم باليرموك في شهر رجب^(٨).

سادساً: ثبت عن إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين (ت: ٢٣٣هـ/٨٤٨م) أنّه قال: "قُتل الفضل بن عباس يوم اليرموك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه"^(٩).

(١) فتح الباري، جـ٧، ص ٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص ٣٠٠.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١، ص ٦٣.

(٤) أبو إسحاق الفزاري: السير، ص ٢١٧؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٩، ص ١٥٨؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ٢٨، ص ١٤٥.

(٥) عبد الرزاق: المصنف، جـ٥، ص ٤٨٣، ح ٩٧٧٨، والإسناد صحيح إلى الزهري.

(٦) ابن حجر: تقريب التهذيب، جـ٢، ص ١٥١.

(٧) أبو إسحاق الفزاري: السير، ص ١٤٩.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٣٥٥.

(٩) تاريخ ابن معين، رواية الدوري، تحقيق/ أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، جـ٣، ص ٢٧؛ الحاكم: المستدرک علی الصحیحین، جـ٣، ص ٣٠٨.

وبهذا يتبين لنا خطأ ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ/١١٧٦م) عندما زعم أن تاريخ اليرموك بسنة ١٥هـ/٦٣٦م في خلافة عمر رضي الله عنه هو المحفوظ، وأن سيفا التميمي هو الذي انفرد بتاريخها قبل فتح دمشق في أول خلافة عمر سنة ١٣هـ/٦٣٤م، وجزم بأنه "لم يتابع على ذلك" (١).

وهذه الأدلة تقوّي القول بأن وقعة اليرموك كانت بقيادة خالد بن الوليد في نهاية عهد الصديق وأول خلافة الفاروق.

❏ أثر العصبية القبلية على رواية أحداث اليرموك:

لا يخفى أن تاريخنا الإسلامي قد تعرض لكثير من التحريف والتزوير على يد الرواة المتعصبين لقبائلهم وعشائريهم، وخاصة إذا كانوا من المجروحين والمتهمين، ولذا نرى سيفا التميمي العراق يحمل القعقاع وجماعة من قبيله بني تميم فيشهدهم معركة اليرموك، مع أنه لا يوجد دليل وثيق على شهوده فتوح الشام أصلاً، ولكن سيفا يتمادى في غيه فيمسك بيد القعقاع ويجعله أول من أنشب القتال في اليرموك، ويدعي أنه كان على إحدى مجنبتَي القلب، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه على المجنبة الأخرى، ويزعم أن خالدا أمرهما ببدء القتال معاً، فأنشبا، والتحم الناس في القتال بعدهما (٢).

ولقد اعتدنا من سيف مزاحمته لأبطال الإسلام وكبار القادة بابتغاء عمه القعقاع التميمي في مواطن كثيرة، وتبين لنا كذبه في غالبية المفاخر والفعال العظام الأوائل التي ألصقها بقومه عامة وبالقعقاع خاصة.

ويطل علينا هاهنا متهم آخر هو المؤرخ الشيعي أحمد بن أعثم الكوفي الأزدي اليمني (ت: ٣١٤هـ/٩٢٦م) فيدعي أن أول من أنشب حرب اليرموك كان غلاماً من قبيله الأزدي (٣).

ولقد كذب أستاذنا الدكتور محمد جبر أبو سعدة رواية ابن أعثم الكوفي التي تجعل أولية إنشباب حرب اليرموك على يد غلام أزدي يمني، بحجة تعصب ابن أعثم للأزد.

(١) تاريخ دمشق، جـ ٢، ص ١٤٢؛ العيني: نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، تحقيق/ ياسر إبراهيم، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، جـ ٦، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٣٧.

(٣) الفتوح، مج ١، ص ٢٠٠.

واليمينية^(١)، وهو مؤرخ شيعي، واضح المذهب، يكشف عن رأيه بقوة، ويعلن عنه في كتابه إعلاناً لا خفاء بعده، ثم إنه انتهز كتابه "الفتوح" ليتغنى بأمجاد عشيرته الأزد خاصة، واليمن عامة^(٢).

وإذا نظرنا في الروايات التي بين أيدينا يمكننا القول بأن عكرمة بن أبي جهل هو الذي بدأ الصدام الجماعي بين المسلمين والروم^(٣)، وذلك لثبوت الخبر فيه من رواية الإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة (ت: ١٨٩هـ/٨٠٤م)، وهو معاصر لسيف التميمي، خبير بتاريخ الكوفيين، ويتنزه عن التحيز لقبيلة على أخرى، وبروايته نجزم بكذب سيف في ذكره أولية القعقاع التميمي^(٤).

وأما إن قصدنا الأولية التي كانت تبدأ بالمبارزة غالباً فينحصر الأمر بين قيس بن هبيرة المكشوح المرادي اليميني^(٥)، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي اليميني^(٦).

❏ وفاة الصديق:

وبعد رحلة مباركة من الدعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل الله، والقيام بأعباء الدولة الإسلامية وتوطيد أركانها توفي أبو بكر الصديق ﷺ في يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ/ ٢٢ أغسطس ٦٣٤م^(٧)، عن ثلاثة وستين عاماً^(٨)، بلا خلاف في سنه^(٩)، وكانت خلافته سنتين، وثلاثة أشهر، وعشرين يوماً^(١٠)، أو عشرة أيام^(١١).

(١) ابن أعثم الكوفي ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ١٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٣) السرخسي: شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، ج ١، ص ٣٨، ٣٩.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: مختلفات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٩٧.

(٥) الأزدي: فتوح الشام، ص ١٧١، ١٧٢.

(٦) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٥٧٠.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٤٧. ويجعل ابن حجر وفاة الصديق في جمادى الأولى، ويرى في التواريخ وهما. الإصابة، ج ٤، ص ١٥٠.

(٨) رواه مسلم عن أنس بن مالك ﷺ. صحيح مسلم، (كتاب الفضائل، باب كم سنّ النبي ﷺ يوم قبض)، ج ٤، ص ١٨٢، ح ٢٣٤٨.

(٩) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢١.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(١١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٤٨.

الباب الثاني

خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه

(١٣ - ٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م)

الفصل الأول

سيرة عمر قبل الخلافة

❏ نسبه وكنيته ومولده وصفته:

هو أبو حفص، عمر، بن الخطاب، بن نفيل، بن عبد العزّي، العدوي، القرشي، وأمه حنتمّة، بنت هاشم، بن المغيرة، المخزومي^(١).

ولد عمر ١٠ بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان جسيماً^(٢)، أصلع، أبيض، أعسر يسر^(٣)، طوالاً، مشرفاً على الناس كأنه على دابة^(٤)، قوياً شديداً، لا واهناً ولا ضعيفاً^(٥)، وكان يصارع الناس بسوق عكاظ^(٦).

❏ حياة عمر قبل الإسلام:

كان عمر بن الخطاب يرعى الإبل لأبيه وهو صغير، وقد تحدّث عن ذلك في خلافته، فعندما مرّ بشعاب ضجنان وهو قافل من الحجّ وقف فقال للنّاس: "لقد رأيتمني في هذا المكان وأنا في إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف، وكان الخطاب فظاً غليظاً، يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أُمسيت وليس بيني وبين الله أحد، ثم أصبحت اليوم يضرب الناس بجنباتي ليس فوقهم أحد، ثم تمثّل قائلاً^(٧):

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتُهُ * * يبقى الإله ويؤدي المال والولد
لم تغن عن هُرمز يوماً خزائنه * * والخلد قد حاولت عاداً فما خلدوا
ولا سُلَيْمان إذ تجري الرياح به * * والإنس والجن فيما بينهما ترد
أين الملوك التي كانت لعزتها * * من كل أوب إليها وأفدّ يقد
حوض هنالِك مورودٌ بلا كذبٍ * * لا بُدّ ورده يوماً كما وردوا

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٦٥.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا عن أبي رجاء العطاردي بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ٤٨٤.

(٣) أعسر يسر: هو الذي يعمل يديه جميعاً. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٥٦٥.

(٤) رواه الحاكم من مشاهدة زرّ بن حبیش. المستدرک، جـ ٣، ص ٨٧. وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وهو صحيح كما قالوا، ورواه الفسوي في المعرفة والتاريخ، (نصوص من الجزء الأول المفقود)، جـ ٣، ص ٣٠٨. وجود ابن حجر إسناده. الإصابة، جـ ٤، ص ٤٨٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٤٤.

(٦) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٢٩٠، ٣٢٥.

(٧) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق/ سهيل زكار، ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، جـ ١، ص ٢٩٩؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٢١، والأثر حسن لغیره. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ١، ص ١١٨.

وقد اشتغل عمر في الجاهلية بالتجارة وربح منها ثروة كبيرة، حتّى إنه لما هاجر إلى المدينة مع عيَّاش بن أبي ربيعة المخزوميّ وأتى أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام لخداع عيَّاش وإعادته إلى مكّة قال له عمر: والله إنك لتعلم أنّي لمن أكثر قریش مالا، فك نصف مالي، ولا تذهب معهما^(١)، وكان عمر يسافر للتجارة إلى الشام والعراق ويشارك الناس في تجارة البز^(٢)، وواصل عمر نشاطه التجاريّ في الإسلام، فكثيرا ما حدّث بأنّه انشغل بالصّفق في الأسواق بعد هجرته إلى المدينة^(٣).

ويروى أنّ عمر كانت إليه السّفارة في الجاهلية، وذلك أنّ قریشا كانوا إذا وقع بينهم وبين غيرهم حربٌ بعثوه سفيراً، وإن نافرهم منافراً أو فاخرهم مفاخرّاً رضوا به، وبعثوه منافراً ومفاخرّاً، وكان جديرا للقيام بهذه المهمة؛ لما له من مكانة عالية ومنزلة رفيعة في قریش، ولمكانة أبيه وجده من قبله، ولما تميّز به من صفات خلقية قويّة، وما اتّصف به من راحة العقل وصواب الرأى^(٤)، وكان عمر أحد سبعة عشر رجلا يعرفون القراءة والكتابة في مكّة^(٥).

❏ إسلام عمر:

اختلفت الروايات في إسلام عمر ﷺ بين السنة الخامسة من البعثة^(٦)، أو السنة السادسة^(٧)، ورجّح ابن كثير تأخّر إسلامه إلى نحو السنة التاسعة من البعثة؛ لأنّ ولده عبد الله بن عمر ﷺ قد روى قصّة إسلامه مشاهدة، وكان يوم أحد ابن أربع عشرة سنة^(٨)، ولا مانع أن يروي عبد الله قصّة إسلام أبيه وهو في الخامسة من عمره أو

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ١، ص ٤٧٥، وإسناده صحيح.

(٢) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ١، ص ١٢٠-١٢٢. ولئن كانت هذه المرويات ضعيفة، فإنّ مثلها لا يحتاج إلى كبير توثيق.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب البيوع، باب الخروج في التجارة)، جـ ٢، ص ٧٢٧، ح ١٩٥٦.

(٤) قوى الدكتور عبد السلام محسن آل عيسى أخبار قيام عمر بالسفارة بهذه الأسباب مع ضعف أسانيدھا. دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ١، ص ١٢٣-١٢٤.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٨٧٤.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ١، ص ٣٤٢.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٨) البداية والنهاية، جـ ٣، ص ١٠٣.

نحوها، فقد أم عمرو بن سلمة الناس على عهد النبي ﷺ وهو ابن ست أو سبع سنين^(١)، وروى النبي ﷺ حادثة شق الصدر هو وأخوه السدي في سن صغيرة.

وأما الروايات التي تذكر إسلامه بعد تسعة وثلاثين رجلاً، أو بعد أربعين، أو خمسة وأربعين^(٢)، فلا يعول عليها؛ فإن المهاجرين إلى الحبشة كانوا فوق الثمانين، اللهم إلا أن يقال: إنه كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين^(٣).

وأما كيفية إسلام عمر فقد وردت فيها روايات عديدة مختلفة من طرق ضعيفة، وهي بمجموعها تفيد أن إسلام عمر ﷺ كان بسبب سماعه للقرآن وتأثره به^(٤).

وقد فرح النبي ﷺ والمسلمون بإسلام عمر ﷺ فرحاً شديداً، لأنه كان عزاً ورفعة ومنعة للمسلمين، لقوته البدنية، ومنزلته العالية، وشخصيته المهيبة، ومحالفة عشيرته لقبائل الأحلاف المعادية لبني هاشم والمطيين.

ولم يفتأ عبد الله بن مسعود ﷺ يتحدث بنعمة إسلام عمر ﷺ فيقول: "ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر"^(٥)، "إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمةً، والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر"^(٦).

ولما أسلم عمر ﷺ أتى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، لا أدع مجلساً جلسته في الكفر إلا أعلنت فيه الإسلام، فأتى المسجد وفيه بطون قريش، متحلقة، فجعل يعلن الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فثار المشركون، فجعلوا يضربونه ويضربهم، فلما تكاثروا عليه خلصه العاص بن وائل السهمي"^(٧).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب من شهد الفتح)، جـ ٤، ص ١٥٦٤، ح ٤٠٥١.

(٢) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ١، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، ص ١٠٠.

(٤) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ١، ص ١٢٨.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب)، جـ ٣، ص ١٣٤٨، ح ٣٤٨١.

(٦) الطبراني: المعجم الكبير، جـ ٩، ص ١٦٢، وعلق عليه الهيثمي فقال: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود". مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ٦٣، لكن الحاكم وصل الرواية وصح إسناده، وأقره الذهبي. المستدرک، جـ ٣، ص ٢٩٩. والحديث حسن. محمد حمد الصوياني: الصحيح من أحاديث السيرة النبوية، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ٨٦.

(٧) الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق/ طارق عبد الله محمد، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، جـ ٢، ص ٧٤، ح ١٢٩٣، وقال الهيثمي: "رجاله ثقات". مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ٦٥، ح ١٤٤١٥، وأقره الألباني. صحيح السيرة النبوية لابن كثير، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ص ١٩٤.

تدين عمر وقوة إيمانه:

لقد كان عمر رضي الله عنه من صحابة رسول الله ﷺ المقربين، وممن شهد لهم النبي ﷺ بكمال الإيمان وصدق اليقين^(١)، وتدلّ على ذلك جملة من الأحاديث الصحيحة، منها: أن النبي ﷺ أدركه في ركب وهو يحلف بأبيه، فقال: "إِنَّ اللَّهَ يَنْهَأكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ"، فقال عمر رضي الله عنه: فوالله ما حلّفتُ بها منذُ سمعتُ النبي ﷺ ذاكراً ولا آثراً^(٢).

ويدلّ على كمال دينه ما حدّث به أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عَرَضُوا عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ التَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَعَرَضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ"، قالوا: فما أولّته يا رسول الله؟ قال: "الدين"^(٣).

ويوضح هذا المعنى حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ"^(٤)، وحدّث عقبه بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ"^(٥).

وقد شهد حذيفة بن اليمان - صاحب سرّ رسول الله ﷺ - ببراءة عمر رضي الله عنه من النفاق، وذلك أنه مرّ على حذيفة رضي الله عنه وهو جالس في المسجد، فدعاه للصلاة على رجل قد مات، فلما فرغ من صلاته رأى حذيفة جالسا مكانه فعرف سبب امتناعه، فقال: "يَا حَذِيفَةُ أَتَشِدُّكَ بِاللَّهِ أَمِنْ الْقَوْمِ أَنَا؟ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا، وَلَكِنْ أَبْرِي أَحَدًا بِعَدِّكَ"، فجادت عينا عمر بالدموع^(٦)، ولما حدّثت أم سلمة رضي الله عنها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنها سمعت النبي ﷺ

(١) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، ج١، ص١٦٦.
 (٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم)، ج٦، ص٢٤٤٩، ح٦٢٧١؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى)، ج٣، ص١٢٦٦، ح١٦٤٦. وآثراً: أي ناقلاً وحاكياً.
 (٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال)، ج١، ص١٧، ح٢٣؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل عمر)، ج٤، ص١٨٥٩، ح٢٣٩٠.
 (٤) ابن ماجة: السنن، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، (باب فضائل زيد بن ثابت)، ج١، ص١٠٧، ح١٥٤؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٢١، ص٤٠٥، ٤٠٦، ح١٣٩٩٠، وصحح المحققون إسناده على شرط الشيخين.
 (٥) الترمذي: السنن، وقال: "حسن غريب"، (كتاب المناقب، مناقب عمر بن الخطاب)، ج٥، ص٦١٩، ح٣٦٨٦.
 (٦) وكيع بن الجراح: الزهد، تحقيق/ عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٧٩١، ح٤٧٧، وإسناد الأثر صحيح. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، ج١، ص٤٢٠.

يقول: "إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أَفَارِقَهُ"، وبلغ ذلك عمر ؓ أتاها فقال لها: "بِاللَّهِ مِنْهُمْ أَنَا؟" قالت: لا، وَلَنْ أَبْلِي (١) أَحَدًا بَعْدَكَ (٢).

وكان علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأم المؤمنين عائشة ؓ يقولون: "إِذَا ذَكَرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّهَلَا بِعُمَرَ" (٣).

هبة عمر:

لقد أعطى الله ﷺ للفاروق عمر بن الخطاب هبة جعلت الناس يهابونه رجالا ونساءً، وليس هذا فحسب، بل كانت الشياطين إذا رأت عمر ؓ فرقت منه وهربت، فقد "استأذن عمرُ ابنُ الخطاب ؓ على رسول الله ﷺ وعنده نسوةٌ من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عاليةً أصواتهنَّ على صوته، فلما استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: "عَجِبْتُ مِنْ هَوْلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ"، فقال عمر: فأنت أحقُّ أن يهبن يا رسول الله، ثم قال: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ فقلن: نعم، أنت أفظُّ وأغلظُّ من رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: "إِيهَّا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ" (٤).

وقد شاهدت عائشة ؓ ذات يوم جاريةً حبشيةً تزف (٥) والصبيان حولها، فلما طلع عمر ؓ تفرقوا، ورجعت عائشة، فقال النبي ﷺ: "إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ" (٦).

(١) في رواية ابن أبي شيبه: "ولن أخبر"، وفي رواية أبي يعلى: "ولن أبرئ أحدا بعدك".

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤، ص ٩٢، ٩٣، ح ٢٦٤٨٩، وصحح المحققون إسناده.

(٣) رواد أحمد بن حنبل عن عائشة بإسناد صحيح. المسند، جـ ٢، ص ٧٧، ح ٢٥١٥٢، ورواه ابن أبي شيبه عن ابن مسعود بإسناد صحيح. المصنف، جـ ٦، ص ٣٥٤، ورواه الطبراني عن علي. المعجم الأوسط، جـ ٥، ص ٣٥٩، ح ٥٥٤٥، وحسن الهيثمي إسناده. مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ٦٧.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب)، جـ ٣، ص ١٣٤٧، ح ٣٤٨٠؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر)، جـ ٤، ص ١٨٦٣، ح ٢٣٩٦.

(٥) تزفن: ترقص وتلعب. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٣، ص ١٩٧.

(٦) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح غريب"، (كتاب المناقب، باب مناقب أبي حفص عمر)، جـ ٥، ص ٦٢١، ح ٣٦٩١؛ الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، جـ ٧، ص ١١٩.

وحدث عند عودة رسول الله ﷺ من إحدى الغزوات أن جاءته جارية سوداء، فقالت: "يا رسول الله، إني كنت نذرت إن ردك الله صالحاً أن أضرب بين يديك بالدف، وأتغنى"، فقال لها النبي ﷺ: "إن كنت نذرت فأضربي، وإلا فلا"، فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وعليّ وعثمان رضوا الله عنهم الواحد تلو الآخر وهي تضرب، ثم دخل عمر، فألقت الدف، وقعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: "إن الشيطان ليخاف منك يا عمر، إني كنت جالساً وهي تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل عليّ وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف" (١).

❏ غيرة عمر:

كان عمر رضي الله عنه من أشد الناس غيرة، فقد حدث أبو هريرة رضي الله عنه فقال: "بينما نحن عند رسول الله ﷺ جلوس، فقال رسول الله ﷺ: "بينما أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ قالوا: هذا لعمر، فذكرت غيرتك، فوليت مذبراً"، فبكى عمر رضي الله عنه وهو في المجلس، ثم قال: أو عليك يا رسول الله أغار؟" (٢).

❏ علم عمر وفطنته وفراسته:

كان عمر رضي الله عنه من أعلم الصحابة، وقد حدث ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "بينما أنا نائم، أتيت بفدح لبن، فشربت حتى إنني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب"، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: "العلم" (٣).

وكان عمر رضي الله عنه يرى الرأي فينزل القرآن موافقاً لرأيه، وذلك في نحو عشرين موضعاً (٤)، منها ما حدث به أنس رضي الله عنه أن عمر قال: "وافقت ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (٥)، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر

(١) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح غريب"، (كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، ج ٥، ص ٢٢٠.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب النكاح، باب الغيرة)، ج ٥، ص ٢٠٠٤، ح ٤٩٢٩؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة،

باب من فضائل عمر)، ج ٤، ص ١٨٦٣، ح ٢٣٩٥.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب العلم، باب فضل العلم)، ج ١، ص ٤٣، ح ٨٢؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب

من فضائل عمر)، ج ٤، ص ١٨٥٩، ح ٢٣٩١.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١١٠.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٢٥.

والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾^(١)، فنزلت هذه الآية^(٢).

ومن موافقاته للقرآن رأيته في قتل أسارى بدر^(٣)، وموقفه من الصلاة على ابن أبي المنافق، فإنه لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟^(٤)، فقال رسول الله ﷺ: "إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾"^(٥)، وسأزيده على السبعين"، فقال: إنه منافق، فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾"^(٦).

وفي رواية ابن عباس عن عمر رضي الله عنه لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول، دعي له النبي ﷺ ليصلي عليه، فلما قام وثب عمر إليه، فقال: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي، وأخذ يعدد له أقواله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: "أَخْرَ عَنِّي يَا عُمَرُ"، فلما أكثر عليه، قال: "إِنِّي خَيْرْتُ فَأَخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهِ"، وصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾"^(٧)، فعجب عمر بعد من جرأته على رسول الله ﷺ يومئذ^(٨).

(١) سورة التحريم: من الآية ٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (أبواب القبلة، باب ما جاء في القبلة)، ج ١، ص ١٥٧، ح ٣٩٣.

(٣) مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر)، ج ٤، ص ١٨٦٥، ح ٢٣٩٩.

(٤) يظهر أن عمر فهم النهي من عدم غفران الله ﷻ للمنافقين، ولهذا اعترض رسول الله ﷺ، ثم نزلت آية النهي فحسمت الأمر، ويرى الطحاوي في هذه الرواية وهما من بعض الرواة؛ لاستحالة أن ينهى الله ﷻ نبيه عن شيء ويفعله. شرح مشكل الآثار، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٤٩٤م، ج ١، ص ٧٢. ونص الرواية يدل على أن القول من فهم عمر، وأن النهي لم ينزل بعد.

(٥) سورة التوبة: من الآية ٨٠.

(٦) سورة التوبة: من الآية ٨٤. البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب سورة براءة)، ج ٤، ص ١٧١٥، ح ٤٣٩٣؛

مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر)، ج ٤، ص ١٨٦٥، ح ٢٤٠٠.

(٧) سورة التوبة: الآية ٨٤.

(٨) البخاري: الصحيح، (كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين)، ج ١، ص ٤٥٩، ح ١٣٠٠.

ولما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شِفَاءً، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾^(١)، فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شِفَاءً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾^(٢)، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: "أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكَارَى"، فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شِفَاءً، فنزلت هذه الآية: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٣)، فقال عمر: انتهينا^(٤). ولهذا وغيره كان عمر رضي الله عنهما، وقال عنه النبي ﷺ: "إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدِّثُونَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ"^(٥).

(١) سورة البقرة: من الآية ٢١٩.

(٢) سورة النساء: من الآية ٤٣.

(٣) سورة المائدة: من الآية ٩١.

(٤) أبو داود: السنن، (كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر)، جـ ٣، ص ٣٢٥، ح ٣٦٧٠؛ الترمذي: السنن، (كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة)، جـ ٥، ص ٢٥٣، ح ٣٠٤٩؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٤٤٢، ٤٤٣، ح ٣٧٨، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب)، جـ ٣، ص ١٣٤٩، ح ٣٤٨٦؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر)، جـ ٤، ص ١٨٦٤، ح ٢٣٩٨.

الفصل الثاني

استخلاف عمر ؓ ومنهجه في الحكم

استخلاف الصديق للفاروق:

لَمَّا اشْتَدَّ الْمَرَضُ بِأَبِي بَكْرٍ ؓ وَأَحْسَنَ بَدَنُو أَجَلِهِ، فَاتَحَ الصَّحَابَةَ ؓ فِي أَمْرِ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَطْلَقَ أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ، وَطَالِبُهُمْ أَنْ يُؤَمِّرُوا عَلَيْهِمْ مَنْ أَحَبُّوا فِي حَيَاتِهِ، لِنَلَا يَقَعَ اخْتِلَافٌ مِنْ بَعْدِهِ، فَتَشَاوَرِ الصَّحَابَةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَى شَيْءٍ، وَرَجَعُوا إِلَيْهِ فَطَالِبُوهُ بِاخْتِيَارِ مَنْ يَرْضَاهُ لَهُمْ، وَأَعْطَوْهُ عَهْدَ اللَّهِ أَنْ لَا يَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ^(١).

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ؓ لَا يَعْدِلُ بِعَمْرِ ؓ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَجَّلْ بِاسْتِخْلَافِهِ، وَإِنَّمَا أَخَذَ رَأْيَ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ فِيهِ، فَدَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ ؓ، وَسَأَلَهُ عَنْ رَأْيِهِ فِيهِ، فَقَالَ: "هُوَ وَاللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ رَأْيِكَ فِيهِ مِنْ رَجُلٍ، وَلَكِنْ فِيهِ غِلْظَةٌ"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرَانِي رَقِيقًا، وَلَوْ أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَيْهِ لَتَرَكْتُ كَثِيرًا مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَقَدْ رَمَقْتُهُ، فَرَأَيْتَنِي إِذَا غَضِبْتُ عَلَى الرَّجُلِ فِي الشَّيْءِ أَرَانِي الرِّضَا عَنْهُ، وَإِذَا لَنْتُ لَهُ أَرَانِي الشَّدَّةَ عَلَيْهِ، ثُمَّ دَعَا عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ ؓ فَسَأَلَهُ عَنْ رَأْيِهِ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ عَلِّمِي بِهِ أَنْ سَرِيرَتُهُ خَيْرٌ مِنْ عِلَانِيَتِهِ، وَأَنْ لَيْسَ فِينَا مِثْلُهُ"^(٢)، كَمَا اسْتَشَارَ جَمَاعَةَ آخَرِينَ مِنْ أَعْيَانِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، كَسَعِيدِ بْنِ زَيْدِ الْعَدَوِيِّ، وَأَسِيدِ بْنِ حَضِيرِ الْأَوْسِيِّ^(٣).

وَلَمَّا اطْمَأَنَّ الصَّدِيقُ عَلَى اخْتِيَارِهِ اسْتَدْعَى عَثْمَانَ ؓ لِكِتَابَةِ الْعَهْدِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْأَسْمِ أَغْمَى عَلَيْهِ، فَاتَمَّ عَثْمَانُ الْعَهْدَ لِعَمْرِ ؓ، فَلَمَّا أَفَاقَ الصَّدِيقُ وَرَأَى الْعَهْدَ قَدْ كَتَبَ لِعَمْرِ دَعَا لِعَثْمَانَ، وَشَكَرَ لَهُ صَنْيعَهُ، وَزَادَهُ بِقَوْلِهِ: "لَوْ كَتَبْتَ نَفْسَكَ لَكُنْتَ لِذَلِكَ أَهْلًا"^(٤).

(١) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ١، ص ٣٥٢؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٤، ص ٢٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٥٢.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٥.

(٤) الأجرى: الشريعة، تحقيق/ عبد الله عمر سليمان الدميحي، دار الوطن، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، جـ ٤، ص ١٧٣٨، ٣٩؛ اللالكائي: شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تحقيق/ أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ، جـ ٧، ص ١٣٢٤. وقال الحنائي: "حديث حسن صحيح". فوائد الحنائي، تحقيق/ خالد محمد أبو النجا، أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، جـ ٢، ص ١٣١٦، وصححه ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق/ محمود فاخوري، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، جـ ١، ص ٣٠٦، وقد صحح ابن كثير إسناده أيضا. المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق/ بكرى حيانى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، جـ ٥، ص ٢٧١.

وخرج مولى لأبي بكر يقال له شديد بصحيفة فقرأها على الناس، وفيها يقول أبو بكر ﷺ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، فَوَاللَّهِ مَا أَلَوْتُكُمْ"^(١).

ولما تم الأمر لعمر ﷺ دخل بعض المهاجرين^(٢) على أبي بكر ﷺ فقالوا: "اتَّخَلَّفَ عَلَيْنَا فِظًا غَلِيظًا، لَوْ قَدْ مَلَكْنَا كَانَ أَقْظَ وَأَغْلَظَ؟ فَمَاذَا تَقُولُ لِرَبِّكَ إِذَا لَقِيتَهُ وَقَدْ اسْتَخَلَفْتَ عَلَيْنَا عُمَرَ؟ قَالَ: أَتُخَوِّفُونِي بِرَبِّي؟ أَقُولُ: اللَّهُمَّ أَمَرْتُ عَلَيْهِمْ خَيْرَ أَهْلِكَ"^(٣).

ولم يكن عمر ﷺ بالطامع في الخلافة، أو الساعي لها، بل كان يخاف من تحمل مسؤولية الأمة، ولما دخل على أبي بكر وأعلمه بما عزم عليه، أبى أن يقبل حتى تهدده أبو بكر بالسيف ودعا به^(٤)، ثم أشرف على الناس فقال: "إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَلَوْتُ مِنْ جَهْدِ الرَّأْيِ، وَلَا وَلَيْتُ ذَا قَرَابَةٍ، وَإِنِّي قَدْ اسْتَخَلَفْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا"، فأجابوه بالسمع والطاعة^(٥)، ومدحوا رأيه، حتى قال عبد الله بن مسعود ﷺ: "أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةً: الْعَزِيزُ حِينَ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا»^(٦)، وَالَّتِي قَالَتْ: «يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ»^(٧)، وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ تَفَرَّسَ فِي عُمَرَ ﷺ"^(٨).

ويتضح من روايات استخلاف الفاروق أن أبا بكر ﷺ لم يقطع فيه شيئاً دون أهل الحل والعقد، فهو الذي طالبهم بترشيح خليفة ففوضوه، وعرض عليهم مرشحه فبايعوه، ولو أرادوا غيره لردّوه، وبهذا يكون استخلاف عمر ﷺ "قد جرى على أصح الأساليب الشورية وأعدلها"^(٩).

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٣٦٩، ح ٢٥٩، وصحح المحققون إسناده على شرط الشيخين.

(٢) ذكرت رواية ابن سعد أنها علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله. الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٧٤.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص ٢١؛ ابن حجر: المطالب العلية، جـ ١٥، ص ٧٥٧، ح ٣٨٨٩، وقد وثق الحافظ رجال الأثر، وصحح إسناده. وقد سنل الزهري عن أهل الله الذين ذكرهم أبو بكر فقال: هم أهل مكة. الفاكهي: أخبار مكة، تحقيق/ عبد الملك دهيش، دار خضر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، جـ ٢، ص ١٥٢.

(٤) العسكري: الأوائل، دار البشير، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص ١٤٩. ونقله الكلعي عن أبي الحسن المدائني. الاكتفاء، جـ ٢، ص ٢١٢.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٥٢.

(٦) سورة يوسف: من الآية ٢١.

(٧) سورة القصص: من الآية ٢٦.

(٨) الطبراني: المعجم الكبير، جـ ٩، ص ١٦٧، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي. المستدرک على الصحيحين، جـ ٢، ص ٣٧٦.

(٩) علي محمد محمد الصلابي: عمر بن الخطاب، دار الفجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٩٧.

ويشتهر في الأخبار أَنَّ الصَّدِيقَ عهد بالخلافة إلى الفاروق، وليس كذلك؛ لأنَّ ما فعله أبو بكر رضي الله عنه هو مجرد ترشيح يهدف إلى نصيحة الأمة وترشيد أهل الحل والعقد، ولا تنعقد به الخلافة، وإنَّما تنعقد إذا وافقت الأمة على الترشيح، وبايعت للمرشح، وهذا ما تمَّ لعمر رضي الله عنه حيث بايعه المسلمون في المدينة، وأخذت له البيعة من أهل البلدان^(١). وأجمع المسلمون على خلافة عمر رضي الله عنه، ولم يختلف فيها اثنان منذ فارق الصَّدِيق الحياة، وحتى لحق به الفاروق^(٢).

❏ إعلان الفاروق عمر لمنهجه في الحكم:

لقد أعلن عمر رضي الله عنه منهجه عقب تولّيه الخلافة، فجلس على المنبر دون مِرْقَاة^(٣) أبي بكر^(٤)، وأقسم أنَّه سيحمل العرب على الطريق^(٥)، وأنَّه سيحمل أعباء الخلافة فيما حضره من أمرها، وسيؤلّي على الأمصار أفضل الأمراء وأكفأهم، مع مداومة مراقبتهم^(٦).

ولمَّا كان النَّاسُ يخافون من شدة الفاروق وبطشه، فقد سارع في تجلية الأمر لهم فدعا الله تعالى على المنبر في أوّل يوم فقال: "اللَّهُمَّ إِنِّي شَدِيدٌ فَلْيَنِّ، وَإِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي، وَإِنِّي بَخِيلٌ فَسَخِّنِي"^(٧).

ويبدو أَنَّ الفاروق احتاج إلى معاودة إيضاح هذا الأمر للنَّاس مرّة أخرى، فخطبهم بعد يومين، وأعلمهم أَنَّ تلك الشدّة قد أضعفت، ولكنّها تكون على أهل الظلم والتّعدي، فأما أهل السّلامة والدين والفضل فإنّه ألين لهم من بعضهم لبعض، وأكّد على شدّته على أهل الظلم والعدوان بقوله: "ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا ويتعدّى عليه، حتّى أضعّ خذه على الأرض وأضعّ قدمي على الخدّ الآخر حتّى يذعن بالحقّ"، وتعهّد للمسلمين بأنّه لن يخبئ عليهم شيئاً من الخراج، ولن يخرجهم إلا بحقه، ولن يلقيهم في المهالك^(٨).

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٦.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج ٧، ص ١٠٠؛ الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ٩٨.

(٣) مِرْقَاة: درجة.

(٤) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٤٤، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٧٥.

(٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٥.

(٨) رواه القاضي أبو يوسف من طريق محمد بن إسحاق بسند فيه مجهول. الخراج، ص ١٣٠، وأورده المحبّ الطبري دون

إسناد. الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ج ٢، ص ٣١٥، ٣١٦.

□ لقب أمير المؤمنين:

تختلف الروايات في مقترح هذا اللقب، فيقال: إنه لما مات أبو بكر رضي الله عنه وكان يدعى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلمون: من جاء بعد عمر قيل له: خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطول هذا، ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة، يُدعى به من بعده من الخلفاء، فقال بعض الصحابة: نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعى عمر أمير المؤمنين، فهو أول من سمي بذلك^(١)، ويروى أن عمر رضي الله عنه هو الذي استطال اللقب فقال للمسلمين: "بَلْ أَنْتُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَا أَمِيرُكُمْ، فَسَمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ"^(٢).

وثبت أن عمر رضي الله عنه كتب إلى عامل العراق أن يبعث إليه برجلين جلدَيْنِ نبيلين، ليسألهما عن العراق وأهله، فبعث إليه لبيد بن ربيعة، وعدي بن حاتم، فلما قدما المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقالا له: "اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ"، فقال: "أَنْتُمَا وَاللَّهِ أَصَبْتُمَا اسْمَهُ، وَإِنَّهُ الْأَمِيرُ، وَنَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ"، ودخل على عمر فقال: "السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ"، وأخبره بقول لبيد وعدي، فجرى الكتاب من ذلك اليوم^(٣)، ويروى أن المغيرة بن شعبة الثقفي رضي الله عنه هو أول من حيا عمر رضي الله عنه بلقب أمير المؤمنين^(٤)، وهو الذي رجّحه ابن كثير^(٥).

ولا يصح في أوليّة اقتراح لقب أمير المؤمنين إلا حديث البخاري، وما عداه من روايات فهي ضعيفة^(٦)، ولا تنهض للاعتراض، إلا أن يكون المغيرة عاملا لعمر رضي الله عنه على العراق آنذاك، وأنه أوعز إلى المرسلين بهذا اللقب، فتكون له أوليّة الاقتراح، ولعمرو ابن العاص رضي الله عنه أوليّة التحية، ثم يخاطب الخليفة عموم المسلمين باللقب الجديد فيستحسنونه.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٨١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٦٩.

(٣) البخاري: الأدب المفرد، تحقيق/ سمير أمين الزهيري، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، (باب التسليم على الأمير)، ص ٥٧٠، والأثر صحيح الإسناد. الألباني: صحيح الأدب المفرد، دار الصديق، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٣٩٠.

(٤) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ١، ص ٣٥٩.

(٥) البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٥٤.

(٦) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ١، ص ٨٠-٨٣.

الفصل الثالث

إتمام فتح العراق

يمكن القول بأن الفتوحات التي تمت في العراق على عهد الخليفة أبي بكر بقيادة المثنى بن حارثة و خالد بن الوليد رضي الله عنه، إنما هي بمثابة التمهيد أو المرحلة الأولى لفتح العراق، فلما تولى الفاروق الخلافة استهلَّ عهده بإتمام تلك الفتوحات.

❏ تأمير أبي عبيد الثقفي على حرب العراق:

كان عمر رضي الله عنه حريصاً على عقيدة الأمة، ويخشى من افتتان ضعاف الإيمان بتتابع انتصارات خالد والمثنى، وكان يقول: "لأَعَزِّلَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَالْمُثَنَّى مُثَنَّى بَنِي شَيْبَانَ؛ حَتَّى يَعْلَمَا أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا كَانَ يَنْصُرُ عِبَادَهُ، وَلَيْسَ إِيَّاهُمَا كَانَ يَنْصُرُ"^(١)، ولذا عزل المثنى عن إمارة العراق^(٢)، وولى أبا عبيد بن مسعود الثقفي^(٣) مكانه^(٤)؛ لأنه أول من لبى النداء واستجاب لجهاد الفرس^(٥)، وكتب عمر إلى المثنى يأمره بتلقيه والسمع والطاعة له، وبعث سليط بن عمرو الأنصاري مع أبي عبيد، وقال له: "تولا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زبون"^(٦) لا يصلح لها إلا الرجل المكيث"^(٧)، وأذن عمر رضي الله عنه لأهل الردة في الغزو والجهاد^(٨)، فكان أبو عبيد لا يمرّ بقوم من العرب إلا رغبهم في الجهاد والغنيمة، فيتبعه بعضهم^(٩)، وامتلأ المثنى أمر الخليفة، ولم يغضب من تأمير غيره عليه، بل سما بتفكيره فوق هذا الاعتبار، وسما بإيمانه على هوى نفسه وشهوتها^(١٠).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٨٤، والأثر يرتقي لدرجة الحسن لغيره. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة

نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ٧٣٢.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٢.

(٣) أبو عبيد: هو أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، والد المختار الكذاب، ووالد صفية امرأة عبد الله

ابن عمر، أسلم في عهد النبي ﷺ. ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٦، ص ٢٠١؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٧، ص ٢٢٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٤٣٣.

(٦) زبون: أي تصدم الناس وتدفعهم. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٣، ص ١٩٤.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٢.

(٨) كان أول قرار اتخذه عمر بعد توليه الخلافة أن رد سبائا أهل الردة إلى عشائهم، وعلى ذلك بأنه كره أن يصير السبي

سنة على العرب. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، جـ ٢، ص ١٣٩.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٢.

(١٠) محمد حسين هيكل: الفاروق عمر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، جـ ١، ص ١٢٧.

□□ وقعة النّمارق:

تولّت الملكة الفارسية "بوران" عرش فارس آنئذ، وعهدت إلى القائد رُسْتَم بن هُرْمُز بالدّفاع عن الأراضي الفارسيّة، وطرد العرب منها^(١)، فكان أوّل عمل قام به رستم أن كتب إلى الدّهّاقين ليثوروا على المسلمين، فكان القائد الفارسيّ جابان أوّل من ثار على المسلمين، ونزل النّمارق^(٢)، وتبعه الدّهّاقين فتوالوا على الخروج، حتّى خرج أهل الرّسّاتيق من أعلى الفرات إلى أسفلّه^(٣).

وإزاء هذه التّطورات ضمّ المُنْتَى مسالحه وخرج من الحيرة فنزل خفّان؛ لئلا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه، أو يؤخذ على غرّة، ولما قدم أبو عبيد واستراح النّاس وركائبهم، عبّأ جيشه، فجعل المُنْتَى على فرقة الفرسان، ثمّ تحرّك حتّى نزل على جابان بالنّمارق، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً، أسفر عن هزيمة الفرس وفضّ جموعهم، وفرار الكثير منهم، وأسر قائدهم جابان^(٤)، على يد مطر بن فضّة التّيميّ الرّبعيّ، وهو لا يعرفه، فخدعه جابان حتّى أمّنه، وأدخله على أبي عبيد^(٥)، فلما خرج عرفه قوم مطر، وطالبوا أبا عبيد بقتله! فرفض ذلك^(٦)، ولما أكثر الشّيبانيّون في لومه، قال: "إني أخاف الله أن أقتله؛ وقد آمنه رجل مسلم، والمسلمون في التّوادّ والتّناصر كالجسد؛ ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلّهم"^(٧)، فتركوه عندئذ^(٨)، وفدى جابان نفسه، فأطلق سراحه^(٩).

ولا شكّ أنّ هذه الأخلاق العالية سيكون لها أثر كبير في اجتذاب النّاس إلى الإسلام، فحينما يتسامع النّاس أنّ المسلمين أطلقوا أحد قادة الفرس الذين كانوا أسرع النّاس في عدائهم لمجرد أنّه اتّفق مع أحد المسلمين على الفداء فإنّهم ينجذبون إلى هذا الدّين الذي أخرج هؤلاء الرّجال^(١٠).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٢.

(٢) النمارق: موضع قرب الكوفة. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣٠٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٣.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٤.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٣؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٠٥.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٤.

(٧) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٦٤.

(٨) الواقدي: فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص ٧.

(٩) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٤.

(١٠) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ ١٠، ص ٣٣٤.

❏ معركة كسكر:

وجّه رستم جيشاً من خمسة آلاف بقيادة "نرسي"، فتحرّك نحو العراق حتّى عسكر بكسكر^(١)، فأسرع إليه أبو عبيد، وأغار على كسكر، واشتبك في قتال شديد مع الفرس فانهزم نرسي^(٢)، وفرّ هارباً^(٣)، وغلب المسلمون على عسكره وأرضه، ووجدوا في خزائنه شيئاً عظيماً، ولم يكونوا بشيء أفرح منهم بشجر النّريسيان؛ لأنّ نرسي كان يحميه ويمالئّه عليه ملوكهم، فاقتسموه فجعلوا يطعمونه الفلاحين^(٤).

وفي هذا الخبر إشارة إلى نوع من الأخلاق الرّفيعة لدى المسلمين الأوائل حيث رفعوا من شأن الفلاحين المحرومين فأطعموهم من طعام ملوكهم الذي كان محرماً عليهم، فكأنّهم بهذا يقولون لهم: تعالوا إلى هذا الدّين العظيم الذي يرفع من شأنكم ويرد عليكم كرامتكم الإنسانيّة^(٥).

❏ وقعة باروسما واستعادة سواد العراق:

كان رستم قد وجّه جيشاً بقيادة الجالينوس من خمسة آلاف بالتزامن مع جيش نرسي، وأمرهما بالتعاون، إلا أنّ أبا عبيد عاجل نرسي وهزمه، وجاء الجالينوس فنزل باروسما^(٦) فتوجّه إليه أبو عبيد^(٧)، وقتلته فانهزم الفرس، وهرب الجالينوس، فدخل أبو عبيد باروسما، فصالحه ابن "الأندرزغر" عن كل رأس بأربعة دراهم، وهينوا له طعاماً فأتوه به، فرفض أن يأكل حتّى يؤتى المسلمون مثله، فلما راح المسلمون سألهم عن طعامهم فأخبروه، فإذا الذي أكلوا مثل طعامه^(٨).

وقد استغلّ أبو عبيد هزيمة للفرس، فبعث قواده لإخضاع الدّهّاقين الذين ثاروا بالمسلمين، وتجمّعوا لحربهم في نواحي السّواد، فهزموا من كان قد تجمّع لهم^(٩).

(١) كسكر: من أرض واسط. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٣، ص ٢٢٦.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٤؛ الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٠٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٤.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٤.

(٥) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ ١٠، ص ٣٣٥.

(٦) باروسما: ناحية من سواد بغداد. ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٢٠.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٢.

(٨) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٠٦.

(٩) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٤.

وكان للمُثنى الشيباني دورٌ مهمٌ في التخطيط للمعارك التي دارت بين المسلمين والفرس بقيادة أبي عبيد؛ فمع كونه قائداً للمقدمة، فهو الذي أشار على أبي عبيد أن يتحرك بسرعة إلى لقاء نرسی في كسكر قبل أن يصله مدد الجالينوس فيدعم مركزه ويعزز موقفه، وبذلك وضع المُثنى مبدأً عسكرياً مهماً، هو عدم القتال على جبهتين في وقت واحد، فقد انتصر المسلمون على جيش نرسی، ثم جيش الجالينوس، كل على حدة، وفي معركتين متتاليتين، ولا شك أن النصر كان ميسوراً على هذه الصورة؛ لأنه في حالة تجمع الجيشين قد يصعب مواجهتهما معاً، والانتصار عليهما^(١).

❏ موقعة الجسر سنة (١١٣هـ/٦٢٤م):

تألم رستم من رجوع الجالينوس بفلوله إلى المدائن واشتد حنقه على العرب، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة بهمن جاذويه^(٢)، الذي كان أشد قواد الفرس على العرب، وزوده ببعض الفيلة، وردّ معه الجالينوس، وأمره بقتله إن عاد للهرب مرة ثانية، ودفع إليه راية كسرى، فأقبل حتى نزل بقسّ الناطف^(٣)، وأقبل أبو عبيد، فنزل المروحة، والفرات فاصل بين المعسكرين^(٤).

وتعجل الفرس لقاء المسلمين، فبعث بهمن جاذويه إلى أبي عبيد يخبره بين العبور إلى المعسكر الفارسي، أو عبور الفرس إلى معسكره^(٥)، بشرط ألا يتعرض أحد الطرفين لآخر أثناء العبور، فطالب المسلمون أبا عبيد بعدم العبور، ولكنه خالف رأي الجماعة، وأصرّ على العبور؛ بحجة ألا يكون الفرس أجراً على الموت من المسلمين^(٦)، ولما بين له المُثنى مخاطر هذا التصرف من الناحية العسكرية اتهمه بالجبن^(٧).

(١) محمد فرج: شخصيات عسكرية إسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢١٥.

(٢) بهمن جاذويه: مردانشاه، لقبه أنو شروان ببهم تبركاً به، وسُمي ذا الحاجب أيضاً؛ لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينه كبراً. الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٢.

(٣) يطلق على هذه الموقعة قسّ الناطف أو الجسر أو المروحة، فالجسر إذا لم يضاف إلى شيء، فإنما يراد به الجسر الذي كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس قرب الحيرة، ويطلق عليها قسّ الناطف؛ لأنه على شاطئ الفرات الشرقي، حيث كان معسكر الفرس، والمروحة على الشاطئ الغربي الذي عسكر فيه أبو عبيد والمسلمون. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ١١١، ١١٢، ١٤٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٤.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٧) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٣.

وإزاء إصرار الخبير الحربي المُنْتَنِي الشَّيْبَانِي على عدم العبور إلى الفرس؛ لجأ أبو عبيد التَّقْفِي إلى تعديل تعبئته، فنزع المُنْتَنِي وقومه من المقدّمة، وولاها لابن عمّه أبي محجن بن حبيب التَّقْفِي، ووقف هو في القلب^(١)، ثمّ عبر إليهم^(٢).

أدرك أبو عبيد خطورة الموقف بعد عبوره للضّفة الأخرى، فعهد باللواء من بعده إلى جماعة من قومه إن استشهد هو، فإن قتلوا فالقيادة للمُنْتَنِي بن حارثة^(٣).

ولمّا التقى الجمعان، وقعت معركة رهيبة بين المسلمين من جانب والفرس وفيولهم من جانب آخر، وتقدّم أبو عبيد في جماعة من شجعان المسلمين، فدخلوا مع الفيلة في مصارعة شديدة، ولكنه سقط شهيداً تحت أقدام الفيل الأبيض -مقدّم الأفيال- فخشعت أنفسُ بعض من رأى هذا المشهد الرّهيّب^(٤)، وفشت الجراحات في المسلمين^(٥).

وتتابع التَّقْفِيّون الذين عيّنهم أبو عبيد لأخذ اللواء، فاستشهدوا جميعاً، الواحد تلو الآخر، ثمّ أخذ اللواء المُنْتَنِي بن حارثة^(٦)، وتعصّب أحد التَّقْفِيّين لقومه بعد أن استحرّ فيهم القتل، وأسرع إلى الجسر فقطعه، ونادى في النّاس: "موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا"^(٧).

وقف المُنْتَنِي باللواء في حال لا يحسد عليها، فالعدوّ من خلف أصحابه يحصد رقابهم، والماء أمامهم يُغرّقون فيه أنفسهم، ولكنه أسرع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فاشتبك مع الفرس ساعة حتّى لا يجهزوا على المسلمين من خلفهم^(٨)، ثمّ عقد الجسر؛ ليعبروا عليه^(٩)، ووقف مع جماعة من الفرسان الأشداء^(١٠) يحمي ظهر الجيش الإسلاميّ

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٣.

(٢) ابن أبي شيبّة: المصنف، ج ٦، ص ٥٤٩، بإسناد صحيح.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٦٧، سمّاه خليفة بن خياط في تاريخه، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٣.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٨. ويروي ابن أبي شيبّة عن قيس بن أبي حازم أنّ الفرس قطعوا الجسر خلف أبي

عبيد. المصنف، ج ٦، ص ٥٤٩. بإسناد صحيح.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٣.

(٩) خليفة بن خياط: التاريخ، ص ١٢٥.

(١٠) قاتل عروة بن زيد الخيل الطّائي يوم الجسر قتالا شديداً عدل بقتال جماعة. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٣.

وهو ينادي النَّاس: "إِنَّا دُونَكُمْ، فَاعْبُرُوا عَلَى هَيْئَتِكُمْ، وَلَا تَدْهَشُوا، فَإِنَّا لَنْ نَزَايِلَ حَتَّى نَرَآكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ، وَلَا تَغْرَقُوا أَنْفُسَكُمْ"^(١)، ثُمَّ عَبَرَ الْحُمَاةَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الْمُثَنَّى فِي آثَارِ النَّاسِ^(٢)، وَالْمُثَنَّى يُقَاتِلُ مِنْ وَرَائِهِمْ حَتَّى عَبَرُوا الْجِسْرَ، وَتَبِعَهُمُ الْمُثَنَّى فِي آخِرِهِمْ، وَقَطَعَ الْجِسْرَ^(٣)؛ لئلا يلحق الفرس بهم.

ولا يفتأ التاريخ يذكر هذا الموقف للمُثَنَّى بالإجلال والتقدير؛ لأن قادة الدنيا يخصصون عدداً من الجنود لحمايتهم، أما المُثَنَّى فقد تولى مع مساعديه من الأبطال حماية جيشه كله، فكان آخر من عبر الجسر^(٤)، وإن انسحابه في ذلك اليوم لا يقل شأنًا عن انسحاب خالد بن الوليد يوم مؤتة؛ لتمكّن المُثَنَّى من إخراج جيشه من بين السيوف والنهر وهو يقاتل عدوه ويحمي جيشه^(٥).

وقد انصرف أهل المدينة من الجسر حتى لحقوا بأهلهم، واستحيا آخرون من الهزيمة، فنزلوا البوادي^(٦)، وبقي المُثَنَّى يقود قلة من المقاتلين، وهو جريح؛ لإصابته برمح أثناء الواقعة^(٧)، وبذلك تشتت شمل الجيش الإسلامي الذي كان يبلغ تسعة آلاف مقاتل، فقد هلك منهم أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي المُثَنَّى ومعه ثلاثة آلاف فقط^(٨).

ومع عظم ما حدث للمسلمين وفداحته، فقد أوجعوا عدوهم^(٩)، ولم يتمكن الفرس من الحصول على أسير واحد من المسلمين مع انحصارهم في مكان ضيق بين عدوهم وماء الفرات! الأمر الذي يثير الإعجاب بهذه البطولة من جميع أفراد ذلك الجيش^(١٠).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٨.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٦٦.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ٨٩.

(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ ١، ص ٣٤٣.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: بنو شيبان ودورهم السياسي والحضاري في العراق والجزيرة الفراتية، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ٦٢.

(٦) وقد تأثر عمر رضي الله عنه للمستحين من دخول المدينة، ولم يعتبرهم من الفرار، وقال: "أنا فننكم". ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٤٩.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٨.

(٨) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، جـ ١، ص ٣١٥.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٦.

(١٠) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ٣٣٦.

ولم يغب عن المُنْتَنَى أَنَّ ذَا الْحَاجِبِ قَدْ يَتَعَقَّبُهُ؛ لِذَلِكَ انْحَدَرَ مَسْرَعًا بِجُنُودِهِ إِلَى الْحِيرَةِ، وَتَابَعَ انْحِدَارَهُ إِلَى الْجَنُوبِ^(١)، ثُمَّ تَوَغَّلَ فِي الصَّحَرَاءِ، وَظَلَّ يَنْتَظِرُ وَصُولَ الْأُمْدَادِ مِنَ الْخَلِيفَةِ عُمَرَ^(٢)، وَلَكِنَّ ذَا الْحَاجِبِ عَادَ بِجُنُودِهِ إِلَى الْمَدَائِنِ، وَلَمْ يَتَعَقَّبِ الْمُسْلِمِينَ، لِحُدُوثِ فِتْنَةٍ فِي الْبِلَاطِ الْفَارَسِيِّ^(٣)، وَخَوْفِهِ مِنَ الْاسْتِدْرَاجِ إِلَى دَاخِلِ الصَّحَرَاءِ^(٤)، خَاصَّةً وَأَنَّ طَبِيعَةَ الْجَنْدِ الْفَارَسِيِّ لَا تَسَاعِدُهُمْ عَلَى تَعَقُّبِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي إِمْكَانِهِمُ التَّحَرُّكَ فِي الصَّحَرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ^(٥).

وَلَقَدْ دَلَّ انْسِحَابُ الْمُنْتَنَى دَاخِلَ الصَّحَرَاءِ عَلَى عِبْقَرِيَّتِهِ الْحَرْبِيَّةِ، وَكِفَاعَتِهِ الْعَالِيَةِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى مُوَاجَهَةِ الْأَحْدَاثِ وَتَقْدِيرِ الْمَوَاقِفِ؛ لِأَنَّ الْمُنْتَنَى وَجُنُودَهُ يَتَفَوَّقُونَ عَلَى الْفَرَسِ فِي الْكُرِّ وَالْفَرِّ وَالْهَجُومِ وَالْإِدْبَارِ، كَمَا تَمْنَحُهُمُ الصَّحَرَاءُ طَرِيقًا مَفْتُوحًا مَعَ مَقَرِّ الْخَلَافَةِ^(٦). وَلَمَّا وَصَلَتْ أَنْبَاءُ الْجَسْرِ إِلَى عُمَرَ عليه السلام اغْتَمَ لَذَلِكَ^(٧)، وَقَالَ: "يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدٍ لَوْ انْحَازَ إِلَيَّ كُنْتُ لَهُ فِئَةً"^(٨)، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِالْإِنْهَزَامِ إِذَا أَتَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَدُوِّ مَا لَا يُطِيقُهُمْ^(٩). وَقَدْ بَادَرَ الْفَارُوقُ بِالسَّوَالِ عَنْ حَالِ الْمُنْتَنَى؛ فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ جَرِيحٌ^(١٠)، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ، وَنَكَايَتِهِ فِي الْمَشْرُوكِينَ.

❏ مَوْقِعَةُ الْبُؤَيْبِ (١١٣هـ/٦٣٤م):

اسْتَنْفَرَ الْخَلِيفَةُ عُمَرَ قِبَائِلَ الْعَرَبِ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْعِرَاقِ بَعْدَ وَقْعَةِ الْجَسْرِ، فَاتَّاقَلُوا عَنْ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، حَتَّى هَمَّ أَنْ يَغْزُو الْفَرَسُ بِنَفْسِهِ^(١١)، خَاصَّةً وَأَنَّهُ أَمَرَ الْمُنْتَنَى بِالْإِقَامَةِ فِي مَكَانِهِ، وَوَعَدَهُ بِسُرْعَةِ وَصُولِ الْأُمْدَادِ إِلَيْهِ^(١٢).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٣، ١١٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٦٩.

(٤) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ٣٣٥.

(٥) أنتوني تنتج: العرب، انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، تعريب/ راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤م، ص ٥٣.

(٦) محمد فرج: شخصيات عسكرية إسلامية، ص ٢٢٢.

(٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٤٢.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٥٤٩، ح ٣٣٧٤٠. والأثر من مراسيل محمد بن سيرين.

(٩) السرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، ج ١، ص ٩٠.

(١٠) ابن أعثم: الفتوح، مج ١، ٢ ص ١٣٦.

(١١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٤.

(١٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٤.

وقد اضطر الخليفة إلى إكراه بعض القبائل التي تريد الغزو في بلاد الشام إلى التوجه للجبهة العراقية^(١)، فكانت قبيلة بجيلة^(٢) أول القبائل التي أكرهها الخليفة على التوجه إلى العراق، ولكنه أرضاهم بجزء من الغنيمة^(٣)، ولم يأت الفاروق رضي الله عنه أحد من قبائل العرب في تلك الأيام، إلا وجهه إلى المثنى^(٤).

وبلغ الفرس توافد الأمداد على المثنى فأعدوا جيشاً بقيادة مهران الهمداني، فأقبل باثني عشر ألف مقاتل^(٥)، مزودين بالخيول^(٦)، والفيول^(٧).

علم المثنى بتحرك الفرس من المدائن إلى الحيرة، فسار نحو البويب^(٨)، وكتب إلى الأمداد الذين وجههم إليه الخليفة بأن يعجلوا اللحاق به؛ بسبب مداهمة الفرس له^(٩)، فاجتمعت جنود المسلمين حول المثنى بالبويب^(١٠).

وجاء مهران بجنوده فعسكر مقابل المسلمين من وراء النهر^(١١)، وكتب إلى المثنى يخبره في عبور النهر، فلم يكن بالذي يقع في مثل خطأ أبي عبيد الذي حدث من قبل، فطلب من الفرس العبور، فنزلوا في جانب المسلمين^(١٢)، وأشار المثنى على رجاله بالإفطار؛ ليتقووا بالطعام على قتال عدوهم، ثم عبأ المثنى جيشه، وجعل المعنى ابن حارثة على الخيل، وأخاه مسعود بن حارثة على المشاة^(١٣).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٩؛ شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م، ص ٩٢.

(٢) بجيلة: بطن عظيم ينتسبون إلى أمهم بجيلة، وهم بنو أنمار بن أراش بن كهلان، من القحطانية. ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، جـ ١، ص ١٢١؛ عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، جـ ١، ص ٦٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٤.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٩ - ٣٧٢.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٤.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٦٩.

(٧) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٧٢.

(٨) البويب: نهر كان في موضع الكوفة، يأخذ من الفرات. ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص ٥١٢.

(٩) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤١٨.

(١٠) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧١.

(١١) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٧٠.

(١٢) تشير رواية صحيحة الإسناد أن بعض الجند طلب من جرير بن عبد الله البجلي أن يعبر بهم إلى الفرس فرفض طلبهم، وحذرهم من مصير أبي عبيد. ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٤٩.

(١٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧٠.

وتعَبَّى الفرس بعد عبورهم النهر، وأقبلوا إلى المسلمين في ثلاثة صفوف تصحبهم الأفيال، وبدعوا بالهجوم على جانب من جيش المسلمين^(١)، ثم التحم الفريقان، فاشتدت بينهما الحرب، واستحرَّ لهيبها، وطال وقتها، وكثرت الجراح في المسلمين^(٢)، حتَّى مالت كفة النَّصر لصالح الفرس، وانكشف المسلمون أمام الفرس، فتألَّم المُنْتَى من تراجع جيشه، ولكنَّه وقف في ساحة القتال ينادي على النَّاس بأعلى صوته! فعادوا للقتال، والتفَّوا حوله^(٣).

أدرك المُنْتَى خطورة امتداد وقت المعركة على قوَّاته، فعزم على قتل قائد الفرس، وشقَّ الصفوف إليه في كتيبة من الأبطال ولم يرجع عن مهران حتَّى قتله^(٤)، وصرع مسعودُ بن حارثة يومئذ وبعضُ قوَّاد المسلمين^(٥)، فلمَّا رأى مسعودٌ تضعُّع قومه، جعل يحضُّضهم على القتال وهو صريع! ويقول: "يا معشر بكر بن وائل، ارفعوا رايتكم، رفعكم الله، لا يهولنَّكم مصرعي"^(٦)، ورأى المُنْتَى مصرع أخيه فلم يشغله عمَّا هو فيه، ونادى المسلمين: "لا يرعكم مصرعُ أخي؛ فإنَّ مصارع خياركم هكذا"^(٧).

سمع المسلمون كلام المُنْتَى الشَّيبانيِّ وأخيه مسعود، ورأوا منهما قوَّة الإيمان، وصدق الجهاد في سبيل الله، فحملوا على الفرس حملة رجل واحد، فهزموهم، واتَّبعوهم يقتلونهم^(٨)، وأسرع المُنْتَى إلى الجسر فقطعه أمام الفارين، فافترقوا بشاطئ الفرات، ولكن فرسان المسلمين أحاطوا بهم حتَّى قتلوهم^(٩)، ومال المُنْتَى على الذين أرادوا أن يستقتلوا من منهزمة يوم الجسر، فانتدبهم لتتبع الفرس، وحملهم على الخيل، فلم يبق في العسكر أحدٌ منهم إلا خرج، فانطلقوا في طلبهم، ومعهم قبيلة بجيلة^(١٠).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧٢.

(٢) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٤٩، بإسناد صحيح.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٤.

(٤) ابن الكلبي: نسب معد واليمن الكبير، تحقيق/ ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، جـ ١، ص ٣٠؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٩٠.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧٢.

(٦) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٧٣.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٥.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧٢.

(١٠) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

وكان لمعركة البويب أثرٌ كبيرٌ على المسلمين والفرس، فقد أعادت للمسلمين هيبتهم، ومكنتهم من الغارة على السّواد إلى حدود نهر دجلة، أمّا الفرس فقد انهارت معنوياتهم، فتراجعت مسالحهم حتّى تركوا ما وراء دجلة كلّهُ^(١)، وراحوا يتحدّثون عن قرب دخول المسلمين مدائنهم، وسقوط عاصمتهم^(٢)، ممّا حدا بالقيادة الفارسيّة للقيام بعمل عسكري كبير؛ لتستعيد هيبتها، وتستردّ أرض السّواد من أيدي المسلمين.

❏ موقعة القادسية^(٣):

لم يكن أهل فارس بالذين يسكتون على ما حلّ بالعراق، ويقفون متفرّجين حتّى يداهم المسلمون مدائنهم؛ لذلك هاجوا على رستم والفيروزان -الذين يتوليان حكم بلادهم- واجتمعوا على يزدجرد بن شهريار بن كسرى وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وملّكوه عليهم، وعاهدوه على الطّاعة^(٤)، فنادى بالنّفير في أنحاء بلاده لمواجهة المسلمين وطردهم، فأتته جموعٌ كثيرة، فولّى عليهم رُسُومُ بن هُرْمُز الذي كان محنكاً مجرباً^(٥).

❏ موقف القيادة الإسلاميّة من تحرّكات الفرس:

ولما بلغ خبرُ الفرس إلى المثنّى والمسلمين، كتبوا إلى عمر رضي الله عنه يعلمونه بتحرك أهل السّواد للثّورة عليهم^(٦)، وكثرة من تجمّع لهم من أهل فارس، ويسألونه المدد^(٧)، ولكن الأحداث تطورت بسرعة قبل وصول الكتاب إلى عمر، فنثار أهل السّواد جميعاً؛ من كان له عهد منهم، ومن لم يكن^(٨)، وتعجّل رستم، فزحف بجموعه نحو المسلمين^(٩).

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٧٥.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٧٨.

(٣) اختلف المؤرخون في تأريخ وقعة القادسية، فأرخها سيف بن عمر التميمي في المحرم سنة ١٤هـ/٦٣٥م، واختار ابن إسحاق آخر سنة ١٥هـ/٦٣٦م، كما روى ذلك الطبري في تاريخه، ج ٢، ص ٤١١، ٤٢٨، وذكر البلاذري في الفتوح، ص ٢٧٧، أنّ الواقدي أرخها في أواخر سنة ١٦هـ/٦٣٧م، ورجّح خليفة بن خياط في تاريخه، ص ١٣٢، آخر شوال من سنة ١٥هـ/٦٣٦م.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٧٨، ٣٧٩.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٩.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٨٢.

وأدرك المثنى بأنّ مواجهته لجموع رستم بجيشه الصّغير تؤدّي إلى كارثة محقّقة، فخرج بالنّاس حتّى نزل بذي قار، وأنزل النّاس بالطفّ -برّ السّواد- ففرّقهم فيه من أوّلهم إلى آخره^(١)، وعادت مسالّح الفرس وثغورهم كما كانت، غير أنّهم كانوا هائبين للمسلمين الذين أضروا بهم عن طريق الكرّ والفرّ؛ وظلّ أمراء المسلمين يكفّفون جندهم بكتاب عمر وأمداد المسلمين؛ كي لا يشتبكوا معهم في حرب عامّة^(٢).

لم يكن عمر رضي الله عنه بذلك الخليفة المستضعف الذي يرضى بخروج جيشه من العراق، وتوقّف عمليّة الجهاد، فلئن كانت ريح الفرس قد تحركت نحو العراق، فلسوف يقابلها إحصار الخليفة من المدينة؛ لأنّه لما وصله كتاب المثنى عزم على الدّخول معهم في حرب حاسمة، وأقسم أن يضرب ملوك العجم بملوك العرب^(٣)، ولخطورة الموقف فقد أمر عمر رضي الله عنه بالتجنيد الإجباري لأوّل مرّة في تاريخ الحروب الإسلاميّة^(٤)، وكتب إلى المثنى ومن معه: "لا تدعوا في ربّعة ولا مضر ولا حلفائهم أحدًا من أهل النّجّدات ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعًا ولا حشرتّموه، احمّلوا العرب على الجدّ إذ جدّ العجم، فلتلقوا جدّهم بجدّكم"^(٥).

❏ اختيار سعد بن أبي وقاص لإمارة العراق ووفاة المثنى:

ولما جاءت أمداد العرب إلى عمر رضي الله عنه أراد أن يغزو بنفسه وعسكر لذلك، فأشار عليه جماعة من كبار الصّحابة بالمقام وتوجيه الجيوش والبعوث فأجابهم، واختار سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه لقيادة الجيش؛ لكونه من كبار الصّحابة المشهورين بالشّجاعة والرّماية^(٦)، وسيّره من المدينة إلى العراق ومعه أربعة آلاف مقاتل^(٧)، ثمّ أتبعه بأربعة آلاف آخر، وكان مع المثنى ثمانية آلاف مقاتل، ثمّ توالى الإمدادات على سعد رضي الله عنه وتلاحق به النّاس، حتّى بلغت جموع المسلمين بضعا وثلاثين ألفاً^(٨).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧٩، ٣٨٢.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨٢.

(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨٥.

(٤) محمد أحمد باشمیل: القادسية ومعارك العراق، مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٤٦١.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٧٩.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٨٣.

(٨) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨٤.

ولم يبق بين سعد ؓ وبين أن يجتمع بالْمُنْتَى إلا اليسير، وكل منهما مشتاقٌ إلى لقاء صاحبه، حتّى انتقض بالْمُنْتَى بن حارثة ؓ الجرح الذي أصابه يوم الجسر، فمات منه^(١)، بعدما ترك وصيّة عسكريّة لسعد ؓ^(٢)، تعتبر عصارة تجاربه وخبرته في حرب الفرس^(٣)، وأمر بتعجيل إرسالها إليه، فخرج بها أخوه المُنْعَى وسلمى بنت خصفة -زوج المُنْتَى- إلى سعد، وفيها يوصي سعداً بالألا يقاتل أهل فارس في عقر دارهم، وإنما يقاتلهم على حدود أرض العرب؛ لكونهم أعرف بقتال الصّحراء من الفرس، ولينحازوا إلى فئة، إن حلت بهم الهزيمة، فلما انتهى إلى سعد رأى المُنْتَى ووصيّته، ترحّم عليه، وأمر المُنْعَى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيراً^(٤)، ووصلت تعليمات عمر ؓ موافقة تماماً لوصيّة المُنْتَى^(٥)، وكان قد أوصى بزوجه إلى سعد ؓ، فلما قدمت عليه خطبها، ثم تزوجها^(٦)، بعدما انتهت عدتها^(٧).

وباستشهاد المُنْتَى فقد المسلمون قائداً عسكرياً كبيراً، عرف بالشجاعة والبطولة، وحسن الرأي والإمارة، وأبلى في حروب العراق بلاء لم يبلغه أحد^(٨)، وقد جمع المُنْتَى مواهب القادة العسكريين البارزة، كما جمع الخلق والعقل اللذين يجعلان منه رجلاً جديراً بالشهرة والتكريم عند كلّ أمة من الأمم، وفي كل عصر من العصور^(٩).

وإنّ المطالع لدور المُنْتَى في فتوح العراق يرى أنّه كان من أكثر المسلمين إخلاصاً، فعلى الرّغم من أسبقّيته في قيادة الجبهة العراقيّة؛ إلا أنّه لم يتأثر بتأثير غيره عليه، وعمل بكل إخلاص تحت راية خالد وأبي عبيد بعد ذلك، وكان في طريقه للتسليم لسعد بن أبي وقاص بالقيادة، والعمل تحت رايته، ولكنّه لقي الشّهادة قبل أن يلقاه^(١٠).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٤٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٦. وفي الوصيّة "أشار عليه أن يحارب العدو بين القادسية والعذيب".

(٣) محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة، دار القلم، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٤٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٢٩٠.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٣٨٦.

(٦) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٩.

(٧) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ ١٠، ص ٣٧٠.

(٨) ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ٤، ص ١٤٥٦؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٥، ص ٥٦٩.

(٩) جان باجوت جلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٥٩.

(١٠) محمد عبد العال محمد حسن: بنو شيبان ودورهم السياسي والحضاري في العراق والجزيرة الفراتية، ص ٧٧.

وكان المثنى نظير خالد بن الوليد في يُمْن النقيبة والجرأة على الأعداء^(١)، وكلاهما لم تذكر له هزيمة في جاهلية ولا في إسلام، وانسحاب خالد في مؤتة يقابله انسحاب المثنى يوم الجسر، وكلا الرجلين أخلص لله في حروبه رئيساً ومروؤساً، وقرنهما عمر في العزل عندما تولى الخلافة، واعتذر للناس قائلاً: "إني لم أعزلهما عن ربيعة؛ ولكن الناس عظموهما، فخشيت أن يوكلوا إليهما"^(٢).

❏ مسير رستم إلى العراق:

زحف رستم بجيشه الهائل، مائة ألف أو يزيدون^(٣)، نحو العراق فاستولى على البلاد التي افتتحها المسلمون صلحاً وعنوة^(٤)، فلما علم سعد بمسيره أرسل عمرو ابن معدي كرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي يستكشفان خبر الجيش مع عشرة رجال، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى رأوا سرح العدو منتشراً على الطفوف، فرجعوا إلا طليحة، فإنه ظل سائراً حتى دخل جيش العدو وعلم ما فيه، ونذر به الفرس فلحقه فارس فقتله، ثم آخر فقتله، وأخذ الثالث أسيراً فرجع به إلى سعد فأسلم، وأخبره خبر الفرس^(٥).

وأقام رستم أربعة أشهر بين الحيرة والسيلحين^(٦)، لا يقدم على المسلمين^(٧)، الذين ينتظرونه على حافة الصحراء في قلة من العلف والطعام؛ وذلك ليضجروا ويتركوا بلاد العراق من غير حرب^(٨)، ولكن المسلمين كانوا إذا احتاجوا إلى العلف والطعام أخرجوا خيولاً في البر، فأغارت على أسفل الفرات، ثم تعود إلى معسكرهم عند القادسية، كما كان الخليفة يبعث إليهم الغنم والجُر من المدينة^(٩).

(١) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق/ جعفر الناصري، دار الكتاب، المغرب، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ج١، ص ٨١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٤٥.

(٣) يروى سيف عن رجاله أن الفرس خرجوا إلى المسلمين في مائة وعشرين ألفاً، كلهم متبوع. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٩٤. وينص البلاذري على أنهم كانوا زهاء مائة وعشرين ألفاً. فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

(٤) المقدسي: البدء والتاريخ، مج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، ج٥، ص ١٧١.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٩، ١٢٠؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٩٧ - ٣٩٩.

(٦) السيلحين: قريبة من الحيرة وهي ضاربة في البر نحو القادسية غرباً. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٩٨.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

(٨) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٩.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

❏ دعوة المسلمين ملك الفرس:

كتب الفاروق عمر رضي الله عنه إلى سعد رضي الله عنه أن يرسل إلى ملك الفرس رجالاً يدعونه إلى الإسلام، فوجه إليه عمرو بن معدي كرب الزبيدي، والأشعث بن قيس الكندي في جماعة آخرين^(١)، ليكون الوفد "توهيناً لهم، وفلجاً"^(٢) عليهم^(٣).

تحرك وفد المسلمين فمروا على رستم، فجرى بينه وبينهم كلام كثير، حتى قالوا: "إن نبينا قد وعدنا أن نغلب على أرضكم"، فدعا لهم رستم بزييل^(٤) من تراب، فبادر عمرو بن معدي كرب الزبيدي فبسط رداءه وأخذ منه، ثم انصرف به متفائلاً بأن يغلبوا الفرس على أرضهم، وتصير للمسلمين، ثم أتوا الملك ودعوه إلى الإسلام فغضب، وأمرهم بالانصراف، وقال: "لَوْلَا أَنَّكُمْ رُسُلٌ لَقَتَلْتُكُمْ!"^(٥)، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنني مرسلٌ إليه رُسُتَمٌ حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية، ثم أوردّه بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم^(٦)، وكتب إلى رستم يعنفه على إنفاذهم إليه^(٧).

وكعادة سيف التميمي في تعصبه لقومه وتحريفه للتاريخ، فقد سحب هذا الموقف من عمرو بن معدي كرب الزبيدي وأسندده لابن عمه عاصم بن عمرو التميمي^(٨).

❏ مفاوضة رستم للمسلمين:

اتّاقل رستم عن مواجهة المسلمين^(٩)، حتى أمره يزدجرد بالتوجه فوراً لملاقاتهم، فتحرك إلى القادسية، ونزل على العتيق -جسر القادسية- أمام عسكر المسلمين، يحول بينهم النهر^(١٠)، وأرسل إلى سعد رضي الله عنه أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه، فيروى أنه أرسل إليه

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٨.

(٢) الفلج: الفوز والظفر. ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٣٤٧.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٨٩.

(٤) زبيل: الفقه أو الوعاء الذي يحمل فيه، وهو بفتح الزاي، فإذا كسر شدّد فقليل: زبيل، أو زنبيل. ابن منظور: لسان

العرب، ج ١١، ص ٣٠٠، ٣٠١.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٨.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٩١، ٣٩٢.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٨.

(٨) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٥٠، ٥١.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٦.

(١٠) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٢٩.

ربيعي بن عامر، فأظهر كثيرا من التهاون بالفرس حتى سأله رستم عن سبب مجيء المسلمين إلى العراق فقال: "اللّه ابتعثنا، واللّه جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي"^(١).

لكن الثابت أن سعدا رضي الله عنه أرسل إليه المغيرة بن شعبة الثقفي^(٢)، فتوجه إليه على فرس مهزول، وبيده سيف مغلوب ملفوف بالخرق^(٣)، فلما أتاه جلس معه على السرير، فنخر رستم وجنده حين جلس معه، فقال المغيرة: "والله ما زادني مجلس هذا رفعة، ولا نقص صاحبكم"^(٤).

وسأل رستم المغيرة عن سبب مجيء المسلمين إلى العراق في غير عدد ولا عدة، فقال: "كنا قوماً في شقاء وضلالة فبعث الله فينا نبياً، فهدانا الله على يديه، ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقنا حبة زعموا أنها - تنبت بهذه الأرض، فلما أكلنا منها وأطعمنا منها أهلينا قالوا: لا خير لنا حتى تنزلوا هذه البلاد فنأكل هذه الحبة"، فقال رستم: إذا نقتلكم، قال: إن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلناكم دخلتم النار، وإلا أعطيتم الجزية، فصاح الفرس ونخروا، وأنهوا الحديث عن الصلح^(٥).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٠١. وعلى الرغم من صحة المعنى الإسلامي للكلمات التي قيلت على لسان السفير المسلم فإنني لم أقف على ذكر لهذه السفارة المهمة من غير طريق سيف التميمي! ومجموع روايات سيف في الفتوح تدل على أنه لم ينسب ربيعة بن عامر هاهنا ونسبه في فتوح فارس ليجعله تميمياً، فإن كان الأمر كذلك فالقصة كلها مختلفة من قبله. ينظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٣٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص ٤٠؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص ٥٥١. والأثر صحيح الإسناد، رجاله ثقات. وفي رواية سيف بن عمر التميمي: أنه لما جلس معه، وثب عليه الحرس فترتروه وأنزلوه ومغثوه، فقال: "كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم! إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما تنواسي، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتكم، اليوم علمت أن أمركم مضحّل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول". الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٠٢، ٤٠٣.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص ٤٠؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص ٥٥١، بإسناد صحيح.

وبلغ الغضب من رستم منتهاه، فأقسم بالشَّمْس والقمر لا يرتفع الضحى حتى يقتل المسلمين أجمعين، فحوقل المغيرة وانصرف^(١)، وأرسل رستم إلى سعد يخيره في العبور إلى الفرس أو الابتعاد عن قنطرة العتيق ليعبر الفرس إلى المسلمين، فرفض سعد ﷺ التخلي عنها، فبات الفرس يسكرون العتيق بامتعتهم حتى الصباح^(٢).

الاستعداد للمعركة:

تمادى الفرس في غيهم، وعبروا نهر العتيق بالقادسية، وعبأ رستم جيشه العرمرم، ووزع فيولته على القلب والميمنة والميسرة^(٣).

وكان المسلمون على أهبة الاستعداد لعدوهم، فقد عبأ سعد ﷺ جيشه مبكراً، وأمر الأمراء، وعرف على كل عشرة عريفاً، وجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة، ورتب المقدمة والساقة والمجنبات والطلّاع، فجعل زهرة ابن الحويّة السعديّ التميمي على المقدمة^(٤)، وشرحيل بن السمط الكندي على الميمنة وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص على الميسرة، وقيس بن هبيرة المكشوح المرادي على الخيل، والمغيرة بن شعبة الثقفي على الرّجالة^(٥).

ولما كان سعد ﷺ مريضاً، وبه دمامل لا يستطيع الركوب ولا الجلوس، فقد أكب على صدره وتحتة وسادة، وأشرف على الميدان من قصر قديس الذي كان في القادسية^(٦)، واستخلف على الناس خالد بن عرّفطة العذريّ، حليف بني زهرة^(٧)، وبقي فوق القصر^(٨)، وأصبح مشرفاً على ساحة المعركة، ولم يكن القصر محصناً، وهذا يدلّ على شجاعة سعد وجراسته؛ لأنّه لو أعراه الصفّ فواق ناقة لأخذ برمته^(٩).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٠٦. وفي رواية أنّ المغيرة هو الذي خير رستم فتسرّع واختار العبور. أبو يوسف: الخراج، ص ٤٠؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٦، ص ٥٥١.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٨٥.

(٥) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، ج ٢، ص ٤٦٦. وهذه التعبئة أولى من أكاذيب سيف التميمي.

(٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠٧.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٩.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٣.

❏ رفع الرّوح المعنوية بين أفراد الجيش الإسلامي:

جمع سعد ﷺ وجهاء المسلمين وقادتهم في بداية اليوم الأوّل من المعركة وهم شعراء العرب وخطبائهم، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فأمرهم أن يسيروا في الناس فيذكروهم ويحرّضوهم على القتال، فساروا فيهم، فرفعوا معنوياتهم، وألهبوا حماسهم^(١).

❏ يوم أرمات:

يطلق أهل الأخبار اسم أرمات^(٢) على اليوم الأوّل من أيّام القادسيّة الأربعة، إلا أن مرتضى العسكريّ الشيعيّ العراقيّ (ت: ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م) يرى أنه قد وقعت في القادسيّة حرب ضروس بين المسلمين والفرس، وأنّ سيفاً التّيميّ أوردّها في أحاديثه على شكل أساطير، سمّى اليوم الأوّل منها بيوم أرمات، والثّاني يوم أغواث، والثّالث يوم عماس، واختلق بطولات فذة لأبطال أساطير من قبيلته تميم، كالققعاق، وعاصم^(٣)، وجزم بأنّ الأيّام الثلاثة التي ذكرها سيف في القادسيّة من مختلفاته، ولم يثبت إلا يوم القادسيّة، وليلة الهرير، على الصّورة التي ورد ذكرها في فتوح البلاذريّ^(٤)، وأكّد بأنّ الأيّام الثلاثة أرمات، وأغواث، وعماس، أضيفت إلى أيّام التّاريخ الإسلاميّ^(٥)، وليس لها واقع حقيقيّ، لتفرد سيف بذكرها دون غيره من رواة الأخبار^(٦).

والصّحيح أنّ سيفاً لم ينفرد بذكر أيّام القادسيّة، بل نجد ذكرها مجملة دون مسمّيات عند غير واحد من الثّقاة^(٧)، وبمغايرة طفيفة في الأسماء عند غيرهم^(٨)، ممّا يدلّ على أنّ تلك الأيّام كانت مشهورة عند أهل الأخبار، وإن اختلفت مسمّياتها^(٩).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

(٢) أرمات: لم يعرف ياقوت الحموي أسماء أيام موقعة القادسية التي يقال لها، أرمات، أغواث، عماس، ما إذا كانت أسماء مواضع أم هي من الرمث، والغوث، والعمس. معجم البلدان، جـ ١، ص ٢٢٥.

(٣) عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، دار الزهراء، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، جـ ١، ص ٢٥٧.

(٤) خمسون ومائة صحابيّ مختلق، جـ ١، ص ١٣٢، ١٣٣.

(٥) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٣٤.

(٦) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٣٣.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٢؛ الكلاعي من طريق المدائني. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، جـ ٢، ص ٤٧٧.

(٨) ابن أعثم: الفتوح، مج ١، ص ١٦٠؛ الأغاني، جـ ١٩، ص ٦، ٧.

(٩) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّيمي في تاريخ قومه، ص ٥٢ - ٥٤.

وكانت بداية الصدام من ناحية الفرس، حيث أمر رستم قائدا كبيرا من رجال الفرس يقال له "هرمز" بالهجوم على المسلمين فتقدم في كتيبته، فأسرع إليه أبطال المسلمين، وشدّ عليه غالب بن عبد الله الأسديّ وزهرة بن الحوية التميمي، فسبق إليه غالب في خيل فقتله^(١).

وجعل عمرو بن معدي كرب الزبيديّ يمرّ أمام الصفوف، ويحرّض الجند على القتال ويهوّن عليهم أمر الفرس^(٢)، وبينما هو أمام صفوف بجيلة، خرج رجلٌ من عظماء الفرس ينادي: "مُرْدٌ ومُرْدٌ"، أي رجل لرجل، وكان عمروٌ بحيله فخرج إليه فبارزه فاعتنقه، ثمّ جلد به الأرض، وقتله ذبحا^(٣).

وواصل عمروٌ جولاته بين الصفوف لتحريض الناس على القتال، وبينما هو يقول: "إِنَّمَا الْفَارِسِيُّ تَيْسٌ بَعْدَ أَنْ يُلْقَى نَيْرُكَةً"^(٤)، قصده رجلٌ فارسيٌّ كانت لا تقع له نُشَابَةٌ، ورماه فأصاب فرسه، فحمل عليه عمروٌ فاعتنقه، ودقّ صلبه فصرعه، وذبحه كما تذبح الشاة، وأخذ سلّبه، سوارين من ذهب، ومنطقةً، وقبّاء ديباج^(٥).

وكان عمرو بن معدي كرب عظيم الغناء عن المسلمين في القادسية، شديد النكاية في المجوس^(٦)، فعل بهم أيامئذٍ الأفاعيل^(٧).

وكان لأبطال المسلمين أثرٌ ظاهر في النكاية بالعدوّ حيث قتلوا بالمبارزة عدداً من أبطال الفرس وأسروا آخرين، ولم يقتل من المسلمين أحدٌ، فزاد ذلك في حماسهم^(٨).

(١) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، ج٢، ص ٤٧٠. وتشير رواية سيف إلى أنّ بدء المعركة كان من جانب المسلمين، وأنّ غالبا خرج يتحدّى الفرس ويطلب المبارزة، فخرج إليه هرمز فقتله غالب. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤١٠. ورواية المدائني أولى بالقبول؛ لأنّ سيفاً مهد بغالب لابن عمّه عاصم بن عمرو التميمي بعده.

(٢) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص ٥٥٠، بإسناد صحيح.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤١١.

(٤) النيزك: الرمح القصير، تصغير رمح بالفارسية. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٥، ص ١٤١.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص ٤٢؛ سعيد بن منصور: السنن، ج٢، ص ٣٠١، ٣٠٢، ح ٢٦٩١؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص ٥٥٠، ح ٣٣٧٤٣، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، رجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج٥، ص ٣٣٢.

ح ٩٧٠٢. وصحّح ابن حجر إسناده. الإصابة، ج٤، ص ٥٧٠.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبعة الرابعة - متمم الصحابة)، ص ٧٥٧. ويصدق هذا القول محاورته مع عمر رضي الله عنه بعد القادسية في شأن الحرب والسلاح. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٠٠. والرواية عن الشعبي.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبعة الرابعة - متمم الصحابة)، ص ٧٥٥.

(٨) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج١٠، ص ٤٤٥.

ولمّا رأى رستم تفوّق المسلمين في مجالي المبارزة والمطاردة أمر جانباً من قوّاته بالهجوم العام على جانب جيش المسلمين الذي فيه قبيلة بجيلة^(١)، بستّة عشر فيلاً^(٢)؛ لقطع حرب المبارزة والمطاردة التي فشلوا فيها، وفرت خيل بجيلة ومن معهم أمام الأفيال، فكادت بجيلة أن تؤكل، وثبت المشاة من أهل المواقف لهجوم الفرس^(٣). وأبصر سعد الموقف الذي وقعت فيه بجيلة فأرسل إلى بني أسد^(٤) ليدبّبوا عنها، فقام زعيمهم طليحة بن خويلد فاستصرخهم، وألهب مشاعرهم، وطالبهم بأن يفعلوا فعل الأسد الذي سمّوا به، وأن يكونوا عند ظنّ سعد الذي لم يجد أحداً أحقّ بإغاثة بجيلة منهم، فكان لكلامه مفعولٌ عجيب في نفوس قومه، ونزل أبطال بني أسد إلى المعركة كالليوث، وشدّوا على الفرس، فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتّى حبسوا الفيلة عن بجيلة، ورمت الفرس بني أسد بحدّهم، واجتمعت حلبتهم وفيلتهم عليهم، فثبتوا لهم^(٥). ورأى الأشعث بن قيس الكنديّ ما يفعله الأسديّون فاستنهض قومه للقتال حتّى يبلوا بلاء يناظر ما فعلته بنو أسد، وليخفف الضّغط الفارسي على الأسديّين الذين اجتمع عليهم الفرس^(٦)، فنهض قومه معه حتّى أزالوا الذين بإزائهم. وأخرج رستم كتيبة في ذلك اليوم بقيادة الجالينوس، فتلقاه طليحة، فضربه بسيف على رأسه، فهشم البيضة التي عليه، وندرت عن رأسه وجرح، فولّى الفرس منهزمين إلى رستم، فعظّموا أمر العرب ليعذرهم، وأخذ طليحة البيضة فنفلّها، فكانت قيمتها أربعمئة مثقال^(٧).

(١) تذكر المصادر في سبب هجمة الفرس الشديدة على بجيلة أنّ رجلاً ثقفياً ارتدّ ولحق بالفرس وقتلهم فأخبرهم أنّ بأس الناس مع بجيلة بسبب كثرة عددهم. أبو يوسف: الخراج، ص ٤٢؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٠، بإسناد صحيح، ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٧٩.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ٤٢؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبعة الرابعة - متمم الصحابة)، ص ٨١٢، ٨١٣؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٠، بإسناد صحيح.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤١١.

(٤) روى ابن أبي شيبة عن سماك بن حرب أنّه أدرك ألفين من بني أسد ممن شهدوا القادسية، وهذا يدل على أنّ عددهم كان كبيراً. مصنف ابن أبي شيبة، ج ٦، ص ٥٥٥.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤١٢، ص ٤١١.

(٦) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، ج ٢، ص ٤٧٦.

(٧) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، ج ٢، ص ٤٧٤.

ولما اشتدَّت الحرب على بني أسد صرخ زُهرة بن الحويَّة التَّميميَّ في قومه: "قد صبر إخوانكم من بني أسد، وأحسنوا، فذودوا عنهم الفيلة وحمااتها، فحمل زهرة في بني تميم، وجريز في بجيلة، فكشفوا المشركين عن بني أسد، وقد استشهد منهم خمسون رجلاً، وتحاجزوا قريباً من العصر، فجمعوا بين الصَّلَاتين، ثمَّ عاودوا القتال مطاردة ومشاولاً حتَّى غابت الشَّمس" (١).

وقد أخذ سيف التَّميميَّ الأسيديَّ هذه البطولة من زُهرة بن الحويَّة التَّميميَّ السَّعديَّ، ودفعها لابن عمه القريب عاصم بن عمرو التَّميميَّ الأسيديَّ، كما ضخم من موقف قومه في الدِّفاع عن بني أسد، حيث قتل من الأسيديين خمسمائة رجل (٢)، بينما رواية المدائنيَّ تصرِّح بأنَّ شهداء بني أسد في تلك الجولة لم يجاوزوا الخمسين رجلاً (٣).

والتقى حنظلة بن الرِّبيع التَّميميَّ ﷺ ذا الحاجب الفارسيَّ - صاحب وقعة الجسر - في يوم أغواث فاختلفا طعنيتين، فصارا جميعاً إلى الأرض، فضرب حنظلةُ ذا الحاجب على رأسه فصرعه، فحامت عنه الأساورة، حتَّى ركب، وحامى عن حنظلة القعقاع بن عمرو التَّميميَّ وذريح التَّميميَّ الرِّبعيَّ حتَّى ركب (٤).

ويزعم سيف أنَّ القعقاع لم يشهد يوم أرمات، وقد قدَّم الكلاعيَّ رواية المدائنيَّ واعتمدها في هذه المبارزة، ومرَّض رواية سيف بقوله: "ويقال: إنَّ القعقاع لم يشهد يوم أرمات هذا، وإنَّما قدم من الشَّام بعد انقضائه، فشهد سائر الأيام وأبلى فيها" (٥).

وكانت امرأة المُنثى التي تزوجها سعد تنظر إلى شدَّة الحرب وجولات المتقاتلين في يوم أرمات، فلما جال المسلمون صاحت: "وامثيَّناه، ولا مُنثى للخيْل اليوم" (٦)، "القوم أقرانٌ ولا مُنثى لهم" (٧)، فلطمها سعدٌ، فقالت: "جُبناً وَغَيْرَةً" (٨)، فقال سعدٌ وهو عليل: إن

(١) من رواية للمدائني. الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٧٧.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٢.

(٣) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص٥٦.

(٤) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٧٧.

(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٤٧٧.

(٦) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص٥٥٠، بإسناد صحيح؛ والبلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٩؛ الطبري: تاريخ الأمم

والملوك، ج٢، ص٤١٣.

(٧) ابن قتيبة: المعارف، ص١٠٠.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص٥٥٠، بإسناد صحيح.

لم تعذرني فلن يعذرني الناس، فسكتت عند ذلك، ولم يكن سعدٌ ﷺ بالضعيف ولا بالجبان، وإنما أقعدته الإصابة عن مقارعة الرجال^(١).

واقنتل الفريقان يومئذ حتى غربت الشمس، ثم حتى ذهب هداة من الليل، وقد تعادلت الكفتان، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء^(٢)، فدعيت تلك الليلة بـ **"ليلة الهدأة"**^(٣).

وحدث أن خرج رجل من أهل الحيرة ليلاً فأخبر الفرس بأمر سعد ووجعه، وأنه في قصر منفصل عن جيشه، وحثهم على مهاجمته وأخذه، فوجه إليه رستم خمسمائة فارس من أبطال الفرس، فارتفعوا عن المعسكرين ليلتفوا خلف المسلمين ويأخذوا سعدا، ولكن الله كفاه شرهم، فجاء رجل من العجم إلى المسلمين مستأمنا، فأخبرهم الخبر، فانتدب لهم حنظلة بن الربيع الأسدي التميمي ﷺ في خمسمائة من تحت الليل، فانتهى إلى سعد عند طلوع الفجر ولم تصل إليه كتيبة الفرس، وكان عبد الله بن سبرة الواقفي قد تلقى الفرس في سرعان الناس، وقتل منهم أميرين كبيرين، وما زال يضرب فيهم ويقتل، فلما غشيه حنظلة وأصحابه انهزموا، وأكثر المسلمون فيهم الجراحة، وتحول سعد عندئذ فنزل مع جماعة الناس^(٤).

📖 يوم أغوات:

بدأ هذا اليوم بالمطاردة والمبارزة بعدما تصافى الجمعان كما حدث في اليوم الأول، وتقدم سعد بن عبيد الأنصاري الأوسي الشهير بالقاري أمام الناس يحض أصحابه على القتال، فبرز له شهر يار السجستاني، فقتل كل واحد منهما صاحبه^(٥)، وقد اغتم عمر ﷺ -بعد ذلك- لمصاب القاري، حتى قال: "لقد كان قتله ينغص على هذا الفتح"^(٦).

وتجراً الفرس عندئذ فخرج رجل منهم للمبارزة، فبرز له زهرة بن الحوية التميمي فقتله، وحمل فوارس من المجوس على زهرة فعقروا به فرسه، فقاتلهم راجلا،

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٣.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٢.

(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٥.

(٤) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٦٦، ٤٦٧.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٨٠. ونص البخاري على أنه قام خطيباً في القادسية فلقي فقتل. التاريخ الأوسط، محمود

إبراهيم زايد، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، جـ ١، ص ٥١.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٣.

وندر سيفه من يده، فأخذه، فجعل يحثو في وجوههم التراب حتى توافت إليه خيل المسلمين، فكشفوهم عنه^(١).

وبرز رجلٌ فارسيٌّ آخرٌ أمام صفوف بكر بن وائل فنأدى من يبارز؟ فخرج له علباء بن جحش العجليّ فنفحه علباء في صدره فشقّ رئته، ونفحه الآخر فأصابه في بطنه وانتثرت أمعاؤه، وسقطا معاً إلى الأرض، فمات المجوسيّ من ساعته، وعجز علباء عن القيام، وحاول أن يعيد أمعائه إلى مكانها فلم يتأتّ له، ومرّ به رجل من المسلمين فطلب منه أن يعينه على بطنه، فأدخل له أمعائه، وقام فزحف نحو صفّ العجم دون أن يلتفت إلى المسلمين ورائه، فأدركه الموت وهو يتقدّم نحو صفوف الفرس^(٢).

ويعطي سيفٌ شرف هذا اليوم للقعقاع، وهو ينفرد بذكر غالبية أخباره في الفتوح، فيجعل مقدمة المدد الشاميّ -ألف مجاهد- بقيادته، ويسرع به إلى القادسية حتى يصل إليها في ليلة أغواث، ويجعل الققعاع يفكر في عمل يرفع به من معنويات المسلمين فيقسم جيشه عشرةً عشرة، ويأمرهم بأن يقدموا أتباعاً، بعدما يسبقهم بالعشرة الأوائل، ثم يقف يراقبهم، وكلّما أبصر طائفة منهم يكبر فيكبر المسلمون، ويدّعي سيفٌ أنّ الققعاع تقدّم أمام الصّقوف طالبا المبارزة، فخرج إليه بهمن جاذويه الشّهير بذي الحجاب، فتذكر نكبة المسلمين يوم الجسر فأخذته الحمية فصاح يا لثارات أبي عبيد وسلّيط وأصحاب الجسر، ثم لم يمهل ذا الحجاب حتى قتله أمام جنده^(٣).

ويطلب الققعاع المبارزة مرّة أخرى فيخرج إليه رجلان أحدهما: البيرزان، والآخر: البندوان، فينضمّ إليه الحارث بن ظبيان بن الحارث التيميّ الرّبعي، فيبارز الققعاع بيرزان فيقتله، ويبارز ابن ظبيان بندوان وهو من أبطال الفرس فيقتله أيضاً، ويقع الفرس في الحيرة والاضطراب^(٤).

(١) أورد الكلّعي هذا الخبر من رواية المدائني. الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٨٠. وأمّا رواية سيف فتجعل هذه المبارزة للأعراف ابن الأعمى العقيلي، وتزيد بأنّ الأعراف قتل رجلين مبارزة قبل إحاطة الفرس به وأخذ سيفه، وأنّه رجع إلى أصحابه دون إعانة من المسلمين. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٥. وربما تكون هذه غير تلك.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٤، ٤١٥، وتثبت رواية أهل الحديث هذه القصة دون ذكر المبارزة. ابن المبارك: الجهاد، ص ١٠٨؛ ابن أبي شيبّة: المصنف، جـ ٦، ص ٥٥٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٣.

(٤) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٣.

وعندما يلتحم الفريقان يتصل القتال حتى المساء، فيحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة، ويقتل في كل مرة رجلاً من الفرس^(١)، ويواصل بطولاته، فيشير على قومه أن يلبسوا الإبل ويجلّوها ويضعوا البراقع في وجوها لتظهر في مظهر يخيف الخيول، فلما هجموا بها على خيول الفرس، فعلوا بهم يوم أغواث كما فعلوا بالمسلمين يوم أرمات، وركبتهم خيول المسلمين، فلما رأى ذلك الناس استنوا بهم، فلقى الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم ممّا لقي المسلمون من الفيلة يوم أرمات^(٢).

ولا يستطيع الباحث أن يصدّق كلّ هذه البطولات الهائلة التي خفيت على رواة الإسلام إلا عن سيف التميمي، خاصة وأن الروايات الموثقة تخالف ادّعاءاته، حيث يجزم الحافظ المؤرّخ الثقة خليفة بن خياط الذّهليّ (ت: ٢٤١هـ/٨٥٥م)، بمقتل ذي الحجاب على يد الصحابيّ حنظلة بن الربيع الأسديّ الكاتب يومئذ^(٣)، ويذكر أن "البيرزان" كان حيّاً بعد القادسيّة، وأنّه صالح المسلمين على الأهواز سنة ١٦هـ/٦٣٧م^(٤).

ويرى الدكتور عمر عبد السلام تدمريّ أن "البيرزان" هو "الفيرزان" في بعض المصادر، حيث تقلّب الفاء باءً بالفارسيّة، كما يقال أصفهان، وأصبهان^(٥)، ولئن كان هو، فسرى سيفاً يقتله مرة أخرى بيد القعقاع نفسه في مرحلة لاحقة^(٦).

وكانت الخنساء الشاعرة قد حرّضت أولادها الأربعة ليلة الهدأة على القتال، فكانت لهم مواقف فدائيّة في يوم أغواث، حيث اندفعوا إلى القتال بحماس منقطع النّظير حتّى استشهدوا جميعاً، فلما بلغ الخنساء خبرهم قالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته"^(٧).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٥.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٤.

(٣) تاريخ خليفة، ص ١٣٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٥) ينظر هامش تاريخ الإسلام للذهبي، جـ ٣، ص ١٤٤، جـ ٣، ص ١٥٧.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٢٨. وينظر محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٦٠.

(٧) ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ٤، ص ١٨٢٧-١٨٢٩؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٧٥، ٤٧٦. كلاهما من طريق الزبير بن بكّار. ورَجَّح الكلاعي صحة الخبر.

وكان أبو محجن بن حبيب التَّقْفِيّ محبوساً في القصر لشربه الخمر، فلما رأى اشتداد الحرب وهو مقيّد محبوس آلمه مكانه الذي هو فيه، فصعد حين أمسى إلى سعد يستغفیه ويستقيله، فزبره وردّه، فنزل فأتى زبراء -أم ولد سعد- وسألها أن تخلّي عنه وتعيّره فرس سعد البلقاء، وعاهدها أن يرجع إلى مكانه ويضع رجله في القيّد إن سلم من القتل، فرفضت عرضه، فرجع يرسف في قيوده وهو يتحسّر، فاستخارت ربّها في أمره، ثمّ أطلّفته بعدما استحلّفته، ولم تعرّهُ الفرس، ورجعت إلى بيتها^(١).

ووجد أبو محجن نفسه حرّاً طليقاً فاقتاد الفرس، فأخرجها من القصر ووثب عليها، وخرج فجعل لا يحمل على ناحية من العدو إلا هزمهم؛ فتعجّب الناس من صنيعة، وظنّه بعضهم من الملائكة، أو من أوائل أصحاب هاشم، وجعل سعد يقول: "الضَبْرُ ضَبْرُ الْبَلْقَاءِ"^(٢)، وَالطَّعْنُ طَعْنُ أَبِي مُحَجَّنٍ، وَأَبُو مُحَجَّنٍ فِي الْقَيْدِ! فلما انتصف الليل حازر أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتّى دخل من حيث خرج، وأعاد رجله في القيد، وأخبر سعد ﷺ بخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه، فأقسم أبو محجن بالله ألا يعود للخمر مرّة أخرى^(٣).

واستمرّ القتال يوم أغواث إلى منتصف الليل، فسمّيت تلك الليلة "ليلة السّواد"، وكانت النساء والصّبيان يقومون بحفر القبور لدفن الشهداء^(٤).

❏ يوم عمّاس:

بدأ يوم عمّاس بالمبارزات كاليومين السّابقين، فخرج رجل فارسيّ ذو هيئة عليه السّلاح أمام قبائل ربيعة فدعا إلى المبارزة، وقال: "مُرْدٌ، وَمُرْدٌ"، وكان شبر بن علقمة العبديّ رجلاً قصيراً، فعزم على أصحابه أن يبارزوه، فأبوا، فتقدّم إليه، فصاح الفارسيّ وهدر بصوت مرتفع، وكبر شبرٌ وكبر، فاحتمل الفارسيّ شبرا فضرب به الأرض، ولكن فرس المجوسيّ مالت به، فأخذ شبرٌ خنجره، فوثب على صدره فذبّه، وأخذ منطقةً له،

(١) تجعل بعض الروايات سلمى بنت خصفة مكان زبراء، وكونها زبراء أصح وأثبت. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٩.

(٢) نبّه ابن حجر على أنّ الضَّبْرَ بالضاد شدة عدو الفرس، ومن رسمه بالضاد فقد صحف. الإصابة، ج ٧، ص ٣٠٠.

(٣) عبد الرزاق: المصنف، ج ٩، ص ٢٤٣؛ سعيد بن منصور: السنن، ج ٢، ص ٢٣٥ - ٢٣٧؛ ابن أبي شبيبة: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٠؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤١٦، ٤٣٠. وأورد ابن حجر هذا الأثر من طريق عبد

الرزاق وصحح إسناده. الإصابة، ج ٧، ص ٣٠٠.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤١٧.

وسيفاً، ورأيتين، ودرعاً، وسوارين، فقوم السلب باثني عشر ألفاً، ثم أتى به سعدا رضي الله عنه، فأعلم الناس بمقداره، ونقله إياه كله^(١).

وقد نجح المسلمون يوم عماس في التخلص من الفيلة^(٢)، وكعادة سيف فإنه قد نسب مفخرة التخلص من الفيل الأبيض (مقدم الأفيال) إلى القعقاع وعاصم التميميين^(٣)، بينما يذكر الواقدي (ت: ٢٠٧هـ/٨٢٣م) أن عمرو بن معدي كرب الزبيدي هو الذي أشار على المسلمين بقطع خراطيم الفيلة، وتمكن من قتل مقدم الأفيال^(٤).

وكلام الواقدي أولى بالقبول؛ لأن عمراً مشهوداً له بالبطولة والغناء في أيام القادسية من ثقات المؤرخين وأهل الحديث، بخلاف القعقاع الذي يتهم سيف باختراع أخباره، وليس للواقدي نسب مع عمرو بن معدي كرب ولا ولاء، بل يروي سيف أن عمرو بن معدي كرب استقتل يوم عماس في مهاجمة أحد الأفيال وكاد أن يهلك^(٥). وقد شارك الربيع الأسدي المكنى بأبي الموت^(٦) في طعن أحد الأفيال، غير أن سائسه ضرب الربيع على وجهه، فتركت فيه علامة مستديمة^(٧).

❏ ليلة القادسية (الهرير):

تحدث سعد رضي الله عنه عن تلك الليلة فقال: "إنّ الحرب ركدت ليلة، فلم أسمع إلا همامهم الرجال، وهريرهم، ووقع الحديد، فلما كان قبيل الفجر سمعت الانتماء من كل: أنا ابن معدي كرب، أنا الجذامي، أنا المالكي من أسد، أنا الأشعري، ثم صار الانتماء قصره في

(١) عبد الرزاق: المصنف، جـ ٥، ص ٢٣٥؛ سعيد بن منصور: السنن، جـ ٢، ص ٣٠٢؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٤٧٩؛ البخاري: التاريخ الكبير، جـ ٤، ص ٢٦٧؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٩؛ ابن المنذر: الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، جـ ٦، ص ١٢٩، ١٣٠. ورواية الطبري هي التي حددت يوم المباراة. والأثر صحيح إلى شبر، ولكن العلماء يختلفون في شبر، فيجعل ابن حجر له إدراكاً. الإصابة، جـ ٣، ص ٣٠٣. ويورده ابن حبان في الثقات من التابعين. الثقات، جـ ٤، ص ٣٧١. ولم يذكر فيه ابن أبي حاتم جرحاً ولا تعديلاً. الجرح والتعديل، جـ ٤، ص ٣٨٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٩.

(٣) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٢٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبير، جـ ٦، ص ٢٧٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٩.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤١٩.

(٦) ابن أعتم: الفتوح، مج ١، ص ١٦١.

(٧) الكلاعي من رواية المدائني: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، جـ ٢، ص ٥٠٠.

جذيمة، فلما انجلت الحرب رأيت جماعة قتلى في ربضة، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: من جذيمة النّخ، أصيبوا من آخر الليل وهم ينتمون، فنفلهم عمر خمسة وعشرين فرسا، يعني بني جذيمة^(١).

وهذا الخبر الذي يسوقه المدائني يكذب ادعاء سيف بأوليّة القعقاع في إنشأ الحرب والانتماء تلك الليلة^(٢)، وكلام المدائني يدلّ على أنّ شرف ذلك اليوم لقبائل اليمن، ولا يتهم المدائني بالتحيز لها، لأنّه من موالي قريش، وهو عالم بالمغازي، وأيام الناس، وأخبار العرب وأنسابهم، صدوق فيما يرويه^(٣).

بل يروي سيف نفسه أنّ دريد بن كعب النّخعيّ اليمنيّ -حامل لواء النّخ- صاح في قومه: "إنّ المسلمين تهَيَّؤوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين اللّيلة إلى الله والجهاد، فإنّه لا يسبق اللّيلة أحدٌ إلا كان ثوابه على قدر سبقه، نافسوا في الشّهادة، وطيبوا بالموت نفسا، فإنّه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلا فالآخرة ما أردتم"^(٤).

وهذا يدلّ على سبقهم للنّاس يومئذ، لكنّ سيفاً لا يرضى لهم بهذا الفخر، فيذكر حملتهم بعد القعقاع وعاصم وسائر تميم وبني أسد^(٥).

❏ يوم القادسية (اليوم الرابع):

يسمى هذا اليوم خاصّة بالقادسيّة^(٦)، وقد واصل المسلمون فيه القتال، وحملوا على الفرس من كل وجه، واندفع عمرو بن معدي كرب وطلحة بن خويلد في مجموعة من الأبطال نحو رستم^(٧)، واشتدّ القتال، حتّى انفرج قلب الفرس حين قام قائم الظّهيرة، واشتدّ عليهم الحرّ، وسقفتهم الشّمس، فانتقضت تعبيتهم، وتنزل نصر الله ﷻ على المؤمنين، فهبت ريحٌ عاصف، فاقتلعت طيّارة رستم عن سريره، وألقته في نهر العتيق، ومال الغبار على الفرس فعاقهم عن الدّفاع^(٨).

(١) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٠٠، ٥٠١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٢٣.

(٣) الخطيب: تاريخ بغداد، جـ ١٣، ص ٥١٦.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٢٢.

(٥) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٢٢، ٤٢٣.

(٦) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٨٨.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧٩.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٢٤؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٤٨٩.

ووصل أبطال المسلمين إلى عدوّ الله رستم، فقتل على يد هلال بن علفّة التّيميّ الرّبيعيّ على المشهور من أقوال المؤرّخين^(١).

وعالت تكبيرات المسلمين بمقتل رستم، وتقهقر الفرس أمامهم منهزمين^(٢)، ونادى الجالينوس على المجوس بعبور النّهر، والفرار من القتل والأسر، فهاموا إليه مدبرين^(٣)، وتراكت جثث قتلى الفرس في خندق القادسية حتّى امتلأ بها، ومشى عليها مقاتلة المسلمين وهم يعبرون الخندق مكبرين^(٤).

وكان عبد الله بن أمّ مكتوم ؓ قد شهد معركة القادسية مع المسلمين، وقال: "ادفعوا إليّ اللّواء، فإنّي أعمى لا أستطيع أن أفرّ، وأقيموني بين الصّقّين"^(٥)، فرآه أنس ابن مالك ؓ يوم القادسية عليه درع حديد سابغ، ومعه لواء أسود^(٦).

مطاردة فلول الفرس:

أمر سعد ؓ زهرة بن الحوية التّيميّ بمطاردة فلول المنهزمين الذين عبروا النّهر^(٧)، فأسرع زهرة بثلاثمائة فارس في تعقبهم على الخيول، وأدرك الجالينوس -أحد قادتهم الكبار- وهو يسير في ساقّة القوم يحميهم، فنازله زهرة فقتله وأخذ سلّبه^(٨)، وتابع زهرة مطاردة الفرس حتّى المساء، ثمّ رجع إلى القادسية^(٩).

(١) تتفق رواية سيف مع ابن إسحاق في مقتل رستم على يد هلال بن علفّة. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣١. ويقال قتله غيره. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٠. ويجزم البلاذري بأنّ قاتل القائد الفارسي رستم غير معلوم.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٢.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٢٤.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٢.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٤، ص ٢١٠.

(٦) ابن أبي شبيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٥٥٥؛ الحارث بن أبي أسامة: مسند الحارث، (بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث)، انتقاء/ نور الدين الهيثمي، تحقيق/ حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنّة والسيرة، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، جـ ٢، ص ٦٨٢، ح ٦٦١. ورجال إسناده ثقات. البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ ٥، ص ١٠٤.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٢.

(٨) تتفق رواية ابن إسحاق مع رواية سيف التّيميّ وابن الكلبي في قتل زهرة بن الحوية التّيميّ للجالينوس. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٠؛ تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٢٦، ٤٣١.

(٩) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٢.

فتح المدائن الغربية (بهرسين):

فتحت القادسيّة الطريق أمام المسلمين لدخول المدائن^(١)، وإسقاط الإمبراطورية الفارسيّة^(٢)، ولكنّ سعدا ؓ أقام بالقادسيّة شهرين حتّى جاءه أمر الخليفة بالتوجّه إليها^(٣)، فأرسل بعض الحملات الصّغيرة لتمهيد الطريق، فانهزمت مسالح الفرس المتبقّية ولحقت بالمدائن^(٤).

وجّه سعدّ زهرة بن الحويّة على مقدّمة الجيش إلى بهرسيّر أو المدائن الغربية - غربي نهر دجلة - التي يقبع فيها يزْدَجَرْد، فضرب عليها الحصار، ثمّ أتاه سعدّ بالجيش^(٥)، فصابرهم الفرس طويلا، حتّى أكل المسلمون الرّطب مرّتين^(٦)، وضحوأ أضحيتين^(٧)، فلمّا يئسوا أخلوا المدينة وعبروا دجلة، ولم يدعوا جسرا عليها إلا دمّروه، ولا مركبا إلا ضمّوه^(٨)، وولّى يزْدَجَرْد خُرْزَاد بن هُرْمَز -أخا رستم المقتول بالقادسيّة- قيادة الحرب بالمدائن، ثمّ هرب إلى حلوان^(٩).

وقد زعم سيفٌ أنّ زهرة بن الحويّة التّميميّ استشهد في محاصرة المدائن الغربيّة وذكر أنّه كان عليه درعٌ مفصومة، فنصحه أصحابه بسرد الفصم، حتّى لا تبقى فيها فتحة تصل منها السّهام، وصارحوه بخوفهم عليه منه، فقال: "إني لكريم على الله إن ترك سهم فارسَ الجند كلّهُ، ثمّ أتاني من هذا الفصم حتّى يثبت فيّ". وأضاف سيفٌ بأنّ زهرة كان أوّل رجل من المسلمين أصيب يومئذ بسهم، فثبت فيه من ذلك الفصم، ورفض نزع السّهم، وتقدّم نحو صفوف الفرس فقتل أحد أبطالهم، وأحاطوا به فقتلوه^(١٠).

(١) المدائن: عاصمة دولة الفرس، وتقع على جانبي نهر دجلة، وتتكون من سبع مدائن، هي: طيسفون، بهرسيّر، قصر

كسرى (الإيوان)، الرّومية، ساباط، أسبانير، السكّوفية. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٧٤، ص٧٥.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٦٠.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٤.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص٤١؛ ابن أبي شبيبة: المصنف، ج٦، ص٥٥٢.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٨، ص٤٥٩.

(٦) الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٢٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٥٨.

(٧) الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٢٦.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٣.

(٩) الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٢٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢٠. من رواية المدائني.

(١٠) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٨، ص٤٥٩.

وهذا افتراء وكذب صريح من سيف؛ لأنّ أهل العلم بالأخبار متفقون على أنّ زهرة بن الحوية التميمي لم يلق الشهادة في هذا الموطن، وإنما بقي وعاش حتى كبر، وقتل على يد الخوارج أيام الحجاج سنة ٧٧هـ/٦٩٦م^(١).

وقد وقع بعض المحدثين^(٢) في الغلط، وراحوا يستخلصون الدروس والعبر من الخبر المختلق في استشهاد زهرة بن الحوية على أسوار العاصمة الفارسية^(٣).

❏ عبور دجلة وفتح المدائن الشرقية:

سرح سعد بن جندة خلف الفرس بقيادة حليفه خالد بن عرفة، ووجه معه عياض بن غنم الفهري في أصحابه، وجعل ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري على المقدمة، وجريز بن عبد الله البجلي على الميمنة، وزهرة بن الحوية التميمي على الميسرة، ثم اتبعهم سعد بمن معه، فلما وضعوا على دجلة العسكر والأثقال طلبوا المخاضة، فلم يهتدوا لها، حتى أتى سعدا علج من أهل المدائن، فخرج بهم على مخاضة قُطْرُبِل^(٤)، فكان أول من خاض المخاضة هاشم بن عتبة في رجله، فلما جاز اتبعته خيله، ثم أجاز خالد بن عرفة بخيله، ثم أجاز عياض بن غنم بخيله، ثم تتابع الناس فحاضوا حتى أجازوا، ثم ساروا حتى انتهوا إلى مظلم ساباط^(٥)، فتردد الناس خشية أن يكون به كمين للفرس، وجبنوا عنه، فكان أول من دخله بجيشه هاشم بن عتبة، فلما أجاز ألح للناس بسيفه، فعرف الناس أن ليس به شيء يخافونه، فأجاز بهم خالد بن عرفة^(٦).

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ٢٧٥؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٣١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٥٨٢، ٥٨٣؛ الدارقطني: المؤتلف والمختلف، تحقيق/ موفق عبد الله عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج ١، ص ٤٦٢؛ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٢٢١؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ٣٢١؛ ابن ناصر الدين: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق/ محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٥٠٩؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٤٧٢.

(٢) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي، دروس وعبر، ج ١١، ص ١٦١، ١٦٢؛ علي محمد محمد الصلابي: عمر بن الخطاب، ص ٥٢٢.

(٣) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٦٦.

(٤) قُطْرُبِل: قرية من كور بغداد، تقع بين بغداد وعكبرا. ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧١.

(٥) مظلم ساباط: موضع قرب المدائن. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٢.

(٦) الطبري من رواية إمام المغازي محمد بن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٣١، ٤٣٢.

ويخالف سيفٌ أهل العلم بالأخبار في عبور دجلة، فيجعل عاصما والقعقاع أولَ المقتحمين، وأسرع الناس عبورا إلى الضفة الأخرى، كما يزيد في ماء دجلة حتى يجعله فيضانا عظيما^(١)، وبذلك يطمس الحقيقة التاريخية للمسلمين عامة، ولتميم خاصة؛ لأنه أضاع دورهم الحقيقي خلف قائدهم زهرة بن الحوية الذي كان على رأس الميسرة في جيش العبور، لكن سيفاً أماته قبل أجله بستين عاما^(٢).

وكان خرزاد بن هرمز قد علم بعبور المسلمين فأمر الفرسان بسرعة التوجه إلى شاطئ دجلة، وعلى الفور أصدر أوامره برمي المسلمين بالنشاب، وأنزل جماعة من جنده في الماء لمقاتلة المسلمين ومنعهم من الوصول إلى البر، ولكن محاولات خرزاد باءت بالفشل، وكثر المسلمون رجاله الذين نزلوا الماء حتى أخرجوهم، وقاتلوا جموع الفرس على الشاطئ حتى انهزموا ودخلوا المدائن^(٣).

وهرب أهل المسالج عندما عبر المسلمون، وخرج أهل مدينة الرومية بمقاتلتهم وفيلتهم لمواجهة المسلمين، فقاتلهم المسلمون وهزموهم فتحصنوا بمدينةهم، ودخل سعد المدائن العتيقة "الإيوان" التي تضم قصر كسرى الأبيض، فخرج أهلها إلى سعد فتلقوه يسألونه الأمان على أن يعطوا الجزية، فقبل ذلك منهم، ونزل القصر الأبيض، وهو يقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(٤)، وكتب سعد إلى عمر بالفتح، وبهرب يزيد جرد بن كسرى^(٥).

وحاصر سعد مدينة الرومية تسعة أشهر حتى فقد الفرس الطعام، واضطروا لأكل الكلاب والسنائير (القطط)^(٦)، وأتى سعدا رجلٌ فارسي يطلب الأمان، فلما آمنه دله على قناة الماء التي تمتد المدينة من نهر دجلة، فغورها المسلمون، فارتحل أهل الرومية حين انقطع الماء عنهم من ليلتهم، وحملوا ما خف من أموالهم، فأخذوا طريق خراسان^(٧)،

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٦٠، ٤٦١.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: مختلفات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٦٩.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٦، ١٢٧.

(٤) سورة الدخان: الآيات ٢٥ - ٢٨.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٢٠، ٥٢١. من رواية المدائني.

(٦) أبو يوسف: الخراج، ص ٤١؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٥٥٢، بإسناد صحيح. وتحديد المدينة بالرومية من

رواية المدائني. الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٢١.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٢٠، ٥٢١. من رواية المدائني.

وأدرك القائد خرزاد أنه لا جدوى من البقاء في المدائن "الرّوميّة"، فخرج بجنوده في جنح الظلام، وتوجّه إلى جلولاء^(١)، وعسكر بها^(٢).

ولمّا أتى عمر ؓ بأخماس فارس أمر بوضعها في المسجد وحراستها، وأقسم ألاّ يجنّها سقفٌ حتّى يقسمّها بين النّاس، فلمّا أصبح النّاس ونظر عمر إلى الغنائم بكى؛ فأنكر عليه عبد الرّحمن بن عوف ؓ بكاءه في موطن الشّكر، فأجابه عمر بأنّ الله ﷻ لم يعط قومًا هذا إلاّ ألقى بينهم العداوة والبغضاء^(٣).

❏ موقعة جلولاء:

لم يكد خرزاد يدخل جلولاء حتّى طلب المدد من يزدجرد الذي يقيم بخلوان فأمدّه بجمع عظيم من المقاتلة^(٤)، وقد خندق الفرس على أنفسهم، وتعاهدوا على ألاّ يفرّوا، وجعلت الأمداد تتوالى عليهم، فكتب سعدٌ إلى عمر ؓ بالخبر، فأمره أن يوجّه إليهم جيشًا، فسير إليهم اثني عشر ألف مقاتل^(٥)، بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة^(٦)، ونزل المسلمون على عدوّهم، فوجدوهم قد أعدّوا عدّة عظيمة، وتحرّزوا بالخنادق، فقاتلوهم قتالًا شديدًا، وكتب هاشم إلى عمّه يطلب المدد^(٧).

وبينما المسلمون ينتظرون المدد أتى الفرس جمعٌ عظيم، فعاجلوهم القتال، فجال المسلمون وانكشفوا، فناداهم هاشم: "يا معشر المُسلمين، أين أين، أما رأيتم ما خلّفتم، وتأتون عمّر منهزمين، فعطف المُسلمون"^(٨)، وعلى ميمنتهم حُجْر بن عديّ الكندي ؓ، وعلى ميسرتهم عمرو بن معدي كرب الزّبيديّ، وعلى الخيل زهرة بن الحوية التّميمي، وعلى الرّجالة طليحة بن خويلد الأسدي^(٩).

(١) جلولاء: بلدة عراقية في طريق خراسان. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، ص ١٥٦.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٧.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص ٥٨؛ معمر بن راشد: الجامع، جـ ١١، ص ٩٩، ١٠٠؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٩٣. والأثر صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٣٧.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٥؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٧.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٥. وعند المدائني أربعة آلاف. الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٢٧.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٦، ١٣٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٥.

(٧) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٧. وقد جعل المدائني هذا القول لسعد. الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٢٨.

(٩) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٢٨. رواية المدائني.

واقْتَتَلَ الفريقان قتالا شديداً، وكتائب الفرس تطلع عليهم واحدة تلو الأخرى، فأشار طليحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب على فرسان المسلمين أن يلزموا الأرض ويقرنوا خيولهم، ففعلوا، وجثوا، وأشرعوا الرماح، فرجعت الخيل عنهم، ورموهم بالنشأ، ففترسوا، فمكثوا بذلك ملياً، وأشفق المسلمون، فحضهم طليحة وزهرة وعمرو، فبينما هم على ذلك إذ سمعوا تكبيراً للمسلمين وراءهم، فإذا قيس بن هبيرة قد جاءهم في ألف وأربعمائة فارس وستمائة راجل، فانهزم المشركون قبل أن يصل إليهم، وبعث الله ريحاً مظلمة أعمت الفرس عن خندقهم فتهافت فيه فرسانهم، وركب المسلمون أكتاف الفرس^(١)، فهلكوا في حسك الحديد^(٢)، وسميت الوقعة بجلولاء "لما تجلّ لها من الشر"^(٣).

فتح حلوان:

لما فرغ المسلمون من جلولاء الوقعة ضمّ هاشم بن عتبة خيلاً كثيفة إلى جرير ابن عبد الله البجليّ ورتبه بجلولاء ليكون بين المسلمين وبين عدوهم، ثم بعث سعداً بزهاء ثلاثة آلاف مقاتل إلى جرير، وأمره بالمسير إلى حلوان لتعقب يزيدجرد، فلما اقترب منها هرب الملك الفارسيّ إلى أصبهان، ففتح جرير حلوان صلحاً، وكفّ عن أهلها، وأمنهم على دمائهم، وسمح بالخروج لمن أحبّ منهم على أن لا يتعرض له^(٤).

وقد استأذن المسلمون عمر رضي الله عنه في اتباع الفرس بعد حلوان فرفض قائلاً: "لَوَدِدْتُ أَنَّ بَيْنَ السَّوَادِ وَبَيْنَ الْجَبَلِ سَدًّا لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْنَا وَلَا نَخْلُصُ إِلَيْهِمْ، حَسْبُنَا مِنَ الرَّيْفِ السَّوَادِ، إِنِّي آثَرْتُ سَلَامَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْأَنْفَالِ"^(٥)، قد جاعني ما بين العذيب وحلوان، وفي ذلكم ما يكفيكم إن اتقيتم وأصلحتم، وكتب لأمرائه: "اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ مَفَازَةً"^(٦)، وذلك لأنّ المسلمين لم يكونوا قد أمنوا العراق بعد، فقد كان شماله لا يزال على الحرب، كما أنّ الوضع في الجنوب لا يزال مضطرباً^(٧).

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٥٢٨. رواية المدائني.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٥؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٥٢٨. رواية المدائني.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ١٦١.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢١.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٧٠.

(٦) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٤.

(٧) محمد حسين هيكل: الفاروق عمر، ج ١، ص ٢٠٩، ٢١٠.

ويزعم سيفٌ أنّ قائد الفرس في جلولاء هو "مهران"، ويجعل للقعقاع دورا عظيما في فتح المدينة، ويتخيّل سيفٌ أنّ مهران هرب إلى حلوان وأنّ ابن عمه القعقاع انطلق وراءه حتّى قتله^(١)، وكلّ هذا من أساطير سيف التي لا يتابع عليها، ولا يؤخذ بأقواله عند مخالفته لأهل العلم^(٢).

❏ تطهير العراق من بقايا الوجود الفارسي:

كان فتح حلوان خاتمة فتوح العراق، لكن الوضع العسكري تطلّب القيام بعمليات تطهير شاملة لبقايا الوجود الفارسي، وإخضاع القرى وبخاصة في السّواد الشرقي لدجلة، فتمت هذه العمليات بنجاح، ولم يبق من سواد دجلة ناحية إلا غلب عليها المسلمون، وهكذا سيطر المسلمون على جنوبي العراق، ووسطه وتطلّعا لاستئناف التّوسع باتجاه الشرق والشّمال، وأقبل أمراء التّغور عليهم لطلب الأمان مقابل دفع الجزية، وأقبل مزيد من الفرس على اعتناق الإسلام^(٣).

❏ فتح تكريت ونيوى والموصل:

كانت جموع من البيزنطيين قد اتّحدت مع قبائل العرب المتنصرة كإياد وتغلب والنمر بتكريت، فوجّه إليهم سعدٌ جيشا بقيادة عبد الله بن المعتم عن أمر عمر ؓ وضربوا الحصار على المدينة أربعين يوما، ثمّ أحاط المسلمون بجموع الرّوم وحلفائهم وهزموهم هزيمة قاسية بعدما استجابت طائفة من النّصارى العرب للدّخول في الإسلام^(٤)، والإسلام^(٥)، وهاجموا المشركين من خلفهم^(٦).

وأسرع المسلمون إلى محاصرة نينوى والموصل بعد تكريت فاضطرتا إلى الاستسلام، ودخلهما المسلمون صلحا، وذلك في أواخر عام ١٦هـ / أواخر ٦٣٧م^(٦).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٦٨ - ٤٧٠.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٧٧ - ٨٠.

(٣) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٠٩، ٢١٠.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٧٤؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢١١.

(٥) تشير رواية ابن أبي شيبة إلى أنّ المسلمين صالحوا سكّان البلاد النّصارى على أن يبرزوا لهم سوقا، ففعلوا، ووقّوا لهم. مصنف ابن أبي شيبة، جـ ٦، ص ٥٦٢.

(٦) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢١٢. ويؤرّخ البلاذري فتح نينوى والموصل بسنة ٢٠هـ. فتوح البلدان، ص ٣٥١.

فتح الأبلّة والبصرة:

أرسل عمر رضي الله عنه عتبة بن غزوان المازنيّ إلى البصرة سنة ١٤هـ/٦٣٥م لإعادة فتح الأبلّة^(١)، وكانت بها حامية فارسيّة مهمتها منع غارات المسلمين على مرفأ الأبلّة - ميناء كانت ترسو فيه سفن فارس والهند - فأثاها في نحو خمسمائة رجل، وعسكر في أقصى البرّ من أرض العرب، وأدنى أرض الرّيف من أرض العجم على مقربة من البصرة اليوم، وأقام عتبة نحواً من شهر، ثمّ خرج إليه أهل الأبلّة فوقع القتال بين الفريقين، ولم يمض مقدار "جزر جزور" إلا وانتصر المسلمون، وولى الفرس منهزمين إلى داخل المدينة، واحتموا وراء أسوارها، لكنهم أدركوا عدم جدوى الاستمرار في المقاومة، فانسحبوا من المدينة دون قتال، ودخل عتبة الأبلّة، وكتب إلى عمر يخبره بالفتح^(٢). وقد وجد المسلمون سفينة في ميناء الأبلّة فيها جَوْزٌ فقالوا: ما رأينا حجارةً أشدّ استواءً من هذه، فأخذ عتبة بن غزوان رضي الله عنه جَوْزَةً فكسرها فأكلها، فقال: هذا دسمٌ، فجعل الجند يكسرون فيأكلون^(٣).

وقام عتبة بن غزوان بعد فتح الأبلّة بتطهير المنطقة الواقعة بأسفل دجلة والفرات من الحاميات العسكريّة الفارسيّة، فاشتبك معهم وهزمهم، ثمّ عاد إلى البصرة^(٤).

تمصير البصرة:

تعدّ مدينة البصرة أقدم الأمصار الإسلاميّة في العراق، وذلك لأنّ العرب الفاتحين دخلوا العراق بنسائهم وأولادهم منذ بداية الفتوح^(٥)، فلما استقرّ أمر العراق بعد القادسيّة كلّف عمر رضي الله عنه عتبة بن غزوان بإقامة مدينة قريبة من ميناء الأبلّة ليجمع أصحابه في موضع واحد، قريب من الماء والمرعى، فاختار موضع البصرة، وكتب إلى الخليفة بصفته، فاستحسنه واطمأنّ إلى موقعه^(٦).

(١) تتفق رواية المدائني وأبي مخنف والبلاذري على نزول عتبة بن غزوان البصرة وتمصيرها سنة ١٤هـ، ويخالفهم سيف فيمصيرها سنة ١٦هـ، ويلاحظ أنّ الطبري لا يميل ها هنا إلى قول سيف. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦٥، ٣٦٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٣٨، ٤٣٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٤٠، ٤٤١، من طريق عمر بن شبّة البصري عن الشعبي.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٧، ص ١١٣، ح ٢٧٧، ورجاله رجال الصحيح. الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٥، ص ٣٣٦.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٢٧، ١٢٨؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢١٣، ٢١٤.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٧٤.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦٥، ٣٦٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٣٩.

وبدأ المسلمون في تأسيس البصرة سنة ١٤هـ / ٦٣٥م^(١)، لتكون معسكراً للجند المسلمين^(٢)، وجعل المسجد الجامع في وسط المدينة، وبجواره المباني الخاصة بدوائر الحكومة والإدارة^(٣)، ولما تكاثرت أعداد العرب المهاجرين إلى البصرة أمر عمر رضي الله عنه بتوزيع الخطط عليهم، وتوطين كل قبيلة في محلة^(٤).

وكان العرب الفاتحون قد بدعوا إقامتهم بالبصرة في خيام وفساطيط وقباب^(٥)، ثم استأذنوا عمر رضي الله عنه في البناء بالقصب^(٦)، فكانوا إذا خرجوا للغزو نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه^(٧)، وكانوا يغزون ونسأؤهم معهم^(٨)، ثم وقع حريق بالبصرة في عام ١٧هـ / ٦٣٨م، فاستأذنوا الخليفة في بناء بيوت ثابتة، فأذن لهم عمر في البناء باللبن من غير ارتفاع^(٩).

وقد نظمت قبائل البصرة إلى خمسة أقسام إدارية^(١٠)؛ وذلك للمساعدة على سرعة استنفارها للحرب، وتسهيل توزيع العطاء والأرزاق عليهم^(١١).

❏ تمصير الكوفة:

كان المسلمون قد استقرّوا في المدائن - عاصمة الفرس - بعد فتحها، ولكنهم اجتووها^(١٢)؛ لكثرة البعوض بها^(١٣)، ولأنّ الطبيعة الجغرافية للمدينة لم تتناسب مع ما ألفه العرب من جوّ صحراويّ مفتوح، فشحب لونها، فلما وقف الخليفة على ذلك كتب إلى

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٣٨.

(٢) ماسينون: خطط الكوفة، تعريب/ تقي محمد المصعبي، مطبعة العرفان، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م،

ص ١٠؛ آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، تعريب/ عبد الهادي عبلة، دار

فتيبة، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٢٦؛ شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، ص ٩٨.

(٣) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢١٥.

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١١٨.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦١.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦٦.

(٨) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٧٩.

(١٠) على حسنى الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م، ص ٢٩٠.

(١١) ماسينون: خطط الكوفة، ص ٩.

(١٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٣٨؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٢.

(١٣) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٥٥١.

سعد يأمره بأن يتخذ للمسلمين دار هجرة يقيمون فيها، وأن يختار مكاناً مناسباً، ليكون معسكراً للجند المسلمين^(١).

نزل سعد الأنبار، وقرر اتخاذها مقراً، ولكن كثرة الذباب فيها اضطره إلى النزوح إلى كويشة عمر، فلم يجدها كما يرغب، وراسل الخليفة في ذلك، فأمره بتكليف سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما ليرتادا منزلاً يلائم حياة العرب وإبلها، ولا يفصله عن الخلافة بحر ولا جسر، فنجح الرائدان في اختيار مكان مناسب بين الحيرة والفرات، فنزله المسلمون في المحرم سنة ١٧هـ / ٦٣٨م^(٢).

وقد ابتنى أهل الكوفة بيوتهم أول الأمر أخصاصاً من قصب^(٣)، إذا غزوا قلعوها وتصدّقوا بها، فإذا عادوا من الغزو أعادوا بناءها، وكانوا يأخذون معهم نساءهم وأولادهم^(٤)، حتى نشب حريق كبير بالكوفة، فأذن لهم الخليفة عمر ببناء دورهم باللبن من غير ارتفاع^(٥)، كما حدث مع أهل البصرة.

وقد شيّد المسجد الجامع في أول تخطيط المدينة، وبنيت أمامه ظلّة واسعة المساحة أقيمت على أعمدة، وشيّدت دار الإمارة بجوار المسجد، وسميت قصر سعد، وأقام الجند منازلهم حول فناء المسجد، فاخترت كل قبيلة مكاناً نزلت فيه وجعلت به خيامها، وكان من أهم مميزات المدينة الجديدة اتّساع طرقها، حتى لا تحجب الأبنية هواء البادية عن سكّانها^(٦).

وقسمت الكوفة بعد تمصيرها إلى سبعة أقسام قبلية إدارية^(٧)، وظلّ التقسيم على الأسباع إلى نهاية عصر الراشدين^(٨).

(١) ماسينون: خطط الكوفة، ص ١٠؛ آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص ٢٦؛

شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، ص ٩٨.

(٢) ابن أبي شيبّة: المصنف، ج ٦، ص ٥٥١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٩٦؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٢٣٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٧٨.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٩١.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٧٩.

(٦) اليعقوبي: البلدان، دار صادر، طبعة ليدن، ١٨٩٢م، ص ٣١١؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢١٦.

(٧) إحسان النصّ: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار البقعة العربية، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٢٢٠.

(٨) ماسينون: خطط الكوفة، ص ١١.

الفصل الرابع

فتوح بلاد فارس (إيران)

تمهيد:

لم يكن عمر رضي الله عنه قد خطط وقتئذٍ لفتح بلاد فارس المعروفة بإيران اليوم، وكان هدف الاصطدامات التي حدثت داخل الأراضي الفارسية هو الحفاظ على فتح العراق، لأنّ الأراضي العراقية تعدّ جزءاً من بلاد العرب التي سكنوا في أنحائها قبل البعثة النبوية، وكان عمر يقول: "وَدِدْتُ أَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فَارِسَ جَبَلًا مِنْ نَارٍ لَا يَصْلُونَ إِلَيْنَا مِنْهُ، وَلَا نَصِلُ إِلَيْهِمْ"^(١)، ولكن الفرس لم يركنوا إلى الهدوء، فكانوا يجهّزون الجيوش استعداداً لمواصلة الحرب، كما كانوا يقومون بأعمال تمرد في البلاد المفتوحة^(٢).

فتح إقليم الأهواز سنة ١٧هـ/٦٣٨م:

عندما فتح المسلمون حلوان وهرب منها يزدجرد، طلب منه "الهرمز" أن يؤمّره على الأهواز^(٣) ليمنع المسلمين من دخولها، وليجمع له الأموال والجنود من تلك النواحي لحرب المسلمين، فأعجبه ذلك، وعقد له على الأهواز وفارس، ووجّه معه جيشاً كثيفاً^(٤). وقد حدث فتح هذا الإقليم على يد أبي موسى الأشعري، فلما ولاه عمر البصرة سار بأهلها إلى الأهواز، فلم يزل يفتح بلداً بلداً، والأعاجم تهرب من بين يديه حتّى غلب على جميع أرضها إلا السّوس، وتستر، ورامهرمز^(٥).

فتح رامهرمز:

يتفق المؤرّخون الثّقات على فتح رَامَهْرَمَزٍ صلحاً على يد أبي موسى^(٦)، ويخالفهم سيفٌ في ذلك فيذكر أنّ الفرس اجتمعوا فيها بقيادة الهرمز، فأمر عمر رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص أن يجهّز إلى الأهواز جيشاً من أهل الكوفة بقيادة النّعمان بن مقرّن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٩٨.

(٢) الكلعي: الاكتفاء، جـ ٢، ص ٥٤٤؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢١٦.

(٣) الأهواز: تقع منطقة الأهواز في أقصى الشمال الشرقي من الخليج العربي على الحدود العراقية الإيرانية، وكان اسمها خوزستان، جمع حوز أو هوز. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٤٠٤؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص ٢٥٨.

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٢٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٩٦.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٤٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٩٦.

على عجل، وأمر أبا موسى الأشعري أن يجهز جيشاً من البصرة بقيادة سهل بن عدي، فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة، وسار نحو رامهرمز، فلما سمع الهرمزان بمسيره إليه بادره الشدة ورجا أن يقطعه، والتقى النعمان والهرمزان فاقتتلوا قتالاً شديداً، تغلب فيه المسلمون، فانسحب الهرمزان إلى تَستَر وأُخلى رامهرمز، فدخلها النعمان^(١).

فتح تَستَر:

وجّه الفاروق عمر ؓ أبا موسى الأشعري لفتح تَستَر^(٢)، فجعل على يمينته البراء بن مالك ؓ، وعلى يسارته مجزأة بن ثور السدوسيّ الدهليّ ؓ، وعلى الخيل أنس بن مالك ؓ، فلما بلغها وجد الهرمزان قد تحصّن بها^(٣)، فضرب المسلمون الحصار على تستر سنة أو نحوها^(٤)، وقابلوا فيها جيش الأعداء في ثمانين معركة^(٥). ولما اقترب نصر الله من المسلمين ساقه لهم على يد رجل فارسيّ، وكان الهرمزان قتل رجلاً من عظمائهم، فانطلق أخوه حتّى أتى أبا موسى، وطلب منه أن يحقن دمه ودماء أهل بيته ويترك لهم مساكنهم وأموالهم، فأعطاه ذلك، فدلّ المسلمين على مخرج ماء ضيق لا ينفذون منه إلا سباحة بمشقة شديدة^(٦)، وأنفذ معه الأشرس ابن عوف الشيبانيّ ليتأكّد من صدقه^(٧)، فلما عاد ندب أبو موسى الناس لتلك المهمة، فخرج لها جماعة من الأبطال، فيهم: مجزأة بن ثور، والبراء بن مالك^(٨). وتذكّر بعض المسلمين أنّ النبيّ ﷺ قد قال: "كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ مِنْهُمْ الْبِرَاءُ بْنُ مَالِكٍ"^(٩)، "فلما أوجع المشركون في

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٠٠.

(٢) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص ٥٦٣، ج٧، ص ٣، بإسناد صحيح، وخليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٤٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٩٩.

(٤) تصل بعض الروايات بمدة الحصار إلى ثمانية عشر شهراً، أو سنتين. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٤٦.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٠٠، ٥٠١.

(٦) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص ٥٦٣.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٩٩؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣١.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص ٥٦٣.

(٩) الترمذي: السنن، وقال: "حسن غريب"، (كتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك)، ج٥، ص ٦٩٢، ٦٥٣، ح ٣٨٥٤.

المسلمين الحّوا على البراء ليقسم على ربّه، فقال: أَقَسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْنَا أَكْتَفَهُمْ، وَأَلْحَقْتَنِي بِنَبِيِّكَ ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَفَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا^(١).

وكان المسلمون قد ناهضوا حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتدّ عليهم القتال، فلم يقدروا على الصلّاة إلا بعد ارتفاع النّهار، فكان أنس ﷺ يتحسّر على تلك الصلّاة فيقول: "لم نصل يومئذٍ الغدّة حتّى انتصف النّهار، فما يسرني بتلك الصلّاة الدّنيا كلها"^(٢). ولجأ الهرمزان قائد الفرس إلى القلعة، وأحاط به المسلمون الذين دخلوا من مخرج الماء، ولكنهم لم يستطيعوا القبض عليه حتّى أمّنه على أن ينزل على حكم عمر ﷺ، فأرسله أبو موسى مع أنس بن مالك ﷺ^(٣).

ووصل الهرمزان إلى المدينة النبويّة في حراسة مشدّدة، وفي مخيّلته أنّ عمر ﷺ مثل ملوك فارس بين الحرّاس والحجّاب والكتّاب، وأبّهة الملك، ولكنّه دهش عندما رأى عمر نائما في المسجد معه درّته، فلما انتبه الخليفة ورأى الهرمزان أنبه على كثرة انتفاضه، وجرت بينهما محاورّة انتزع فيها الهرمزان الأمان من عمر ﷺ، ثمّ أسلم، ففرض له عمر ﷺ على ألفين^(٤)، وأنزله المدينة^(٥).

(١) رواه الحاكم عن أنس، وصححه إسناده على شرط الشيخين، وأقرّه الذهبي. المستدرک، جـ ٣، ص ٣٣١، ح ٥٢٧٤.
(٢) علقه البخاري في الصحيح، (أبواب صلاة الخوف، باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو)، جـ ١، ص ٣٢٠، ووصله ابن أبي شيبة، وابن سعد، وخليفة بن خياط. المصنف، جـ ٧، ص ٥؛ الطبقات الكبير، جـ ٥، ص ٣٣٣؛ تاريخ خليفة، ص ١٤٦. ينظر ابن حجر: تغليق التعليق على صحيح البخاري، تحقيق/ سعيد عبد الرحمن موسى، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، جـ ٢، ص ٣٧٢.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٥٦٤. بإسناد صحيح.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٠٢.

(٥) يروى أنس بن مالك ﷺ أنّه لما دخل على عمر بأسرى تستر سكن الهرمزان ولم يتكلّم، فلما طلب منه عمر الكلام قال: "أَكَلَامُ حَيٍّ أَمْ كَلَامُ مَيِّتٍ؟ قال: "تَكَلَّمَ فَلَا بَأْسَ"، فقال: "إِنَّا وَإِيَّاكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ مَا خَلَى اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا نَقْتُلُكُمْ وَتَقْصِيكُمْ، وَلَمَّا أَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَكُمْ لَمْ يَكُنْ لَنَا بِكُمْ يَدَانِ، فاستشار الخليفة أنس بن مالك فقال: "تَرَكْتُ خَلْفِي شَوْكَةً شَدِيدَةً وَعَدَدًا كَثِيرًا، إِنْ قَتَلْتَهُ أَيْسَ الْقَوْمِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَكَانَ أَشَدَّ لَشَوْكَتِهِمْ، وَإِنْ اسْتَحْيَيْتَهُ طَمَعَ الْقَوْمُ، فاستنكر الخليفة قول أنس، ورفض أن يستحيي قاتل البراء بن مالك ومجرأة بن ثور، فلما خشي أنس أن يبسط عليه قال: لَيْسَ إِلَيَّ قَتْلُهُ سَبِيلٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لِمَ؟ أَعْطَاكَ؟ أَصَبَتْ مِنْهُ؟ قال: مَا فَعَلْتُ وَلَكِنَّكَ قُلْتَ لَهُ: تَكَلَّمَ فَلَا بَأْسَ، قال: "لَتَجِيَنَّ بِمَنْ يَشْهَدُ أَوْ لَا يَدَّأَنَّ بِعُقُوبَتِكَ"، فشهد الزبير بن العوام لأنس، فترك عمر الهرمزان، وأسلم، وفرض له. ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٣، بإسناد صحيح. وخليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٤٧. وابن حبان مختصرا بإسناد قوي. صحيح ابن حبان، جـ ١١، ص ٦٤.

فتح السُّوس:

توجّه أبو موسى إلى السُّوس فقاتل أهلها ثم حاصرهم حتى نفذ ما عندهم من الطعام فضرعوا إلى الأمان، ورأى أبو موسى في قلعتهم بيتاً عليه ستر فسأل عنه أهل البلاد فأخبروه أنّ فيه جثة دانيال النبي عليه السلام^(١).

وقد ثبت بصحيح الروايات أنّ المسلمين أصابوا جسد "دانيال" النبي في تابوت بالسُّوس، "وكان أهل السُّوس إذا أسنّوا أخرجوه فاستسقوا به"، فلما بلغ خبره عمر رضي الله عنه كتب إلى المسلمين: "أنّ تغسلوا دانيال بالسدر وماء الریحان، وأنّ يصلى عليه؛ فإنّه نبيّ دعا ربّه أن لا يليه إلاّ المسلمون"^(٢)، وفي رواية: "إنّ هذا نبيّ من الأنبياء، والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء"، وأمر أبا موسى الأشعري وأنس بن مالك رضي الله عنه بدفنه في مكان لا يعلمه أحدٌ غيرهما، فدفناه^(٣).

فتح نهاوند (فتح الفتوح):

لم يكن ضياع بلاد العراق وسائر مدن الأهواز وتتابع هزائم الساسانيين يسيراً على أمراء الفرس وأعيانهم، ولذلك أثاروا ملكهم الهارب "يزدجرد" واستنهضوه للقتال من جديد فأجابهم، وأمر عليهم ذا الحاجبين^(٤)، ودعا إلى التّعبئة العامّة في أقاليم الدّولة

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٩٧.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٧، ص ٤، ح ٣٣٨١٨، وإسناده صحيح، رجاله ثقات. ابن أبي داود: المصاحف، ص ٣٦٤؛

ابن حزم: المحلى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج ٩، ص ٤٥، عبد العزيز مرزوق الطريفي: التحجيل في تخريج ما لم

يخرج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ١٩٤.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٧، ص ٤، ح ٣٣٨١٩، وإسناده صحيح.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك؛ ج ٢،

ص ٥٣٣؛ الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ٣٣٢. ونص ابن حجر العسقلاني على أنّ ذا الحاجبين لقب خرازاد بن هرمز.

نزّهة الألباب في الألقاب، تحقيق/ عبد العزيز محمد صالح السديري، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى،

١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ج ١، ص ٢٨٥. ويرد في بعض المصادر "ذو الجناحين". أبو يوسف: الخراج، ص ٤٣؛ ابن أبي

شعبة، ج ٦، ص ٥٥٩. وعند الدّينوري "مردان شاه بن هرمز". الأخبار الطوال، ص ١٣٤. وعند الطبري من طريق

سيف التميمي أنّه أمر عليهم الفيرزان. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٢٢. وعند ابن أعتّم أنّ أمراء الفرس بنهاوند

أربعة، منهم: "ذو الحاجب خرازاد بن هرمز". الفتوح، ج ٢، ص ٢٩٠. وعند البلاذري: مردان شاه ذو الحاجب. فتوح

البلدان، ص ٣٢٢. وأقوال المؤرخين كلها متقاربة عدا ما ذهب إليه سيف المتّمهم بالكذب والوضع والزندقّة.

الفارسية، وحشد أربعين ألف مقاتل^(١)، أو يزيدون^(٢)، وسيّرهم جميعاً إلى نهاوند^(٣)، سنة ٢١هـ/٦٤١م^(٤).

وبلغت التطوّرات الجديدة عمر ٧ فاستشار أهل الرّأي، وفيهم الهرمزان^(٥)، فأخبر الخليفة أنّ نهاوند هي رأس فارس، حيث يجتمع بها "بَنَدَاقَان"^(٦)، ومعه أساورة كسرى، وأهل أَصْفَهَان^(٧)، ونصحه أن يبدأ بها؛ لأنّ قطع الرأس {أَصْبَهَان} يسقط الجناحين، وهما: فارس، وأذربيجان، فعزم عمر ٧ على فتحها، واختار النّعمان بن مقرّن المزنيّ ٧ لقيادة الجيش الذي أعدّه لها^(٨)، وكان النّعمان قد كتب إلى الفاروق يناشده بالله أن يعزله عن ولاية خراج كسكر ويبيعه مجاهداً إلى جيش من جيوش المسلمين، فأعفاه الخليفة من عمل الأموال، ووجهه غازياً إلى نهاوند^(٩).

وبعث الخليفة ولده عبد الله بن عمر في المهاجرين والأنصار، وأبا موسى الأشعريّ في أهل البصرة، وحذيفة بن اليمان في أهل الكوفة على أن يجتمعوا بنهاوند تحت قيادة النّعمان بن مقرّن^(١٠).

وقد ضمّ هذا الجيش جماعة من الصّحابة وأبطال العرب منهم: الزّبير ابن العوّام^(١١)، وجريّر بن عبد الله، والمغيرة بن شعبة، وقيس بن مكشوح المرادي، وطلحة

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الجزية، والموادعة، باب الجزية والموادعة)، جـ ٣، ص ١١٥٢، ح ٢٩٨٩.

(٢) يذكر البلاذري أنّهم اجتمعوا في ستين ألفاً، أو مائة ألف. فتوح البلدان، ص ٣٢٢.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٤٧؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٣، ١٣٤.

(٤) هذا تأريخ ابن إسحاق وأبي معشر والواقدي، أما سيف فيجعلها في سنة ١٨هـ. الطبري: تاريخ، جـ ٢، ص ٥١٨.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب الجزية، والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الجزية والحرب)، جـ ٣، ص ١١٥٢، ح ٢٩٨٩.

(٦) هكذا عند ابن حبان، وفي رواية مبارك بن فضالة: "بندار". الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٢٠. ويبدو أنّ أحدهما محرف عن الآخر.

(٧) ابن حبان: الصحيح، جـ ١١، ص ٦٤، بإسناد قوي.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنّف، جـ ٦، ص ٥٥٩، ٥٦٠، ح ٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٣٣٢، ح ٥٢٧٩؛ وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، رجاله رجال الصحيح غير علقمة بن عبد الله المزني، وهو ثقة". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ٢١٧، ح ١٠٣٧٩، ووثّق البوصيري رواته. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ ٥، ص ٢٥٩، ح ٤٦٣٠، وصحح محقق المطالب العالبي لابن حجر إسناده، جـ ١٨، ص ٢٤.

(٩) ابن أبي شيبه: المصنّف، جـ ٦، ص ٥٥٢، والأثر صحيح. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ٦٣٩.

(١٠) ابن حبان: الصحيح، جـ ١١، ص ٦٥، بإسناد قوي.

(١١) ابن أبي شيبه: المصنّف، جـ ٦، ص ٥٥٩، ح ٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٣٣٢، وإسناد الأثر صحيح.

ابن خويلد الأسدي^(١)، والأشعث بن قيس الكندي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي^(٢)، وأوصى الخليفة النعمان بن مقرن أن يشاور عمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد في أمر الحرب، ويجعلهما من خواصه^(٣).

ونظرا لصعوبة المعركة المنتظرة في نهاوند فقد عهد عمر رضي الله عنه بقيادة الجيش إلى حذيفة بن اليمان بعد النعمان، ومن بعده لجريز بن عبد الله البجلي^(٤)، فإن قتل جريز فالمغيرة بن شعبة هو الأمير، ومن بعده الأشعث بن قيس^(٥).

وسار المسلمون إلى عدوهم حتى عسكروا بإحدى قرى أصبهان قبل نهاوند، وأقبل الفرس حتى عسكروا قريبا من المسلمين وخذقوا على أنفسهم^(٦).

وطلب قائد الفرس رجلا يكلمه، فبعثوا إليه المغيرة بن شعبة، فقعد الفارسي على سرير من ذهب في أبهة الملك، وجعل المغيرة يطعن برمحه في بسطهم يخرقها؛ ليتطيروا حتى قام بين يديه^(٧)، فطفق يذكره بشقاء العرب وجوعهم وبُعد دارهم، فحمد المغيرة الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: "والله ما أخطأت من صفتنا ونعتنا شيئا، إن كنا لأبعد الناس دارا، وأشد الناس جوعا، وأعظم الناس شقاء، وأبعد الناس من كل خير، حتى بعث الله إلينا رسولا، فوعدنا النصر في الدنيا والآخرة^(٨)، وأمرنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية^(٩)، ووثب المغيرة فقعد مع العليج على سريره ليتطير، فقام إليه رجاله فجعلوا يطأونه بأرجلهم ويجرونه بأيديهم، فأخبرهم أن المسلمين لا يفعلون هذا برسلمهم، وأنه إن عجز أو استحمق، فينبغي عليهم ألا يؤاخذوه، لأنه رسول^(١٠).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥١٨. من رواية ابن إسحاق.

(٢) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٥٩، ح ٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٣٣٢، وإسناده صحيح.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبقة الرابعة- متمم الصحابة)، ص ٧٥٦؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٥. وفي رواية منقطعة لابن أبي شيبه أنه أوصاه ألا يولهما شيئا من الإمارة. ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٦١.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٤٨.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢٢؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٥.

(٦) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٥.

(٧) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٥٩، ح ٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٣٣٢، وإسناده صحيح.

(٨) ابن حبان: الصحيح، جـ ١١، ص ٦٥، ٦٦، بإسناد قوي.

(٩) البخاري: الصحيح، (كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الجزية والحرب)، جـ ٣، ص ١١٥٢، ح ٢٩٨٩.

(١٠) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٥٥٩، ح ٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٣٣٢، وإسناده صحيح.

وقد أقام الفرس في مكانهم، ولم يخرجوا لقتال المسلمين، فاستشار النعمان عمرا وطلحة في الأمر، فأشار عليه عمرو بأن يشيع وفاة أمير المؤمنين، ثم يرتحل بجميع العسكر، وسيخرج الفرس وراءهم ويتعقبونهم، فأخذ النعمان بهذا الرأي، وارتحل بالمسلمين فتعقبهم الفرس، فلما قاربوهم وقفوا لهم، فدارت بينهم معركة عنيفة حتى حال بينهما الليل، وقد كثرت القتلى من الجانبين، فانصرف كل فريق إلى معسكرهم^(١).

وكان هذا اللقاء يوم الأربعاء فانكشفت ميمنة المسلمين، وثبتت الميسرة والصف، ثم التقوا يوم الخميس فانكشفت الميسرة، وثبتت الميمنة والصف، وكان اللقاء الحاسم في يوم الجمعة^(٢)، بعد زوال الشمس، وحضور الصلاة^(٣)، فتسلسل الأعاجم كل خمسة وستة وسبعة وعشرة في سلسلة، وألقوا حسك الحديد خلفهم، حتى لا يفرّوا، واستقبلوا المسلمين بقطع غفيرة أمثال الجبال، ورشقوهم بوابل من السهام حتى أسرعوا فيهم^(٤).

ووقف النعمان يحضّ جنده على القتال، وأعلمهم أنه سيهزّ لواءه ثلاث مرار، ليقضي الناس حاجتهم ويتوضّأوا عند الأولى، ويستعدّوا بأسلحتهم عند الثانية، ولتحملوا مع الهزة الثالثة، "ولا يلوين أحدًا على أحد، وإن قتل النعمان فلا يلوين عليه أحدًا"، وأقسم على جميع المسلمين أن يؤمّنوا على دعوته، وقال: "اللهم ارزق النعمان اليوم الشهادة في نصر وفتح عليهم"، فأمن الناس على دعائه^(٥).

وحمل النعمان مع الهزة الثالثة وحمل الناس معه مستقتلين، وما منهم من أحد إلا يحبّ أن "يقتل أو يظفر"، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة، لم يسمع فيها إلا وقع الحديد على الحديد، "وأصيب في المسلمين مصابة عظيمة"، ولكنهم صبروا وصابروا حتى يئس الأعاجم فانهزموا، وكان إذا وقع أحد المقترنين يأخذ مجموعته معه، فيقتلون جميعًا، ومن يفرّ أمام المسلمين يعقره حسك الحديد خلفهم، فلما رأى النعمان ﷺ أن الله قد استجاب له ورأى الفتح جاءته نصابة، فأصابته خاصرته فقتلته^(٦)، فجاء أخوه سويد بن

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٥، ١٣٦.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٤٨.

(٣) ابن حبان: الصحيح، ج ١١، ص ٦٨، بإسناد قوي.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٩، ح ٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ٣٣٢، وإسناده صحيح.

(٥) المصدران السابقان .

(٦) ابن حبان: الصحيح، ج ١١، ص ٦٨، ٦٩، بإسناد قوي.

مقرن^(١) فحملة إلى فسطاطه، وخلع ثيابه فلبسها، وتقلد سيفه، وركب فرسه، وأخذ اللواء فتقدم به، فلم يشك أكثر الناس أنه النعمان^(٢)، واتبعوه يهزمون الأعداء ويقتلونهم^(٣)، ووقع قائد الفرس عن بغلته فانشق بطنه، ففتح الله على المسلمين، ولم يزل بالنعمان رمق، فأتاه معقل بن يسار -راوي الخبر- فبشره بالفتح، فحمد الله ﷻ، وفاضت نفسه، فاجتمع الناس على حذيفة بن اليمان^(٤).

ولم يزل حذيفة ﷺ يحاصر عساكر نهاوند الذين تحصنوا بالمدينة ويقاتلهم حتى استسلموا، وطلبوا الأمان، فصالحهم على الجزية والخراج^(٥)، ولم يكن للفرس بعد نهاوند اجتماع، لذلك سميت فتح الفتوح^(٦).

❏ انسياح المسلمين في أقاليم بلاد فارس:

أصاب الفرس الهلع بهزيمة نهاوند، فازدادوا اضطراباً، فانهارت معنوياتهم، وخارت قواهم، فاغتنم الفاروق عمر ﷺ تلك الفرصة فجيش الجيوش وعقد الألوية للقواد، وأمرهم بالانسياح في بلاد فارس، والولايات التابعة لها، وخاصة بعدما تيقن أن استتباب الفتح في بلاد فارس لن يتم إلا بالقضاء على يزيدجرد، الذي لا يزال يبعث في كل عام حرباً على المسلمين^(٧).

وكانت فلول الفرس قد فرّت إلى همذان في الشمال الشرقي من نهاوند، واحتمت بتحسيناتها، فحاصرهم المسلمون، حتى استسلموا مقابل تأمين المدينة وسكانها، وذلك في أواخر عام ٢١هـ/٦٤٢م^(٨)، ولما نقض أهلها الصلح أمر عمر ﷺ نعيم بن مقرن بالمسير إليهم، فعادوا إلى طلب الصلح فأجابهم إليه^(٩).

(١) عند ابن حبان معقل بن مقرن. ابن حبان: الصحيح، ج ١١، ص ٦٨، ٦٩، بإسناد قوي.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٦.

(٣) ابن حبان: الصحيح، ج ١١، ص ٦٨، ٦٩، بإسناد قوي.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٥٥٩، ٥٦٠؛ الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ٣٣٢، وإسناده صحيح.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢٥؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٦) المطهر المقدسي: البدء والتاريخ، مج ٢، ج ٥، ص ١٨٢؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٤.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٣٠.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٢٨، وعند البلاذري أن المغيرة بن شعبة وجه إليها جريز بن عبد الله

البجلي فافتتحها سنة ٢٣هـ. فتوح البلدان، ص ٣٢٨.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٣٥، ٥٣٦.

وتوجّه المجاهدون المسلمون إلى **أصفهان** -جنوب نهاوند- بقيادة عبد الله بن بديل الخزاعي، فتمّ لهم فتحها في سنة ٢١هـ / ٦٤٢م^(١).



خريطة رقم (٣)

لمعرفة مواقع أحداث فتوح البلاد الفارسية. نقلا عن سامي عبد الله المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب، ص ١٢٧.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٣١، ٥٣٢. ويقرر البلاذري فتح أصفهان سنة ٢٣هـ. فتوح البلدان، ص ٣٣١.

فتح الولايات الفارسية الشمالية:

كثّف المسلمون جهودهم لفتح الأقاليم الشماليّة التّابعة للدولة الفارسيّة خلال سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، فافتتح نعيم بن مقرّن **الريّ**^(١)، ثمّ سير أخاه سويد بن مقرّن إلى **قومس** بأمر عمر رضي الله عنه فافتتحها، بلا حرب، ولا مقاومة^(٢).

وواصل سويد بن مقرّن فتوحاته فكتب رزبان صول -ملك **جرجان**- يدعوه للدّخول في طاعة المسلمين، وهدده بالمسير إليه، فاستجاب له خلال سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، وكتب سويد لأهل جرجان كتابا جاء فيه: "إنّ لكم الذّمة، وعلينا المنعة، على أنّ عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم، على كل حال، ومن استعناّ به منكم، فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه"^(٣).

وعندما بلغت أنباء انتصارات المسلمين أهل **طبرستان** قام حاكمها بمراسلة سويد بن مقرّن في الصّلح والموادعة على غير نصر ولا معونة فأجابه، وذلك خلال سنة ٢٢هـ/٦٤٣م^(٤).

وكانت الخطوة التّالية في فتوح هذا المحور الشماليّ إلى **أذربيجان**^(٥)؛ لأنّها تجاور طبرستان من النّاحية الغربيّة، ويتاخم جنوبها بلاد العراق العربيّ والجزيرة الفراتيّة، ولذا وجّه عمر رضي الله عنه حذيفة بن اليمان على حربها، فلمّا وصل قصبته أردبيل، تصدّى له حاكمها المرزبان، وجرى بينهما قتال شديد انتهى بعرض المرزبان الصّلح على حذيفة رضي الله عنه مع المحافظة على بيوت النّار، وممارسة السّكان لشعائهم الدّينيّة، وإظهار ما كانوا يظهرونه، فأجابه حذيفة، وذلك سنة ٢٢هـ/٦٤٣م^(٦).

وبفتح **جرجان**، و**طبرستان**، وأذربيجان يفرغ المسلمون من البلدان الفارسيّة الشماليّة، ولا يفصلهم شيء عن شواطئ بحر قزوين^(٧).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٣٧. وفتحتها عند البلاذري عروة بن زيد الخيل الطائي، ويبدو أنّ ذلك من كثرة انتفاضها على المسلمين ومعاودة فتحها. فتوح البلدان، ص ٣٣٥، ٣٣٧.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٣٨.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٣٨؛ الجرجاني: تاريخ جرجان، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٤٤، ٤٥.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٣٨، ٥٣٩.

(٥) أذربيجان: سميت بذلك لكثرة معابد النّار بها، ومعناها أرض النّار أو معابد النّار، ويغلب على أرضها الجبال. محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٢٧.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٤٤، ٣٤٥؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٢٧.

(٧) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٢٥.

فتح إقليم فارس:

يطلق إقليم فارس على البلاد الفارسيّة الأصليّة التي أقام الفرس دولتهم عليها، دون الولايات الشّاسعة التي أخضعوها لحكمهم، وقد فتح المسلمون هذا الإقليم في آخر عهد عمر رضي الله عنه سنة ٢٣هـ/٦٤٤م، لكنّ سيفاً التّميميّ يزعم أنّ بدايات نزول المسلمين على أرض ذلك الإقليم كانت سنة ١٧هـ/٦٣٨م، وتخيّل أنّ العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه - عامل البحرين - كان ينافس سعدا رضي الله عنه في أعمال الفتوح، فلمّا استعلى سعدٌ بالقادسيّة عبر العلاء الخليج إلى البرّ الفارسيّ دون إذن من الخليفة، فقصّد إصطخر - قاعدة الإقليم - وتغلّب على حامية السّواحل، وتابع زحفه باتجاه المدينة، إلّا أنّه لم يؤمّن ظهره، فقطع الفرس عليه خطّ الرّجعة، ولم ينقذه سوى قرار أمير المؤمنين بإرسال مدد من حاميات البصرة، كما عزل العلاء الحضرميّ جزاء مغامرته، وألزمه بأثقل الأشياء عليه، حيث وضعه تحت إمرة سعد وتصرّفه^(١).

ولا شكّ أنّ هذا القول من أكاذيب سيف، وعصبيّته ضد القبائل اليمنيّة، بل إنّ الطّبريّ الذي لم ينقد سيفاً إلّا قليلاً نراه يصرّح ها هنا بكذبه في هذا الخبر^(٢)؛ وذلك لأنّ العلاء رضي الله عنه لم يقدّم بهذه المجازفة، ولم يعص الخليفة على الإطلاق، ولم يحدث قطّ أن عاقبه الخليفة عمر بعزله عن البحرين ووضعه تحت إمرة سعد، والثابت أنّ عمر رضي الله عنه عزل العلاء سنة ١٤هـ/٦٣٥م، وولاه الأبلّة مكان عتبة بن غزوان رضي الله عنه؛ بسبب تقصير الأخير في عمليّات الفتح صدر ولايته، ولكنّ العلاء مات في الطّريق قبل وصوله الأبلّة^(٣).

وقد انطلت كذبة سيف على بعض المؤرّخين الحديثين^(٤)، فراحوا يبنون تغيّر الاستراتيجية العسكريّة لدي الفرس خلال تلك السّنوات على تلك المغامرة المزعومة، وأنّ الفرس طمعوا لذلك في المسلمين، وتشجّعوا على مهاجمتهم.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٩٧ - ٤٩٩؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص ٥٤٧، ٥٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٩٧.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٦٢؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢١٧.

وبعد أن اجتازت الجيوش الثلاثة أرجان دون مقاومة، توجه كل أمير إلى وجهته المحددة، وفتحوا كامل الإقليم، ولم تواجههم أية معارك كبيرة؛ إنما كانت عمليات فتح أصل الإمبراطورية الساسانية بمعارك صغيرة مقارنة بالبويب، والقادسية، وجلولاء، ونهاوند، وذلك بفعل قضاء المسلمين في تلك المعارك على القوة الميدانية للإمبراطورية الفارسية المنهارة^(٢).



خريطة رقم (٤)

تبين موقع بلاد فارس الأصلية. نقلا عن سامي المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطاب، ص ١٥٠.

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٥١-٥٥٤، وانظر البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٠٦.

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٢٧ - ٢٣٠.

فتح الولايات المجاورة لإقليم فارس:

لَمَّا كَانَتْ كَرْمَانَ تَقَعُ إِلَى الشَّرْقِ مِنْ إِقْلِيمِ فَارَسَ، وَإِلَى الْجَنُوبِ مِنْ صَحْرَاءِ خِرَاسَانَ وَسَجِسْتَانَ، وَيَحْدُهَا مِنَ الْجَنُوبِ بَحْرُ فَارَسَ، فَقَدْ وَجَّهَ الْفَارُوقُ جَيْشًا مِنَ الْبَصْرَةِ لِفَتْحِ هَذَا الْإِقْلِيمِ، فَتَمَّ فَتْحُهُ سَنَةَ ٢٣هـ/٦٤٤م^(١)، وَكَانَ يَزْدَجَرْدُ بِكَرْمَانَ، فَلَمَّا هَاجَمَهَا الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى خِرَاسَانَ^(٢).

وَلَمَّا حَاولَ يَزْدَجَرْدُ تَعْبِئَةَ أَهَالِي سَجِسْتَانَ^(٣) لِمَقَاوِمَةِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ، كَانَ لَزَامًا عَلَى الْقِيَادَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَتْحَ هَذَا الْإِقْلِيمِ، وَلَمَّا عَجَزَتْ جِيُوشُ سَجِسْتَانَ عَنْ صَدِّ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ حُدُودِهِمْ تَرَاجَعَتْ إِلَى الدَّخْلِ، وَتَحَصَّنَتْ بِالْعَاصِمَةِ زَرْجِجَ، وَلَمْ يَزَلِ الْمُسْلِمُونَ يَحَاصِرُونَهُمْ وَيُضَيِّقُونَ عَلَيْهِمْ بِشَنْ الْغَارَاتِ عَلَى الضَّوَاحِي، حَتَّى اضْطَرَّ سَكَّانُ زَرْجِجَ إِلَى طَلَبِ الصَّلَاحِ، فَصَالَحَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَدِينَتِهِمْ، وَمَا احْتَازُوا مِنَ الْأَرْضَيْنِ، وَأَنْ تَكُونَ مَزَارِعُهُمْ حِمَى لَهُمْ لَا يَمْسُهَا الْمُسْلِمُونَ، وَتَمَّ ذَلِكَ سَنَةَ ٢٣هـ/٦٤٤م^(٤).

وَتَوَجَّهَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرِو التَّغْلِبِيِّ إِلَى إِقْلِيمِ مَكْرَانَ^(٥)، جَنُوبَ إِقْلِيمِ فَارَسَ، فَاصْطَدَمَ بِحَاكِمِهَا رَاسِلَ، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِ وَاسْتَقَرَّ فِيهَا^(٦).

وَسَوْفَ يُوَاصِلُ الْمُسْلِمُونَ فَتُوحَاتِهِمْ نَحْوَ إِقْلِيمِ خِرَاسَانَ خِلَالَ عَهْدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ؓ حَتَّى يَتِمَّ الْقَضَاءُ عَلَى كَسْرَى يَزْدَجَرْدَ وَتَفْتَحَ كَافَّةُ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْفَارَسِيَّةِ.

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٠٩؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٥٤.

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٣٠.

(٣) يشغل إقليم سجستان حالياً أجزاء من إيران وأفغانستان. محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٣٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤١٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٥٤؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٣٠.

(٥) مكران: ناحية واسعة جنوب بلاد فارس، يقع جزء منها حالياً في دولة إيران، وأكثرها ضمن حدود باكستان. محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٣٠.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٥٥؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٣٠.

الفصل الخامس

فتوح البلاد الشامية والجزيرة الفراتية

بدأ عمر رضي الله عنه خلافته بعزل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن القيادة العامة في الشام وولاهما أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، لأنّ خالدًا يمتاز بطبيعته التي تدعو إلى الاستقلال والتّصرّف الحرّ، وهي تصادم رغبة الخليفة الجديد في الإشراف على الولاية والقادة، ولا يرضى عن مجازفة خالد بالمسلمين في المعارك، فكان لابد من عزله لتحقيق الانسجام بين الخليفة وقيادة الجيش، إضافة إلى حرص عمر الشّديد على عقيدة الجند بعدما أوشك بعضهم أن يفتتنوا بخالد ويعتقدوا أنّ النّصر لا يتحقّق إلا بوجوده^(١).

ولمّا علم خالد رضي الله عنه بأمر عزله انطلق إلى أبي عبيدة رضي الله عنه فاستغفر له، ولامه على إخفائه لأمر العزل والتّولية واستمراره في الصّلاة خلفه، فكان ردّ أبي عبيدة أنّه ما كان ليكسر عليه حربه حتّى تنقضي، وأنّه لا يعمل للدّنيا، ولا سلطانها يريد، ولا يضرّه أن يلي عليه أخوه، في دينه ولا دنياه، ثمّ دفع إليه كتاب عمر رضي الله عنه^(٢).

❏ موقعة فحل - ذات الرّدة:

وبعيدا عن اختلاف المؤرّخين في تأريخها من حيث التّقديم والتّأخير، فيروي إمام المغازي محمد بن إسحاق أنّ فلول الرّوم توجّهوا إلى فحل الأردنيّة بعد "أجنادين"، وبتّقوا في طريقهم أنهار بيسان فصارت المنطقة وحلا، ولم يعلم المسلمون بما فعلت الرّوم، فلمّا غشي الجند بيسان وحلت خيولهم، ولقوا فيها عناء، ثمّ سلّمهم الله، وسمّيت بيسان ذات الرّدة لما لقي المسلمون فيها، ولمّا فرغوا من بيسان نهضوا إلى الرّوم وهم بفحل^(٣)، فكتب نصارى العرب الأردنيّون إلى المسلمين: "يا معشر المسلمين، أنتم أحبّ إلينا من الرّوم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكفّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنّه قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا"، لكنّ كثرة عدد الروم وتتابع أمداد قيصر إليهم جعلتهم يتربّصون بالفريقين، ولا يستطيعون مصالحة المسلمين^(٤).

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٧٢.

(٢) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٢٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٨.

(٣) الطبري من رواية ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٥.

(٤) الأزدي: فتوح الشام، ص ٩٧.

وكان المسلمون يحبّون معاجلة الروم؛ لأنّهم لم يكونوا مثلهم في الخصب وكفاية المؤن، وأمّا الروم فكانوا يحبّون مطاولة المسلمين؛ لما وجدوا من صبرهم وجدهم، ونصر الله إياهم، ولذلك قاموا يفجّرون المياه بينهم وبينهم، ولكنّ المسلمين خاضوا في المياه، ومشوا في الوحل إليهم، فلمّا رأى الروم ذلك عسكروا للمسلمين ووطّئوا أنفسهم على القتال^(١)، فالتقى الفريقان في معركة شديدة، أبلى فيها خالد بلاء حسنا فهزمت الروم، ودخل المسلمون فحلا، وذلك في ذي القعدة سنة ١٣هـ/٦٣٥م^(٢)، وحاصر المسلمون سكّان فحل حتّى سألوا الأمان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، فأمتوهم على أنفسهم وأموالهم وأن لا تهدم حيطانهم^(٣).

فتح الأردن:

فتحت معركة فحل الطريق أمام المسلمين للتسيّاح في الأراضي الأردنية، فقام شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه بفتح جميع الحصون والمدن الواقعة في إقليم الأردن، مثل بيسان وطبرية^(٤)، وغلب الروم على سواد بلاد الأردن، وأمن السكّان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم^(٥).

موقعة مرج الصفر:

عندما توجه المسلمون إلى دمشق نزل أبو عبيدة بباب الجابية، وعسكر خالد رضي الله عنه بدير مجاور للباب الشرقي، عرف من يومئذ بدير خالد، ونزل يزيد بن أبي سفيان بباب آخر، وتوزّع بقيّة القادة على الأبواب الأخرى، وحصروا دمشق حصارا شديدا^(٦)، فكان المحاصرون يرمون المسلمين بالنشّاب من بعيد، ويلقون عليهم الحجارة إذا اقتربوا من أسوار المدينة^(٧)، وبينما المسلمون يقاتلون الروم ويرجون فتح المدينة علم خالد بأن ملك

(١) الأزدي: فتوح الشام، ص ٩٨.

(٢) الأزدي: فتوح الشام، ص ١١٩؛ الطبري من رواية ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٥، ٣٥٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٠.

(٤) يذكر خليفة بن خياط أنّ شرحبيل بن حسنة افتتح الأردنّ كلها عنوة إلا طبرية، فإنّها فتحت صلحا. تاريخ خليفة، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٠.

(٦) الأزدي: فتوح الشام، ص ٨١، ٨٢، ٨٤.

(٧) الأزدي: فتوح الشام، ص ٨٢.

الرّوم قد بعث جيشاً في خمسة آلاف رجل من أهل الشّدّة والقوّة لفكّ الحصار عن دمشق، فصحب الجيش الرّوميّ خلق كثير من أهل حمص، وخرج إليهم أهل القوّة والشّدّة من دمشق فزاد الأعداء عن عشرة آلاف، وإزاء هذه التّطوّرات فكّ المسلمون الحصار عن دمشق، وقدموا يزيد بن أبي سفيان ومعه النّساء والأثقال، ثمّ خرج خالدٌ وأبو عبيدة من وراء النّاس، فلمّا تصافّ الجمعان تقدّم خالدٌ أمام الصّفوف يحرض النّاس على القتال، ويهوّن لهم شأن الرّوم، فحملت خيل الرّوم عندئذ على المسلمين، ودارت بين الطّرفين معركة شديدة نصر الله فيها المسلمين، وهربت فائلة الرّوم، فمنهم من دخل دمشق، ومنهم من أتى حمص، ومنهم من عاد أدراجه إلى قيصر، ورجع المسلمون لحصار دمشق^(١).

فتح دمشق:

كانت فلول الرّوم قد لحقت بمدينة دمشق السّوريّة بعد وقعة فحل، فتوجّه إليها المسلمون، وخرجت الرّوم لملاقاتهم، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً فيما حول دمشق، ثمّ هزم الله الرّوم، وأصاب منهم المسلمون، ودخلت الرّوم دمشق فغلقوا أبوابها^(٢).

وقد عاد المسلمون لحصار دمشق بعد هزيمتهم لجيش المرج الرّوميّ، وضيقوا على أهلها فعجزوا عن قتال المسلمين^(٣)، فلمّا طال على صاحب دمشق انتظار مدد قيصر ورأى أنّ المسلمين لا يزدادون كلّ يوم إلا قوّة وشّدّة رضخ لمصالحة المسلمين، غير أنّ خالد بن الوليد رضي الله عنه تمكن وقتنّذ من فتح الباب الشرقيّ عنوة، فسارع صاحب دمشق لمصالحة أبي عبيدة من ناحية باب الجابية^(٤)، وأقبل الرّوم على من يلي الأبواب الأخرى طالبين الصّلح، فدخل أصحاب تلك الأبواب صلحاً، وكان ذلك بعد ستة أشهر من حصار المدينة، وأجرى أبو عبيدة الصّلح مع دمشق كلّها^(٥)، وذلك في شهر رجب سنة ١٤هـ/٦٣٥م على تاريخ ابن إسحاق^(٦).

(١) الأزدّي: فتوح الشام، ص ٨٢ - ٨٤.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٦. من طريق ابن إسحاق.

(٣) الأزدّي: فتوح الشام، ص ٨٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٤) الأزدّي: فتوح الشام، ص ٩٠ - ٩١.

(٥) الأزدّي: فتوح الشام، ص ٩١؛ الطبري من رواية سيف التميمي. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٨. وتتفق رواية

أبي مخنف الشيعي مع رواية سيف في دخول خالد بالقتال وأبي عبيدة بالصّلح. البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٧.

ويجزم خليفة بن خياط بأنّ خالد بن الوليد فتح أحد أبواب دمشق عنوة، وأنّ أبا عبيدة بن الجراح أتمّ لهم الصّلح. تاريخ

خليفة، ص ١٢٦.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٦. من طريق ابن إسحاق.

وقد زعم سيف التميمي أن ابن عمه القعقاع التميمي كان أول من تسلق سور دمشق على الحبال التي أعدها خالد بن الوليد ﷺ لتلك المهمة^(١)، وقد اعتاد سيف على مزاحمة خالد ﷺ وأعماله بالقعقاع وبطولاته الأسطورية^(٢)، فتخيل أن خالدًا قام بقتل كمية من الحبال على هيئة السلايم، واحتفظ بها إلى أن وافته الفرصة لتسلق السور عندما اجتمع الدماشقة للاحتفال بمولود لبطريق المدينة وتركوا أماكنهم على الأسوار، فلما أخبر خالد بغفلة عدوه نهد إلى السور في جماعة من الأبطال، فسبقهم القعقاع في تسلق السور، وقام بدور كبير في ربط الحبال ومعاونة خالد ورجاله في تسلق السور^(٣).

والصحيح أن خالد بن الوليد كان يحاصر الباب الشرقي لمدينة دمشق، وأنه نزل على دير هناك، فسمي لذلك بدير خالد^(٤)، وقد استمر في حصار المدينة حتى جاءه نفر من أهلها في إحدى الليالي، وأعلموه أنها ليلة عيد، وأن الحراس مشغولون، وأشاروا عليه أن يلتمس سلماً للصعود عليه، فأتاه أهل الدير بسلمين، فرقى خالد بجماعة من جنده على السلمين، وفتحوا الباب الذي لم يكن عليه إلا رجل أو رجلان^(٥).

وقد تسلّم يزيد بن أبي سفيان ولاية دمشق عقب فتحها، وقام بفتح مدن الساحل، ففتح صيدا، وعرقه، وجبيل، وبيروت، وكان أخوه معاوية على مقدمته^(٦)، ولم يبق من سواحل دمشق إلا طرابلس^(٧).

فتح بعلبك وحمص وحماة:

توجه أبو عبيدة إلى حمص عن طريق بعلبك^(٨)، فحاصرها حتى طلب أهلها الأمان فأمّتهم وصالحهم^(٩)، وذلك سنة ١٤هـ/٦٣٥م^(١٠)، ثم سار أبو عبيدة ومعه خالد بن

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٨؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ٩٨.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢٣.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥١.

(٧) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٥.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٢٢.

(١٠) يؤرخ ابن إسحاق وغيره فتح حمص وبعلبك في سنة ١٤هـ. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٢٧.

الوليد إلى حمص فقاتلهم أهلها، ثم لجئوا إلى المدينة، فحاصرها المسلمون حصاراً شديداً^(١)، فما كان منهم إلا مطالبتهم للمسلمين بالتوجه إلى ملك الروم والقضاء عليه، ويدخلون في طاعتهم عند ذلك، فبث المسلمون خيولهم في نواحي أرضهم فأصابوا منهم غنائم كثيرة، وقطعوا عنهم المأوى والميرة، واشتد عليهم الحصار، وخشوا السبأ فأرسلوا يطلبون الصلح، فصالحهم المسلمون، وكتبوا لهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم^(٢)، وخلف أبو عبيدة عبادة بن الصامت الأنصاري على حمص، وسار نحو حماة فتلقاه أهلها مذعنين، فصالحهم على الجزية على رؤوسهم والخراج على أرضهم^(٣).

❏ فتح قنسرين:

سار أبو عبيدة إلى قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فقاتله أهل قنسرين، ثم لجأوا إلى حصنهم وطلبوا الصلح، فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص، وغلب المسلمون على أرضها وقراها، ولما كان بنو تنوخ يسكنون قنسرين منذ نزولهم الشام فقد دعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم^(٤).

❏ فتح حلب:

كانت حلب من أعمال قنسرين، فتوجه إليها أبو عبيدة وعلى مقدمته عياض ابن غنم الفهري، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبث المحاصرون أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها فأعطوا ذلك، واستثنى عليهم موضع المسجد^(٥).

❏ فتح أنطاكية:

كانت مدينة أنطاكية عاصمة الدولة البيزنطية في بلاد الشام، ومركزاً لجيوشها، ومقرّ هرقل ومأمّنه، وقد لجأ إليها كثير من البيزنطيين^(٦)، فتوجه إليها أبو عبيدة، وضرب عليها الحصار حتى اضطرّ أهلها إلى طلب الصلح، وأقرّوا بالجزية، فوافق أبو

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٤، ١٥٥.

(٢) الأزدري: فتوح الشام، ص ١٢٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٥.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٩.

(٥) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٦) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٦٥.

عبدة على طلبهم، ودخل المسلمون المدينة، ونظرًا لأهمية موقعها الحدودي فقد أمر الخليفة عمر أبا عبيدة بترتيب مرابطة عليها من المقاتلين، وعدم قطع العطاء عنهم^(١).

فتح اللاذقية وأقاصي شمالي الشام:

لما استخلف أبو عبيدة عبادة بن الصّامت الأنصاريّ على حمص أتى اللاذقية، فقاتله أهلها، واعتصموا بأسوار المدينة وببابها العظيم، فلما رأى عبادة صعوبة مرامها، أمر جنده بحفر حفائر كالأسراب يستتر الرّجل وفرسه في الواحدة منها، فاجتهد المسلمون في حفرها حتّى فرغوا منها، ثمّ أظهروا الففول إلى حمص، فلما جنّ عليهم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم دون علم أهل اللاذقية، فلما أصبحوا فتحوها بابهم وأخرجوا سرحهم، فصبّحهم المسلمون، ودخلوا مدينتهم عنوة من بابها، وطلبوا الأمان على أن يتراجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدّونه قَلّوا أو كثروا، وتركت لهم كنيستهم، وأمر عبادة ببناء مسجد جامع باللاذقية^(٢).

ولم يزل أبو عبيدة يتابع الفتوح في أقاصي الشّمال لتأمين الفتوح الإسلامية في بلاد الشّام حتّى بلغ الفرات، ثمّ عاد منه إلى فلسطين^(٣).

فتح بيت المقدس:

كانت أوّل وقعة للمسلمين مع الرّوم على أرض فلسطين بقيادة عمرو بن العاص على عهد أبي بكر الصّدّيق^(٤)، ولما ظهر المسلمون على دمشق وجه أبو عبيدة بن الجراح عمرو بن العاص ليقم بين الأردنّ وفلسطين ويبتعد عن المدائن والحصون، ويغير بخیله على الأطراف^(٥)، فعمل عمرو على قطع الإمدادات عن مدينة بيت المقدس وحبسها حتّى يضطرّ أهلها إلى الاستسلام، ولذا فقد سيّر قوّاته إلى مدن السّاحل وغيرها من البقاع الفلسطينيّة، وتمّ فتح رفح، وغزّة، وسبسطيّة، ونابلس، واللّدّ، وعمّاس، وبيت جبرين (لغة في جبريل)، وياقفا، ثمّ ضرب الحصار على بيت المقدس^(٦).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٢.

(٥) الأزدي: فتوح الشام، ص ٩٣.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٣.

ولمّا فتح أبو عبيدة قنّسرين ونواحيها قدم على عمرو وهو محاصر بيت المقدس^(١)، وبعث أبو عبيدة لأهل إيليا - بيت المقدس - يعرض عليهم الأمان على أنفسهم وأموالهم فتناقلوا وأبوا^(٢)، فنزل عليهم وحاصرهم حصاراً شديداً، وضيق عليهم من كلّ جانب، فلمّا أشدّ الأمر عليهم خرجوا للقاء المسلمين، ولكنهم انهزموا ودخلوا حصونهم^(٣).

ولمّا قام أبو عبيدة على حصار بيت المقدس بجيوش الشّام ورأى أهل المدينة أنّه غير مقلع عنهم ولا طاقة لهم به طلبوا مصالحتة على أن يكون الصّلح بيد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقبل أبو عبيدة ذلك، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه المجيء إلى الشّام لمصالحة أهل بيت المقدس^(٤).

تحرك عمر رضي الله عنه من المدينة على ناقة له، فلمّا قدم أرض الشّام أتى ببرذون فركبه، فلمّا هزه كرهه، وعاد لناقته، فعرضت له مخاضة فنزل عن ناقته، وخلع خفيّه فوضعهما على عاتقه، فتعجّب أبو عبيدة رضي الله عنه من صنيع عمر؟ وقال: "مَا يَسْرُئِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ"، فصكّ عمر رضي الله عنه في صدره، وقال له: "أَوْهَ لَوْ يَقُلْ ذَا غَيْرِكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالاً لَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ"^(٥)، ونزل عمر الجابية^(٦)، واجتمع بأمرائه على الشّام.

ولمّا علم بطريق المدينة بقدوم عمر رضي الله عنه إلى الشّام خرج إليه فصالحه على بيت المقدس والرّملة^(٧)، وذلك سنة ١٧هـ/٦٣٨م^(٨).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٣.

(٢) الأزدی: فتوح الشام، ص ٢١٩.

(٣) الأزدی: فتوح الشام، ص ٢٢١.

(٤) الأزدی: فتوح الشام، ص ٢٢٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٣.

(٥) ابن المبارك: الزهد: تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٠٧؛ أبو داود: الزهد، ص ٨٢، ح ٦٦، واستدركه الحاكم على الشيخين، وصححه على شرطهما، وأقره الذهبي. المستدرک، ج ١، ص ١٣٠، ح ٢٠٧.

وتبعهما الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ١، ص ١١٧، ١١٨.

(٦) الجابية: قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان، في شمال حوران. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩١.

(٧) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٠٤.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٣. وهناك روايات أخرى تؤرّخ الفتح بسنة ١٥ أو ١٦هـ. الطبري: تاريخ الأمم

والملوك، ج ٢، ص ٤٨ - ٤٥٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٣١٢.

ويشيع الأخباريون^(١) أن سكان بيت المقدس وبطريقهم النصراني لم يسلموا المدينة إلا بنص ديني يتضمن صفات عمر عليه السلام بصورة دقيقة، وأن كعب الأخبار الذي كان يهوديًا فأسلم كشف للخليفة عن بعض التنبؤات الإسرائيلية بفتحها له منذ خمسمائة سنة، ولا يخفى أن المكانة العظيمة للمدينة المقدسة عند أهل الكتاب والمسلمين قد سرحت بخيالات بعض الرواة، فأفرزت مثل هذه المبالغات والأساطير^(٢).

ومن ناحية أخرى يظهر لونا آخر من تزييف التاريخ بدافع من التملق للسلطة الحاكمة التي كتب تاريخ صدر الإسلام في أيامها^(٣)، حيث تزعم إحدى الروايات المكذوبة أن الفاروق استخلف عليا عليه السلام عند خروجه إلى الشام فقال له: "أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدوا كلبا، فقال: إني أبادر بجهاد العدو موت العباس، إنكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل"^(٤)، وعلق ابن عساكر عليها فقال: "مات العباس لست سنين خلت من إمارة عثمان، فانتقض والله بالناس الشر"^(٥)، وزاد المتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ/١٥٦٧م) بأن لها حكم الرفع^(٦).

وليس الأمر كما قالوا؛ لأن هذه الرواية من طريق سيف بن عمر التميمي الكذاب الذي أذاع رواياته وكتبه في العصر العباسي الأول، ووضع كثيرا من الأخبار في فضائل العباس مجاملة للسلطة الحاكمة^(٧).

ويدل التاريخ المسطور في العهدة العمرية التي صالح فيها الخليفة نصارى بيت المقدس، وأمتهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم على أنه ملحق بها وليس أصليا فيها؛ لأن التقويم الإسلامي بالهجرة النبوية لم يبدأ إلا في سنة ١٦هـ/٦٣٧م^(٨)، أو ما بعدها، فكيف ينص في العهدة على أنها كتبت "سنة خمس عشرة"^(٩).

(١) الواقدي: فتوح الشام، ج١، ص ٣٢٢، وما بعدها.

(٢) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٠٤ - ٢٠٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٤٤٩.

(٥) تاريخ دمشق، ج٢٦، ص ٣٧٢.

(٦) كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال، ج١٣، ص ٥١٧.

(٧) محمد عبد العال محمد حسن: سيف بن عمر التميمي ومروياته في ميزان النقد الموضوعي، ج١، ص ٤٧٧، ٤٧٨.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٢٨١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص ٣٢٢.

(٩) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٧٧.

❏ فتح قيسارية:

بدأ عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتح قيسارية^(١) سنة ١٣هـ/٦٣٤م، ولكنها استعصت عليه؛ لأنّ الحصار كان متقطعاً، فكان عمرو يقيم عليها ما أقام، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوّهم سار إليهم^(٢)، لذا كلّف عمر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان بفتحها سنة ١٥هـ/٦٣٦م، فوكل أخاه معاوية بمحاصرتها^(٣)، فسار إليها وحاصرها معاوية طويلاً، وزاحف أهلها مرّات عديدة، وصمّم على فتحها، واجتهد في القتال حتّى فتح الله عليه سنة ١٩هـ/٦٤٠م، بعدما حاصرها المسلمون نحواً من سبع سنين، وبعث معاوية بالفتح والأخماس إلى الخليفة عمر رضي الله عنه^(٤).

❏ فتح الجزيرة الفراتية:

كان فتح إقليم الجزيرة^(٥) ضرورة عسكريّة، وخطوة صائبة لتثبيت الفتوح الإسلاميّة في العراق والشّام، وإحكام السيطرة على القبائل العربيّة، وقطع صلاتها ببيزنطة، ووقف تجنيد العرب في الجيش البيزنطي^(٦).

وترجع فتوح الجزيرة الفراتيّة كلّها إلى عياض بن غنم الفهريّ رضي الله عنه، فإنّه لما توفي أبو عبيدة بن الجراح في طاعون عمواس سنة ١٨هـ/٦٣٩م، لم يلبث عمر رضي الله عنه أن ولّى عياض بن غنم على حمص وقنّسرين والجزيرة، فخرج إليها، فأتى الرّقة، فحاصرها وفتحها صلحاً، فكانت أولى مدن الجزيرة التي فتحها المسلمون، وواصل تقدّمه إلى الرّها ففتحها صلحاً بعد مقاومة استمرّت ستّة أيّام، وأمن أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم، وأقروا بالجزية والخراج، واشترط عليهم أن يصلحوا الجسور للمسلمين، وأن يرشدوا من ضلّ الطريق منهم، ثمّ تقدّم إلى حرّان فصالحه أهلها على صلح الرّها، وأرسل فرقة عسكريّة فتحت سميساط، ولم يلبث أهل المدن الأخرى مثل قرقيسياء وآمد وماردين أن

(١) قيسارية: مدينة فلسطينية تقع بين عكا ويافا على ساحل البحر المتوسط. ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٢١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٤.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٤٤٧.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٥ - ١٦٧. وتختلف روايات أهل الأخبار في تاريخ فتح مدينة قيسارية بين سنوات ١٥،

١٩، ٢٠هـ.

(٥) الجزيرة: الإقليم الذي يقع في شمال العراق بين نهري دجلة والفرات، ويطلق عليها الجزيرة الفراتية.

(٦) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

طلبوا الصلح بشروط الرّها، فأجابهم عياض، ثمّ واصل فتوحه في عام ١٩هـ/ ٦٤٠م، ففتح ميّافارقين، وكفرتوثا، ونصيبين، وأرزن^(١).
وقد أدّى فتح الجزيرة الفراتيّة إلى فصل بيزنطة عن القبائل العربيّة الموالية لها، وحرمانها من قوّتهم البشريّة، كما قضى على إمكان قيام تحالف بين البيزنطيّين والفرس ضد المسلمين، وحال دون قيام بيزنطة بإنقاذ الإمبراطوريّة الفارسيّة المتداعية^(٢).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٩٥ - ٢٠٠؛ النّويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ج ١، ص ١١١ - ١١٣؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٦٦.
(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

الفصل السادس

فتح مصر

لقد بدأت دعوة النبي ﷺ لقبط مصر إلى الإسلام عقب صلح الحديبية في أواخر السنة السادسة من الهجرة، وذلك عندما أرسل النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس^(١) عظيم القبط، يدعو به إلى الإسلام^(٢).

وعلى الرغم من عدم استجابة المقوقس للإسلام فإنه ردّ ردّا جميلا، وبعث للنبي ﷺ بعض الهدايا فقبلها منه^(٣).

وكان النبي ﷺ قد بشر أصحابه بفتح مصر فقال: "إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَيْرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا، فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا، أَوْ قَالَ: ذِمَّةً وَصَهْرًا"^(٤)، ولذا كان المسلمون موقنين بفتح مصر لهذه البشارة.

ويترجح من مجموع الروايات الواردة في بدء فتح مصر^(٥)، أنّ عمرو بن العاص هو الذي عرض فكرة الفتح على الخليفة عمر رضي الله عنه عندما أتى الجابية للمرة الثانية عام ١٨هـ/٦٣٩م، وأنّ عمرا لم يتحرك إلى مصر إلا بإذن من الخليفة^(٦).

(١) المقوقس: لم تكن كلمة "المقوقس" اسما لرجل؛ وإنما كانت لقباً أو اسماً لوظيفة، وكان اسمه "جورج"، وهو الذي تذكره المصادر العربية باسم جريج بن قرقب الرومي، وتورد المصادر العربية اسماً آخر للمقوقس هو "قيرس"، وهو الاسم الذي ينطقه اليونانيون سيروس Cyrus وهذا يدلّ على أنّ المقوقس الذي أرسل له النبي ﷺ الكتاب غير الذي فتح مصر في أيامه. أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ٨٢، ٨٣.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٠٧.

(٣) روى بريدة رضي الله عنه أنّ المقوقس أهدى إلى النبي ﷺ جاريّتين أختين، إحداهما مارية أمّ إبراهيم بن رسول الله ﷺ، والأخرى وهبها النبي ﷺ لحسان بن ثابت، وأهدى له بغلة فقبل رسول الله ﷺ ذلك. البزار: المسند (البحر الزخار)، تحقيق/ محفوظ الرحمن زين الله، وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨-٢٠٠٩م، ج ١، ص ٣٠٤، ح ٤٤٢٣، وقال الهيثمي: "رجال البزار رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج ٤، ص ١٥٢، ح ٦٧٥١.

(٤) رواه الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه بإسناد صحيح على شرط مسلم. المسند، ج ٣، ص ٤٠٩، ح ٢١٥٢، ورواه الإمام مسلم دون التصريح باسم مصر. صحيح مسلم، (كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر)، ج ٤، ص ١٩٧٠، ح ٢٥٤٣. وصح عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: "إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقَبِيطِ خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحْمًا"، وعلق الزهري بقوله: "فَالرَّحْمُ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ". الحاكم: المستدرک، ج ٢، ص ٦٠٣، ح ٤٠٣٢، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق/ محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٦٤-٦٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥١٢.

(٦) أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص ٢٤٩-٢٥٧.

عقد الفاروق عمر رضي الله عنه لعمر بن العاص على ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل كلهم من عك^(١)، وجعل على ميمنته عبد الله بن سعد بن أبي السرح^(٢)، فلما كان بجبل الحلال نفرت معه راشدة وقبائل من لخم^(٣).

سار عمرو إلى مصر مخترقا صحراء سيناء، ومتخذا الطريق الساحلي حتى وصل العريش يوم عيد النحر^(٤)، سنة ١٨هـ/ ١٢ ديسمبر ٦٣٩م^(٥)، فوجدها خالية من القوات البيزنطية، وتابع عمرو مسيره إلى مصر حتى وصل حصن الفرما^(٦)، فتحصن جند الروم خلف الأسوار، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا، وظلّوا يدافعونهم مدة شهر، ثم هزمهم المسلمون، واستولوا على عسكرهم^(٧)، وذلك في المحرم سنة ١٩هـ/ يناير ٦٤١م^(٨).

وكان المقوقس عندما علم بنزول المسلمين أرض مصر غادر الإسكندرية إلى حصن "بابلون" ليستعد لمواجهتهم^(٩)، ولم يعمل على التصدي لهم في الحصون الشرقية في سيناء؛ لعلمه بمقدرة المسلمين الفائقة على حرب الصحراء، وقربهم من مراكز إمدادهم في فلسطين والشام، وخوفه من ثورة المصريين على الرومان^(١٠).

تابع عمرو بن العاص توغله في أرض مصر بعد الفرما، حتى مرّ بالقواصر (القصاصين)^(١١)، وتقدّم دون مقاومة تذكر، فكان "لا يدافع إلا بالأمر الخفيف"، حتى بلغ بلبيس، فقاتلته حاميتها، ولكنه استطاع دخول المدينة بعد شهر من المدافعة^(١٢).

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٤، ٦٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٦.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٧؛ ابن يونس: تاريخ ابن يونس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٢٦٩.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٧. وبهذا يمكن الجمع بين الرواية التي تنصّ على تحرك عمرو بن العاص إلى مصر بأربعة آلاف، ورواية الثلاثة آلاف وخمسمائة.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٧.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٥؛ أحمد عادل كما: الفتح الإسلامي لمصر، ص ٢٥٩.

(٦) الفرما: مدينة مصرية قديمة على ساحل البحر المتوسط، بها حصن يعد من أقدم الرباطات المصرية بقرب الحدود الشرقية لمصر. ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٥؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص ٢٥٩ - ٢٦١.

(٧) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٥.

(٨) بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة/ محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م، ص ٥٦٢.

(٩) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٦، ٦٧.

(١٠) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

(١١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٧. وتقع القواصر على الطريق بين الفرما وبلبيس، وهي من مركز فافوس قبل بلبيس. أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص ٢٦٢.

(١٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٨.

تحرك عمرو من بلبيس متاخماً للصحراء، فمرّ بمدينة هليوبوليس -عين شمس- ومضى "لا يدافع إلا بالأمر الخفيف"، حتى أتى قرية أمّ دنين^(١)، فقاتلته حاميتها قتالاً شديداً أمام الأسوار، فاستعمل عمرو بن العاص دهاؤه الحربي، فقسّم جيشه إلى ثلاث فرق، حيث جعل كميناً للأعداء في الجبل الأحمر، وكميناً آخر على النيل قريباً من أمّ دنين، وقابل أعداءه ببقية الجيش (في العباسية تقريباً)، ولما نشب القتال انقضّ كمين الجبل الأحمر على الروم فاختلّ نظامهم، وانطلقوا إلى أمّ دنين فخرج عليهم الكمين الآخر، فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة، فحاقّت بهم الهزيمة، وفرت القلة الباقية إلى حصن بابليون الحصين^(٢).

كان حصن بابليون الذي لا تزال بقاياه بمصر القديمة يقع على الساحل الشرقي لنهر النيل على الطريق بين منف وعين شمس (هليوبوليس)، وكان موقع الحصن متميزاً؛ حيث يتوفّر له الماء من نهر النيل، ويتّصل من خلفه بالسفن، كما تقابله تحصينات أخرى في الجزيرة (الروضة) على شاطئ النيل المقابل^(٣)، وتمتدّ مدينة بابليون جنوب الحصن، بينما تنتشر حدائق الكروم في شماله، وإلى شرقه المزارع بينه وبين جبل المقطم^(٤).

تقدم عمرو بجيشه إلى حصن بابليون وأحكم عليه الحصار، وكان الروم يخرجون لقتال المسلمين، ثمّ يعودون إلى حصنهم، وذلك طوال سبعة أشهر^(٥)، وهذا يدلّ على أنّ المسلمين كانوا متفوّقين في المناوشات التي دارت أمام الحصن، ولو رجحت كفة الروم لأزاحوا المسلمين عن حصنهم^(٦).

(١) أمّ دنين: كانت تقع على شاطئ النيل، وأمّ دنين والمكس والمقسّم أسماء لقرية واحدة تقع حالياً في قلب مدينة القاهرة، وتحدّ اليوم من الغرب بميدان باب الحديد فشارع رمسيس فشارع عماد الدين، ومن الشرق بشارع الكنيسة المرقسية، وكان في هذا المكان الجامع الأثور الذي بناه الحاكم بأمر الله (الفاطمي)، وعرف بجامع المقسّم، ولا تدخل حديقة الأربكية في حدود قرية أمّ دنين. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، ج١، ص١٢٨؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بدون تاريخ، ج١، ص٨؛ بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٦٠ - ٢٦٣.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٧٣، ٧٤؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٦٨.

(٤) بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٧٢؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٦٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٨.

(٦) أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٧٦.

وأرسل المقوقس خلال الحصار رسله إلى عمرو بن العاص للمصالحة فخيرهم عمرو بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختر المقوقس الجزية^(١)، وكتب إلى هرقل يستأذنه في ذلك، فلم يقبل منه، بل حنق عليه ولامه لوماً شديداً واستدعاه إلى القسطنطينية، ثم نفاه^(٢).

وكان عمرو قد استمد الخليفة عندما أبطأ عليه الفتح، فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف، على كل ألف رجل يقوم مقام الألف، وهم: الزبير بن العوام، والمقداد ابن عمرو (ابن الأسود)، وعبادة بن الصّامت، ومسلمة بن مخلد^(٣)، وقيل الرابع خارجة ابن حذافة العدوي^(٤)، فلما أبطأ فتح حصن بابليون، وهب الزبير ﷺ نفسه لله ﷻ وعزم على تسلق الحصن وهو يرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام^(٥)، ثم صعد، فتبعته مجموعة من أصحابه، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه بالتكبير، فلما بلغ رأس الحصن وكبر هو ومن معه، أجابه المسلمون جميعاً^(٦)، فلما أحس الروم بالزبير ومن معه تملكهم الخوف، ففتحوا الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم^(٧)، واستولى على الحصن^(٨)، على أن يخرج جند الروم بما يلزمهم من القوت لبضعة أيام، ويتركوا آلات الحرب والذخائر^(٩)، وفرض على كل رجل من القبط دينارين^(١٠)، وذلك خلال سنة ٢٠هـ / ٦٤١م.

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٧٤ - ٨٠.

(٢) لا تذكر المصادر العربية خبر استدعاء هرقل للمقوقس ونفيه له، وإنما تذكر تقبيحه لراييه وتعجزه، وأمره له باستنهاض الروم في مقاتلة المسلمين. محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٠٥.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٧٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج ٢، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

(٤) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج ١، ص ١٤٦؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٢، ص ٤١٨. وذكر ابن أبي عاصم أنه خارجة بن حذافة السهمي أخو عبد الله بن حذافة؛ لكنه لم يتابع عليه. أبو نعيم: معرفة الصحابة، ج ٢، ص ٩٦٧.

(٥) عرف بذلك لحمام ابن نصر السراج الذي كان بالسوق. السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ج ١، ص ١٢٨؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص ٢٧٦.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٧٢، ٧٣.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥١٤؛ بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٢٩٩.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٥.

(٩) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٢٩٩.

(١٠) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٧٣، ٨٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٨.

المسير إلى الإسكندرية:

أقام المسلمون بحصن بابليون عدّة أشهر حتّى استجمّ الجند وجاءهم الإذن من عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالزحف لفتح الإسكندرية، فترك عمرو مسلحة قويّة في الحصن بقيادة خارجة بن حذافة العدوي^(١)، وتحركّ بجنوده على الضفة اليسرى للنيل حيث محافظة البحيرة اليوم، حتّى لا تشكل التّرع الكثيرة المنتشرة في جنوبي الدلتا عائقاً يؤخّر زحفه^(٢)، وقد ساعده بعض الأقباط في إصلاح الطّرق وإقامة الجسور، كما اصطحب معه عدداً من زعمائهم ليكونوا أداة اتصال بينه وبين من يلقاها في طريقه^(٣)، وهذا يعني أنّ قبط مصر كانوا على عدااء مع البيزنطيين المحتلين، واستوعبوا أهميّة الوجود الإسلامي الذي يمكنهم من طردهم^(٤).

وتقدّم عمرو إلى الشمال فلم يلق أحدا حتّى بلغ ترنوط^(٥)، فلقى بها طائفة من الرّوم فقاتلوه قتالا خفيفا فانهزموا، وولّوا الأدبار^(٦)، فأرسل قائد مقدمته شريك بن سميّ الغطيفي المرادي رضي الله عنه في آثارهم فرصدوه، وأحاطوا به، وتكاثروا عليه، فلجأ إلى كوم، واعتصم به، وأرسل إلى عمرو يستنجد به، فلما نهض إليه انصرفت عنه الرّوم، ونسب الكوم إلى شريك، وعرف به، وواصل عمرو زحفه نحو الإسكندرية فالتقاه الرّوم عند سلطيس -جنوبي دمنهور- فاقتتل الفريقان قتالا شديدا، فانهزم الرّوم، وولّوا الأدبار^(٧).

لم يفصل المسلمين عن الإسكندرية من حصون الرّوم إلا الكريون^(٨)، ولذا تجمع فيه الرّوم، وحشدوا كثيرا من القبط وأجبروهم على المقاتلة معهم بجانب الموالين لهم^(٩).

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٣.

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣١٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٨٤.

(٤) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣١٠.

(٥) ترنوط: قرية على النيل بين مصر والإسكندرية. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧. وكانت قرية ترنوط تبعد عن

الأهرام خمسة بُرد (نحو ١١١ كيلو متر). السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٥.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٨٤.

(٧) المصدر السابق، ص ٨٥.

(٨) الكريون: موضع بمصر قرب الإسكندرية، كان يقع على نهر أو خليج يأخذ من النيل إلى الإسكندرية، وبين الإسكندرية والكريون أربعة وعشرون ميلا، (نحو ٤٥ كيلو متر). ابن خرداذبة: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، (طبعة ليدن،

١٨٨٩م)، ص ٨٤. ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٨٤.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٣؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص ٣١٢.

وعلم عمروٌ باستعدادات الروم، فأعاد تعبئة قواته، فجعل ولده عبد الله بن عمرو على المقدمة، وأعطى لواءه لمولاه وردان، وتقدم لمصادمة الروم، فالتقى الجمعان في قتال شديد استمر بضعة عشر يوماً، وأصيب عبد الله بن عمرو بجراحات كثيرة، وصلى عمرو صلاة الخوف، ثم فتح الله للمسلمين، وقتلوا من أعدائهم مقتلة عظيمة، واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية^(١).

فتح الإسكندرية:

كانت الإسكندرية وقتئذٍ عاصمة الديار المصرية، وثانية حواضر الإمبراطورية بعد القسطنطينية، وأول مدينة تجارية في العالم، وقد أدرك البيزنطيون أن سقوطها في أيدي المسلمين من شأنه أن يؤدي إلى زوال سلطانهم من مصر، حتى عبر الإمبراطور البيزنطي عن ذلك بقوله: "لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلك الروم وانقطع ملكها"^(٢)، ولذا أسرع هرقل بإرسال قوة عسكرية للدفاع عنها، وزعم بعض الرواة أنه تجهز ليخرج إلى الإسكندرية بنفسه ليباشر قتال المسلمين بها، فلما فرغ من جهازه هلك، وكفى الله المسلمين مؤنته، واضطربت أمور الدولة البيزنطية بعد موت هرقل بسبب الصراعات والفتن التي ضربت البلاد عدة أشهر^(٣).

وكانت مدينة الإسكندرية من الحصانة بمكان، حيث يحيط بها خندقٌ يملأ بماء البحر، وخلفه سوران محكمان، فيهما أبواب حديدية من ثلاث طبقات، ولها عدة أبراج، عليها مجانيق، ويحميها البحر من الناحية الشمالية، وهو تحت سيطرة الأسطول البيزنطي الذي كان يمدّها بالموء والرجال والعتاد، وتحميها مريوط من الجنوب، ومن المتعذر اجتيازها، كما تلفها ترعة الثعبان من الغرب، وبذلك لم يكن للمسلمين طريق إليها إلا من ناحية الشرق، وهو الطريق الذي يصلها بكريون، في حين بلغ عدد جنود حاميتها بعد الإمدادات التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي خمسين ألف جندي^(٤).

وعندما ضرب عمرو الحصار على المدينة الحصينة طلب أحد عظماء الروم مقابلة رجل من المسلمين ليكلّمه، فخرج إليه عمرو بنفسه، لكن يبدو أن الرومي كان

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٨٥، ٨٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٧، ٨٨.

(٣) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣١٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١١.

مطمئناً لحصانة المدينة وكثرة المدافعين عنها، وأنه يريد إضعاف معنويات المسلمين، ولذا قال عمرو رضي الله عنه لأصحابه: "مَا كَلَّمْتُ رَجُلًا قَطُّ أَمَرَ مِنْهُ"^(١).

وقد طال الحصار على الإسكندرية عدة أشهر، واستمات الروم في مقاتلة المسلمين أمام أسوارها، وحدث أن بارز رجل من الروم مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري فصرعه، وألقاه عن فرسه، وأهوى إليه ليقبله لولا أن حماه رجل من أصحابه، ففرحت بذلك الروم لكان مسلمة، وشق ذلك على المسلمين، وغضب عمرو بن العاص لذلك^(٢)، وخاف من مثل جنوده أو شعورهم بالعجز أمام عدوهم، فقرّر أن يبت كتابه تجوس خلال بلاد الدلتا وقرى الصعيد، غير أن طول حصار الإسكندرية آثار حفيظة الخليفة عمر، وأثار في نفسه الهواجس والظنون حول استعداد جنوده للتضحية والمبادأة، ورأى أن ذلك ما كان إلا لما أحدثوا، وكتب إلى عمرو يلومه على تعلّقه وجنده بالدنيا، وتأخّرهم في فتح مصر طيلة سنتين، ويأمره بحضّ الناس على القتال، وترغيبهم في الصبر، وإخلاص النية، ومصادمة العدو عند الزوال يوم الجمعة، مع العجّ إلى الله تعالى بالدعاء في سؤال النصر، وتقديم الزبير بن العوام ورفاقه الأشداء أمام الناس.

وفي رواية أن عمرا استشار مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري عندما أبطأ عليه فتح الإسكندرية فأشار عليه بعقد الرأية لعبادة بن الصّامت الأنصاري، وتوليته قتال الروم، ولا مانع من تقديم الزبير وأصحابه أمام الجيش تحت راية عبادة بن الصّامت، وعلى أي فقد تمكّن الجيش الإسلامي في هذه الخرجة من اقتحام حصون المدينة وفتحها^(٣)، وعقدت معاهدة الإسكندرية على الشروط الآتية^(٤):

- أن تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهراً.
- أن يدفع الجزية كلّ من دخل في العقد.
- أن يبقى المسلمون في مواضعهم خلال مدة الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم، ولا يسعوا لقتال الإسكندرية، وأن يكفّ الروم عن القتال.

(١) ابن حبان: الصحيح، جـ ٤، ص ٥٢٢، ٥٢٣. وحسن الألباني والأرنؤوط إسناده، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، وفيه

محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ٢١٨.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٨٥، ٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٩١، ٩٢.

(٤) بئتر: فتح العرب لمصر، ص ٣٤٣.

- أن ترحل مسلحة الإسكندرية في البحر، يحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعاً، على أن من أراد الرّحيل من جانب البرّ فله أن يفعل، على أن يدفع كل شهر جزءاً معلوماً ما بقي في أرض مصر في رحلته.
- أن لا يعود جيش من الرّوم إلى مصر، أو يسعى لردّها.
- أن لا يأخذ المسلمون كنائس النصارى، ولا يتدخلوا في أمورهم.
- أن يسمح لليهود بالإقامة في الإسكندرية.
- أن يبعث الرّوم رهائن من قبلهم، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند، ضماناً لإتفاذ العقد.

وكان فتح الإسكندرية في ٢٨ ذي القعدة ٢٠هـ/ ٨ نوفمبر ٦٤١م^(١)، ويزعم سيف التميمي أن فتح مصر والإسكندرية تمّ في سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م^(٢)، ورجّح ابن الأثير قوله؛ لقصة بعث عمرو الميرة من مصر عام الرّمادة^(٣)، وهو معذور فيما رجّحه^(٤)؛ لأنّ "ذكر عمرو بن العاص في عام الرّمادة مُشكّل، فإنّ مصر لم تكن فتحت في سنة ثمانى عشرة، فإنّما أن يكون عام الرّمادة بعد سنة ثمانى عشرة، أو يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرّمادة وهم"^(٥)، ويذكر البلاذري أنّ عمر بن الخطّاب كتب إلى عمرو بن العاص في سنة إحدى وعشرين "يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد ويأمره أن يحمل ما يفيض من الطّعام في الخراج إلى المدينة في البحر، فكان ذلك يحمل، ويحمل معه الزيت"^(٦)، وهذا هو الأقرب للصّواب.

وقد استبقى عمرو ؓ أهل الإسكندرية فلم يقتل ولم يسب وجعلهم أهل ذمّة، وفرض عليهم الجزية دينارين دينارين، كأهل بابلون^(٧)، ثمّ نشر كتائبه في ربوع البلاد، لتفتح بقيّة الحصون والجيوب، وتطرد الحاميات البيزنطية^(٨).

(١) بتل: فتح العرب لمصر، ص ٥٦٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥١٢.

(٣) الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٨٣؛ وقصة إرسال الميرة من مصر مروية بسند جيد. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٠٣. واختار النويري فتح مصر قبل عام الرّمادة سنة ١٨هـ، وجزم بأنّه التاريخ الصحيح. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ١٩، ص ٢٨٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١١١.

(٥) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٠٣.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٩.

(٧) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٦، ٩٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٤.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

❏ بناء مدينة الفسطاط:

أراد عمرو بن العاص عقب فتح الإسكندرية أن ينزل بجنده في مساكنها التي أخلاها الروم، وعرض الأمر على الخليفة عمر رضي الله عنه فرفض؛ لأنه لا يقبل أن ينزل المسلمون منزلاً يفصل بينه وبينهم ماء، ولذا تحول عمرو رضي الله عنه إلى الفسطاط. ويذكر الرواة في سبب تسمية مدينة مصر بالفسطاط أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ، فأمر بتركه كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الإسكندرية نزلوا حول الفسطاط، فبنى فيها عمرو بن العاص مسجده الشهير بمصر القديمة^(١)، واختط داره عند باب المسجد^(٢)، واختط الناس دورهم حوله^(٣).

❏ فتح برقة وطرابلس:

بعد أن اطمأن عمرو بن العاص على استقرار الأوضاع في مصر، عمل على تأمين حدودها الغربية، فخرج من الإسكندرية في أواخر عام ٢٢هـ/٦٤٣م، وتوجه نحو برقة التابعة للإمبراطورية البيزنطية، وتسكنها قبيلة لواتة البربرية، فلم يصادف مقاومة تذكر، واستسلمت المدينة، ورضي أهلها بدفع جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار سنوياً، وأرسل عمرو عقبة بن نافع الفهري حتى بلغ زويلة، وأضحى ما بين برقة إلى زويلة خاضعاً للمسلمين^(٤).

وسار عمرو بن العاص من برقة إلى إقليم طرابلس سنة ٢٣هـ/٦٤٤م، فاستولى على قاعدته طرابلس بعد قتال عنيف مع حامية المدينة^(٥).

واستأذن عمرو الخليفة في الزحف إلى تونس، وما وراءها من شمالي إفريقية، فلم يأذن له، وخشي من تفرق المسلمين في بلاد واسعة، ولما تثبت أقدامهم فيها^(٦)،

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٧؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٦؛ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٤.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٩؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٢٢.

وكتب الفاروق إلى عمرو: "لَوْ فَتَحْتَ إِفْرِيقِيَّةَ مَا قَامَتْ بِوَالٍ مُّقْتَصِدٍ لَا جُنْدَ مَعَهُ، ثُمَّ لَا أَمَنْ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَإِنْ شَحَنْتَهَا بِالرَّجَالِ كَلِفَتْ حَمْلَ مَالِ مِصْرٍ أَوْ عَامَتِهِ إِلَيْهَا، لَا أَدْخِلُهَا جُنْدًا لِلْمُسْلِمِينَ أَبَدًا، وَسَيَرَى الْوَالِي بَعْدِي رَأْيَهُ"^(١).

وإلى هذا الحد توقفت فتوحات الرجل العظيم عمرو بن العاص رضي الله عنه، والذي يقف في الصف الأول بين بناء الدولة الإسلامية، فهو الذي انتزع فلسطين ومصر وليبيا من يد المحتلين البيزنطيين، وأضاف بذلك إلى دولة الإسلام أكثر من ثلث ما فتحته جيوشها إلى ذلك الحين^(٢).

❏ تأمين حدود مصر الجنوبية:

تطلع عمرو بن العاص بعد عودته من الغرب إلى الجنوب لإخضاع بلاد النوبة^(٣)، وتأمين حدود مصر الجنوبية، فأرسل إليها حملة بقيادة عقبة بن نافع، فقاتله أهلها قتالا شديداً، فرجع عقبة على أثره، ولم يعقد صلحاً ولا هدنة، والمعروف أن أهل النوبة اشتبهوا برمي النبل، فلا يخطئون، وكانوا يتحرّون الأعين فيرمونها فيفقدونها، فسمّاهم المسلمون رماة الحديق، وظلّ المسلمون يناوشون النوبيين من وراء الحدود^(٤).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج ٦، ص ١٣٨.

(٢) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٤.

(٣) النوبة: كانت تطلق على الأجزاء الممتدة على نهر النيل بين مدينتي أسوان المصرية والخرطوم السودانية. مصطفى محمد سعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م، ص ١١٦، ١١٧.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج ٥، ص ٦٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٠؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٢٢.

الفصل السابع

سياسة الفاروق مع ولاته

يدور الحديث في هذا الجانب عن معايير عمر رضي الله عنه في اختيار ولاته وعزلهم، ومراقبة إدارتهم لولاياتهم، وسياستهم مع رعيّتهم، وسلوكياتهم في حياتهم الخاصة.

❏ معايير عمر في اختيار ولاته:

سار الفاروق رضي الله عنه على المنهج النبوي الشريف في اختيار الولاية، فكان لا يولّي إلا صفوة الرعيّة من الأكفاء والأمناء المؤهلين للقيام بأعباء الولايات على أتم وجه وأعلى مستوى^(١)، ومن أبرز تلك المعايير:

(١) أن يكون صحابيا ولم يقع في الردّة:

حرص عمر رضي الله عنه على اختيار ولاته من الصحابة، وإنّ المتتبع لأخبار ولاته على البلدان يتّضح لديه أنّهم كانوا من صحابة النبي صلى الله عليه وآله إلا قليلا^(٢).

وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يشرك من سبقت لهم الردّة في أعمال الجهاد أصلا، فلمّا كان عهد عمر رضي الله عنه ندبهم للجهاد، ولكنّه لم يؤمّر أحدا منهم إلا على النّفر، وما دون ذلك^(٣)، وأمر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن لا يؤمّر أحدا من رؤساء الردّة على مائة من الجند^(٤)، ومع ذلك فقد كان عمر رضي الله عنه يجلّهم ويأمر قادته باستشارتهم والسّماع لهم^(٥).

(٢) أن لا يكون الوالي من عشيرة عمر رضي الله عنه:

لم يعرف عن عمر رضي الله عنه أنّه استعمل أحداً من بني عديّ إلا النّعمان بن عديّ بن نضلة على ميسان، بل ثبت أنّه كان يجنّب قرابته الولاية والخلافة من بعده، وأوصى من بعده من الخلفاء بعدم تولية قراباتهم وحملهم على رقاب النّاس^(٦)، فلمّا طعن وطلب منه أن يوصي ويستخلف قال: "ما أجد أحداً أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النّفر أو الرّهط الذين

(١) علي محمد محمد الصلابي: عمر بن الخطاب، ص ٣٩١.

(٢) عبد السلام آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، ج ٢، ص ٦٢١.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٦٨.

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢١.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، (الطبقة الرابعة - متمم الصحابة)، ص ٧٥٦؛ حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر

الخلفاء الراشدين، ص ١٣٢، ١٣٣.

(٦) عبد السلام آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، ج ٢، ص ٦٢٣، ٦٢٤.

توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمي علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: "ليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء" (١).

(٣) القوة والأمانة والخبرة السياسية:

كان عمر رضي الله عنه يبحث عن أهل الكفاءة بحمل أعباء الولايات ممن تجتمع فيهم الخبرة والحكمة السياسية استناداً بما فعله النبي ﷺ مع أبي ذر رضي الله عنه عندما طلب من النبي ﷺ أن يستعمله فضرب على منكبه، ثم قال: "إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا" (٢).

ولهذا عزل عمر رضي الله عنه عمار بن ياسر رضي الله عنه عن ولاية الكوفة بعد أن سأل عنه هل هو مجزئ في ولايته، فقال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: "وَاللَّهِ مَا هُوَ بِمُجْزِئٍ وَلَا كَافٍ، وَلَا عَالِمٌ بِالسِّيَاسَةِ"، فعزله وولى المغيرة بن شعبه رضي الله عنه (٣).

وعندما عزل شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه عن ولاية الأردن ظنَّ أن الخليفة عمر رضي الله عنه عزله عن سخطه من عجز أو خيانة، فقال له: "لا، وَلَكِنَّا رَأَيْنَا مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْكَ فَتَحَرَّجْنَا مِنَ اللَّهِ أَنْ نَقْرَكَ وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْكَ"، وعذره على المنبر أمام الناس (٤).

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يستعمل رجالاً كعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبه ويدع من هم أفضل منهم من أكابر الصحابة مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ونظرائهم، لقوة أولئك على العمل والبصر به، إضافة إلى إشرافه عليهم، وهيبتهم له (٥).

وكان عمر رضي الله عنه لا يعدل بالأمانة وتوسيد الأمر إلى أهله شيئاً، فعندما قصد الشام سنة الوباء قال: "إِنْ أَدْرَكَنِي أَجْلِي، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ حَيٌّ، اسْتَخْلَفْتُهُ، فَإِنْ سَأَلَنِي اللَّهُ لَمْ اسْتَخْلَفْتُهُ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ قُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَكَ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَمِينًا، وَأَمِينِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ" (٦).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٢) مسلم: الصحيح، (كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة)، ج٣، ص١٤٥٧، ح١٨٢٥.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، ج٦، ص٢٠٣، والأثر صحيح.

(٤) المصدر السابق، ج٦، ص١٨٩، والأثر حسن.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢٨٢، ٢٨٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٣٢٣.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢٦٣، ح١٠٨، وحسنه محققو المسند لغيره.

(٤) الرَّحْمَةُ وَالشَّفَقَةُ:

وهي خصلة مهمة وأساسية للوالي الذي جمع صفات الصّلاح والقدرة والحكمة السياسيّة إذ بها يُحسن التّعامل مع الرّعيّة ويقيم العدل فيهم ويحبّهم ويحبّونه ويقبلون إليه ويأنسون به ويرفعون إليه حوائجهم من غير رهبة ووجل، وقد قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١)، ولهذا كان عمر رضي الله عنه لا يقبل أهل الجفاء والغلظة بين ولاته، ولمّا اختار رجلاً من بني أسد ليستعمله على عمل ودخل الأسديّ ليسلم عليه أتى عمر ببعض ولده، فقبله، فتعجب الأسديّ من صنيعه وقال: "أَتَقْبَلُ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَوَاللَّهِ مَا قَبَلْتُ وَلَدًا لِي قَطُّ، فقال عمر رضي الله عنه: فَأَنْتَ وَاللَّهِ بِالنَّاسِ أَقْلُ رَحْمَةً، لَا تَعْمَلْ لِي عَمَلًا أَبَدًا، فَرَدَّ عَهْدَهُ"^(٢).

وحدث أن استعمل عمر رضي الله عنه رجلاً على جيش ليغزو بلاد الجبل التابعة للفرس، فانتهوا إلى نهر ليس عليه جسر، فكلف الأمير رجلاً من أصحابه بنزول الماء في يوم شديد البرد للبحث عن مخاضة يجوز فيها الجيش، فاعتذر الرّجل بأنّه يخاف الموت من شدة برد الماء، ولكنّ الأمير أكرهه على النّزول، فدخل الماء وهو يقول: يا عمراه يا عمراه، ولم يلبث أن هلك، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه وهو في سوق المدينة، فقال: "يَا لَبَيْكَاهُ يَا لَبَيْكَاهُ"، وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه، وقال له: "لَوْلَا أَنْ تَكُونَ سُنَّةً لَأَقْدَتُ مِنْكَ، لَا تَعْمَلْ لِي عَلَى عَمَلٍ أَبَدًا"^(٣).

وإذا كانت هذه الأسس هي أهم الصفات التي راعاها عمر رضي الله عنه في ولاته، فقد كان يرى في بعض صحابة النّبي ﷺ نماذج مثاليّة للولاء بما توافر فيهم من صفات تؤهلهم لحمل أعباء الولايات والقيام بها^(٤)، وقد صرح يوماً لجلسائه بأسماء بعضهم فقال

(١) سورة آل عمران: من الآية ١٥٩.

(٢) هناد بن السري: الزهد، تحقيق/ عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، جـ ٢، ص ٦١٩، والأثر صحيح. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ٦٣٠.

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ١٩؛ ابن عبد الهادي: محض الصّواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق/ عبد العزيز محمد عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م، جـ ٢، ص ٥٢١، والأثر صحيح.

(٤) عبد السلام آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ٢، ص ٦٣٤.

لأصحابه: "تَمَنُّوا، فقال بعضهم: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا أَنْفَقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَصَدَّقُ، وقال رجل: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ زَبْرَجْدًا وَجَوْهَرًا فَأَنْفَقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَصَدَّقُ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: تَمَنُّوا، فَقَالُوا: مَا نَذَرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فقال عمر: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ رَجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَلَامِ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ، وَحَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ^(١).

وهؤلاء الذين ذكر عمر ؓ من خيرة صحابة النبي ﷺ ومن السابقين إلى الإسلام، وممن اتصفوا بالورع والتقوى، والزهد وسعة العلم، والفقہ في الدين، والشجاعة، وغيرها من الصفات الحميدة، ولذلك كان ولاية عمر ؓ مثلاً عالياً في التقوى والصلاح والزهد والورع وحسن القيام بأعباء الولاية والإخلاص لله في ذلك، وفوق كل ذلك ما تميّزوا به من شرف صحبتهم لرسول الله ﷺ^(٢).

❏ معايير عمر ؓ في عزل ولاته:

لم يكن عمر ؓ بالخليفة المستضعف الذي يسكت على تجاوزات ولاته وتقصيرهم في عملهم، بل كان يقف بالمرصاد لمتابعة أعمالهم، فيثبت ذوي الكفاءة للإمارة ما قبلتهم الرعية، ولا يتوانى في محاسبة المقصرين في تنفيذ السياسة التي وضعها لهم، ويمكن من خلال العرض الآتي معرفة الأسباب التي كان عمر ؓ يعزل ولاته من أجلها:

(١) حماية عقيدة المسلمين:

لقد بدأ عمر ؓ خلافته بعزل خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ؓ من ولايتيهما على الشام والعراق؛ لأنه كان يخشى من افتتان الناس بهذين القائدين الذين لم يهزما في جاهلية ولا في إسلام، وحتى لا يظنّ بعض الناس أنّ النصر على الأعداء مقترنٌ بهما، فيقلّ اعتمادهم على الله وتوكلهم عليه واستنزاهم نصره، ولذا قال عمر ؓ: "لَأَعَزِّلَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَالْمُثَنَّى مِثْلَ بَنِي شَيْبَانَ؛ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا كَانَ يَنْصُرُ عِبَادَهُ، وَلَيْسَ إِيَّاهُمَا كَانَ يَنْصُرُ"^(٣).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٤١٣، واستدركه الحاكم على الصحيحين، وصححه الذهبي. المستدرک، جـ ٣، ص ٢٥٢، ح ٥٠٠٥. والأثر حسن الإسناد.

(٢) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ٦٣٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٨٤، والأثر يرتقي لدرجة الحسن لغيره. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ٢، ص ٧٣٢.

وعندما أتته البشارة بفتح الله ﷻ على أبي عبيدة ؓ ونصر المسلمين، وهزيمة الروم، اشتد فرحه وقال: "اللَّهُ أَكْبَرُ، رَبِّ قَاتِلِ لَوْ كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ" (١)، وعندما بلغته هزيمة الجسر واستشهاد أبي عبيد الثقفي وتراجع المثنى ببقية الجيش اشتد غمه (٢).

(٢) شكوى الرعية من الوالي:

بالرغم من حرص عمر ؓ على تولية ذوي الكفاءة فإنه كان يعزلهم لشكوى الرعية، ولو كانت الشكوى ظاهرة الكذب، قطعاً للفتنة التي يمكن أن تؤدي إلى شق عصا الطاعة (٣)، وكان يقول: "هَانَ شَيْءٌ أَصْلَحَ بِهِ قَوْمًا، أَنْ أَبْدَلَهُمْ أَمِيرًا مَكَانَ أَمِيرٍ" (٤).

وقد ثبت أن أهل الكوفة شكوا سعد بن أبي وقاص ؓ حتى زعموا أنه لا يحسن الصلاة، فعزله عمر ؓ، وأرسل إليه بمزاعم أهل الكوفة، فقال سعد: "أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا أَخْرَمْتُ عَنْهَا، أَصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ، فَأَرْكُضُ فِي الْأُولِيِّينَ، وَأُخَفُّ فِي الْأُخْرِيِّينَ"، فصدقه عمر ؓ، وأرسل معه رجلاً إلى الكوفة، فلم يدع مسجداً إلا سأل عنه، فوجداهم يُثْنُونَ عليه معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبيس، فقام رجلٌ منهم يقال له أسامة بن قتادة فقال: "أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا، فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ"، فقال سعد: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسَمْعَةً، فَأُطْلُ عُمُرَهُ، وَأُطْلُ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ"، فأجاب الله دعوة سعد، وبقي هذا الكاذب حتى سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن، ويقول لمن يلومه: "شَيْخٌ كَبِيرٌ مَقْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ" (٥).

وقد أشار عمر ؓ إلى جدارة سعد بن أبي وقاص ؓ بإمرة المؤمنين -ناهيك عن إمرة الكوفيين- فقال عند وفاته: "إِنْ أَصَابَتِ الْإِمْرَةَ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلَيْسَتْ عَنْهُ بِهٍ أَيُّكُمْ مَا أَمَرَ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ، وَلَا خِيَانَةٍ" (٦).

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٨، ح ٣٣٨٤٠؛ والأثر صحيح.

(٢) البعقوبي: التاريخ، جـ ٢، ص ١٤٢.

(٣) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ٢، ص ٦٣٧.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٨٤، والأثر عن الحسن البصري الذي لم يدرك عمر، وهو ضعيف لانتقاعه.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب)، جـ ١، ص ٢٦٢، ح ٧٢٢؛ وروى مسلم

الجزء الأول منه. الصحيح، (كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر)، جـ ١، ص ٣٣٤، ح ٤٥٣.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان)، جـ ٣، ص ١٣٥٣، ح ٣٤٩٧.

(٣) عدم امتثال الوالي لأوامر الخليفة:

كان عمر رضي الله عنه يسارع إلى عزل من يخالف أوامره، فقد عزل خالد بن الوليد لهذا السبب، وقال وهو يخطب بالجابية: "إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد، إني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطى ذا البأس، وذا الشرف، وذا اللسان، فنزعته وأمّرت أبا عبيدة، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة: والله ما أعذرت يا عمر ابن الخطاب، لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ، وغمدت سيفاً سلّه رسول الله ﷺ، ووضعت لواءً نصبه رسول الله ﷺ، ولقد قطعت الرحم، وحسدت ابن العم، فقال عمر رضي الله عنه: "إنك قريب القرابة، حديث السنّ، مغضب من ابن عمك" ^(١).

فتبين من هذه الرواية أنّ مخالفة خالد بن الوليد رضي الله عنه لأمر الفاروق في شأن قسمة المال كانت من بين أسباب عزله ^(٢).

ويرى الصادق عرجون أنّ عزل خالد الأول كان عن قيادة الجيوش عامّة، وأمّا الثّاني فكان عن المشاركة في القتال مطلقاً وهو الذي كان عند ما قدم عمر الجابية ^(٣).

(٤) عزل الوالي الذي يستهزئ بأفراد رعيته:

كان عمر رضي الله عنه قد استعمل رجلاً من الأنصار فنزل بعظيم أهل الحيرة عبد المسيح ابن بقلّة، فأمال عليه بالطعام والشراب ما دعا به، ولكنه أكثر من الهزل، فدعا الرجل فمسح بلحيته، فركب عبد المسيح إلى عمر رضي الله عنه فأخبره أنّه خدم كسرى وقيصر ولم يُصب بسوء كما أهيّن في ملك أمير المؤمنين، وقصّ عليه خبر عامله، فأرسل إليه عمر رضي الله عنه فقال: "أمال عليك الطعام والشراب ما دعوت به، ثمّ مسح بلحيته؟ والله لو لا أن تكون سنة ما تركت في لحيّك طاقةً إلا نتفتها، ولكن اذهب فوالله لا تلي عملاً أبداً" ^(٤).

(٥) عزل الوالي الذي يرتكب الكبائر:

لمّا كان الوالي نائباً عن الخليفة في تنفيذ شرع الله ﷻ على الرعيّة فإن ارتكابه لما يوجب عليه الحدّ يؤدي إلى سقوط مكانته بين الرعيّة واحتقارهم له، ولذا كان عمر

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٥، ص ٢٤٦، ح ١٥٩٠٥، وجود ابن كثير إسناده. مسند الفاروق، جـ ٢، ص ٤٧٧، ٤٧٨.

(٢) عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ٢، ص ٦٣٨.

(٣) محمد الصادق إبراهيم عرجون: خالد بن الوليد، ص ٢٨٤.

(٤) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ١٩، والأثر صحيح. علي محمد محمد الصلابي: عمر بن الخطاب، ص ٣٩١.

ﷺ يسارع إلى عزل الوالي الذي يتهم بفعل الكبائر، لصيانة مقام الوالي، ويقيم عليه الحدّ مع العزل إذا ثبت عليه ارتكاب الفعل.

فروى أن عمر ﷺ عزل النعمان بن عدي بن نضلة العدويّ عن ميسان عندما تغنى بأبيات فيها مدحٌ للخمر، ثمّ اعتذر لعمر ﷺ، وبين له أنّه ما أراد مدح الخمر، وإنّما أراد مجرد التّغني بالشّعر، فقال عمر: "إنّي لأظنّك صادقاً، ولكن لا تعمل لي عملاً"^(١).

وعزل عمر ﷺ قدامة بن مظعون الجمحيّ عن البحرين بعد أن شهد عليه الجارود العبديّ وأبو هريرة بأنّه شرب الخمر، فحدّه عمر ﷺ وعزله^(٢).

ولما شهد أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد بالزّنا على المغيرة بن شعبة وهو على ولاية البصرة، ونكّل زياد بن أبي سفيان عن الشّهادة وقال: "رأيت مجلساً قبيحاً وانبهاراً"، جلد عمر ﷺ أبا بكرة ونافعاً وشبلاً حدّ القذف^(٣)، وعزل المغيرة عن البصرة ولم يعده إلى ولايتها^(٤).

(٦) عزل الوالي إذا اعتذر عن الولاية لعذر شرعي:

ولّى عمر ﷺ النعمان بن مقرّن خراج كسرك، فكتب إليه: "يا أمير المؤمنين، إنّ مثلي ومثل كسرك كمثّل رجل شابّ عند مومسة تلوّن له وتعطر، وإنّي أنشدك بالله لما عزلتني عن كسرك، وبعثتني في جيش من جيوش المسلمين"، فعزله عمر، وكتب إليه: "سر إلى النّاس بنهاوند، فأنت عليهم، فسار إليهم، فالتقوا، فكان ﷺ أوّل قتيل"^(٥).

وأما الذين يعتذرون عن الولاية للهروب من أعبائها وتبعاتها فلم يقبل منهم عمر، فقد دعا سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي ليستعمله، فقال: "أو تقيلني يا أمير المؤمنين؟" فرفض عمر، وقال: "والله لا أدعك، قلدتموها في عنقي وتركوني"^(٦).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ٢، ص ٣٦٦؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ١٠، ص ٤٧٩، ٤٨٠. بدون إسناد.

(٢) النسائي: السنن الكبرى، (كتاب الحدّ في الخمر، باب إقامة الحد على من شرب الخمر على التأويل)، جـ ٣، ص ٢٥٣، ح ٥٢٨٩؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٨، ص ٣١٥. والأثر صحيح.

(٣) عبد الرزاق: المصنف، جـ ٧، ص ٣٨٤، ح ١٣٥٦٦. وسنده متصل، ورجاله ثقات. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ٦٤٢.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ٣٥.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٥٥٢، والأثر صحيح.

(٦) معمر بن راشد: الجامع، جـ ١١، ص ٣٤٨، ٣٤٩، والأثر يرتقي بمجموع طرقه إلى درجة الحسن لغيره كما قرر محقق المطالب العالية لابن حجر، جـ ١٣، ص ٢٩٠.

▣ مراقبة عمر رضي الله عنه للولاة ومتابعته لهم:

لم يتكل عمر رضي الله عنه على حسن اختيار عمّاله ويقعد عن متابعتهم، بل كان يبذل أقصى جهده في مراقبتهم ليطمئن على سيرتهم في الرعية التي سيسألها الله عنها، وكان يصرح بأنه لا يقضي الذي عليه عند استعماله لخير من يعلم ويأمره بالعدل حتى ينظر في عمله، أعمل بما أمره أم لا^(١).

وكان عمر رضي الله عنه يحاسب الولاة محاسبة شديدة على المال العام، فقد استعمل أبا هريرة رضي الله عنه على البحرين، فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: "استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله، وعدو كتابه"، فقال أبو هريرة: "لست عدو الله، ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما"، قال: فمن أين هي لك؟ قال: "خيل لي تنأجت، وغلة رقيق لي، وأعطية تتأبعت علي"، فنظروه، فوجدوه كما قال، فلما كان بعد ذلك، دعاه عمر ليستعمله، فأبى أن يعمل له، فقال: "أكره العمل وقد طلب العمل من كان خيراً منك يوسف؟" قال: "إن يوسف نبي ابن نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة ابن أميمة أخشى ثلاثاً واثنين"، قال له عمر: "أفلا قلت خمساً؟ قال: "لا، أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حكم، ويضرب ظهري، ويُنزَع مالي، ويُسْتَمَّ عِرْضِي"^(٢).

وعندما استودع الفاروق أنس بن مالك ستة آلاف درهم من الأموال العامة فضاغت من بين أمواله، ضمته إياها، ولم يتهمه بالخيانة، بل شعر بإهمال في حفظها^(٣). وكان عمر رضي الله عنه لا يرى للولاة حقاً في التمتع من المال العام دون الرعية، فقد غضب على والي أذربيجان عتبة بن فرقد؛ لأنه أهدى إليه خبيصا (نوع من الحلوى) لم يكن الجند ينالونه، فكتب إليه عمر: "إنه ليس من كدك، ولا من كد أبيك، ولا من كد أمك، فأشبع المسلمين في رحالهم مما تشبع منه في رحلك، وإياكم والتنعّم"^(٤).

(١) معمر: الجامع، جـ ١١، ص ٣٢٦، ح ٢٠٦٦٥؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٨، ص ٢٨٢، ح ١٦٦٥٥.

(٢) معمر: الجامع، جـ ١١، ص ٣٢٣، ح ٢٠٦٥٩؛ أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال، تحقيق/ خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٣٤٢؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٤، ص ٣٣٥، والأثر صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ١٢٥.

(٣) عبد الرزاق: المصنف، جـ ٨، ص ١٨١، ح ١٤٧٩٩؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٦، ص ٤٧٤، والأثر صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ١٢٦.

(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحريز على الرجل، وإباحته للنساء)، جـ ٣، ص ١٦٤٢، ح ٢٠٦٩؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٤٦٠.

وكان يكلف محمد بن مسلمة الأنصاريؓ بمهام التفتيش على الولاية^(١)، ويأمرهم بالاجتماع بمكة في موسم الحج للتداول معهم في أحوال الأمة^(٢)، بل قام عمرؓ بتفقد أحوال الولاية والقادة في الشام عندما زار بيت المقدس لتسلم مفاتيحها، وأصر على زيارتهم في بيوتهم ليتعرف على أحوالهم وتعاملهم مع الدنيا والأموال ومدى تعلقهم بها، وقد عانق أبا عبيدة وبكى؛ لأنه لم يجد عنده إلا كسرا يابسة وبعض الملح مع كوز ماء، ولم ير عنده رياشا ولا فرشاً ناعمة، وقال له: "ما من أحد من أصحابي إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه، غيرك"^(٣).

❏ اقتصاص عمر للرعية من الولاية:

كان عمرؓ يحقق في شكاوى الرعية ضد الولاية بنفسه، فإذا ثبتت إدانة والي وتعديه على الناس أنزل عليه العقوبة التي يستحقها، فقد روى جرير بن عبد الله البجليؓ أن رجلاً كان مع أبي موسى الأشعريؓ -والي البصرة- وكان ذا صوت، ونكاية، في العدو، فغنموا مغنماً فأعطاه أبو موسى بعض سهمه، فأبى أن يقبله إلا جميعاً، فجلده أبو موسى عشرين سوطاً وحلقه، فجمع الرجل شعره وذهب به إلى عمرؓ فضرب به صدره، ثم قال: أما والله لولا النار، فقال عمر: صدق والله لولا النار، وأخبر الخليفة بما حدث له من أبي موسى، واستعداه عليه، فقال عمرؓ: "لأن يكون الناس كلهم على مثل صرامة هذا أحب إلي من جميع ما أفىء علينا"، وكتب إلى أبي موسى بأن يجلس للرجل حتى يقتص منه على الصفة التي عاقبه عليها، سواء كان في خلاء أو على ملا من الناس، فقدم الرجل على أبي موسى، وتلقاه الناس يسألونه العفو عن الأمير، فأقسم أنه لن يدعه لأحد من الناس، فلما قعد له أبو موسى ليقص منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء وقال: "اللهم قد عفوت عنه لك"^(٤).

وحدث في مسير لعمرؓ أنه أبصر رجلاً (من بني تميم) يسرع في سيره، فأدرك أنه يريد فأناخ لأجله، وجاء الرجل فبكى، فبكى عمرؓ، وسأله عن شأنه؟ فأخبره أنه

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٢، ٢٩٩.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٣) الأزدي: فتوح الشام، ص ٢٥٥، ٢٥٦؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ١٢٤.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥؛ ابن عبد الهادي: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ج ٢، ص ٤٦٧، وإسناد الأثر حسن كما قرر محقق محض الصواب.

شرب الخمر، فضربه أبو موسى وسود وجهه، وطاف به، ونهى الناس أن يجالسوه، ولذلك هم الرجل أن يأخذ سيفه فيضرب به أبا موسى، أو يأتي أمير المؤمنين فيحوّله إلى بلد لا يعرف فيه، أو يلحق بأرض الشرك، فبكى عمر رضي الله عنه، ورق للرجل عندما ذكر بلاد الشرك، وهون عليه بأن الناس قد شربت الخمر في الجاهلية، وكسا الرجل، وأمر له بمائتي درهم، وأمر أبا موسى أن يأمر الناس بمجالسته ومخالطته، وأن يقبل شهادته عند توبته^(١)، وتوعد الفاروق أبا موسى بقوله: "وَأَيُّمُ اللَّهِ لئن عدتَ لأُسودنَّ وجهك، وليطاف بك في الناس، فإن أردت أن تعلمَ أحقَّ ما أقولُ، فعُدْ"^(٢).

وروي أن قبطيًا مصريًا سابق محمد بن عمرو بن العاص فسبقه، فضربه محمد بالسوط، وتفاخر بأنه ابن الأكرمين، فذهب القبطي إلى المدينة ورفع شكواه لعمر رضي الله عنه فاستدعى عمرا وولده، وأمر المصري بالقصاص من ابن عمرو بن العاص وقال له: لو ضربت أباه عمرا لما حلنا بينك وبين ذلك، والتفت عمر إلى عمرو بن العاص وقال قولته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"^(٣).

وروي أيضا أن عمرو بن العاص اتهم جنديًا تجيبيا بالنفاق أمام الناس، فأمكنه الفاروق منه، فلما تيقن الرجل أن الأمير لا يقدر على الامتناع منه بسلطانه تركه لله^(٤).

(١) ابن كثير: مسند الفاروق عمر، جـ ٢، ص ٥٢١؛ ابن عبد الهادي: محض الصواب، جـ ٢، ص ٥٥٢، وصح ابن كثير إسناده.

(٢) رواه ابن شبة بإسناد حسن. أخبار المدينة، جـ ٢، ص ٢٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٣؛ ابن عبد الهادي: محض الصواب، جـ ٢، ص ٤٧٣، وإسناد الأثر ضعيف لانقطاعه وجهالة أحد رواته. علوي عبد القادر السقاف: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن، دار الهجرة، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ١٩٧، ح ٣٨٣.

(٤) عبد الرزاق: المصنف، جـ ٧، ص ٤٢٨؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ١٦، والأثر ضعيف لانقطاعه. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ٦٥٣.

الفصل الثامن

تدوين الدواوين

على الرغم من بساطة ميزانية الدولة الإسلامية في العهد النبوي وتقسيم الغنائم على المجاهدين المشاركين في الغزوات، فإن رسول الله ﷺ أراد أن يحصي الناس، فقال: "اكتبوا لي من تَلَفَّظَ بِالإِسْلَامِ مِنَ النَّاسِ"، فكتبوا له ألفاً وخمسة مائة رجل^(١)، إلا أن الديوان لم ينشأ إلا في عهد عمر رضي الله عنه^(٢)، نتيجة لتوسع الدولة الإسلامية، واتصال المسلمين الفاتحين بالنظم الإدارية لفارس والروم^(٣).

وقد أدت الفتوحات الإسلامية إلى زيادة موارد الدولة من الفيء^(٤)، والغنائم^(٥)، والجزية^(٦)، والخراج^(٧)، وغيرها، حتى قدم أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين بخمسمائة ألف درهم، فاستكثر عمر رضي الله عنه الأموال، وعاود أبا هريرة السؤال ليتأكد من صحة العدد، فأخبره أنه جاء بمائة ألف، وكرر له مثلها أربع مرار، فحسبه عمر ناعسا، وأمره أن يرجع إلى بيته ثم يغدو عليه، فجاءه في الصباح فأخبره بمقدار المال، وأنه لا يعلمه إلا طيبا، فاستشار الخليفة أصحابه في كيفية التعامل مع تلك الأموال وقال: "إنه قدم عليّ مال كثير، فإن شئتم أن نعدّه لكم عداً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً"، فطرحوا عليه آراءهم، حتى قال له رجل: "إنّي رأيتُ هؤلاء الأعاجم يدوّنون ديواناً ويعطون الناس عليه"، فأخذ عمر رضي الله عنه برأيه فدوّن الدواوين^(٨).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب كتابة الإمام للناس)، جـ ٣، ص ١١٤، ح ٢٨٥٩؛ مسلم: الصحيح،

(كتاب الإيمان، باب الاستسار للخائف)، جـ ١، ص ١٣١، ح ١٤٩.

(٢) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص ٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٤) الفيء: ما يحصل عليه المسلمون من أعدائهم دون قتال، ولهذا لا يتعلّق به حق للمجاهدين.

(٥) الغنائم: ما يحصل عليها المسلمون من أعدائهم بالقتال، وقد أعطى القرآن أربعة أخماسها للغنمين.

(٦) الجزية: ما يؤخذ من أهل الكتاب الذين يتمسكون بدينهم.

(٧) الخراج: إمّا أن يكون ضريبة فرضت على أرض فتحها المسلمون بالقوة وتركوا الأرض لأهلها يستغلونها، وإمّا أن يكون

ضريبة على أرض صالح أهلها المسلمين على قدر يؤخذ منها. راجع الماوردي: الأحكام السلطانية، طبعة دار الحديث،

القاهرة، ص ٢٠٠، وما بعدها.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٤٥٣، ح ٣٢٨٦؛ ابن زنجويه: الأموال، جـ ٢، ص ٥٠٤؛ ابن سعد: الطبقات

الكبرى، جـ ٣، ص ٣٠٠. والأثر بإسناد صحيح.

ويعني الديوان العمريّ السجلات التي أحصيت فيها أسماء من فرض لهم العطاء من الجند وغيرهم، ثمّ غدا مترادفاً مع الجهاز الإداريّ -الوزارات- المنوط به تنفيذ أعمال الدولة الإداريّة، والماليّة والعسكريّة، كما أطلق أيضاً على المكان الذي تحفظ فيه سجلات الدولة، والأمكنة التي يجلس فيها أفراد الجهاز الإداري^(١)، ولذا جعله الماورديّ (هـ-٤٥٠/١٠٥٨م) "لحفظ ما يتعلّق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمّال"^(٢).

وينبغي التنويه إلى أنّ المصادر الإسلاميّة تتحدّث عن الديوان دون تحديد، لكن الباحث يستطيع أن يفرق بين ديوان العطاء، وديوان الجيش^(٣)، كما يتبين من الآتي:

❏ ديوان العطاء:

اختصّ هذا الديوان بالعطاء المالي الذي فرضه عمر رضي الله عنه لجميع المسلمين، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد سوى بين الناس في القسم^(٤)، فجعل الصغير والكبير والحرّ والمملوك والذكر والأنثى سواسية، فاتّبع عمر رأيه في التسوية حتّى جاءه فتح العراق، ففضّل أهل السّوابق والمشاهد في الفرائض، فروجع في ذلك، فقال: "لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه"^(٥).

ورفض عمر رضي الله عنه أن يبدأ بنفسه في ترتيب الديوان، كما رفض العرض الذي قدّم إليه بجعل عشيرته "بني عدي" بعد بني هاشم وبني تيم، وإنّما رتبّ الناس بحسب القرابة من رسول الله ﷺ^(٦)، فبدأ ببني هاشم، ثمّ الأقرب فالأقرب حتّى استوفى بطون قريش^(٧)، فلمّا انتهى إلى الأنصار أمر بالبدء برهط سعد بن معاذ الأوسيّ، ولمّا استقرّ الناس في الديوان على قدر نسبهم المتّصل برسول الله ﷺ فضّل الفاروق أهل السّوابق والمشاهد في الإسلام^(٨)، فبدأ بالمهاجرين الأوّلين، لأنّهم أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً، ثمّ

(١) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٣٧.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٩٧؛ أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، تحقيق/ محمد حامد الفقهي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٢٣٦.

(٣) فتحة النبراي: تاريخ النظم والحضارة الإسلاميّة، ص ٧٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٩٦.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص ٥٣.

(٦) الفسوي: المعرفة والتاريخ، ج ١، ص ٤٦٦. وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٣٣.

(٧) أبو يوسف: الخراج، ص ٥٥؛ ابن أبي شيبّة: المصنف، ج ٦، ص ٤٥٧.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٩٥-٢٩٨.

بأشرفهم، فبدأ بأهل بدر، ثم أحد، وقال: "من أسرع في الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء، فلا يلومنّ رجلٌ إلا مناخ راحلته"^(١).

وقد جعل عمر ؓ عطاء البدرين خمسة آلاف، خمسة آلاف، وقال: "لأفضلّهم على من بعدهم"^(٢)، وجعل مولى البدرين كعربهم^(٣).

وبلغ من ورع عمر ؓ أنّه فرض للمهاجرين الأوّلين أربعة آلاف، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف وخمسمائة، فلما سئل عن سبب نقصان عطاء ولده؟ أجاب بأنّه هاجر مع أبيه^(٤).

ولم يكن عمر ؓ يفرض للرّضّع من الأطفال، ممّا حمل بعض النّساء على التّكبير بفطم أولادهنّ، ولما اطّلع عمر على إحداهنّ وهو يطوف بالمدينة ذات ليلة اشتدّ بكأؤه، وقال: "يا بُوساً لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين"، وأمر مناديا ينادي في النّاس: "ألا لا تُعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنّا نفرض لكلّ مؤلود في الإسلام"^(٥).

وهدف عمر ؓ من التّفضيل في العطاء رفع الفئة التي أقامت على أكتافها صرح الدولة الإسلاميّة، كما أنّها أكثر فقهاً والتزاماً بالشرع ومقاصده، وأكثر ورعاً وصلاًحاً في التعامل مع المال، وتذليله لتحقيق المقاصد الاجتماعيّة عن طريق الإنفاق، ولا يخفى أنّ دعم هذه الفئة اقتصادياً يقوّي نفوذها في المجتمع، ويجعلها أقدر على القيام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر^(٦).

ويختلف المؤرّخون في تأريخ وضع ديوان العطاء بين سنة ١٥هـ/٦٣٦م^(٧)، وسنة ٢٠هـ/٦٤١م^(٨)، مع اتّفاقهم على أنّ كثرة تدفق الأموال على المدينة المنورة من

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٥، ص ٢٤٦؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٤٥٧. والأثر صحيح، رجاله ثقات.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا)، جـ ٤، ص ١٤٧٥، ح ٣٧٩٧.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٦، ص ٤١٥، بإسناد صحيح.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النّبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، جـ ٣، ص ١٤٢٤، ح ٣٧٠٠. ويقصد عمر ؓ أنّ ولده لم يتحمل من العناء كمن هاجر بنفسه.

(٥) عبد الرزاق: المصنف، جـ ٥، ص ٣١١، ح ٩٧١٧؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٣٠١؛ القاسم بن سلام: الأموال، جـ ٢، ص ٣٠٢، ٣٠٣. والأثر صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٣٤.

(٦) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٣٦.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٤٥٢.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٩٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٦٦. وكلاهما من طريق الواقدي.

فتوح الأمصار كانت السبب الذي دعا عمر رضي الله عنه إلى وضع الديوان، ويظهر من مجموع الروايات أنه بدأ محدوداً بتقسيم خمس الغنائم الوارد إلى المدينة، وأنه لم يستقر على العطاء الثابت إلا بعد استقرار الفتوح في سنة ٢٠هـ/٦٤١م^(١).

وعندما حققت سياسة التفضيل في العطاء مقاصدها عزم عمر رضي الله عنه على الرجوع عنها، بل ثبت أنه قسم بين الناس بالجابية على نصف دينار بالسوية، وأعطى ديناراً لمن كانت معه امرأته^(٢)، وثبت عنه أنه قال: "لَنْ بَقِيَتْ إِلَى الْحَوْلِ لِأَلْحَقَنَّ أَسْفَلَ النَّاسِ بِأَعْلَاهُمْ"^(٣)، "وَلَأَجْعَلَنَّهُمْ رَجُلًا وَاحِدًا"^(٤).

❏ ديوان الجند:

لجأ عمر رضي الله عنه إلى إحصاء عدد الجند وترتيب أمورهم وتوفير أعطياتهم وتقديرها عندما زاد عددهم^(٥)، ولذا كان هذا الديوان الذي "يختص بالجيش من إثبات وعطاء"^(٦)، ولم يفرض النبي صلى الله عليه وسلم للجند عطاء معيناً، بل كانوا يقتسمون أربعة أخماس الغنيمة^(٧)، ويقال إن الهرمزان رأى عمر رضي الله عنه قد بعث بعثاً وأعطى أهله الأموال، فلم يعجبه صنيع الخليفة، معللاً أن أمير الجيش لن يعلم بمن تخلف من جنده بعد أخذهم الأموال، وأشار عليه أن يثبت لهم ديواناً^(٨)، ولهذا كان لا بد من تخصيص ديوان الجيش^(٩)، الذي تقوم مقامه وزارة الدفاع حالياً.

(١) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٢) رواه مسدد عن عمر رضي الله عنه. ابن حجر: المطالب العلية، ج ٩، ص ٥٢٦، ٥٢٧. وحسن المحقق إسناده، وقال البوصيري: "رجاله ثقات". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج ٤، ص ٩٢.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٠٢؛ ابن زنجويه: الأموال، ج ٢، ص ٥٧٥. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج ٧، ص ٤٩٠.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٤٥٤؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٠١، ٣٠٢؛ القاسم بن سلام: الأموال، ص ٣٣٦. والأثر صحيح. وعلق ابن سلام فقال: "وقد كان رأي عمر الأول التفضيل على السوابق والغناء عن الإسلام، وهذا هو المشهور من رأيه، وكان رأي أبي بكر التسوية، ثم قد جاء عن عمر شيء شبيه بالرجوع إلى رأي أبي بكر".

(٥) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٨٠.

(٦) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٣٠٢.

(٧) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٢٨.

(٨) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٩٧.

(٩) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٨٠.

وكان المسلمون قبل عهد عمر رضي الله عنه يكتبون بالكتابة فقط^(١)، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فقال: "لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مُحَرَّمٌ"، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْتُبْتُ فِي غَزْوَةٍ كَذَا وَكَذَا، وَخَرَجْتُ امْرَأَتِي حَاجَةً، قَالَ: "اذْهَبْ فَحُجِّ مَعَ امْرَأَتِكَ"^(٢).

وقد استنبط الماوردي في أوصاف الجندي الذي يثبت في ديوان الجند أن يكون مسلماً، حراً، بالغاً، سليماً من الآفات المانعة من القتال، عارفاً بالقتال، فيه إقدام على الحروب^(٣).

وكان الجند الثابتون في الديوان يرتبون ترتيباً عاماً على القبائل والأجناس حتى تتميز كل قبيلة عن غيرها، بحسب القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يرتبون ترتيباً خاصاً الواحد بعد الواحد بالسابقة في الإسلام، فإن تكافؤوا في السابقة ترتبوا بالدين، فإن تقاربوا فيه ترتبوا بالسنة، فإن تقاربوا فيها ترتبوا بالشجاعة^(٤).

وكان الانتظام في ديوان الجيش يستلزم التفرغ التام للجنديّة والجهاد دفاعاً عن الإسلام، وقد شدد عمر رضي الله عنه على هذا الأمر حتى لا ينشغل الجند بأعمال أخرى كالزراعة مثلاً فيرتبطوا بالأرض ويهملوا أمر الجهاد^(٥).

وكانت الأمة كلها مقاتلة حين تدعى إلى الجهاد، حيث كان كل قادر على حمل السلاح ومسجل في ديوان العطاء يهبط للانخراط في الحملة العسكرية^(٦).

❏ ديوان الخراج والاستيفاء:

يعود أصل هذا الديوان إلى حاجة الدولة الإسلامية إلى إحصاء خراج البلاد المفتوحة، وتنظيم الإنفاق من موارده في الوجوه التي يجب الإنفاق فيها^(٧).

(١) عبد الرازق الطنطاوي القرموط: في تاريخ الخلفاء الراشدين، ج ١، ص ٤٢٥.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب من اكتب في جيش)، ج ٣، ص ١٠٩٤، ح ٢٨٤٤؛ مسلم: الصحيح،

(كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره)، ج ٢، ص ٩٧٨، ح ١٣٤١.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٣٠٢، ٣٠٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

(٥) فتحة النبراي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٨١، ٨٢.

(٦) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٧٩؛ نقلاً عن فاروق عمر فوزي: النظم العسكرية، (نشأة الجيش

النظامي في الإسلام)، ج ٢، ص ٢٩٩، (أعمال ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي ١٤٠٥ هـ).

(٧) فتحة النبراي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص ٨٢.

وإذا كان الديوان العمريّ قد بدأ داخلياً عربياً، فإنّ ديوان الاستيفاء وجباية الأموال قد جرى بعد ظهور الإسلام على ما كان عليه من قبل، فبقي ديوان الشّام بالروميّة، وبقي ديوان العراق بالفارسيّة، ولم يزل أمرهما جارياً على ذلك إلى زمن عبد الملك بن مروان، حيث تمّ نقل ديوان الشّام والعراق إلى العربيّة^(١)، ويذكر أن ديوان مصر كان يكتب بالقبطيّة، ويقوم عليه موظّفون أقباط^(٢).

وكان الخليفة عمر ؓ قد رأى بعد فتح العراق والشّام أنّه لا يفتح بلدٌ فيكون فيه كبير نيل؛ بل عسى أن يكون كلّاً على المسلمين؛ وأنّه إذا قسّمت أرضُ العراق، وأرضُ الشّام لا يجد المسلمون ما يسدّون به الثّغور، وما ينفقونه على الذّريّة والأرامل^(٣).

ولمّا خالف جماعة من الصّحابة رأي عمر ؓ وألحوا عليه في قسمة أراضي العراق والشّام بين الذين افتتحوها كما تقسّم غنيمة العسكر؛ أبى عليهم، وأوقفها على أعطيات المسلمين، واستدلّ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^(٤) على أن الله ﷻ أشرك الذين يأتون من بعد الصّحابة في هذا الفيء؛ وأنّه لو قسّمه بينهم لم يبق لمن بعدهم شيء، فافتنع الصّحابة برأي عمر ؓ بعد مشاوراته ومناقشاته للمهاجرين الأوّلين وسادات الأنصار^(٥).

ولهذا لم يقسم عمر ؓ أرض السّواد والأهواز وما افتتح من المدن، وإنّما ترك الأرض وأهلها، وضرب عليهم الجزية، وأخذ الخراج من الأرض^(٦)، وقال: "لَوْ لَا آخِرُ الْمُسْلِمِينَ، مَا فَتَحَتْ قَرْيَةً إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ أَهْلِهَا، كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ"^(٧).
ولهذا نهض عمر ؓ للنظر في إدارة الأموال في البلاد المفتوحة وتنظيمها، واختار سهل بن حنيف وحذيفة بن اليمان لمهمة مسح أراضي العراق^(٨).

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٣٠٠، ٣٠١؛ ابن خلدون: المقدمة، تحقيق/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م، ج ٢، ص ٦٤٤، ٦٤٥.

(٢) المقرئ: الخط، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ج ١، ص ١٨٤.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص ٣٥.

(٤) سورة الحشر: من الآية ١٠.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص ٣٤ - ٣٦؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٦، ص ٤٧١؛ البيهقي: السنن، ج ٦، ص ٥٧١، ٥٧٢. والأثر صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ١٩٧.

(٦) أبو يوسف: الخراج، ص ٣٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٩.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الواقعة)، ج ٣، ص ١١٣٦، ح ٢٩٥٧.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبير، ج ٤، ص ٣٠٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٩٠.

الفصل التاسع

استشهاد الفاروق عمر

كان عمر رضي الله عنه قد أخذ نفسه بالشدة في خلافته وأرهقها في مراقبة العمال والرعية، فشعر مع نهاية السنة العاشرة من خلافته أنه لا يستطيع أن يواصل ما أخذ به نفسه، "وخشي أن يعجز عن القيام بما فرض عليه من أمر الأمة أو أن يفعل ما يلام عليه دنيا وأخرى" ^(١)، فلما عاد من الحج سنة ٢٣هـ / ٦٤٣م، أخذ يدعو ربه ويقول: "اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وخشيت الانتشار من رعيتي، فأقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم" ^(٢)، وشوهد عمر رضي الله عنه وهو يكرر هذا القول ليلة كاملة في البقيع ^(٣)، كما كان عمر يدعو بقوله: "اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ" ^(٤).

أجاب الله دعوة الفاروق وساق له الشهادة في المدينة النبوية، فقد كان عمر رضي الله عنه لا يسمح لسبي قد احتلم بدخول المدينة حتى كتب له المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده يدعى أبا لؤلؤة ويستأذنه أن يدخله المدينة؛ لأن عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس، فهو "حداد نقاش نجار"، فأذن عمر رضي الله عنه بدخول ذلك الغلام ^(٥) الفارسي المجوسي الذي سباه المسلمون من موقعة نهاوند سنة ٢١هـ / ٦٤١م ^(٦).

ولما كان أبو لؤلؤة محترفا يصنع الأرحاء، فقد جعل عليه المغيرة أربعة دراهم كل يوم ^(٧)، فلقي أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنه وشكا إليه المغيرة، وقال: "قد أثقل علي غلتي فكلمته يخفف عني"، فقال له عمر: "اتق الله وأحسن إلى مولاك، ومن نية عمر أن يلقي المغيرة

(١) ابن الملقن: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، دار النوادر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ج ٢٧، ص ٣١٩.

(٢) معمر: الجامع، (باب تمنّي الموت)، ج ١١، ص ٣١٥، ح ٢٠٦٣٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٣) المصدر السابق، (باب تمنّي الموت)، ح ٢٠٦٣٨.

(٤) البخاري: الصحيح، (أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تُغرى المدينة)، ج ٢، ص ٦٦٨، ح ١٧٩١، وقد علّقه البخاري في صحيحه، (كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء)، ج ٣، ص ١٠٢٧.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٤٥، ٣٤٦، والأثر موقوف على الزهري.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٤٧؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١٠، ص ٤٢٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٢٧.

(٧) وفي رواية أن المغيرة فرض عليه مائة درهم في الشهر. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣٤٥.

فِيكَلِّمُهُ يُخَفِّفُ، فَغَضِبَ الْعَبْدُ، وَقَالَ: "وَسِعَ النَّاسَ كُلُّهُمْ عَدْلُهُ غَيْرِي"، وَأُضْمِرَ عَلَى قَتْلِهِ^(١)، فَاصْطَنَعَ خَنْجَرًا لَهُ رَأْسَانِ، وَشَحَذَهُ، وَسَمَّهُ، ثُمَّ أَتَى بِهِ الْهَرَمْزَانَ، فَقَالَ: "كَيْفَ تَرَى هَذَا؟ قَالَ: أَرَى أَنَّكَ لَا تَضْرِبُ بِهَذَا أَحَدًا إِلَّا قَتَلْتَهُ"، فَانْصَرَفَ أَبُو لَوْلُؤَةَ يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ لِقَتْلِ عَمْرٍ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ شَيْطَانُهُ بِاغْتِيَالِهِ وَهُوَ يَصَلِّي الْفَجْرَ بِالْمُسْلِمِينَ^(٢).

وَيَدُلُّ تَنْفِيزُ الْعَبْدِ الْمَجُوسِيِّ لِجَرِيمَتِهِ الْبِشْعَةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَى شِدَّةِ حَقْدِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى اجْتِمَاعِهِمْ فِي الصَّلَاةِ خَاصَّةً؛ لِأَنَّ الْفَارُوقَ عَمْرٍ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَتَّخِذُ حِرْصًا لَهُ، بَلْ كَانَ يَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ، وَقَدْ حَدَّثَ أَنَسٌ ﷺ أَنَّ الْهَرَمْزَانَ رَأَى عَمْرٍ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ حَوْلَهُ أَحَدٌ فَقَالَ: "هَذَا وَاللَّهِ الْمَلِكُ الْهَنِيءُ"^(٣).

وَيُرْوَى التَّابِعِيُّ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ حَادِثَةً اسْتَشْهَادَ عَمْرٍ التِّي شَاهَدَهَا بِعَيْنَيْهِ وَاسْمَعَهَا بِأُذُنَيْهِ فَيَقُولُ: "إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةً أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ: اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلًّا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوْ النَّحْلَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى حَتَّى يَجْتَمَعَ النَّاسُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي - أَوْ أَكَلَنِي - الْكَلْبُ، حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ، لَا يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا طَعَنَهُ، حَتَّى طَعَنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنَسًا^(٤)، فَلَمَّا ظَنَّ الْعِلْجُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ نَحَرَ نَفْسَهُ، وَتَنَاوَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَدَّمَهُ، فَمَنْ يَلِي عُمَرَ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى، وَأَمَّا نَوَاحِي الْمَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ لَا يَذْرُونَ، غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلَاةً خَفِيفَةً^(٥)، فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَالَ: يَا

(١) وزادت رواية الزهري أن العبد مرّ بعمر وهو قاعد فقال له: ألم أحدث أنك تقول: لو شئت أن أصنع رحي تطحن بالريح فعلت؟ فقال أبو لؤلؤة: لأصنعن رحي يتحدث بها الناس، ومضى فقال عمر: أما العبد فقد أوعدني آتياً. عبد الرزاق: المصنف، ج ٥، ص ٤٧٥.

(٢) أبو يعلى: المسند، ج ٥، ص ١١٦، ح ٢٧٣١؛ ابن حبان: الصحيح، ج ١، ص ٣٣١، ح ٦٩٠٥، وصحح إسناده محققو ابن حبان وأبو يعلى، وقال الهيثمي: "رجال أبي يعلى رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٧٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٩٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١٠، ص ٣٤٦. وإسناده صحيح.

(٤) البرنس: كل ثوب رأسه منه ملتزق به. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ١٢٢.

(٥) روى الحارث بن أبي أسامة أن عبد الرحمن بن عوف صلى بأقصر سورتين: الكوثر، وإذا جاء نصر الله والفتح، خشية طلوع الشمس. والحديث صححه ابن حجر. المطالب العالمة في زوائد المسانيد الثمانية، ج ٥، ص ٧٧٥.

ابن عباس، انظر من قتلني، فجاء ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع؟ قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام^(١)، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقًا - فقال: إن شئت فعلت، أي: إن شئت قتلنا؟ قال: كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلكم، وحجوا حجتكم. فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه، وكان الناس لم تصيبهم مصيبة قبل يومئذ، فقاتل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتى بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس، فجعلوا يثنون عليه، وجاء رجل شاب، فقال: أبشريا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك، فإنه أبقي^(٢) لثوبك، وأتقى لربك، يا عبد الله ابن عمر، انظر ما علي من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه، قال: إن وفي له مال آل عمر فأداه من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم، فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوترن به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أدنت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فأحملوني، ثم سلم، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أدنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنًا، فوكلت عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال، فوكلت داخلًا لهم،

(١) كان عمر رضي الله عنه يقول: "اللهم لا تجعل قتلتي بيد رجل صلى لك سجدة". رواه إسحاق بن راهويه عن أسلم مولى عمر بإسناد

صحيح. ابن حجر: المطالب العلية في زوائد المسانيد الثمانية، ج ٥، ص ٧٦٠.

(٢) وفي لفظ "أنقى لثوبك".

فَسَمِعْنَا بُكَاءَهَا مِنَ الدَّاحِلِ، ... فَلَمَّا قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ، فَاَنْطَلَقْنَا نَمْشِي، فَسَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ، قَالَتْ: ادْخُلُوهُ، فَأَدْخُلَ، فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبِيهِ^(١).

وعلى عادة سيف بن عمر التميمي فإنه قد خالف الروايات الصحيحة التي تتفق على نحر أبي لؤلؤة المجوسي نفسه^(٢)، وزعم أن الرجل التميمي تبع أبا لؤلؤة فقبض عليه وقتله^(٣).

وعموما فإن سيفاً لم يزد كثيراً على رواية مقتل أبي لؤلؤة المجوسي، فقد وجد الأمور ممهدة هذه المرة والرجل التميمي يقبض على المجرم ويعتقه، فسل سيف السيف وقتل المجوسي على يد التميمي.

تحقيق في مقتل عمر:

إن الرواية الصحيحة المتواترة تجعل مقتل عمر ؓ حادثاً فردياً لأبي لؤلؤة المجوسي، وفي رواية أخرى أن مقتله كان بتخطيط مجموعة من المناوئين للخلافة الإسلامية، فقد مرّ عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق على أبي لؤلؤة وجفينة والهرمزان وهم نجيّ قبل مقتل الفاروق، فلما بغتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجرٌ له رأسان ونصابه في وسطه، فلما استشهد عمر أخبر عبد الرحمن المسلمين بما رآه، وطالبهم بالنظر في الخنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه على وصفه، وسمع ذلك عبيد الله بن عمر، فانطلق فأخذ سيفه فأتى الهرمزان فقتله، فلما وجد حرّ السيف قال: لا إله إلا الله، وقتل جفينة، فلما علاه بالسيف صلب بين عينيه، وانطلق إلى ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدعى الإسلام فقتلها، وأراد قتل كل سبي بالمدينة، فمنعه المهاجرون الأوّلون وتوعّدوه، فلما استخلف عثمان استشار المهاجرين والأنصار في أمر عبيد الله، فشايع المهاجرون الأوّلون عثمان

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان ؓ)، جـ ٣، ص ١٣٥٣، ح ٣٤٩٧.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان ؓ)، جـ ٣، ص ١٣٥٣، ح ٣٤٩٧؛ ابن حبان: الصحيح، جـ ١٥، ص ٣٥٠، ٣٥١؛ ابن سعد: الطبقات الكبير، جـ ٣، ص ٣٢٠؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ١٠، ص ٤١٤؛ أبو العرب: المحن، تحقيق/ عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٦٣؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٤٤، ص ٤١٥.

(٣) سيف بن عمر التميمي: كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعليّ، تحقيق/ قاسم أحمد عبد الرزاق السامرائي، دار أمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ٩؛ ابن بكري المالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تحقيق/ محمود يوسف زايد، دار الثقافة، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٣٩.

على قتل عبيد الله، واجتمع جلّ النَّاسِ الأعظم مع عبيد الله يرفضون قتله، ويدعون على الهرمزان وجفينة، وكثر في ذلك اللغظ والاختلاف، فقال عمرو بن العاص لعثمان: "إنّ هذا الأمر قد كان قبْلَ أن يكون لك على النَّاسِ سُلْطَانٌ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ"، فأخذ عثمان بقوله، وتفرّق النَّاسُ، ووَدِيَ الرَّجُلانِ والجارية^(١).

ويحشر الرواة هاهنا خبرا يفيد معرفة كعب الأحبار باليوم والسّاعة التي مات فيها عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وأنّه تردّد على عمر ثلاث مرار في ثلاثة أيّام، ثمّ جزم له في اليوم الثّالث بأنّه لم يبق له إلا ذلك اليوم والليّلة إلى صبيحتها^(٢)، وهو ما جعل بعض المُحدثين يتّهمون كعبا صراحة بالضلّوع في التّأمر على قتل عمر رضي الله عنه، ولا ينبغي أن تبني الاستنتاجات على روايات باطلة لم تصح.

❏ مدّة خلافة الفاروق وحياته:

كانت خلافة عمر رضي الله عنه عشر سنين وستّة أشهر، فقد تولّى الخلافة لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ / ٦٣٤م، وضربه أبو لؤلؤة المجوسيّ يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجة، سنة ٢٣هـ / ٦٤٤م، ومكث ثلاثاً وتوفّي^(٣)، فصلى عليه صهيب رضي الله عنه، وعاش عمر ثلاثاً وستين سنة، وكان أنس رضي الله عنه يقول: "قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ"^(٤).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٣٥٥. وأورد ابن حجر هذه القصة من طريق الكرابيسي في أدب القضاء، وصحح إسناده إلى سعيد بن المسيّب: الإصابة، جـ ٦، ص ٤٩٩.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٥٩، ٥٦٠. الآجري: الشريعة، جـ ٤، ص ١٩٢٤، ٢٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٤٤، ص ٤٠٨؛ ولا يروى هذا الأثر إلا من طريق عبد العزيز بن أبي ثابت المتروك الرواية عند المحدثين، كما في تخريج أحاديث المطالب العالية لابن حجر. جـ ١٥، ص ٧٩٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٥٥.

(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب الفضائل، باب كم سنّ النبي ﷺ يوم قبض)، جـ ٤، ص ١٨٢٥، ح ٢٣٤٨.

الباب الثالث

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

(٢٤ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م)

الفصل الأول

سيرة عثمان قبل الخلافة وأهم صفاته

❏ نسبه ولقبه وصفته الخلقية:

هو عثمان، بن عفان، بن أبي العاص، بن أمية، بن عبد شمس، بن عبد مناف، وأمه أروى، بنت كرز، بن ربيعة، بن حبيب، بن عبد شمس، بن عبد مناف، وأُمّها أمّ حكيم البيضاء، بنت عبد المطلب^(١)، وهي شقيقة عبد الله والد النبي ﷺ، فكان عثمان ابن بنت عمّة النبي ﷺ، وقد أسلمت أمّه وماتت في خلافته، وكان ممّن حملوها إلى قبرها^(٢)، وأما أبوه فهلك في الجاهلية^(٣).

ولقب عثمان رضي الله عنه بذي النورين لزوجاه من ابنتي رسول الله ﷺ رقية وأمّ كلثوم، ولا يعلم أنّ رجلاً تزوّج ابنتي نبيّ غيره^(٤)، ويكنى بأبي عمرو، وأبي عبد الله^(٥). وكان عثمان رضي الله عنه من أجمل الناس^(٦)، وقد وُصف أيام خلافته بأنّه: "ضرب اللحم، طويل اللحية، حسن الوجه"^(٧).

❏ حياته ومكانته في الجاهلية:

نشأ عثمان رضي الله عنه على الفطرة السوية، فلم ينهمك مع الشباب في الملاهي والملاذات، ولم يقترب الفواحش والمنكرات، ولم تجتذبه عبادة الأوثان، ولقد تحدّث عن نفسه في آخر أيام حياته فقال: "والله ما زينت في جاهلية ولا إسلام قط، ولا قتلت نفساً"^(٨)، ولا

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٥٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٥٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٨، ص ٢٢٩.

(٣) ابن قتيبة: المعارف، ص ١٩١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٤٨٠.

(٤) الخلال: السنة، تحقيق/ عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، جـ ٢، ص ٣٩١، ٣٩٢؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٧، ص ١١٥.

(٥) الترمذي: السنن، (كتاب المناقب، باب مناقب عثمان)، جـ ٥، ص ٦٢٤.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٥٤٣، ح ٥٢٢، والأثر عن أمّ موسى، وهي تابعة ثقة، وإسناده حسن.

(٧) البيهقي: شعب الإيمان، جـ ٨، ص ٢٥٤، ح ٥٧٧٨؛ وهو من صحيح أحاديث ابن لهيعة المصري. الألباني: صحيح الترغيب والترهيب للمنزدي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، جـ ٢، ص ٤٧٨.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٥١٢، ح ٤٦٨، وإسناده صحيح.

شَرِبْتُ خَمْرًا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَلَا تَغْنَيْتُ^(١)، وَلَا تَمَنَيْتُ^(٢)، وَقَدْ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي هَذِهِ الْيُمْنَى فَمَا مَسَسَتْ بِهَا ذَكَرِي^(٣).

وكان عثمان ؓ ثريًا منذ الجاهلية، فقد ورث تجارة عريضة عن والده، واهتم بتنميتها، فأصبح من رجال بني أمية الذين لهم مكانة في قريش كلها، وكان المجتمع المكي الجاهلي يُقدّر فيه الرجال حسب أموالهم، ويهابون حسب أولادهم وإخوتهم، ثم عشيرتهم وقومهم^(٤).

ولما كانت شخصية عثمان ؓ جامعة لكثير من صفات الخير وميالة إلى البرّ والإحسان للناس وعدم الاستطالة عليهم بالمال والجاه فقد نال مكانة مرموقة في قومه، ومحبة كبيرة، ولحسن خلقه، ومعاملته؛ أحبته قريش وتحدثت به، حتى إنّ المرأة العربية كانت ترقص طفلها وتقول^(٥):

أَحَبُّكَ وَالرَّحْمَنُ * * حَبَّ قَرِيْشِ عُثْمَانُ

❏ إسلامه:

كان عثمان ؓ من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم قديما بدعوة أبي بكر ؓ مع الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف^(٦). ولما جهر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله واشتدت قريش على المسلمين لم يسلم عثمان ؓ من الإيذاء؛ فقد أخذه عمّه الحكم بن أبي العاص، فأوثقه رباطا، وأقسم ألا يحلّه أبدا حتى يدع ما هو عليه إلى دين قومه، فأقسم عثمان أنه لن يدع دينه أبدا ولن يفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه^(٧)، ولما أشار النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لم يعبا عثمان ؓ بثروته الواسعة، وإنما أثر دينه على دنياه،

(١) تغنيت: كذبت.

(٢) وفي رواية المسند: "وَلَا تَمَنَيْتُ بَدَلًا بِدِينِي مُنْذُ هَدَانِي اللَّهُ ﷻ".

(٣) ابن أبي شيبه: المصنّف ٦، ص ٣٦٤، ح ٣٢٠٥٥، وفي إسناده ابن لهيعة المصري.

(٤) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٦١٨.

(٥) ابن أبي الدنيا: النفقة على العيال، تحقيق/ نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/

١٩٩٠م، ج ١، ص ٣٣٥. والأثر من قول الشعبي.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٥٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٣، ص ٥٧٨.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٥٥.

وسارع إلى الهجرة^(١)، فكان أول من خرج مهاجراً إلى الحبشة، وفي صحبته زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ^(٢).

📖 جهاده مع النبي ﷺ:

شهد عثمان رضي الله عنه غالبية مواطن الغزو والجهاد مع رسول الله ﷺ، وقد تخلف عن غزوة بدر بإذن من رسول الله ﷺ، حيث كان يمرض زوجته رقية التي فارقت الحياة عند سماع أهل المدينة بنصر بدر، ولذا جعله النبي ﷺ في البدرين، وأسهم له بينهم^(٣)، كما استخلفه النبي ﷺ على المدينة في غزوة ذات الرقاع^(٤).

ولما قصد النبي ﷺ وأصحابه زيارة البيت الحرام في السنة السادسة من الهجرة واعترضت قريش سبيلهم وصممت على منعهم عزم النبي ﷺ على إرسال عمر رضي الله عنه إليهم ليبلغهم ما جاء له، ولكنه اعتذر للنبي ﷺ عن هذه المهمة، لخلو مكة من بني عدي، وخوفه من قريش التي تعرف عداوته إياها وغلظته عليها، ثم دلّه على عثمان رضي الله عنه؛ لأنه أعز منه نفراً بمكة، فأخذ النبي ﷺ برأي عمر، ودعا عثمان فبعثه إلى قريش، فلقى أبا بن سعيد بن العاص الأموي، وحمله على دابته بين يديه، وأجاره حتى بلغ رسالة النبي ﷺ لأبي سفيان وعظماء قريش، وسمحوا له أن يطوف بالبيت، فرفض قائلاً: "ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ"، فلما سمعت قريش هذا الكلام احتبسوه، فأشيع بين المسلمين أنه قد قتل^(٥)، فاتخذ النبي ﷺ إجراء سريعاً لمواجهة صلف قريش، فدعا أصحابه للبيعة تحت "الشجرة"، فبايعوه بيعة الرضوان، في غياب عثمان رضي الله عنه^(٦).

ولما وقعت الفتنة وخرج ضعاف الدين وأهل الشغب على عثمان رضي الله عنه جعلوا يفترون عليه ويتنقصون من قدره ومن جهاده مع النبي ﷺ حتى جاء أحدهم من مصر

(١) ثبت في الصحيح أنه هاجر الهجرتين. البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه)، ج٣، ص١٣٥١، ح٣٤٩٣.

(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق/ محمود الشرفاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م، ج١، ص١٤٩؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص١٨٨.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه)، ج٣، ص١٣٥٢، ح٣٤٩٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٤؛ الصالح: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٤، ص١٧٦.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣١، ص٢١٦، ٢١٧، ح١٨٩١٠، بإسناد صحيح.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب)، ج٣، ص١٠٨٠، ح٢٧٩٨؛ مسلم: الصحيح، (كتاب

الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال)، ج٣، ص١٤٨٣، ح١٨٥٦.

فقرر ابن عمر رضي الله عنه بتغييب عثمان عن بدر، وفراره يوم أحد، وتغييبه عن بيعة الرضوان، ولما صدقه ابن عمر فيما يقول طفق يكبر الله على ذلك، فأدرك ابن عمر رضي الله عنه أنه مخدوع، وبين له وجه الحقيقة في مواقف عثمان فقال: "أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغييبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: "إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً، وسهمه"، وأما تغييبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: "هذه يد عثمان"، فضرب بها على يده، فقال: "هذه لعثمان"، وأمره ابن عمر الرجل الخارجي أن يحدث المصريين بهذا الجواب الحقيقي، وقال له: "اذهب بها الآن معك" (١).

❏ أبرز صفات عثمان في الإسلام:

كان عثمان رضي الله عنه من خيار الناس في الجاهلية والإسلام، ولم يزد الإسلام إلا عزاً، على أن أبرز ما عرف به في الإسلام يتمثل في الآتي:

(١) حيأؤه وعفته:

كان عثمان رضي الله عنه شديد الحياء، ولما تحدث النبي ﷺ عن خلق الحياء بين أصحابه قال: "وأصدقهم حياءً عثمان" (٢)، وحدث أن كان رسول الله ﷺ مضطجعا في بيت عائشة رضي الله عنها كاشفاً عن فخذه، أو ساقه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وحدثه وهو على تلك الحال، ثم استأذن عمر، فأذن له وحدثه وهو كذلك، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة للنبي ﷺ: دخل أبو بكر فلم تهتس له ولم تبأله، ثم دخل عمر فلم تهتس له ولم تبأله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال رسول الله ﷺ: "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة" (٣).

وقد شاهدت عائشة رضي الله عنها موقفاً آخر، وذلك أن النبي ﷺ كان مضطجعا على فراشه، لايسا مرطها (٤)، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو كذلك، فقضى إليه حاجته، ثم

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه)، جـ ٣، ص ١٣٥٢، ح ٣٤٩٥.

(٢) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب المناقب)، جـ ٥، ص ٦٦٥، ح ٣٧٩١؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٠، ص ٢٥٢، ح ١٢٩٠٤، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عثمان رضي الله عنه)، جـ ٤، ص ١٨٦٦، ح ٢٤٠١.

(٤) المرط: كساء من صوف أو خز يؤتز به، ويكون للرجل والمرأة. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٧، ص ٤٠١.

انصرف، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ عَثْمَانُ فَجَلَسَ، فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لِي لَمْ أَرَكَ فَزَعْتَ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، كَمَا فَزَعْتَ لِعُثْمَانَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيٌّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ أَذْنِتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ"^(١).
وقد ذكر الحسن البصري (١١٠هـ/٧٢٨م) شدة حياء عثمان رضي الله عنه فقال: "إِنْ كَانَ لِيَكُونَ فِي الْبَيْتِ وَالْبَابِ عَلَيْهِ مُغْلَقٌ، فَمَا يَضَعُ عَنْهُ الثَّوبَ لِيُفِيضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ، يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ أَنْ يُقِيمَ صَلْبَهُ"^(٢)، وكان لامرأته جارية تسمى بُنَانَةَ، فكانت إذا جاءت عثمان بثيابه وهو يغتسل يقول لها: "لَا تَنْظُرِي إِلَيَّ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ"^(٣).

(٢) الكرم والسخاء:

كان عثمان رضي الله عنه من خزائن الله في أرضه^(٤)، وقد قام بدور كبير في إعانة الفقراء وتوفير احتياجاتهم من الأطعمة والمياه^(٥)، وفعله ببئر رومة^(٦) ليس بالمجهول، فعندما قدم النبي ﷺ المدينة وجد أصحابه يستعذبون الماء من تلك البئر التي يملكها يهودي يغالي في بيع مائها للمسلمين، فحث النبي ﷺ أصحابه على شرائها، وقال: "مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟" فاستجاب عثمان رضي الله عنه لرغبة النبي ﷺ واشتراها من صلب ماله^(٧)، بعشرين ألف درهم^(٨)، وجعلها سبيلا لسائر المسلمين^(٩).

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عثمان رضي الله عنه)، ج٤، ص ١٨٦٦، ١٨٦٧، ح ٢٤٠٢؛ البخاري: الأدب المفرد، (باب الحياء)، ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص ٥٥٤، ح ٥٤٣، والأثر رجاله ثقات.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٥٩، والخبر لا بأس به. علي محمد محمد الصلابي: تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١١٠.

(٤) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٤٢.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: الأزمات الاقتصادية عند المسلمين في العهد النبوي، دار الإيمان للمعرفة، القاهرة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، ص ١٤٢.

(٦) بئر رومة: تقع في وادي العقيق، وما زالت معروفة في آخر حرة المدينة الغربية. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ١٩٩؛ عاتق غيث البلاوي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ٢٨١.

(٧) الترمذي: السنن، (كتاب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه)، ج٥، ص ٦٢٧، ح ٣٧٠٣؛ النسائي: السنن الصغرى، (كتاب الأحباس، باب وقف المساجد)، ج٦، ص ٢٣٣، ح ٣٦٠٦؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص ٥٣٥، ٥٣٦، ح ٥١١، وصححه محققو المسند لغيره.

(٨) الذينوري: المجالسة وجواهر العلم، تحقيق/ مشهور حسن سلمان، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص ١٠٥؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص ٢٠.

(٩) ابن حبان: الصحيح، (ذكر مغفرة الله ﷻ لعثمان رضي الله عنه بتسبيله رومة)، ج٥، ص ٣٦٢، ح ٦٩٢٠، وحسنه الأرناؤوط.

وعندما عزم النبي ﷺ على توسيع المسجد النبوي نادى في أصحابه: "مَنْ يُوسِّعْ لَنَا بِهَذَا الْبَيْتِ فِي الْمَسْجِدِ بِنَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ؟" فَأَبْتَاعَهُ عَثْمَانُ مِنْ مَالِهِ فَوَسَّعَ بِهِ الْمَسْجِدَ (١). وحدث أن جاع الناس بسبب انقطاع الميرة عن المدينة، فخرج عثمان ﷺ إلى بقيع الغرقد فوجد خمس عشرة راحلة عليها طعام، فاشتراها، فحبس منها ثلاثاً، وأتى رسول الله ﷺ باثنتي عشرة، فقال له رسول الله ﷺ: "بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ، وَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أُعْطِيتَ" (٢).

ولما كان المسلمون في عُسرة اقتصادية سنة تبوك، فقد أنفق عثمان ﷺ نفقة عظيمة حتى كان أكثر المنفقين على ذلك الجيش، فعندما حث النبي ﷺ أصحابه على النفقة بقوله: "مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ"، جهَّزهم عثمان ﷺ (٣)، وجاء بألف دينار فنشرها في حجر النبي ﷺ فقلَّبها مراراً وهو يقول: "مَا ضَرَّ عَثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ" (٤). ويروى أن عثمان ﷺ تصدَّق بثلاثمائة بعير بأحلاسها (٥) وأقتابها (٦) لجيش تبوك (٧)، ولا مانع من ذلك؛ فقد صحَّ أن الصحابة أقرَّوا له بتجهيز جيش العسرة (٨).

وعندما أصيب الناس بأزمة اقتصادية في عهد الصديق واجتمعوا إليه، وشكوا له قحوط الأمطار، وانعدام النبات، أمرهم بالصبر والانصراف، وأكد لهم قرب انفراج الأزمة، "إِنَّكُمْ لَا تُمْسُونَ حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ ﷻ عَنْكُمْ"، فتحقَّق رجاء الصديق ويقينه في ربه، فلم يلبث الناس إلا قليلاً حتى قدمت من الشام قافلة لعثمان فيها مائة راحلة محمَّلة بالبرِّ

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٤٧٩، ح ٤٢٠، وصححه محققو المسند.

(٢) ابن أبي عاصم: الأحاد والمثاني، جـ ١، ص ٤٧٦، ٤٧٧، ح ٦٦٦؛ ابن شبة تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٩٦.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضاً أو بئراً واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين)، جـ ٣، ص ١٠٢١.

(٤) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن غريب"، (كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان ﷺ)، جـ ٥، ص ٦٢٦، ح ٣٧٠١؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٣، ص ٢٣٢، ح ٢٠٦٣٠، وحسنه محققو المسند.

(٥) الحلس: كل ما يوضع على ظهر الدابة أو البعير تحت الرِّحْل والقَتَب والسرَّج. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٦، ص ٥٤.

(٦) القَتَب: هو الرِّحْل الذي يوضع حول سنام البعير. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١، ص ٦٦٠، ٦٦١.

(٧) الترمذي: السنن، وقال: "حديث غريب"، (كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان ﷺ)، جـ ٥، ص ٦٢٠، ح ٣٧٠٠؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٧، ص ٢٤٧، ح ١٦٦٩٦، وضعفه محققو المسند، وقد حسن عبد القادر

الأرناؤوط حديث الترمذي برواية سابقة عليه. ابن الأثير: (مجد الدين: ت ٦٠٦هـ)، جامع الأصول في أحاديث

الرسول، تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، دار البيان، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، جـ ٨،

ص ٦٣٦، ح ٦٤٧١، ووافقه علوي عبد القادر السَّقَاف. تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن، ص ٢٧٤.

(٨) مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، جـ ٢، ص ١٩٣، ١٩٤.

والطعام، فاجتمع التجار إلى باب عثمان ﷺ ليشتروا منه الطعام ثم يبيعوه للفقراء، فأدخلهم داره ورحب بهم، وأوقفهم على الطعام، ثم سألهم كم تربحوني على شرائي من الشام؟ فقالوا: للعشرة اثنا عشر، وما زالوا يزيدونه حتى جعلوا للعشرة خمسة عشر، فرد عليهم عثمان ﷺ بأنه قد زيد على ذلك، فقالوا: ما بقي في المدينة تجاراً غيرنا، فمن ذا الذي زادك؟ فقال: زادني الله ﷻ بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ فقالوا: اللهم لا، قال: فإنني أشهد الله أنني قد جعلت هذا الطعام صدقة على فقراء المسلمين^(١).

(٣) تعلق عثمان بالقرآن العظيم:

لقد حفظ عثمان ﷺ القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ، وعرضه عليه كاملاً قبل وفاته، وروى قول النبي ﷺ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"^(٢). ولعثمان ﷺ أقوال في القرآن الكريم تدل على تعلقه به، وحبّه له، وحياته به^(٣)، حيث قال: "إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَنْظُرُ فِي الْمَصْحَفِ"، و"لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهَّرَتْ مَا شَبِعْنَا مِنْ كَلَامِ رَبِّنَا"^(٤)، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف، ف قيل له في ذلك فقال: "إنّه مباركٌ جاء به مبارك"^(٥)، وما مات عثمان ﷺ حتى خرق مصحفه من كثرة ما يُديم النظر فيه، وقد روي من غير وجه أنّه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود، أيام الحجّ، وقد كان هذا من دأبه، ولما هجم عليه الخوارج يوم الدار ليقتلوه، قالت امرأته: "اقتلوه أو دعوهُ، فوالله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة"^(٦).

وقال حسان بن ثابت ﷺ في رثائه^(٧):

ضَحَوًا بِأَشْمَطَ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ * * يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا

(١) الآجري: الشريعة، جـ ٤، ص ٢٠١٣، ح ١٤٨٦؛ الخرکوشي: شرف المصطفى، دار البشائر الإسلامية، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، جـ ٥، ص ٤٧٠، ٤٧١.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه)، جـ ٤، ص ١٩١٩، ح ٤٧٣٩.

(٣) علي محمد محمد الصلابي: تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان، ص ٢٥-٢٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٤٠.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق/ فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ص ٤٧٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٤٠. وقول امرأة عثمان صحيح إلى محمد بن سيرين، لكنه منقطع. محمد عبد الله عبد القادر غبان: فتنة مقتل عثمان، عمادة البحث العلمي، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،

جـ ١، ص ٤٤٣.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٤٠.

(٤) العفو والصّفح والحلم واللين:

لقد اشتهر عثمان ؓ بالعفو والصّفح والحلم واللين، ويكفي في ذلك أنّه خرج لصلاة الغداة يوماً فزحمه الباب الذي يدخل منه، فأشار على غلمانه والمحيطين به بكشف السبب، فأتوه برجل يميني مسلّح بخنجر أو سيف، فسأله عثمان ؓ عن أمره، فصّرّح بأنّه أراد قتله لأنّ عامله على اليمين ظلمه، فتعجّب عثمان من أمره، وقال: "أفلا رفعت ظلامتك إليّ، فإن لم أنصفك أو أعديك على عاملي أردت ذاك مني؟" واستشار من حوله في أمر هذا الجاني، فأشاروا عليه بضرورة معاقبته، لأنّه عدوّ أمكن الله منه، ولكنّه عفا عنه، وأطلق سراحه بكفالة رجل من قومه، وما ضربه سوطاً، ولا حبسه يوماً، غير أنّه منعه من دخول المدينة مدّة خلافته^(١).

وكان عثمان ؓ يدرك أنّ حلمه قد جرّأ عليه النّاس، فعندما عزم على زيادة المسجد الحرام وتوسيعته سنة ٢٦هـ/٦٤٦م، ابتاع من قوم وأبى آخرون، فهدم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصيحوا به، فأمر بحبسهم، وقال: ما جرّأكم عليّ إلا حلمي، قد فعل هذا بكم عمر ؓ فلم تصيحوا به، ثمّ كلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد الأمويّ - وكان من عظماء قريش - فأخرجوا^(٢).

وهذه الأخلاق الفاضلة إنّما تفيد مع أهل الخير والصّلاح، وأمّا أهل الشرّ والإفساد فلا تزيدهم إلا جراءة واستهتاراً، وسيّضح هذا الأمر عند الحديث عن موقف عثمان ؓ من الخارجين على خلافته، ولهذا سنرى ابن عمر ؓ يقول: "لَقَدْ عِبْتُمْ عَلَى عُثْمَانَ أَشْيَاءَ لَوْ أَنَّ عُمَرَ فَعَلَهَا مَا عِبْتُمُوهَا"^(٣).

ولعلّ عثمان ؓ توقع قرب الفتنة التي أخبره بها النّبيّ ﷺ، ممّا دفعه إلى أن يلين في سياسته مع النّاس، ويتّخذ من المسامحة منهجاً في التّعامل مع الرعيّة، تجنّباً للفتن، وتخفيفاً من وطأتها إن وقعت، لأنّها ستقع حتماً، لإخبار النّبيّ ﷺ بوقوعها^(٤).

(١) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ١٣٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٩٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، جـ ٣، ص ٣١٥.

(٣) ابن أبي شبة: المصنف، جـ ٦، ص ٣٦٢، بإسناد صحيح.

(٤) محمد عبد الله عبد القادر غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٦٤.

الفصل الثاني

استخلاف عثمان ومنهجه في الحكم

لم يكن الحديث عن خليفة الفاروق ؓ وليد إصابته على يد أبي لؤلؤة المجوسي، فقد شاع بين الناس في حجة عمر الأخيرة أن الخليفة بعده عثمان بن عفان^(١)، وسَمِعَ الحادي يحدو بذلك^(٢)، فسأل الفاروق حذيفة بن اليمان بعرفات عن الرجل الذي يؤمره المسلمون بعد وفاته فأخبره أنه عثمان بن عفان^(٣)، وكان عمر قد رأى في منامه كأن ديكاً نقره ثلاث نقرات فأولاه بحضور أجله، وذكره للناس فطالبوه بالاستخلاف، فلما خطبهم يوم الجمعة^(٤) ذكر رؤياه وتأويلها^(٥)، ثم قال: "وإن أقواماً يأمرُونِي أَنْ أَسْتَخْلِفَ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعْ دِينَهُ وَلَا خِلَافَتَهُ، وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ"^(٦)، فلما أصيب وألح الناس عليه بالاستخلاف لم يجبههم إلى طلبهم، وقال: "أَتَحْمِلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا! لَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الْكَفَافُ لَا عَلَى وَلَا لِي، فَإِنْ أَسْتَخْلِفْتُ فَقَدْ اسْتَخْلَفْتُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي -يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ- وَإِنْ أَتْرَكْتُكُمْ فَقَدْ تَرَكْتُكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ". وعلق عبد الله بن عمر على كلام أبيه فقال: "فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حِينَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ"^(٧).

غير أن الفاروق لم يستسلم لآلام الطعنات والجراحات التي ألمت به، ولم ينشغل بنفسه عن أمر المسلمين، بل ثبت ينصح للمسلمين، ويرتب لهم أمر اختيار الخليفة القادم بتماسك عقلي وثبات جنان لا يصنعه إلا إيمان عميق، ورشح ستة نفر لاختار المسلمون الخليفة من بينهم فقال: "مَا أَجْدُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ، أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ

-
- (١) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٤٤٠. وسنده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٨.
 (٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ١، ص ٤٩٣؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٨٦؛ البغوي: معجم الصحابة، جـ ٤، ص ٣٣١. وصحح ابن حجر إسناده البغوي. فتح الباري، جـ ١٣، ص ١٩٨.
 (٣) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٨٦. وسنده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٨.
 (٤) خطب الفاروق عمر ؓ يوم الجمعة وأصيب يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة. أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٤٢٠، ٤٢١.
 (٥) نصت رواية لابن أبي شيبه بأن عمر ؓ رأى رؤياه البارحة قبل خطبة الجمعة. المصنف، جـ ٦، ص ١٨٠.
 (٦) مسلم: الصحيح، (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهى من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها)، جـ ١، ص ٣٩٦، ح ٥٦٧؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٢٤٩، ٢٥٠، ح ٨٩.
 (٧) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، جـ ٦، ص ٢٦٣٨، ح ٦٧٩٢؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الإمارة، باب الاستخلاف وتركه)، جـ ٣، ص ١٤٥٤، ح ١٨٢٣.

تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ^(١)، وَقَالَ: يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ -كَهَيْئَةِ التَّغْزِيَةِ لَهُ- فَإِنْ أَصَابَتْ الْإِمْرَةَ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِرَ، فَإِنِّي لَمْ أَغْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ، وَلَا خِيَانَةٍ، وَأَوْصَى الْخُلَيْفَةَ مِنْ بَعْدِهِ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلِ الْأَمْصَارِ وَالْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الذِّمَّةِ^(٢).

وَلَمَّا كَانَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ﷺ غَائِبًا فِي أَمْوَالِهِ بِالسَّرَّاءِ^(٣)، فَقَدْ دَخَلَ الْخَمْسَةَ الْمُرْشَحُونَ لِلْخِلَافَةِ عَلَى عَمْرِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: "إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ لَكُمْ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ النَّاسِ شِقَاقًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ، فَإِنْ كَانَ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ"، ثُمَّ خَصَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا فَقَالَ: "إِنَّ قَوْمَكُمْ إِنَّمَا يُؤَمِّرُونَ أَحَدَكُمْ أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَلَا تَحْمِلْ ذَوِي قَرَابَتِكَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ يَا عُثْمَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ فَلَا تَحْمِلَنَّ بَنِي أَبِي مُعِيطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَلِيُّ فَلَا تَحْمِلَنَّ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ"، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا لِيَتَشَاوَرُوا فِي تَأْمِيرِ أَحَدِهِمْ، فَدَعَا عُثْمَانُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ لِيَدْخُلَهُ فِي الْأَمْرِ، فَكَرِهَ اسْتِدْعَاؤَهُ لَهُ؛ لَعَلَّمَهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أَمْرِهِمْ مَا قَالَ عَمْرُ ﷺ، وَأَقْسَمَ عَبْدُ اللَّهِ أَنَّهُ قَلَّ مَا رَأَى أَبَاهُ يَحْرِكُ شَفَتَيْهِ بِشَيْءٍ قَطُّ إِلَّا كَانَ حَقًّا، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ عُثْمَانُ قَالَ لَهُ: "أَلَا تَعْقِلُونَ؟ أَتُؤَمِّرُونَ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَيٌّ؟" فَانْتَبَهَ عَمْرُ ﷺ وَقَالَ: "أَمْهَلُوا، فَإِنْ حَدَّثَ بِي حَدَّثٌ فَلْيُصَلِّ لَكُمْ صَهِيْبٌ ثَلَاثَ لَيَالٍ، ثُمَّ أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، فَمَنْ تَأَمَّرَ مِنْكُمْ عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ"^(٤).

وَاسْتَدْعَى عَمْرُ ﷺ صَهِيْبًا فَقَالَ لَهُ: "صَلِّ بِالنَّاسِ -ثَلَاثًا- وَأَدْخِلْ هَؤُلَاءِ فِي بَيْتٍ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ، فَمَنْ خَالَفَهُمْ فَلْيَضْرِبُوا رَأْسَهُ، فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ: إِنْ وَلَّوْا الْأَجْلَحَ

(١) استبعد عمر سعيد بن زيد العدوي من المرشحين للخلافة مع أنه من العشرة المبشرين بالجنة، لكونه من عشيرته، وخشية أن يراعى في الإمارة بسببه. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٥٥. ومبالغة في التبري من الأمر لقرابته منه. ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٦٧.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان ﷺ)، جـ ٣، ص ١٣٥٣، ح ٣٤٩٧. (٣) السَّراء: المنطقة الجبلية الواقعة جنوب الطائف إلى قرب أبها. عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ١٥٥.

(٤) البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٨، ص ٢٥٩، ٢٦٠، ح ١٦٥٨٠؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٣٤٤، وصح ابن حجر إسناده ابن سعد. فتح الباري، جـ ٧، ص ٦٨.

سَلَكَ بِهِمُ الطَّرِيقَ"، فسأله عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن السَّبَب الذي يمنعه من استخلاف علي؟ فقال: "أَكْرَهُ أَنْ أَحْمِلَهَا حَيًّا وَمَيِّتًا"^(١).

وروي أن عمر رضي الله عنه قال للستّة المرشّحين: "بايعوا لمن بايع له عبد الرحمن ابن عوف، فإذا بايعتم لمن بايع له عبد الرحمن فمن أبي فاضربوا عنقه"^(٢)، وأنه قال للأَنْصار: "أدخلوهم بيتاً ثلاثة أيّام، فإن استقاموا وإلا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم"^(٣).
ويبعد أن يأمر عمر رضي الله عنه المرشّحين بمبايعة من يبايع له عبد الرحمن بن عوف، وقد جعل الأمر للمسلمين يختارون أحدهم^(٤)، والأقرب في وصيّته للأَنْصار هي الرواية التي كَلَّفَ فيها أبا طلحة الأَنْصاري رضي الله عنه أن يختار خمسين رجلاً من الأَنْصار ويستحثّ هؤلاء الرّهط حتّى يختاروا أحدهم^(٥).

ولمّا فرغ المسلمون من دفن عمر رضي الله عنه اجتمع الرّهط المرشّحون للخلافة، فأشار عليهم عبد الرحمن بن عوف أن يجعلوا أمرهم إلى ثلاثة منهم، فاختار سعدٌ عبد الرحمن، واختار الزّبير عليّاً، واختار طلحة عثمان^(٦)، ثمّ تدرّج عبد الرحمن للخطوة التّالية، فاقترح على عثمان وعليّ أن يتبرأ أحدهما من الأمر، ويتولّى مهمّة اختيار الخليفة، فسكت الشّيخان^(٧)، فأعلن عبد الرحمن خروجه من تلك المنافسة^(٨)، وعرض عليهما أن يتولّى مهمّة إجراء الاستفتاء واختيار الأفضل للخلافة، وأعطاهما عهد الله على القيام بالأمر بنزاهة تامّة فوافقاه^(٩).

(١) رواد الحارث بن أبي أسامة، وصححه الحافظ بن حجر. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، جـ ٥، ص ٧٧٦،

ح ٣٨٩٨، كما صحح البوصيري إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ ٧، ص ١٦٨، ح ٦٥٩١.

(٢) الطبراني: المعجم الأوسط، جـ ٨، ص ٩٥، ح ٨٠٧٦، وإسناده منقطع، وفيه عبد الله بن زيد بن أسلم ضعفه الجمهور. الهيثمي: مجمع الزوائد، جـ ٥، ص ١٨٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٣٤٢، والأثر ضعيف، وليس له إسناده متصل. عبد السلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية، جـ ٢، ص ١١١٤.

(٤) عبد السلام آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في سيرة عمر بن الخطاب، جـ ٢، ص ١١١٦.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٥٠٤.

(٦) روى المدائني أنّ طلحة لم يحضر إلا بعد المبايعة لعثمان، وقد رجّح ابن حجر رواية الصحيح، وفيها دلالة على أنّه كان غائبا عند وصيّة عمر، وأنّه حضر قبل أن يتمّ أمر الشورى. فتح الباري، جـ ٧، ص ٦٩.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصّة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله عنه)، جـ ٣، ص ١٣٥٣، ح ٣٤٩٧.

(٨) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، جـ ٦، ص ٢٦٣٤، ح ٦٧٨١.

(٩) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصّة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله عنه)، جـ ٣، ص ١٣٥٣، ح ٣٤٩٧.

وعندما علم النَّاسُ بتفويض عبد الرَّحْمَنِ لاختيار الخليفة مالوا إليه يشاورونه في الأمر^(١)، فنهض لاستفتاء النَّاسِ ومعرفة آرائهم حول عثمان وعليٍّ، فظلَّ دائبا للسَّؤال ثلاثة أيَّامٍ لبلياليها لا يدع أحدا من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد^(٢)، ولا وفود العرب ولا صالحى التَّابعين إلا سألَه عن رأيه في الخليفة المرتقب، فاجتمعت غالبية أصواتهم على عثمان^(٣).

كما أجرى عبد الرَّحْمَنِ مقابلات مع النَّفر المرشَّحين للخلافة واحدا تلو الآخر في الليلة التي أُعلن اسمُ الخليفة في صبيحتها^(٤)، فكان كلِّما دعا رجلا منهم ذكر مناقبه، ثمَّ قال: "إِنَّكَ لَهَا لِأَهْلٍ فَإِنْ أَخْطَأْتُكَ فَمَنْ؟ فَيَقُولُ: إِنْ أَخْطَأْتَنِي فَعُثْمَانُ"^(٥)، وقد بات عبد الرَّحْمَنِ يحاور عليًّا حتَّى منتصف تلك الليلة، ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا^(٦)، من المخالفة وعدم المطاوعة^(٧).

ولمَّا أُذِنَ للفجر اجتمع النَّاسُ للصُّبْح كما يجتمعون للجمعة انتظارا لمعرفة الخليفة ومبايعته، فأمر عبد الرَّحْمَنِ النَّفر المرشَّحين أن يجلسوا بين يدي المنبر، وانتظر حتَّى طلعت الشَّمْسُ، ثُمَّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وكشف للنَّاسِ عن الخطَّة التي قام بها في استفتاء النَّاسِ ومعرفة آرائهم^(٨)، وأخذ العهد والميثاق على المرشَّحين بالسمع والطَّاعة لمن يتولَّى الأمر^(٩)، ثُمَّ أعلن أمام الجميع أنَّ غالبية أصوات المرشَّحين وأصوات

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبائع الإمام النَّاسَ)، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٢) كان أمراء الأجناد قد وافوا تلك الحجة مع عمر رضي الله عنه. البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبائع الإمام النَّاسَ)، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥، ورجال الأثر ثقات، وإسناده متصل بمجموع طرقه كما خرَّجه محقق المطالب العالية لابن حجر. جـ١٧، ص٦٢٧، ح٤٣٦٢.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبائع الإمام النَّاسَ)، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٥) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٥، ح٥٩٦، وصحح البوصيري إسناده الأثر. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ٥، ص١٧، ح٤١٦٠.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبائع الإمام النَّاسَ)، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٧) ابن حجر: فتح الباري، جـ١٣، ص١٩٧.

(٨) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥، ورجال الأثر ثقات، وإسناده متصل بمجموع طرقه كما خرَّجه محقق المطالب العالية لابن حجر. جـ١٧، ص٦٢٧، ح٤٣٦٢.

(٩) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصَّة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله عنه)، جـ٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

الناس قد اجتمعت على عثمان^(١)، ولما كان عبد الرحمن يخشى مخالفة عليٍّ ﷺ فقد بادره بقوله: "يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ، فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلَيَّ نَفْسِكَ سَبِيلًا"^(٢)، ورفع يد عثمان فبايعه، فبايع له عليٌّ ﷺ^(٣)، وتبعه المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون^(٤)، ولم يعترض أحدٌ على عبد الرحمن، ولم يخالف أحدٌ على عثمان^(٥)، وكانت مبايعته لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣هـ / ٦ نوفمبر ٦٤٤م، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين^(٦).

وكان عثمان ﷺ جديراً بتولي الخلافة بعد الفاروق، وقد صحَّ عن عبد الله ابن عمر ؓ أنه قال: "كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ"^(٧).

ويُروى أنه قيل لعبد الرحمن بن عوف: "كَيْفَ بَايَعْتُمْ عُثْمَانَ وَتَرَكْتُمْ عَلِيًّا؟ قَالَ: مَا ذَنْبِي؟ قَدْ بَدَأْتُ بِعَلِيٍّ، فَقُلْتُ: أَبَايَعُكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: فِيمَا اسْتَطَعْتُ، ثُمَّ عَرَضْتُهَا عَلَى عُثْمَانَ، فَقَبِلَهَا"^(٨).

ولا ننسى تقديم الشكر الجزيل للمتابع لعبد الرحمن بن عوف الزهري، فإن إخراجَه لنفسه من الخلافة ونهوضه لمعرفة أراء أهل الحلّ والعقد حتّى اجتمعت الأمة على عثمان لمن أفضل أعماله، ولو كان محابياً فيها لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص^(٩).

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥، ورجال الأثر ثقات، وإسناده متصل بمجموع طرقه كما خرّجه محقق المطالب العالية لابن حجر. جـ١٧، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٤٣٦٢.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس)، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان ﷺ)، جـ٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس)، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٥) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥، ورجال الأثر ثقات، وإسناده متصل بمجموع طرقه كما خرّجه محقق المطالب العالية لابن حجر. جـ١٧، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٤٣٦٢.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٦٣، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٨٩.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ)، جـ٣، ص١٣٣٧، ح٣٤٥٥.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٦٠، ح٥٥٧، وإسناده ضعيف، فيه سفيان بن وكيع، كان صدوقاً، إلا أنه ابتلى بورآقه، فأدخل على حديثه ما ليس منه، ونصح فلم يقبل، فسقط حديثه. ابن حجر: تقريب التهذيب، جـ١، ص٢٥٢.

(٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١، ص٨٦.

وأما ما يذكره كثير من المؤرخين عن رجال لا يعرفون أنّ عليّاً قال لعبد الرحمن خدعتني، وإنّك إنّما وليّته لأنّه صهرُك، وليسأورك كلّ يومٍ في شأنه، وأنّه تلكاً حتّى قال له عبد الرحمن: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا»^(١)، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصّحاح فهي مردودةٌ على قائلها وناقليها، والمظنون بالصّحابة خلافٌ ما يتوهم كثيرٌ من الرافضة وأغبياء القصاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها، ومستقيمها وسقيمها^(٢).

❏ إعلان عثمان لمنهجه في الحكم:

كان عبد الرحمن بن عوف ؓ قد بايع عثمان بن عفان ؓ "على سنة الله ورسوله، والخليفتين من بعده"، وبايعه على ذلك المهاجرون والأنصار وأمرأه الأجناد وعامة المسلمين^(٣)، وقد روي أنّ عثمان أكّد على ما بايع عليه الناس، فخطب بعدما بويع فقال: "إِنِّي قَدْ حُمِلْتُ وَقَدْ قَبِلْتُ، أَلَا وَإِنِّي مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ثَلَاثًا: اتِّبَاعُ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ وَسُنَّتُمْ، وَسُنَّةُ أَهْلِ الْخَيْرِ فِيمَا لَمْ تَسْنُوا عَنْ مَلٍّ، وَالْكَفُّ عَنْكُمْ إِلَّا فِيمَا اسْتَوْجَبْتُمْ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ قَدْ شَهِيتَ إِلَى النَّاسِ، وَمَالَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، فَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَّقُوا بِهَا، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِثَقَّةٍ، وَعَلِّمُوا أَنَّهَا غَيْرُ تَارِكَةٍ إِلَّا مَنْ تَرَكَهَا"^(٤).

وأما ما أشاعه رواة الأخبار بأنّ عثمان ؓ صعد للخطبة فأرتج^(٥) عليه^(٦)، وأنّه اعتذر للناس فقال: "إِنَّ أَوَّلَ مَرْكَبٍ صَعَبٌ، وَإِنَّ بَعْدَ الْيَوْمِ أَيَّامًا، وَإِنْ أَعِشْ تَأْتِكُمُ الْخُطْبَةُ

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٦٥.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس)، جـ ٦، ص ٢٦٣٤، ح ٦٧٨١.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٩٣؛ المالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ص ٤٢. والأثر من طريق سيف التميمي.

(٥) أرتج عليه: استغلق عليه الكلام. ابن منظور: لسان العرب، جـ ٢، ص ٢٨٠.

(٦) الزبير بن بكار: الأخبار الموفّقات، تحقيق/ سامي مكي العاني، عام الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٧٣؛ وقد استغربه الزيلعي: نصب الرأية لأحاديث الهداية، تحقيق/ محمد عوامة، مؤسسة الريان، بيروت، دار القبلة، جدّة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، جـ ٢، ص ١٩٧.

عَلَى وَجْهِهَا، وَمَا كُنَّا خُطَبَاءَ، وَسَيَعْلَمُنَا اللَّهُ^(١)، فلم ير له الحافظ ابن كثير إسنادا تسكن النفس إليه^(٢).

وقد بدأ عثمان ؓ مهام خلافته بإقرار عمال الفاروق، فلم يعزل منهم أحدا عاما كاملا أخذا بوصية الفاروق عمر ؓ^(٣)، ويستخلص من الكتب التي أرسلها عثمان للولاية وقادة الجند وعمال الخراج والعامّة^(٤) أنه سيسير على سياسة عمر ؓ، ويركز على قيم العدل السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وذلك بإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، وأخذ ما عليهم، وإعلاء شأن مبدأ الرعاية السياسية لا الجباية وتكثير الأموال^(٥).

وكانت قضية مقتل الهرمزان أول ما عرض لعثمان ؓ، فأخذ فيها برأي عمرو ابن العاص، وأهدر دم القتيل^(٦)، وزعم سيف التميمي أن عثمان ؓ أمكن القماذيان بن الهرمزان من عبيد الله بن عمر بن الخطاب ؓ، وأمره أن يقتله، وأيده على ذلك الصحابة والمسلمون، وسبوا عبيد الله، إلا أنهم طلبوا منه العفو من غير عزيمة عليه، فلما رأى أنهم لا يمنعون من قتله تركه الله ولهم، فأعجب الناس بصنيعه، فاحتملوه على رؤوسهم وأكفهم حتى بلغ منزله^(٧)، لكن لا يصحّ هذا الادّعاء^(٨).

وينهض ابن عساكر لتقوية عفو القماذيان عن عبيد الله بن عمر؛ بحجة أن الطاعنين على عثمان ؓ أقرّوا له بعدل ستّ سنين، ولم يقولوا استأنف الجور من لدن ولي، وعطلّ حدّا من محارم الله^(٩)، إلا أن النقل الصحيح مقدم على الضعيف والاستنتاج المحتمل، ولأنّ القول بعدل عثمان ستّ سنين ليس من قول الخوارج الطّعّانين كما سيأتي في الحديث عن الفتنة.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٦٢؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٥١٠.

(٢) البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٦٦.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم في أخبار الملوك والأمم، جـ ٤، ص ٣٣٨.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٩٠.

(٥) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٤٦.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٣٥٥. وأورد ابن حجر هذه القصة من طريق الكرابيسي في أدب القضاء، وصحح

إسنادها إلى سعيد بن المسيّب: الإصابة، جـ ٦، ص ٤٤٩.

(٧) المالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ص ٤٠.

(٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٤٤٨.

(٩) تاريخ دمشق، جـ ٣٨، ص ٦٨.

الفصل الثالث

جمع القرآن في عهد عثمان

تفرّق القراء في الأمصار في عهد عثمان ؓ، وأخذ أهل كل إقليم بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فقرأ أهل الشام بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة بقراءة أبي موسى الأشعري، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة، وتنازع الناس في تفضيل قراءة على أخرى، وعظم الأمر، حتى كادت الفتنة أن تقع في جميع البلدان الإسلامية بما فيها مكة والمدينة^(١).

ووصف أبو قلابة ما حدث بين القراء آنذاك بقوله: "لَمَّا كَانَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ جَعَلَ الْمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ، وَالْمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ، فَجَعَلَ الْغُلَمَانُ يَلْتَقُونَ فَيَخْتَلِفُونَ حَتَّى ارْتَفَعَ ذَلِكَ إِلَى الْمُعَلِّمِينَ، حَتَّى كَفَرَ بَعْضُهُمْ بِقِرَاءَةِ بَعْضٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُثْمَانَ، فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ: "أَنْتُمْ عِنْدِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَتَلْحَنُونَ، فَمَنْ نَأَى عَنِّي مِنَ الْأَمْصَارِ أَشَدُّ فِيهِ اخْتِلَافًا، وَأَشَدُّ لَحْنًا، اجْتَمِعُوا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ وَاكْتُبُوا لِلنَّاسِ إِمَامًا"^(٢).

وصدق حدّس عثمان ؓ؛ فقد كانت الأمصار النائية أشدّ اختلافًا ونزاعًا من المدينة والحجاز، وكان حذيفة بن اليمان ؓ يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق فأفرّعه اختلافهم في القراءة، فقدم على عثمان فقال: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى"، فأرسل عثمان إلى حفصة: "أَنْ أُرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسُخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ"، فأرسلت بها إليه، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٣)، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيين الثلاثة: "إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ"، ففعلوا، وردّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُنْفًى بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف، أن يحرق^(٤).

(١) أكرم الدليمي: جمع القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ١٧٧، ١٧٨.

(٢) ابن أبي داود: كتاب المصاحف، ص ٩٥.

(٣) استظهر هؤلاء النساخ بأبي بن كعب ؓ في الإملاء. ابن حجر: فتح الباري، ج ٩، ص ١٩.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن)، ج ٤، ص ١٩٠٨، ح ٤٧٠٢.

وقد حفظ الزهري نموذجاً من الاختلافات التي كتبها النساخ بلغة قريش، فقال: "اختلفوا يومئذ في التَّابُوتِ والتَّابُوه، فَقَالَ الْقُرَشِيُّونَ: التَّابُوتُ، وَقَالَ زَيْدٌ: التَّابُوه، فَرَفَعَ اخْتِلَافَهُمْ إِلَى عَثْمَانَ، فَقَالَ: "اَكْتُبُوهُ التَّابُوتُ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ"^(١).

ولمَّا شَقَّقَ عَثْمَانُ ﷺ المصاحف الأخرى وأحرقها رضي الصحابة صنيعة وأعجبوا به، ولم يعبه أحدٌ بذلك^(٢)، وأحرقوا مصاحفهم المخالفة له، ولم يتخلف عن ذلك -في بادئ الأمر- إلا عبد الله بن مسعود ﷺ؛ فإنه شقَّ عليه صرفه عن كتابة المصاحف^(٣)، و"كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف، وقال: "يا معشر المسلمين، أُعْزِلْ عَنْ نَسْخِ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ وَيَتَوَلَّاهَا رَجُلٌ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ"، وقال: "يا أهل العراق، اكنتموا المصاحف التي عندكم وعلوها، فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾"^(٤)، فآلقوا الله بالمصاحف^(٥).

وقد عدل عثمان ﷺ عن ابن مسعود إلى زيد بن ثابت في نسخ المصاحف؛ لأنَّ زيدا أحدث القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عام توفي، وكان إماماً في الرسم بكتابه للنبي ﷺ، كما مارس كتابة المصحف عندما ندبه الصديق لجمع القرآن، وأمّا ابن مسعود فكان إماماً في الأداء دون الرسم؛ لأنَّه لم يكن من بين كتبة الوحي الذين كتبوا للنبي ﷺ^(٦)، وكان زيدٌ أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كلُّه في حياة رسول الله ﷺ، ولم يحفظ منه عبد الله في حياة النبي ﷺ إلا نيفاً وسبعين سورة، ثم تعلَّم الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ، فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حيّ أولى بجمع المصحف وأحقّ بالإثارة والاختيار، ولا ينبغي أن يظنَّ في هذا طعنًا على عبد الله ابن مسعود؛ لأنَّ زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه؛ لأنَّ زيدا كان أحفظ للقرآن من أبي بكر وعمر، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل^(٧).

(١) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة)، جـ ٥، ص ٢٨٤، ح ٣١٠٤؛ ابن حبان: الصحيح، (ذكر ما يستحب للإمام اتخاذه الكاتب لنفسه لما يقع من الحوادث والأسباب في أمور المسلمين)، ج ١٠، ص ٣٦٢. وصحح الأرنؤوط إسناده على شرط الشيخين.

(٢) البخاري: التاريخ الكبير، جـ ٧، ص ٣٥٠؛ ابن أبي داود: كتاب المصاحف، ص ٦٨.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج ٩، ص ١٩.

(٤) سورة آل عمران: من الآية ١٦١.

(٥) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة)، جـ ٥، ص ٢٨٤، ح ٣١٠٤.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٤٨٨؛ أكرم الدليمي: جمع القرآن، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق/ أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية،

١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج ١، ص ٥٣.

وقد بعث عثمان إلى ابن مسعود يأمره بالقدوم عليه في المدينة فاجتمع عليه أهل الكوفة، وطالبوه بعدم المسير إلى الخليفة، ووعده بالنصرة والمنعة، فأبى إلا المسير وحده ورد الناس، وهو يقول: "إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمُورٌ وَفِتْنٌ، لَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهَا وَلَهُ عَلَيَّ طَاقَةٌ"^(١)، ولما التقى به الخليفة وعظه وحذره الفرقة فاستجاب ورجع إلى الجماعة وحث أصحابه على ذلك^(٢).

ولم يكن جمع الصديق وعثمان رضي الله عنهما واحداً؛ فإن جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي ﷺ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم البعض، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر في سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرص والمشقة في ابتداء الأمر، ورأى أن الحاجة قد انتهت، فاقصر على لغة واحدة^(٣).

ولما تم نسخ المصاحف رد عثمان رضي الله عنه الصحف إلى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها إيفاء بالعهد الذي أعطاه إياها، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم الأموي يطلبها، فلم تعطه حتى ماتت، فعند ذلك عزم على أخيها عبد الله بن عمر بن الخطاب حتى أخذها منه فأحرقها^(٤)؛ لئلا يكون فيها شيء يخالف المصاحف الأئمة التي أنفذها عثمان رضي الله عنه إلى الآفاق^(٥).

(١) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ١٣، ص ٢٥٠. وإسناده صحيح.

(٢) ينظر: أكرم الدليمي: جمع القرآن، ص ١٩١.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج ٩، ص ٢١.

(٤) ابن أبي داود: كتاب المصاحف، ص ٥٧؛ أبو زرعة: تاريخ أبي زرعة الدمشقي، رواية أبي الميمون بن راشد، مجمع

اللغة العربية، دمشق، ص ٦٢؛ الطحاوي: شرح مشكل الآثار، ج ٥، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(٥) ابن كثير: فضائل القرآن، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، ص ٧٧.

الفصل الرابع

مواصلة الفتوحات في عهد عثمان ؓ

تمهيد:

من القول المكرور أنّ الفرس والرّوم قد ظلّوا أمدا بعيدا يتحكّمون في مصير العالم القديم قبل ظهور الأمة المحمّديّة، ولم يكن هؤلاء وهؤلاء يقيمون وزنا للأمة العربيّة، حيث كانوا يوكّلون بها بعض قرى الضّواحي فيكفونهم أمرها، ولم يدُر في خلدّهم يوما أن تكون نهاية الفرس وإذلال الرّوم على يد العرب المسلمين.

ولهذا فإنّ الفرس لم يستسلموا للفتوحات الإسلاميّة التي تمتّ في عهد الفاروق، ولم تكن طاعتهم إلا مجرد هدنة يرتّبون فيها أوضاعهم حتّى تواتيهم الفرصة لإعادة أمجادهم وطرّد المسلمين من البلاد التي دانت لهم، وقد رأوا في خبر مقتل عمر بن الخطاب ؓ فرصة مواتية، فطمعوا في استرداد أملاكهم، وبدأ يزدجرد يخطّ لذلك.

وأما زعماء الرّوم فقد تركوا بلاد الشّام وانتقلوا إلى القسطنطينيّة، وبدعوا في البحث عن الوسائل التي تمكّنهم من استرداد ملكهم، فوقف لهم الخليفة عثمان ؓ بالمرصاد، وعزم على إخضاع المتمرّدين، ومواصلة أعمال الجهاد والفتوح، وإقامة قواعد ثابتة يرباط فيها المسلمون لحماية البلاد المفتوحة، وإنشاء قوّة بحريّة عسكريّة لافتتقار الجيش الإسلاميّ إلى ذلك.

أولا: إعادة فتح بلاد فارس:

(١) إخضاع أذربيجان وأرمينية:

انتفض أهل أذربيجان على واليهم عتبة بن فرقد عقب وفاة عمر ؓ ومنعوا الجزية التي صالحوا عليها حذيفة بن اليمان سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، فغزاهم أمير الكوفة^(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأمويّ، فأسرعوا لمصالحته على صلح حذيفة -ثمانمائة ألف درهم- وأرسل سليمان بن ربيعة الباهليّ في اثني عشر ألفا إلى أرمينية فأخضعها، وعاد الوليد منتصرا إلى الكوفة سنة ٢٦هـ/٦٤٦م^(٢).

(١) كانت لأهل الكوفة قاعدتان لحماية البلاد المفتوحة في أذربيجان والرّي، فكان يقيم بأذربيجان ستة آلاف وبالرّي أربعة آلاف في الوقت الذي بلغ فيه الجيش الكوفي أربعين ألفا، فكان الغزو يصيب الجندي مرة كل أربع سنوات. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٩١. من طريق أبي مخنف.

(٢) يؤرّخ أبو مخنف إخضاع أذربيجان وأرمينية بسنة ٢٤هـ، والأرجح سنة ٢٦هـ، لأنّ المغيرة بن شعبه وسعد بن أبي وقاص سبقا الوليد على إمارة الكوفة في أول خلافة عثمان. حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٤٩. وينظر إخضاع أذربيجان وأرمينية عند الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٩١، ٥٩٢.

(٢) فتح طبرستان وجرجان:

أمر عثمان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الأمويّ على الكوفة سنة ٣٠هـ/٦٥٠م^(١)، فخرج غازيا ومعه جماعة من الصحابة فيهم: حذيفة بن اليمان، والحسن والحسين، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر الخطّاب، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فأتى جرجان فصالحه أهلها، وافتتح طبرستان عنوة بعد أن لاقى المسلمون مقاومة شديدة من أهلها، وصلى سعيد بالمسلمين صلاة الخوف وهم يقتتلون^(٢)، علمهم إياها حذيفة بن اليمان^(٣).

(٣) فتح فارس وخراسان:

انتقضت بلاد فارس وخراسان على المسلمين في بداية عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه فنهض والي البصرة عبد الله بن عامر بن كُرَيْز الأمويّ لإعادة فتحها سنة ٣١هـ/٦٥١م، فوجّه جيشا إلى سجستان، فافتتحها صلحا^(٤)، وكان يزدجرد قدم إصطخر في جمع من الأعاجم عقب انتقاض أهلها، فسار إليهم عبد الله بن عامر، فظفر بهم، وهرب يزدجرد نحو خراسان^(٥)، وغزا ابن عامر قلاع فارس فافتتحها ثانية، ثم توجه بجيوشه إلى خراسان لتتبع كسرى وقواد فارس، فلم يقف له شيء حتى افتتح مدينة مرو صلحا، وتتابع الفتوح على ابن عامر وجيوشه، ففتحت مرو الرُود، وطوس، وطخارستان، ونيسابور، وباذغيس، وأبيورد، وآمل، ثم خلف ابن عامر الأحنف بن قيس التميمي على خراسان، وأحرم بالحجّ من خراسان سنة ٣٢هـ/٦٥٢م^(٦)، ورجع إلى البصرة فعاود الغزو، وأقام سوق الجهاد، فافتتح بُسْت، وكابل، وزابلستان، ولم يزل ينتقص شيئا شيئا من خراسان حتى افتتح هراة، وبوشنج، وسرخس، وأبرشهر، والطالقان، والفارياب، وبلخ^(٧).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٦٠٨ - ٦١٢. من طريق سيف.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص ٥٩١. من طريق عمر بن شبة.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص ٨٠٢، ح ٢٣٢٦٨. وإسناده صحيح.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٤٥.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٩.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٤٦.

(٧) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٧.

(٤) مقتل الملك الفارسي يزدجرد:

كان يزدجرد قد أتى إصطخر في أصل بلاد فارس^(١)، فلما أتمَّ عبد الله بن عامر فتح إقليم فارس سنة ٣٠هـ/٦٥٠م، هرب يزدجرد^(٢)، إلى كرمان، فلم يحتمله مرزبانها، وطرده منها، فأتى سجستان، وهو يظنّ نفسه ملكاً، فطالب ملكها بالخراج، فتكرّ له، فسار إلى خراسان فتلّقه ماهويه مرزبان مرو معظماً مبعلاً، وقدم عليه خاقان التّرك نيزك طرخان فحمّله وخلع عليه وأكرمه، ومكث عنده شهراً، ثمّ كتب إليه يخطب ابنته فغضب يزدجرد، وكتب إليه يعنّفه على جرأته؛ لأنّه لا يعدو أن يكون عبداً من عبيد كسرى، وأمر بمحاسبة ماهويه مرزبان مرو وسأله عن الأموال، فاستعان عليه بصهره الخاقان، فأقبل إليه في الأتراك، وتضافرا على يزدجرد، فخرج لمواجهتهم فهزموه، وقتلوا أصحابه، ونهبوا عسكره، فرجع إلى مرو فلم يفتح له^(٣)، فهام على وجهه حتّى قتل على يد طحّان من رعيّته شرّاً قتلة سنة ٣١هـ/٦٥١م^(٤)، وقد اختلف الرواة في كيفية مقتله بما لا فائدة لنا من ورائه.

وفي هذا أبين عبرة للملوك والسلاطين، فهذا يزدجرد الفارسيّ يملك أربع سنين، لا ملك فوقه إلا ربّ العالمين، ثمّ يرسل الله ﷻ له جنداً من العرب المسلمين، فيبتلى بهم ستّ عشرة من السّنين، يتقلّب فيها بين البلدان والدّهاقين، ويتجرّع الخزي والهوان بين الحين والحين، إلى أن يهوي إلى أسفل سافلين، ويقتل على يد أحد عبيده الطّحّانين، فتنتهي به دولة الجبابة السّاسانيّين، فسبحان من يرفع أقواماً ويضع آخرين.

ثانياً: فتوح الجبهة الشّامية:**(١) هجوم البيزنطيين على الشّام:**

قام البيزنطيون بهجوم عنيف على بلاد الشّام في أوّل خلافة عثمان ؓ فلجأ معاوية بن أبي سفيان إلى طلب المدد من الخليفة، فأمر الوليد بن عقبة -والي الكوفة- بسرعة إمداده، فأجده بثمانية آلاف مقاتل بقيادة سلمان بن ربيعة الباهليّ، فشاركوا جند

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٣٣.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٦٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٣٤؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٩.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ٤٦.

الشَّام في غزو بلاد الرُّوم، واستطاع جند الإسلام أن يلحقوا بالبيزنطيين هزيمة فادحة، ثم طاردوهم، وتوغَّلوا في آسيا الصَّغرى، وافتتحوها حصونا كثيرة^(١).

(٢) فتح طرابلس الشام:

كانت طرابلس الشَّامية لا تزال تحت السَّيطرة البيزنطية حتَّى خلافة عثمان ؓ، وكان البيزنطيون قد نجحوا في استعادة بيروت وجُبيل وبعض المدن السَّاحلية عام ٢٣هـ/٦٤٤م، وظلُّوا بها مدَّة عامين، فرأى معاوية بن أبي سفيان ضرورة فتح طرابلس -آخر المعاقل البيزنطية على السَّاحل الشَّامي- التي أوى إليها الرُّوم من مختلف البلدان الشَّامية، وذلك لتأمين مكتسبات المسلمين من الهجمات البيزنطية البحريَّة التي تنطلق من تلك القاعدة، والاستفادة منها كمنفذ بحريٍّ لبلاد الشَّام، وثمر لدمشق وحمص^(٢).

أرسل معاوية سفيان بن مجيب الأزديَّ -والي بعلبك- لفتح طرابلس بإذن من عثمان ؓ، فعسكر في مشارفها، وراح يهاجم البيزنطيين، إلَّا أنَّه فشل في تحقيق أيِّ تقدَّم لمناعة تحصيناتها، وعدم ارتكازه إلى قاعدة قريبة ثابتة ينطلق منها، وتلقَّى أهلها للإمدادات التَّموينية البيزنطية عن طريق البحر^(٣).

عرض سفيان الأمر على معاوية فأمره ببناء حصن لعسكره، "يأوي إليه ليلا، ويغازيهم نهارا"^(٤)، فنَفَّذَ سفيان أمر معاوية، واختار مكاناً ملائماً، فبنى فيه حصناً عرف باسمه، وراح يشدّد ضغطه على المدينة، ووضع حراساً على الشَّواطئ المحيطة بها لمراقبة البيزنطيين، فيئس المحاصرون من مصابرة المسلمين، وراحوا يفكِّرون جدِّياً بالنَّجاة بأنفسهم، وعجزوا عن الخروج للتَّصديِّ للقوَّات الإسلاميَّة، ولم تنقذهم من هذا الوضع الحرج إلَّا البواخر البيزنطية التي نقلتهم ليلا، وخفية إلى الجزر القريبة الواقعة تحت السَّيطرة البيزنطية، وأضحت المدينة خالية ممَّن يحميها أو يدافع عنها، فدخلها المسلمون وسيطروا عليها^(٥).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٩٢. من طريق أبي مخنف. وقارن برواية الواقدي عند الطبري والبلاذري. فتوح البلدان، ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٧٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥١.

(٤) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج١، ص ٣٥٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥١؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٣) فتح قبرص:

أدرك والي الشام معاوية بن أبي سفيان ﷺ ضرورة بناء أسطول إسلامي ليتمكن من الردّ على الهجمات البحرية البيزنطية، وسيطر على الجزر القريبة التي يتخذها البيزنطيون قواعد للهجوم على البلاد الإسلامية، فكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يطلب منه السماح بركوب البحر، وغزو الجزر القريبة من ساحل بلاد الشام، فرفض طلبه^(١)، وأقسم أنه لن يحمل المسلمين فيه أبداً^(٢)، وأمر بترميم حصون الثغور البحرية، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على منازرها، واتخاذ المواقيد لها، لحمايتها من غارات البيزنطيين^(٣).

ولما تولى عثمان ﷺ الخلافة ألح معاوية عليه في غزو البحر سنة ٢٧هـ/ ٦٤٨م، وخاصة بعد احتلال البيزنطيين لبعض سواحل الشام، وأخذهم مدينة الإسكندرية المصرية مدة، ونجح معاوية في إقناع عثمان بركوب البحر، والسماح له بغزو قبرص على أن يحمل معه امرأته فاخنة بنت قرظة^(٤).

استطاع معاوية ﷺ تجهيز الأسطول، وكلف عبد الله بن قيس الجاسي -حليف بني فزارة- بقيادته، فأبحر الشاميون لغزو الجزيرة عام ٢٨هـ/ ٦٤٩م، من ميناء عكا^(٥)، ووافاهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح في جند مصر، فاجتمعوا عليها، تحت قيادة معاوية^(٦)، وشارك في الغزوة جمع من الصحابة منهم: أبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود (ابن عمرو)، وشداد بن أوس، وعبادة بن الصامت، وزوجته أم حرام^(٧).

وقد حقق معاوية ﷺ نبوءة النبي ﷺ بغزو أصحابه للبحر، فحدث أنس ﷺ عن خالته أم حرام بنت ملحان ﷺ أنها قالت: "تأم النبي ﷺ يوماً قريباً مني، ثم استيقظ

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٦.

(٢) ابن المبارك: الجهاد، ص ١٥٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٦.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦٠٢، من طريق الواقدي.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٧، ١٧٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦٠٠.

يَتَبَسَّمُ، فَقُلْتُ: مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ: "أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَرَضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ هَذَا الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرَةِ"، قَالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَدَعَا لَهَا، ثُمَّ نَامَ الثَّانِيَةَ، فَفَعَلَ مِثْلَهَا، فَقَالَتْ مِثْلَ قَوْلِهَا، فَأَجَابَهَا مِثْلُهَا فَقَالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: "أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ"، فَخَرَجَتْ مَعَ زَوْجِهَا عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ غَازِيًا أَوَّلَ مَا رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ مَعَ مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ غَزْوِهِمْ قَافِلِينَ، فَنَزَلُوا الشَّامَ، فَقُرِبَتْ إِلَيْهَا دَابَّةٌ لِتَرْكَبَهَا، فَصَرَعَتْهَا، فَمَاتَتْ^(١)، وَيُرْوَى أَنَّ "قَبْرَ أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مُلْحَانَ بِقُبْرُسَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: هَذَا قَبْرُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ"^(٢)، وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ أُمِّ حَرَامٍ ؓ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا"، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا فِيهِمْ؟ قَالَ: "أَنْتِ فِيهِمْ"، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ"، فَقَالَتْ: أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "لَا"^(٣).

وعندما وصل الأسطول الإسلامي إلى قبرص رسا على ساحتها، وأغار الجنود المسلمون على نواحيها، فاضطرَّ ملك قبرص في ظلَّ عجزه عن المقاومة إلى طلب الصلح، فصالحه معاوية ؓ^(٤) على أن:

* يؤدي أهل قبرص جزية سنوية مقدارها سبعة آلاف دينار، كما يؤدّون للبيزنطيين مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم، وبين ذلك.

* يمتنع المسلمون عن غزو الجزيرة، ولا يقاتلون عن أهلها من أرادهم من ورائهم.

* يُعلم القبارصة المسلمين بتحركات البيزنطيين المعادية لهم، ولا يساعدوهم على غزو بلاد المسلمين.

* أن يولّي خليفة المسلمين بطريقاً على القبارصة من أنفسهم^(٥).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب فضل من بصرع في سبيل الله)، جـ ٣، ص ١٠٣٠، ح ٢٦٤٦؛ مسلم:

الصحيح، (كتاب الإمامة، باب فضل الغزو في البحر)، جـ ٣، ص ١٥١٩، ١٥٢٠، ح ١٩١٢.

(٢) رواه الطبراني عن هشام بن الغاز الشامي. المعجم الكبير، جـ ٢٥، ص ١٣٠، ح ٣١٦، وقال الهيثمي: "رجاله إلى قائله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ٢٦٣. وهشام ثقة، استعمله أبو جعفر المنصور على بيت المال، ومات سنة بضع وخمسين ومائة، وروايته هنا منقطعة. الخطيب: تاريخ بغداد، تحقيق/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، جـ ١٦، ص ٦٤؛ ابن حجر: تقريب التهذيب، جـ ٢، ص ١٧٨.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في قتال الروم)، جـ ٣، ص ١٠٦٩، ح ٢٧٦٦.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٧، ١٧٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٠٢.

وقد استمرّ العمل بين المسلمين والقبارصة بموجب هذه المعاهدة حتّى نقض أهل قبرص العهد وساعدوا البيزنطيين في حربهم ضدّ المسلمين سنة ٣٢هـ/٦٥٣م، فغزا معاوية تلك الجزيرة في خمسمائة مركب سنة ٣٣هـ/٦٥٤م، وفتحها عنوة، وأقرّ أهلها على صلحهم، وعمد إلى تمصيرها، واستقرار المسلمين فيها، فبعث إليها اثني عشر ألفاً من أهل الديوان المكتبيين، فبنوا بها المساجد، كما نقل إليها جماعة من أهل بعلبك، وبنى بها مدينة، وأقاموا يأخذون الأعطيات إلى أن توفي^(١).

ثالثاً: فتوح الجبهة المصرية:

(١) إعادة فتح الإسكندرية:

لم يكن فتح المسلمين للإسكندرية يسيراً على الروم، ولذلك ظلّوا يتحسّون الفرصة لإعادتها، فلمّا رأت البقية الرومية التي لا تزال في الإسكندرية قلة عدد جند المسلمين بها كاتبوا ملك الروم قسطنطين الثالث (٦٤١ - ٦٦٨ م / ٢٠ - ٤٨ هـ)^(٢)، وحرّضوه على غزوها وأخذها من يد المسلمين، فأرسل لتلك المهمة قائده منويل الخصي بثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة والسلاح والعتاد، وذلك في سنة ٢٥هـ/٦٤٥م^(٣).

ويختلف المؤرّخون في والي مصر الذي هاجمت الروم الإسكندرية في أيامه بين عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، فيجزم جماعة من المؤرّخين^(٤) أنّ عمرو بن العاص كان لا يزال والياً على الإسكندرية آنذ، وعند بعض مؤرّخي مصر^(٥) أنّ عثمان كان قد عزل عمرو بن العاص وجمع مصر كلّها لابن أبي السرح الذي ولاه عمر على الخراج والصعيد، ويتفق الجميع على قيام عمرو بن العاص بإعادة فتح الإسكندرية؛

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٧.

(٢) تذكره المصادر العربية بقسطنطين بن هرقل، وهو قسطنطين الثالث بن قسطنطين الثاني بن هرقل، فهو حفيد هرقل، ويدعى أيضاً قسطنطين الثاني. أسد رستم: الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلتهم بالعرب، دار المشوف، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٢٥٤، ٢٥٥. ويذكر المسعودي أنّه قسطنطين بن قسطنطين أخي هرقل. التنبيه والإشراف، تحقيق/ عبد الله الصاوي، المكتبة التاريخية، القاهرة، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ص ١٣٥.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٤.

(٤) سيف بن عمر التميمي: كتاب الردّة والفتوح، ص ١١٤؛ ابن سعد: الطبقات الكبير، ج ٥، ص ٦٨؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٥٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٥، ٦٦.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٩٠؛ الكندي: الولاة والقضاة، تحقيق/ محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ١٢؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣١١.

لأنّ المستمسكين بإمارة ابن سعد عند نزول الحملة البيزنطية يجزمون بأنّ أهل مصر التمسوا من الخليفة عثمان إقرار عمرو لمواجهة الروم، بسبب خبرته الحربية وهيبته في القلوب الرومية، فاستجاب عثمان لهم.

وكان البيزنطيون قد فاجئوا روابط المسلمين بالإسكندرية، وأعملوا فيهم القتل فلم ينج منهم إلا من تمكن من الهرب، واستولوا على المدينة كلّها، وتوغّلوا في مصر، وعاثوا فيها فسادا، حتّى كادوا يصلون إلى بابلون^(١)، إلا أنّ المقوقس لم ينكت عهده^(٢). لم يسرع عمرو بن العاص لمواجهة الروم؛ وإنّما سار إليهم بخمسة عشر ألف مقاتل^(٣) على مهل، حتّى وصلوا نقيوس، وقد أبغضهم أهل القرى وحنقوا عليهم؛ لأنّهم أكلوا طعامهم، وشربوا خمورهم، وانتهبوا أمتعتهم^(٤).

ودارت معركة شديدة بين المسلمين والروم في البرّ والبحر تراجع فيها المسلمون في البداية، وعقرت فرس عمرو بن العاص فقاتل راجلا، وانهزمت خيالة المسلمين بقيادة شريك بن سميّ الغطيفي المرادي، واستعلى الروم فخرج بطريق منهم يطلب المبارزة فخرج له رجل زبيدي يمنيّ يقال له حومل فاقتتلا طويلا حتّى قُتل الروميّ، وصدق المسلمون الحملة فهزموا الروم، وطاردهم حتّى أدخلوهم الإسكندرية^(٥).

وفرّح المصريون بهزيمة الروم، وسألوا عمرا أن يردّ عليهم أمتعتهم التي انتهبها منهم لصوص الروم، فردّها عليهم بالبيّة^(٦).

ووصل عمرو الإسكندرية فضرب عليها الحصار^(٧)، ونصب عليها المجانيق^(٨)، وتابع عليها الضرب حتّى تصدّعت أسوارها، وألحّ عليها بالحرب حتّى دخلها عنوة، فقتل مقاتلة الروم، وسبى نساءهم وذرايرهم، ولم ينج منهم إلا من هرب ولاذ إلى السّفن،

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٤.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٥٨؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٤.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٩١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٩١؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣١١.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٩٢.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٤.

(٨) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بإسناد صحيح رواه ثقات. ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية،

وسقط قائدهم منوئل الخصي في عداد القتلى^(١)، وأمر عمرو بتدمير أسوار الإسكندرية^(٢)، حتى لا يتحصن الأعداء فيها مرة أخرى^(٣).

(٢) غزو إفريقية:

كان عمرو بن العاص قد أمّن حدود مصر الغربية بفتح برقة صلحاً، وطرابلس عنوة^(٤)، ولم يجاوز ذلك لرفض عمر بن الخطاب ﷺ دخول إفريقية.

ولما جمع عثمان ﷺ ولاية مصر لعبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٢٥هـ/٦٤٦م، كان يرسل جرائد الخيل للإغارة على أطراف إفريقية، ولم يزل يستأذن عثمان في مواصلة فتح المغرب حتى غير سياسته في التوقف عن غزوها^(٥)، وأمد عبد الله بن سعد بجيش عظيم سنة ٢٧هـ/٦٤٨م^(٦).

خرج عبد الله بن سعد قاصداً إفريقية (تونس)، ودعا حاكمها البيزنطي جرجير (جرجيوس)^(٧) إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع، وزحف إلى المسلمين بجيش كبير، واصطدم بهم خارج قاعدته سبيطة^(٨)، فطالت الحرب بين الفريقين^(٩)، وهم يقتتلون كل يوم، ولا يستطيع المسلمون تحقيق الانتصار، وذلك في الوقت الذي غابت فيه الأخبار على عثمان ﷺ، مما جعله يرسل إليهم مدداً بقيادة عبد الله بن الزبير بن العوام، فارتفعت به معنوياتهم، وتعلت أصواتهم بالتكبير، وفت المدد في عضد جرجير^(١٠).

وعمل جرجير على رفع معنويات جنده، فجعل مائة ألف دينار جائزة لمن يقتل عبد الله بن سعد إضافة إلى تزويجه بابنته، فكان ابن سعد يرسل جنده لمقاتلة الروم من

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٩١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٩٨، ١٩٩.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٩.

(٧) جرجيوس: أحد قادة الروم، ولده هرقل على أفريقية فخلع طاعته، وضرب الدنانير باسمه، وحكم ما بين أطرابلس الليبية إلى طنجة المغربية. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٩٩.

(٨) سبيطة: مدينة بتونس، تقع جنوبي القيروان في عمق البلاد. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٧. وقد اتخذ جرجير هذه المدينة قاعدة له، ليكون في مأمن من غارات البيزنطيين.

(٩) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٠) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٤٦٣.

الصباح إلى الظهيرة كل يوم دون أن يخرج معهم، فلما رأى ذلك عبد الله بن الزبير أشار عليه أن يجعل جائزة مماثلة لمن يقتل جرجير، وأن يقسم الجيش الإسلامي، فينتخب جماعة من الأبطال الشجعان ويتركهم في خيامهم متأهبين، ويقاتل الروم ببقية العسكر، واستؤنفت الحرب من الغد حتى ملّ الروم ورجعوا متعبين، فقاد ابن الزبير مجموعة الفرسان المتأهبين، وهجموا على الروم قبل أن يتمكنوا من السلاح، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وسقط جرجير قتيلا على يد ابن الزبير سنة ٢٨هـ/٦٤٩م^(١).

وتحصن من بقي من الروم بمدينة سببلة، ف ضرب عليها ابن سعد الحصار حتى فتحها، وبث جنوده في البلاد حتى بلغت قفصة، وفتحت حصن الأجم جنوب القيروان، وعقد ابن سعد صلحا مع زعماء البلاد من البربر مقابل جزية سنوية، وعاد إلى مصر في أوائل سنة ٢٩هـ/٦٤٩م، بعدما غنم مغانم عظيمة، وأرسل ابن الزبير ببشارة الفتح إلى المدينة^(٢)، ولم يترك مسلحة بإفريقية، ولم يول عليها أحدا من قبله^(٣).

ولما كانت هذه الغزوة قد ضمت عبد الله بن عمر، وأخاه عبيد الله، وعبد الله ابن العباس، وأخاه عبيد الله، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن ابن أبي بكر، فقد أطلق عليها جيش العبدالة^(٤).

(٣) غزو بلاد النوبة:

لما علم النوبيون بوفاة الخليفة عمر وعزل عمرو بن العاص عن مصر أرسلوا سراياهم إلى الصعيد فخرّبوا وأفسدوا^(٥)، فقام عبد الله بن سعد بن أبي السرح بغزو النوبة سنة ٣١هـ/٦٥٢م، وتوغل جنوبا حتى بلغ العاصمة دنقلة، واصطدم بأهلها في قتال شديد إلا أنه لم يتمكن من فتحها، فهادنهم وعقد معهم صلحا، يضمن لهم استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية، وبموجبه تمد مصر النوبة بالحبوب والعدس، ويرسل النوبيون عددا من الرقيق إلى مصر^(٦).

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٤٦٣، ٤٦٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق/ كولان،

وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، جـ ١، ص ١٠-١٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٤٦٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٩، ٢٥٠؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٢٤، ص ٧، ٨.

(٥) مصطفى محمد سعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص ١١٦، ١١٧.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٦٠، ٢٦١؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٣٨٢.

(٤) معركة ذات الصّواري:

وقعت معركة ذات الصّواري^(١) بين الأسطول الروماني ذي التّاريخ البحري الطّويل والأسطول الإسلاميّ الناشئ في مصر والشّام، وذلك سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، على تأريخ جمهور المؤرّخين^(٢).

ويرى ابن جرير الطّبري أنّ دافع هذه الغزوة يتمثّل في خروج إمبراطور الرّوم لمهاجمة المسلمين بسبب ما أصابوه في إفريقية^(٣)، وهو ما يستبعده أحد المحدثين؛ لعدم نشوب معارك إسلاميّة ضد البيزنطيّين بإفريقية منذ سنة ٢٨هـ/٦٤٩م عندما غزاها عبد الله بن سعد بن أبي السّرح^(٤)، والصّحيح أنّ البيزنطيّين قاموا بهذه الحملة لاسترداد الإسكندريّة العزيزة عليهم^(٥)، والتي سبق استردادهم لها سنة ٢٥هـ/٦٤٥م، وطردهم منها على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وكان البيزنطيّون يراقبون تحرّكات القوّات المصريّة، وينتهبون الفرصة لاستعادة البلاد؛ فقد داهموا سواحل مصر بكامل أسطولهم البحري^(٦) في الوقت الذي أرسل فيه الأمير عبد الله بن سعد بنسّر بن أرطاة العامريّ القرشيّ في نصف جنود مصر لغزوة بريّة، وقد صدم بقيّة الجند عندما أخبرهم أميرهم ابن سعد بمداومة الرّوم لهم في غياب خيرة الجند عنهم^(٧).

(١) الصّواري: جمع صاري، وهو عمود السفينة الذي ينصب في وسطها ويكون عليه الشراع. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، ص٢٨.

(٢) يقول بهذا التاريخ ابن شهاب الزهري. ابن شبة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٩٢، وأبو معشر. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٨، وفقه مصر الليث بن سعد. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦. ويجزم به خليفة ابن خياط. تاريخ خليفة، ص١٦٨؛ ويقرره البلاذري ويحدده بشهر المحرم أوّل السّنة. أنساب الأشراف، ج٥، ص٥٣٩. ويطابقهم عليه من مؤرّخي مصر: ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج١، ص٢٦٩؛ الكندي: الولاة والقضاة، ص١٣؛ المقرئ: الخطط، ج٣، ص٣٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١، ص٨٠؛ ويخالف الواقدي هذا القول فيؤرّخها بسنة ٣١هـ/٦٥١م.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٩.

(٤) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ج١، ص٢٨، ٢٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ المقرئ: الخطط، ج١، ص٣١٣.

(٦) يحدده ابن عبد الحكم بأنّ مركب، بينما يقيد الطبري بخسمائة أو ستمائة. فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٢٠.

(٧) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨.

ويتبين من المصادر العربية حدوث موقعة ذات الصّواري أمام السّواحل المصريّة، ففي خطبة الأمير عبد الله بن سعد في جنده يقول: "إنّ هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب"^(١)، ويربط الطّبريّ حدوث ذات الصّواري بما أصاب المسلمون من الرّوم في إفريقية^(٢)، وهو ما يكرّره ابن الأثير^(٣)، وينصّ ابن كثير على أنّ الرّوم قصدوا عبد الله ابن سعد في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب^(٤)، ويحدّد ابن خلدون خروج الرّوم بأسطولهم في تلك المعركة إلى الإسكندرية^(٥)، ويجزم ابن تغري بردي بتحديد موقع المعركة بالبحر من ناحية الإسكندرية^(٦).

ويرى بعض الباحثين الحديثين أنّ ذات الصّواري وقعت أمام سواحل آسيا الصّغرى بالقرب من شاطئ ليكيا (Lycian Coast)^(٧)، ومرّد هذا القول إلى أنّ المراجع الأجنبيّة تعرّف ذات الصّواري بموقعة "فونيكة"، وهذا يؤيّد ما نصّت عليه المصادر العربيّة؛ لأنّ الموقع الذي يقصده المتمسّكون بحدوثها في آسيا الصّغرى يقال له "فونيكس" (Phoenix) ويتناسى هؤلاء ثغر "فونيكة" الذي يقع غرب مدينة الإسكندرية، بالقرب من مدينة مرسى مطروح المصريّة^(٨)، ولو كانت المعركة بآسيا الصّغرى لكانت قيادتها لمعاوية بن أبي سفيان قطعاً، لكنّا لم نسمع من مختلف المصادر إلا أقوال الأمير ابن سعد، ومشاوراته لجنده، وأوامره لهم، وصفّه لهم، وغير ذلك من المهام التي يقوم بها القائد السياسيّ والعسكريّ.

وقد اندهش عبد الله بن سعد عندما علم بكثرة عدد الرّوم وهاله الأمر، ونادى في جموع جنده يطلب منهم المشورة مرتين، ولكن لم يردّ عليه أحد لهول الموقف، ثمّ عزم عليهم في الثّالثة بإبداء رأيهم؛ "لأنّه لم يبق شيء"، فقام أحد المتطوّعة وذكره بقول الله

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٦.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦١٩.

(٣) الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٨٨.

(٤) البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٧٧.

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٢، ص ٥٧٥.

(٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١، ص ٨٠.

(٧) السيد الباز العربي: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٤٢؛ إبراهيم أحمد العدوي:

الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ص ٥٣؛ عليّة عبد السمیع الجنزوري:

هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى،

١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٤٠.

(٨) شوقي أبو خليل: ذات الصواري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٦٤.

تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١)، فأمر عبد الله ابن سعد جنده بركوب السفن^(٢)، التي بلغت نحو مائتي مركب^(٣)، ولكنه لم يستطع شحنها بكامل القوَّات المصريَّة؛ نظرا لخروج نصفها مع بسر بن أرطأة في غزوة بريَّة^(٤)، ولذا ركب "في كلِّ مركب نصف شحنته"^(٥).

واقترب الأسطول الإسلامي من الرُّوم، فنظر الجند إلى مراكب لم يروا مثلها قطَّ، وكانت الرِّيح لصالح مراكب الرُّوم، فأرسي ابن سعد بجنده ساعة، وأرسي الرُّوم قريبا منهم حتَّى سكنت الرِّيح، فأرسل ابن سعد للرُّوم: "إن أحببتم ننزل إلى السَّاحل فنقتتل حتَّى يكتب لأحدنا النِّصر، وإن شئتم فالبحر"، "فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء الماء"^(٦)، وهذا يظهر لنا ثقة الرُّوم بخبرتهم البحريَّة، وأملهم في النِّصر، لممارستهم أحواله وفنونه، فقد مرنوا عليه طويلا، وأحكموا الدَّراية بثقافته وأنوائه، فطمعوا بالنِّصر فيه، خصوصا أنَّهم يعلمون حدثان عهد المسلمين به^(٧).

وكان الفريقان قد استأمن بعضهم بعضا قبل المعركة^(٨)، لكن موقف المسلمين كان حرجا، فطلب ابن سعد المشورة من جنده، فأشاروا عليه أن ينتظر تلك الليلة حتَّى يرتبوا أمورهم ويختبروا عدوهم، فباتوا يصلُّون ويدعون الله ﷻ، وبات الرُّوم يضربون بالنَّواقيس، ولما أصبحوا أجمع ملك الرُّوم على القتال وقرب سفنه، وكان أمر المسلمين قد اجتمع على تنفيذ خطتهم البريَّة في عرض البحر، فربطوا سفنهم بعضها إلى بعض، وقام عبد الله بن سعد فصفَّ جنده في نواحي السفن، وطاف عليهم يأمرهم بقراءة القرآن، ولزوم الصِّبر^(٩).

ولما كان الرُّوم مغترِّين بقوَّتهم وأسطولهم، فقد سارعوا ببدء القتال، ووثبوا على سفن المسلمين، وانقضَّوا على صفوفهم الأماميَّة فنقضوها، ودار قتال شديد بين الطرفين

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٤٩.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٦.

(٣) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ص ١٣.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦١٩. من طريق الواقدي.

(٧) شوقي أبو خليل: ذات الصواري، ص ٦٦.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦١٩. من طريق الواقدي.

(٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢٠. من طريق الواقدي.

على غير صفوف^(١)، واقتتلوا يومئذ بالنبل والنشاب والحجارة^(٢)، والسيوف والخناجر، وصبر الروم صبرا لم يصبروا في موطن قط مثله حتى قتل منهم ما لا يحصى، وقتل من المسلمين بشر كثير، وسالت الدماء غزيرة حتى غلبت على الماء، فاحمر لون البحر، "ورجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما"^(٣).

وكاد الأمير عبد الله بن سعد أن يقع أسيرا؛ فقد قام الروم بربط مركبه بأحد مراكبهم عند احتدام المعركة، وكادوا أن يجروه، لكن علقمة بن يزيد الغطيفي^(٤) الذي كان مع ابن سعد أبصر الموقف، فأسرع إلى السلسلة، وانقض عليها بسيفه فقطعها، وأنقذ القائد والسفينة^(٥)، وحمي المسلمون عندئذ، فقصدوا ملك الروم حتى أثنوه بالجراح، فولى منهزما وهو حسير، ولم ينج من جنده إلا الشريد، وأتم الله النصر للمسلمين^(٦)، وواصل الإمبراطور فراره حتى نزل جزيرة صقلية^(٧).

وقد أكثر أهل صقلية من لوم ملكهم المهزوم وتأنيبه على تسببه في إهلاك رجال الروم وتدميره لأسطولهم، ويزعم الرواة العرب أن أهل صقلية قتلوه في الحمام^(٨)، إلا أن القول بقتله آنذ خطأ لا شك فيه، فقد استمر في حكم بلاده حتى سنة ٦٦٨م/٤٨هـ^(٩)، لكنه اتخذ من صقلية مقرا لحكمه، وقاعدة لمقاومة المسلمين^(١٠)، ثم كان مقتله في على يد أحد حبابه في سبتمبر سنة ٦٦٨م^(١١).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٢٠، من طريق الواقدي.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٧.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦١٩، من طريق الواقدي.

(٤) علقمة: هو علقمة بن يزيد بن عمرو الغطيفي المرادي، وفد على النبي ﷺ، ورجع إلى اليمن، ثم قدم المدينة، وشهد فتح مصر هو وأخوه عمرو، واستعمله عتبة بن أبي سفيان على الإسكندرية في خلافة معاوية، وجعل معه اثني عشر ألفا، فشكا علقمة قلة عدد الجند عن الدفاع عن المدينة المعرضة لهجمات الروم، فزوده معاوية بعدة آلاف من أهل المدينة والشاميين. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٩؛ ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ص ٣٥٤.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٧.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦١٩، من طريق الواقدي، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٤٨٩.

(٧) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٨.

(٨) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٧٠٤؛ ابن حبان: الثقات، جـ ٢، ص ٢٧٨؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٣٥.

(٩) أسد رستم: الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلتهم بالعرب، جـ ١، ص ٢٥٥؛ عليّة عبد السمیع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، ص ٤٣.

(١٠) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٧١.

(١١) أسد رستم: الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلتهم بالعرب، جـ ١، ص ٢٥٧.

وأقام الأمير عبد الله بن سعد عدة أيام في موقع المعركة، ثم عاد بجنده إلى مصر، فسمي مكان المعركة ذا الصّواري^(١)، كما أطلق الاسم نفسه على تلك الغزوة، لكثرة صواري المراكب واجتماعها^(٢).

وكان لموقعة ذات الصّواري أثرٌ كبيرٌ على الطرفين، فقد حققت نصرا بحريًا كبيرًا للمسلمين، كما وضعت نهاية لسيادة البيزنطيين البحرية^(٣)، وامتثلوا رعبا من المسلمين، حتّى قال أهل صقلية لملكهم: "شمت النصرانية، وأفنيت رجالها، لو دخل العرب علينا لم نجد من يردّهم"^(٤)، واعتبر المؤرخ البيزنطي "ثيوفان" (ت: ٨١٨م/٢٠٣هـ) معركة ذات الصّواري يرموكا ثانيا على الرّوم^(٥).

ولا شك أنّ ذات الصّواري كانت حدًا فاصلا في سياسة الرّوم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبته، وفوات الأوان في استرجاع مصر أو الشام^(٦). ولقد أظهرت هذه المعركة جانبا من تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق في العدد والعُدَد، كما أظهرت شجاعة القائد عبد الله بن سعد، ورباطة جأشه، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب^(٧)، وقوة إيمانه، وإخلاصه في نصره أمير المؤمنين عثمان، على عكس ما يرميه به الإمام الحاكم النيسابوري رحمه الله^(٨).

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٦؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٢، ص ٥٧٥.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٣.

(٣) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٧١.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٠٨.

(٥) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٧١، نقلا عن حولية ثيوفان.

(Theophanes, Chronographia, Col.788.)

(٦) إبراهيم أحمد العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ٥٤.

(٧) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج ١٢، ص ٤٠٧.

(٨) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرك لأبي عبد الله الحاكم (الأنبياء والسيرة النبوية)، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ٢، ص ٦١٧، ٦١٨.

الفصل الخامس

أحداث الفتنة

تطلق المصادر الإسلامية مصطلح "الفتنة" على تلكم الأحداث الأليمة التي قام بها المتمردون والخوارج على أمير المؤمنين عثمان ؓ حتى قتلوه، فكان ذلك بداية فتن سود تتابعت على الأمة الإسلامية كقطع الليل المظلم، تمزق فيها شمل المسلمين، ووقع بأسهم بينهم، ووقفت عمليات الفتح والجهاد حتى اجتمع المسلمون على معاوية ابن أبي سفيان ؓ سنة ٤١هـ/٦٦١م، وكان عثمان قد مكث ست سنين في الخلافة لا يعيبُ الناس عليه شيئاً، بل كانت طائفة يفضلونه على عمر ؓ ويقولون: "العَدْلُ مِثْلُ عُمَرَ، وَاللَّيْنُ أَلْيَنُ مِنْ عُمَرَ"^(١)، ثم بدأت الاعتراضات على سياسته بعد ست سنين من خلافته.

أولاً: بؤادر الفتنة والتمرد في أقاليم الدولة:

قبل أن نخوض في أحداث هذه الفتنة المشنومة لا بد أن نعرّج على أحوال الأقاليم الثلاثة التي خرج منها المتمردون على عثمان ؓ.

❏ حال الكوفة:

لقد بدأت نذر التمرد الكوفي منذ عهد الخليفة القوي عمر بن الخطاب ؓ، حيث كثرت في حياته اعتراضات شرار أهلها على الولاية الأخيار^(٢)، فشغبوا على سعد بن أبي وقاص ؓ، واتهموه بأنه لا يحسن الصلاة، وأنه "لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ"^(٣)، ولم يمنعهم من ذلك انشغال المسلمين بالفرس الذين تجمعوا في نهاوند واستعدوا لقتال المسلمين سنة ٢١هـ/٦٤١م^(٤)، ولم يرض الكوفيون عن الولاية بعد سعد ؓ، فشكوا عمّاراً، وقالوا: لا علم له بالسياسة، فعزله لهم^(٥)، وطالبوا بأبي موسى الأشعري فاستعمله عليهم، فما صبروا عليه حولا حتى أزاحوه، فاغتم بهم عمر

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ ٢، ص ٦٢٤، ح ٥٩٥، ورجال الأثر ثقات، وإسناده متصل بمجموع طرقه كما خرّجه محقق المطالب العالية لابن حجر. جـ ١٧، ص ٦٢٧، ح ٤٣٦٢.

(٢) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٦٢.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب)، جـ ١، ص ٢٦٢، ح ٧٢٢.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٢٢.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٠٠.

ﷺ، وضاق بأمرهم فقال: "وَأَيُّ نَائِبٍ أَعْظَمَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ لَا يَرْضَوْنَ عَنْ أَمِيرٍ، وَلَا يَرْضَى عَنْهُمْ أَمِيرٌ!"^(١)، "وَلَا يُصْلِحُونَ وَلَا يَصْلَحُ عَلَيْهِمْ"^(٢)، ونادى يوماً في الناس: "مَنْ عَذِيرِي مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، إِنْ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمُ الضَّعِيفَ حَقْرُوهُ، وَإِنْ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمُ الْقَوِيَّ فَجَرُّوهُ!"^(٣)، وبالرغم من ذلك كان عمر ﷺ يقول: "هَانَ شَيْءٌ أَصْلَحَ بِهِ قَوْمًا، أَنْ أَبْدِلَهُمْ أَمِيرًا مَكَانَ أَمِيرٍ"^(٤).

ولما بلغ الفاروق أنهم حصَّبوا أميرهم خرج غضباً، وصلى بالناس فسها، فلما انتهى من صلاته قال لنفر من أهل الشام صلُّوا معه: "اسْتَعِدُّوا لِأَهْلِ الْعِرَاقِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ بَاضَ فِيهِمْ وَفَرَّخَ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ لَبَسُوا عَلَيَّ فَلَبَسَ عَلَيْهِمْ، وَعَجَّلْ عَلَيْهِمُ بِالْغَلَامِ النَّقْفَى يَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئِهِمْ"^(٥).

وقد ساء وضع الكوفة سنة ٢٥هـ/٦٤٥م؛ وذلك عندما عزل عثمان ﷺ سعد بن أبي وقاص وولّى عليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو أخوه لأمّه، فنقم الناس هذا الصنيع على عثمان^(٦)، واستعظموه^(٧)؛ لأنّ الوليد لم يكن من كبار الصحابة، ولا يكاد يدانيهم في المنزلة والفضل؛ بل كان الوليد مستهتراً، فقد ثبت أنّ امرأة الوليد بن عقبة جاءت إلى رسول الله ﷺ تشكو الوليد أنّه يضربها، فقال لها: "ارْجِعِي فَقُولِي لَهُ إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَجَارَنِي"، فانطلقت فمكثت ساعةً، ثمّ جاءت فقالت: يا رسول الله، لا أقنع عني، فقطع رسول الله ﷺ من ثوبه فأعطاها، فقال: "قُولِي إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَجَارَنِي، هَذِهِ هُدْبَةٌ مِنْ ثَوْبِهِ"، فمكثت ساعةً، ثمّ إنّها رجعت فقالت: يا رسول الله، ما زادني إلا ضرباً، فرفع رسول الله ﷺ يده فقال: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْوَلِيدِ"، مرتين أو ثلاثاً^(٨).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٥٤٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٣٦.

(٢) الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ ٢، ص ٧٥٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ١٠، ص ٣٢٥؛ فتوح البلدان، ص ٣٠٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٨٤، والأثر عن الحسن البصري الذي لم يدرك عمر، وهو ضعيف لانقطاعه.

(٥) الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ ٢، ص ٧٥٤، ٧٥٥، والأثر حسن الإسناد. الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة، جـ ١٢، ص ٢٩.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٣١١؛ سير أعلام النبلاء، (الخلفاء الراشدون)، ص ١٦٩.

(٧) ابن حجر: الإصابة، جـ ٦، ص ٤٨٢.

(٨) أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٢٥٣، ح ٢٩٤، وصححه البوصيري. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة،

جـ ٤، ص ٩٢، ٩٣؛ جـ ٦، ص ٤٧٦، ح ٦٢٣٢، وحسنه محقق مسند أبي يعلى.

وثبت أن ساحرا كان يلعب عند الوليد بن عقبة الأموي وهو أمير على الكوفة، فكان يأخذ سيفه فيذبح نفسه، ويظهر للناس أنه لا يضره، فقام جندب^(١)، فأخذ السيف فضرب عنقه، ثم قرأ: ﴿أَفْتَاتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾^(٢)، وحدث الحسن البصري: "أن أميراً من أمراء الكوفة دعا ساحراً يلعب بين يدي الناس، فبلغ جندباً، فأقبل بسيفه، واشتمل عليه، فلما رآه ضربه بسيفه، ففترق الناس عنه، فقال: أيها الناس، لن تراعوا إنما أردت الساحر، فأخذه الأمير فحبسه فبلغ ذلك سلمان، فقال: "بئس ما صنعنا، لم يكن ينبغي لهذا -وهو إمام يؤتم به- يدعو ساحراً يلعب بين يديه، ولا ينبغي لهذا أن يعاتب أميره بالسيف"^(٣).

ولئن كان الوليد بن عقبة سخيّاً شجاعاً قائماً بالجهاد، فقد كان يشرب الخمر^(٤)؛ فقد حدث التابعي حُصَيْن بن المنذر الذهلي فقال: "شهدت عثمان بن عفان وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدكم، فشهد عليه رجلان، أحدهما: حُمران أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقياً، فقال عثمان: إنه لم يتقياً حتى شربها، فقال: يا علي، قم فاجلده، فقال علي: قم يا حسن فاجلده، فقال الحسن: ول حارها من تولى قارها، فكانه وجد عليه، فقال: يا عبد الله بن جعفر قم فاجلده، فجلده، وعلي يعض حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إلي"^(٥).

وكان عثمان ؓ قد حبس الوليد عندما اتهم بشرب الخمر^(٦)، وترثت في أمره، وأخر إقامة الحد عليه ليكشف عن حال من شهد عليه، فلما وضح له الأمر أقام عليه

(١) جندب: هو جندب الخير بن عبد الله الأزدی، له صحبة ورواية. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٨٦.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢، ص ١٧٧، ح ١٧٢٥؛ الدار قطني: السنن، ج ٤، ص ١٢١، ح ٣٢٠٥. وقال الذهبي: "إسناده صحيح". تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٨٧. وقال الألباني: "هذا إسناد صحيح موقوف، صرح فيه هشيم بالتحديث".

سلسلة الأحاديث الضعيفة، ج ٣، ص ٦٤٢.

(٣) الحاكم: المستدرک، ج ٤، ص ٤٠١، ح ٨٠٧٥. وقال الألباني: "وهذا إسناد موقوف صحيح إلى الحسن، وقد توبع".

سلسلة الأحاديث الضعيفة، ج ٣، ص ٦٤٢.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٢؛ ابن حجر: الإصابة، ج ٦، ص ٤٨٢.

(٥) مسلم: الصحيح، (كتاب الحدود، باب حد الخمر)، ج ٣، ص ١٣٣١، ح ١٧٠٧؛ أبو داود: السنن، (كتاب الحدود، باب الحد في الخمر)، ج ٤، ص ١٦٣، ١٦٤، ح ٤٤٨٠.

(٦) رواه المدائني من طريق الشعبي. ابن حجر: فتح الباري، ج ٧، ص ٥٦.

الحدّ، وعزله عن الكوفة^(١)، ويروي الإمام البخاري أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن ابن الأسود بن عبد يغوث قالوا لعبيد الله بن عدي بن الخير: "ما يمنعك أن تكلم خالك^(٢) عثمان في أخيه الوليد بن عتبة، وكان أكثر الناس فيما فعل به^(٣)، قال عبيد الله: فانتصبت لعثمان حين خرج إلى الصلاة، فقلت له: إن لي إليك حاجة، وهي نصيحة، فقال: أيها المرء، أعود بالله منك^(٤)، فأنصرفت، فلما قضيت الصلاة جلست إلى المسور وإلى ابن عبد يغوث، فحدثتهما بالذي قلت لعثمان، وقال لي، فقالا: قد قضيت الذي كان عليك، فبينما أنا جالس معهما، إذ جاءني رسول عثمان، فقالا لي: قد ابتلاك الله، فانطلقت حتى دخلت عليه، فقال: ما نصيحتك التي ذكرت آنفا؟ قال: فتشهدت، ثم قلت: "إن الله بعث محمداً ﷺ وأنزل عليه الكتاب، وكنت ممن استجاب لله ورسوله ﷺ وآمنت به، وهاجرت الهجرتين الأوليين، وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هديته، وقد أكثر الناس في شأن الوليد ابن عتبة، فحق عليك أن تقيم عليه الحدّ، فقال لي: يا ابن أخي، أدركت رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، ولكن قد خلص إلي من علمه ما خلص إلى العذراء في سترها، فتشهد عثمان، فقال: إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكنت ممن استجاب لله ورسوله ﷺ، وآمنت بما بعث به محمداً ﷺ، وهاجرت الهجرتين الأوليين، كما قلت: وصحبت رسول الله ﷺ وبأيعته، والله ما عصيته ولا غششته حتى توفاه الله، ثم استخلف الله أبا بكر، فوالله ما عصيته ولا غششته، ثم استخلف عمر، فوالله ما عصيته

(١) ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٥٦.

(٢) كانت أم عبيد الله بنت عم عثمان، فهي أم قتال بنت أسيد بن أبي العاص بن أمية، وأقارب الأم يطلق عليهم أحوال. ابن

حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٥٥.

(٣) كان الناس قد أكثروا من القول في الوليد، كما أكثروا القول في ترك عثمان لإقامة الحد عليه، وأنكروا عليه عزل سعد ابن أبي وقاص به، مع كون سعد من العشرة المبشرين، ومن أهل الشورى، واجتمع له من الفضل والسنن والعلم والدين والسبق إلى الإسلام ما لم يتفق شيء منه للوليد، والعذر لعثمان في ذلك أن عمر كان قد عزل سعدا، وأوصى من يلي الخلافة بعده أن يولي سعدا، وكان سبب عزل عثمان لسعد أنه كان أميراً على الكوفة وكان عبد الله بن مسعود على بيت المال، فافترض سعد منه مالا، فلما جاءه بتقاضاه اختصما، وبلغ عثمان فغضب عليهما، وعزل سعدا، واستحضر الوليد من ولايته على الجزيرة الفراتية فولاه الكوفة، لما ظهر من كفايته، وليلصل رحمه. ابن حجر: فتح

الباري، جـ ٧، ص ٥٥، ٥٦.

(٤) استعاذ عثمان منه خشية أن يكلمه بشيء يقتضي الإنكار عليه وهو في ذلك معذور فيضيق بذلك صدره. ابن حجر: فتح

الباري، جـ ٧، ص ٥٦.

وَلَا غَشَشْتُهُ، ثُمَّ اسْتَخْلَفْتُ، أَفَلَيْسَ لِي عَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي كَانَ لَهُمْ عَلَيَّ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَبْلُغُنِي عَنْكُمْ؟^(١) فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَأْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، فَسَنَأْخُذُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ، قَالَ: فَجَلَدَ الْوَلِيدَ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً، وَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَجْلِدَهُ^(٢).

وقد أخذ كبار أهل العلم برواية الصحيحين وغيرهما في ثبوت شرب الوليد بن عقبة للخمر وحده عليه^(٣)، لكن كثيرا من المحدثين^(٤) يقدمون رواية سيف بن عمر التميمي الكذاب على رواية الصحاح تعاطفا مع الوليد بن عقبة من ناحية، واحتراما لاختيار أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه من ناحية أخرى.

وعند سيف أن جماعة من أهل الكوفة تعصبوا على الوليد بغيا وحسداً، وشهدوا عليه زوراً أنه تقياً الخمر، فأقام عليه عثمان الحد، وقال له: "تقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار؛ فاصبر يا أخي"^(٥)، وقد استكره ابن عبد البر^(٦) بقوله: "وهذا الخبر من نقل أهل الأخبار لا يصح عند أهل الحديث، ولا له عند أهل العلم أصل"^(٧).

وتؤكد روايات ثقات المؤرخين أن الأمر لم يكن نكاية في الوليد كما صورته سيف؛ لأن عثمان عندما بلغته قصة الوليد استشار علياً في أمره، فأشار عليه باستحضار الوليد والشهود، وأن يقيم عليه الحد إن شهدوا عليه بمحضر منه، فشهد عليه أبو زينب الأزدي، وأبو مورع، وجندب بن زهير الأزدي، وسعد بن مالك الأشعري، فأمر عثمان بإقامة الحد عليه^(٨)، وفي رواية لعروة بن الزبير أن الذين شهدوا على الوليد كانوا خمسة، منهم: الصعب بن جثامة الصحابي الشهير^(٩).

(١) كلامهم في سبب تأخير إقامة الحد على الوليد. ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص ٥٧.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان)، جـ٣، ص ١٣٥١، ح ٣٤٩٣؛ (باب هجرة الحبشة)، جـ٣، ص ١٤٠٥، ح ٣٦٥٩؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ١، ص ٤٨٨، ح ٧٩١.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ٤، ص ١٥٥٤ - ١٥٥٦؛ ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ١٠٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٤١٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٨، ص ٢٣٤؛ ابن حجر: الإصابة، جـ٦، ص ٤٨٢.

(٤) على رأس هؤلاء: محب الدين الخطيب؛ فقد اعترض على ابن العربي الذي اعتبر الوليد بن عقبة كقدامة بن مظعون البدري عندما شرب الخمر وهو أمير على البحرين فأقام عليه الفاروق الحد وعزله. وفسر محب الدين رواية الصحيح بما يناسب أساطير سيف التميمي. حاشية الخطيب على العواصم من القواصم، ص ١٠٦ - ١٠٨.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٦١٢، ٦١٣؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ٦٣، ص ٢٤٣ - ٢٤٥.

(٦) ابن حجر: الإصابة، جـ٦، ص ٤٨٢.

(٧) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٤، ص ١٥٥٦.

(٨) ابن شبة: أخبار المدينة، جـ٢، ص ١٠٥. وإسناده حسن إلى أبي الضحى. ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص ٥٧.

(٩) الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ٣، ص ٣٠٩؛ ابن حجر: الإصابة، جـ٣، ص ٣٤٥؛ تهذيب التهذيب، جـ٤، ص ٤٢٢.

ولا يضير عثمان رضي الله عنه أن يكون أخوه لأمه شارباً للخمر؛ لأنه أقام عليه الحدّ وعزله عن ولاية الكوفة، سنة ٣٠هـ/٦٥٠م^(١)، ولسنا في حاجة للدفاع عن الوليد بن عقبة وردّ الروايات الصحيحة لأجله؛ "وليس الذنوب مسقطاً للعدالة إذا وقعت منها التوبة"^(٢)، وقد ثبت أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وآله يسمّى عبد الله، ويلقب حماراً، كان يضحك رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالرغم من ذلك فقد كان لا يتورّع عن شرب الخمر، حتّى جلده النبي صلى الله عليه وآله عدّة مرّات، ولمّا لعنه أحد الصحابة لكثرة ما يؤتى به للحدّ قال النبي صلى الله عليه وآله: "لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنّه يحبّ الله ورسوله"^(٣).

وكان الفاروق عمر رضي الله عنه يعلم أن بعض النّاس لن يحتملوا للخليفة القادم تولية أقاربه فحدّر الخليفة الذي يأتي بعده من تلك السياسة، وتوقّع ما سيكون من عثمان خاصة فقال له: "وإن كنت يا عثمان على شيء من أمر النّاس فلا تحمّل بني أبي معيط على رقاب النّاس"^(٤).

وقد استعمل عثمان - بعد الوليد - سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الأموي^(٥)، على الكوفة سنة ٣٠هـ/٦٥٠م^(٦)، فلم يحمد بعض الكوفيّين سيرته، ولم يحبّوه^(٧)، وبيننا سعيد في إحدى الجلسات العامة التي تجمع أهل الأيّام والقادسيّة والقراء وزعماء العشائر سنة ٣٣هـ/٦٥٣م إذ بالحديث يدور بينهم حول سواد العراق، والثّراء، فتمنّى صاحب الشرّطة عبد الرّحمن بن خنيس الأسديّ أن يكون "الملطاط"^(٨) للوالي سعيد

(١) ذكر ابن حجر أنّ عثمان عزل الوليد بعد ثبوت شرب الخمر عليه وجلده لذلك. الإصابة، جـ٦، ص ٤٨٢.

(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ١٠٦.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج عن الملة)، جـ٦، ص ٢٤٨٦، ح ٦٣٩٨.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص ٣٤٤؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ٨، ص ٢٥٩، ٢٦٠، ح ١٦٥٨٠. وصحّح ابن حجر إسناده ابن سعد. فتح الباري، جـ٧، ص ٦٨.

(٥) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي: كان من فصحاء قريش، وهو الذي كتب القرآن مع زيد بن ثابت، وأقيمت عربيّة القرآن على لسانه؛ لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وآله، وكان من أحلم النّاس وأوفرهم، وهو أحد سادات بني أمية وعباد قريش، وقد اعتزل الفتنة كلّها عقب مقتل عثمان إلى أن استقرّ الأمر لمعاوية، ومات سنة ٥٨هـ/٦٧٨م. الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص ٢٢٤؛ ابن حجر: الإصابة، جـ٣، ص ٩٠.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٦١٢، ٦١٣؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ٦٣، ص ٢٤٣ - ٢٤٥.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٨، ص ٩٢.

(٨) الملطاط: ما كان لال كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٦٣٤.

ابن العاص، ممّا أثار حفيظة الحضور، وتحول النقاش إلى خلاف حاد، كاد يفضي إلى صراع بين القبائل، حيث قام مالك بن الحارث الأشتر النخعي^(١)، وردّ عليه "تمنّ للأمير أفضل منه، ولا تمنّ له أموالنا"، وتطوّر الأمر من التّراشق بالكلام إلى اعتداء الأشتر والروادف على عبد الرحمن الأسديّ وأبيه بعد اتّهامهم له بتحريضه^(٢).

لم يقبل بنو أسد وأشراف الكوفة ما حدث، فقرّروا تأديب الأشتر وأعوانه، وتجمّعوا حول دار الإمارة، فتدخل الأمير ومنعهم من الفتك بهم، فأرسل الأشراف والصّحاء إلى الخليفة يطلبون منه إخراج هؤلاء النّفر الذين خلقوا للفتنة في بلدهم، كما كتب الوالي إلى عثمان بالتطوّرات التي طرأت على ولايته، وأنّه لا يملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه "الذين يدعون القرّاء، وهم السّفهاء شيئاً"، وأكّد له أنّهم "يؤلّبون ويجمعون على عيبك، وعيبي والطّعن في ديننا، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا"، فسيرهم الخليفة إلى بلاد الشّام^(٣).

رحّل الكوفيّون النّاقمون إلى الشّام، فما زالوا بها حتّى استغلّ أضرابهم والمتعاطفون معهم استدعاء الخليفة لسعيد بن العاص وبعض الولاة لتدارس أحوال الأمصار أواخر سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، وكتبوا إليهم بترديّ أوضاع الكوفة السّياسيّة، وطالبوهم بسرعة العودة إليها للمساهمة في تغيير الوضع القائم، فكان لرجوعهم إليها دورٌ كبيرٌ في اضطراب الأوضاع واشتعال الفتنة التي أدّت إلى مقتل عثمان رضي الله عنه^(٤).

ولعلّ نظريّة ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) الاجتماعيّة التي يلخص خلالها سبب الثّورة على عثمان رضي الله عنه في رغبة القبائل في تعديل وتغيير ميزان القوى لصالحها، ينطبق على وضع مدينة الكوفة الاجتماعيّة^(٥)، فقد "كان أكثر العرب الذين نزلوا الأمصار

(١) كان الأشتر قد دخل مع قومه على عمر رضي الله عنه، فتفرّس فيه، وجعل ينظر إليه ويصرف بصره ثمّ قال: "ما له، فأتته الله، كفّى الله أمةً محمّداً شرّاً، والله إنّني لأحسب أنّ للنّاس منه يوماً عصيباً". رواه الخلال بإسناد حسن متصل. السّنة، جـ ٣، ص ٥١٦، ٥١٧.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٥٢٩، من طريق أبي مخنف. والطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٣٤؛ والمالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ص ٦٢. كلاهما من طريق سيف.

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٠٥؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٥٢٩، كلاهما من طريق أبي مخنف. وروى الأصفهاني هذا الخبر من طريق ابن إسحاق وغيره عن الشعبي. الأغاني، جـ ١٢، ص ١٦٧.

(٤) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٠٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٥٠، من طريق سيف.

(٥) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٤١١.

جفاة، لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ، ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم من الجاهلية من الجفاء، والعصبية، والتفاخر، والبعد عن سكينة الإيمان، وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار، من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الأولين إلى الإيمان، فاستنكفوا من ذلك، وغصوا به، لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم، وكثرتهم، ومصادمة فارس والروم، مثل قبائل بكر بن وائل، وعبد القيس بن ربيعة، وقبائل كندة والأزد من اليمن، وتميم وقيس من مضر، فصاروا إلى الغض من قريش، والأنفة عليهم، والتّمرّض في طاعتهم، والتعلّل في ذلك بالتّظلم منهم، والاستعداد عليهم، والطعن فيهم بالعجز عن السرية، والعدل في القسم عن السوية، وفشت المقالة بذلك، وانتهت إلى المدينة^(١).

وهذا يدلّ على أنّ نذر التّمرّد الكوفيّ على عثمان ؓ يعود إلى أسباب سياسيّة واجتماعيّة^(٢)، بجانب حسدهم على أقارب عثمان الذين أمرهم على الولايات.

❏ حال البصرة:

لم تكن الأمور في البصرة بأحسن منها في الكوفة، فقد شكّا بعض أهلها عاملهم المغيرة بن شعبة زمن عمر ؓ، واتّهموه بالزّنا، فعزله عنهم^(٣)، ثمّ عادوا فثاروا على أبي موسى الأشعريّ زمن عثمان -وكان عمر ولاه عليهم- واتّهموه بسوء التصرف وتقدّم السنّ، ومخالفة فعله قوله، واستعفوا عثمان منه^(٤)، فعزله، واستعمل بدله عبد الله ابن عامر بن كُريز^(٥)، وكتب إلى أبي موسى: "إني لم أعزّلك عن عجز ولا خيانة"^(٦).

وظلّ عبد الله بن عامر على البصرة حتى آخر عهد عثمان، وقد عاد من المدينة حين ردّ عثمان عماله إلى أمصارهم، فكان ليّن الجناح متردداً، ومرّ برجلٍ يحرش بين الأشراف، فأجرى الخيل، فسبّقه حكيم بن جبلة العبديّ -من عبد القيس- فغضب، فأخذ خيلاً كانت له بفارس، فغضب حكيم فجعل يعيب عثمان، ورزق ابن عامر الناس طعاماً

(١) مقدّم ابن خلدون، جـ ٢، ص ٥٩٨.

(٢) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٦٤.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٤٥. ولم يُذكر له إسناد.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٠٤، ٦٠٥، من طريق سيف.

(٥) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٠٥، من طريق سيف.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٤٥. ولم يُذكر له إسناد.

أصابته السماء فتغيّر، فحمله قومٌ إلى عثمان وشكّوا ابنَ عامرٍ، فلم يعرض له، فتغيّر الناس لعثمان عليه السلام وقالوا: "عزّل أبا موسى وولّى ابنَ عامرٍ"^(١).

وهذا الخبر أولى من رواية سيف التميمي التي يتهم فيها حكيم بن جبلة العبدى بأنه كان لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم، فسعى في أرض فارس، فأغار على أهل الدّمة، وتنكر لهم، وأفسد في الأرض، وأصاب يشاء، ثم رجع، وأنّ أهل الدّمة وأهل القبلة شكّوه إلى عثمان عليه السلام، فأمر عبد الله بن عامر بحبسه ومن كان مثله، وأوصاه بعدم إخراجهِ من البصرة حتّى يأنس منه رشداً^(٢).

وقد ذكر من ترجم لحكيم أنّه كان بطلاً، شريفاً^(٣)، صالحاً^(٤)، عابداً، مطاعاً^(٥)، ذا دين وتألّه^(٦)، حتّى عرف بـ "العبدى العابد"^(٧)، وهو الذي بعثه عثمان عليه السلام على السّد فنزلها^(٨)، وهذا يفيد أنّه كان أحد الأشراف العباد القراء المعروفين، وليس من قطّاع الطرق الموتورين.

❏ حال مصر:

لم تكن مصر خالية من مثيري الفتنة، بل كان أمرها أشدّ من المصريين العراقيين، لأنّ التّمرد فيها على الخليفة عثمان عليه السلام أتاه من ذوي قرابته، وممن أحسن إليهم، فكانت المبادرة من محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمي، ربيب عثمان الذي كفله وهو يتيم، وكان محمد قد سأل الخليفة أن يولّيه ولاية فرفض، ولم يره لذلك أهلاً^(٩). وخرج ابن أبي حذيفة مصطحباً محمد بن أبي بكر إلى مصر بحجّة الغزو والجهاد، فنهضاً يؤلّبان أهلها على عثمان، ولم يمنعهما قيام أهل مصر بجهاد الرّوم من التّمادي في الفتنة، فجعل ابن أبي حذيفة يقول للرّجل: "أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد

(١) ابن شبة: أخبار المدينة، جـ ٢، ص ٢٠٨. من طريق علي بن محمد المدائني.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٣٩.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ٥٣١.

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٢، ص ٥٧.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٩٥.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ٥٣١.

(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ ١٣، ص ٧٩.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٨٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٢، ص ٥٧.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٨٠. من طريق سيف.

حقاً"، فيقول الرجل: وأي جهاد؟ فيقول عثمان بن عفان، فعل وفعل، وكان همتما في ذات الصّواري تحريض الناس على عثمان وعيبه، وذكر ما خالف به أبا بكر وعمر، وإباحة دمه، وأنه استعمل عبد الله بن سعد الذي كفره القرآن، وأدخل إلى المدينة من أخرجهم النّبي ﷺ، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ، واستعمل الأحداث.

كانت هذه الخيانة والافتراءات -إن ثبتت- بحاجة إلى والٍ قويّ يسرع في مداواتها بسيفه كخالد بن الوليد، ولكن ابن سعد الذي كان أقلّ كفاءة من عمرو بن العاص بلا ريب، لم يزد على نهيه لهما بالركوب مع المجاهدين في البحر، فلم يعبنا بقوله، وركبا في مركب ما فيه أحدٌ من المسلمين، فلما التقى الجمعان كانا أقلّ المسلمين قتالا، فلما عوتبا في ذلك قالوا: "كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه"! فأفسدا أهل تلك الغزاة، وعابا عثمان ﷺ أشدّ العيب، فأرسل ابن سعد إليهما ينهاهما أشدّ النّهي، ويقول: "والله لولا أنني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما"^(١).

ورفع ابن سعد خبر ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر إلى عثمان ﷺ فعفا عنهما، وقال: "أما ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبيه ولعائشة أم المؤمنين، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي، وهو فرخ قريش، فكتب إليه: "إنّ هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير"، وبعث عثمان ﷺ إلى ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم، وبجمل عليه كسوة، فوضع ذلك في المسجد، ونادى في أهل مصر بأن عثمان يخادعه في دينه ويرشوه، فازدادوا طعنا على عثمان، وعظّموا ابن أبي حذيفة، ورأسوه عليهم"^(٢).

وقد ذكر الحافظ ابن كثير موقف ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر من عثمان ﷺ بقوله: "وَنَشَأَ بِمِصْرَ طَائِفَةٌ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ يُؤَلِّبُونَ النَّاسَ عَلَى حَرْبِهِ وَالْإِتْكَارِ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَظُمَ ذَلِكَ مُسْنَدًا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَذِيفَةَ"^(٣).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٢٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٧٧، ١٧٨. والخبر عن صنع محمد بن أبي بكر وابن أبي حذيفة من طريق الواقدي [وابن شبة]، ثم إنه موقوف على الزهري الذي ولد بعد الحادثة بنحو خمسة عشر عاما. محمد عبد الله عبد القادر غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ٢، ص ٨٧٠. غير أن انتزاع ابن أبي حذيفة على مصر في غيبة ابن أبي السرح، ومسير ابن أبي بكر مع الخوارج إلى عثمان وثبوت تأليبهم لهم وإدخالهم عليه -كما سيأتي- يؤكّد فعلهما هذا.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٩، ص ٣٧٠، ٣٧١، بدون إسناد.

(٣) البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٩١.

ثانياً: استغلال ضعف الدين لدعوة أبي ذر الغفاري:

كان أبو ذر رضي الله عنه قد لزم حياة الزهد، ثم استأذن عثمان رضي الله عنه في سكنى بلاد الشام فأذن له^(١)، فلما رأى الناس يتسعون في المراكب والملابس أنكر عليهم، وعمل على تفريق جميع ذلك من بين أيديهم^(٢)، وطفق يقول: "لا يبيتنَّ عند أحدكم دينار ولا درهم إلا ما ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم"^(٣)، وغير ذلك من الآثار الكثيرة التي تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش فهو كنز، وأن آية الوعيد نزلت في ذلك^(٤)، وقام يقرع عمال عثمان رضي الله عنه، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥)، فوقع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان كلام بسبب رأيه في المال، فطلب معاوية من الخليفة أن يخرج من بلاد الشام، حتى لا يضطرب أمرها، فاستدعاه عثمان رضي الله عنه إلى المدينة^(٦).

ولما علم أبو ذر رضي الله عنه باستدعاء الخليفة له خاف حتى إنه قال له عندما قدم عليه: "أَخَفْتَنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَتَعَلَّقَ بِعُرْوَةٍ قَتَبَ حَتَّى أَمُوتَ لَفَعَلْتُ"^(٧)، كما تخوفت غفاراً على أبي ذر من الخليفة فدخل رهط منهم مع أبي ذر، فلما انتهى إلى عثمان سلم عليه، ثم ما بدأه بشيء إلا أن قال: أَحَسِبْتَنِي مِنْهُمْ -يقصد الخوارج- يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ مَا أَنَا مِنْهُمْ وَلَا أُدْرِكُهُمْ، لَوْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَخْذَ بِعِرْقَوْبِي قَتَبَ لَأَخَذْتُ بِهِمَا حَتَّى أَمُوتَ"^(٨).

ولكن الناس اجتمعوا إلى أبي ذر، فجعل يسلك تلك الطرق، ويقوم على مجالس الناس فيرهبهم بعقوبة الكانزين^(٩)، فأشار عليه عثمان رضي الله عنه بالاعتزال عن مخالطة الناس،

(١) البيهقي: دلائل النبوة، جـ ٦، ص ٤٠١.

(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٨٥، ٨٦.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، جـ ٣، ص ٢٧٤.

(٤) ابن عبد البر: الاستذكار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، جـ ٣، ص ١٧٣.

(٥) سورة التوبة: من الآية ٣٤.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته فليس بكنز)، جـ ٢، ص ٥٠٩، ح ١٣٤١.

(٧) معمر بن راشد: الجامع، جـ ١١، ص ٣٣٢؛ ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٢٣. وإسناد الأثر صحيح، رجاله رجال الشيخين. محمد عبد الله غبان. فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٥٥٦.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٤، ص ٢٣٢؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ١٤٢، ١٤٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٦٦، ص ١٩٧. وإسناد ابن سعد صحيح. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٥٥٥.

(٩) البخاري: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته فليس بكنز)، جـ ٢، ص ٥١٠، ح ١٣٤٢؛ مسلم: الصحيح، (كتاب

الزكاة، باب في الكانزين للأموال والتغليظ عليهم)، جـ ٢، ص ٦٨٩، ح ٩٩٢.

فاختار أن ينزل الرّبذة^(١)، وعرض عليه عثمان إبلا من نَعَم الصّدقة ليصيب من لبنها، فرفض أبو ذرّ رضي الله عنه، ونادى: «دُونَكُمْ مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ دُنْيَاكُمْ فَأَعِزُّمُوهَا لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهَا»، وانطلق حتّى قدم الرّبذة، فصادف مولى لعثمان غلاماً حبشياً يؤمّمهم، فنودي بالصّلاة، فتقدّم، فلمّا رأى أبا ذرّ نكص، فأوماً إليه أبو ذرّ أن يتقدّم، وصلى أبو ذرّ خلفه^(٢).

وقد سئل أبو ذرّ رضي الله عنه عن سبب نزوله الرّبذة فقال: «كُنْتُ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٣)، فقال معاوية: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، فقلت: «نَزَلَتْ فِيْنَا وَفِيهِمْ، فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي ذَاكَ، وَكَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه يَشْكُونِي، فَكَتَبَ إِلَيَّ عُثْمَانُ: أَنْ أَقْدِمَ الْمَدِينَةَ فَقَدِمْتُهَا، فَكَثُرَ عَلَيَّ النَّاسُ حَتَّى كَانَهُمْ لَمْ يَرَوْني قَبْلَ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ ذَاكَ لِعُثْمَانَ، فَقَالَ لِي: إِنْ شِئْتَ تَنْحَيْتَ، فَكُنْتُ قَرِيبًا، فَذَاكَ الَّذِي أَنْزَلَنِي هَذَا الْمَنْزِلَ، وَلَوْ أَمَرُوا عَلَيَّ حَبَشِيًّا لَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ»^(٤).

وقد أشيع في صدر الإسلام أنّ عثمان رضي الله عنه أخرج أبا ذرّ من المدينة، ولكن علماء السلف كانوا ينكرون هذا القول^(٥)، الذي تلقفته الرافضة بعد ذلك وزادوا أنّ عثمان ضربه ضرباً وجيعاً^(٦)، وكذلك ما يشاع من اتّصال أبي ذرّ بابن سبأ اليهودي ببلاد الشّام وتأثره به^(٧)، فهو محض اختلاق؛ لأنّ أبا ذرّ رضي الله عنه كان فقيها عالماً بقواعد الإسلام، شديد الاعتداد برأيه، فلا يعقل أن يأخذ عن رجل حديث العهد بالإسلام لم يشتهر بشيء من العلم^(٨)، وقد غضب أبو ذرّ يوماً على كعب الأحبار ورفع عليه العصا، وخاطبه بابن اليهوديّة عندما صرّح أمامه بأنّه لا بأس بجمع المال الذي أدّيت زكاته^(٩).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب ما أدّى زكاته فليس بكنز)، جـ ٢، ص ٥٠٩، ح ١٣٤١.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٤، ص ٢٣٢؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ١٤٣. وإسناده صحيح. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٥٥٥.

(٣) سورة التوبة: من الآية ٣٤.

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب ما أدّى زكاته فليس بكنز)، جـ ٢، ص ٥٠٩، ح ١٣٤١.

(٥) ثبت إنكار هذه الفرية عن الحسن البصري وابن سيرين بإسناد صحيح. ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ١، ص ١٣٦.

(٦) هذا قول ابن المطهر الحلي الرافضي (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٥م). محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٣٦.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦١٥.

(٨) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٤١٤.

(٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٤، ص ٢٣٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ٦٧، ٦٨. وصحح محققو السير

إسناد الأثر.

وما كان أبو ذر ليضرب كعب الأحبار ويشتمه على رأيه المخالف له، ثم يأخذ فقهه وعلمه من يهودي^(١)، كما أنّ المنية وافت أبا ذر ﷺ سنة ٣١هـ/٦٥١م، أو ٣٢هـ/٦٥٢م، قبل ظهور ابن سبأ^(٢).

وقد أخذ أبو ذر ﷺ منهجه في الأموال والزكوات من فهمه الخاص لبعض الأحاديث التي رواها عن النبي ﷺ؛ فقد حدث أبو ذر فقال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رأيته قال: "هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ"، فقلت: يا رسول الله، فذاك أبي وأمي، من هُم؟ قال: "هُمُ الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ، وَلَا بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إِلَّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنَهُ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَوُّهُ بِأُظْلَافِهَا، كُلَّمَا نَفَدَتْ أُخْرَاهَا، عَادَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ"^(٣).

كما روى الأحنف بن قيس التميمي التابعي (ت: ٧٢هـ/٦٩١م) أنه جلس إلى ملا من قریش في مسجد المدينة، فجاءهم أبو ذر ﷺ فقام عليهم فسلم، ثم قال: "بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِرَضْفٍ"^(٤) يُحْمَى عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُوضَعُ عَلَى حِلْمَةٍ تُذِي أَحَدَهُمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نَغْصِ كَتِفِهِ^(٥)، وَيُوضَعُ عَلَى نَغْصِ كَتِفِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حِلْمَةٍ تُذِيهِ، يَتَزَلُّزَلُ، ثُمَّ وَلَّى، فَجَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ"^(٦)، وتبعه الأحنف فقال له: "لَا أَرَى الْقَوْمَ إِلَّا قَدْ كَرِهُوا الَّذِي قُلْتَ، قَالَ: إِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِ ﷺ له: "مَا أَحَبُّ أَنْ لِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا، أَنْفَقَهُ كُلَّهُ، إِلَّا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرٍ"، ثم قال: "إِنَّ هَؤُلَاءَ لَا يَعْقِلُونَ، إِنَّمَا يَجْمَعُونَ الدُّنْيَا، لَا وَاللَّهِ، لَا أَسْأَلُهُمْ دُنْيَا، وَلَا أَسْتَفْتِيهِمْ عَنْ دِينٍ، حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ"^(٧).

(١) عبد العزيز صالح الهلابي: عبد الله بن سبأ، دراسة للروايات التاريخية عن دوره في الفتنة، حولية كلية الآداب، الحولية الثامنة، الرسالة الخامسة والأربعون، جامعة الكويت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٢٠.

(٢) محمد محمد حسن شراب: المدينة المنورة، (فجر الإسلام والعصر الراشدي)، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج ٢، ص ٢٢٥؛ علي محمد محمد الصلابي: عثمان بن عفان، ص ٣٢٦.

(٣) مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة)، ج ٢، ص ٦٨٦، ح ٩٩٠.

(٤) الرضف: حجارة حميت بالشمس أو النار. ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ١٢١.

(٥) نغص الكتف: أعلى الكتف، وقيل هو العظم الرقيق على طرفها. المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٣٩.

(٦) سارية: أسطوانة أو عمود من أعمدة المسجد. المصدر السابق، ج ١٣، ص ٢٠٨.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته فليس بكنز)، ج ٢، ص ٥١٠، ح ١٣٤٢؛ مسلم: الصحيح، (كتاب

الزكاة، باب في الكنزين للأموال والتغليظ عليهم)، ج ٢، ص ٦٨٩، ح ٩٩٢.

ثالثاً: دور عبد الله بن سبأ اليهودي في الفتنة:

لقد دار جدل طويل حول شخصية ابن سبأ التاريخية من حيث الحقيقة والأسطورة؛ لأنّ تفاصيل أخباره في عهد عثمان ؓ قد نقلت إلينا من طريق سيف بن عمر التميمي مجروح الرواية، غير أنّ أصول أخباره قد ثبتت في المصادر المتقدمة على سيف والمتأخرة عليه عند السنة والشيعية على السواء^(١)، وإنّ تنوع مصادر أخباره من سنية وشيعية يجعل من الصعب القبول بنفي الوجود التاريخي له^(٢).

ويذكر سيف أنّ ابن سبأ كان يهودياً يمينياً من أمة سوداء ينسب إليها، فادّعى الإسلام زمن عثمان ؓ، واتّخذ من ذلك ستاراً لتأمّره، واستغلّ النّاقمين على عثمان ببثّ روح التّمرد في الأقطار الثلاثة التي سبق ذكرها^(٣).

وقد ثبت أنّ عبد الله بن سبأ خاض في حقّ الأئمة، وكان أوّل من طعن على أبي بكر وعمر ؓ وانتقصهما، فقد روى التّابعيّ سويد بن غفلة الجعفيّ أنّ عليّاً ؓ مرّ بنفر فيهم عبد الله بن سبأ يذكرون أبا بكر وعمر بسوء، ويرون أنّ عليّاً ؓ يضرر لهما مثل ذلك، فأخبر سويد عليّاً بأمرهم، فقال: مالي ولهذا الخبيث الأسود، معاذ الله أن أضمر لهما إلاّ الحسن الجميل، ثمّ أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيّره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبداً، ثمّ نهض إلى المنبر حتّى اجتمع النّاس، فأثنى على أبي بكر وعمر، وختم خطبته بقوله: "ألا، ولا يبلغني عن أحد يفضّلني عليهما إلاّ جلدته حدّ المفتري"^(٤).

ويؤيّد هذا ما ثبت بإسناد حسن عن الإمام الشّعبيّ (ت: ١٠٣هـ/٧٢١م، تقريباً) أنّه قال: "أوّل من كذب عبد الله بن سبأ"^(٥).

(١) سعدي مهدي الهاشمي: ابن سبأ حقيقة لا خيال، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ١٤٨،

١٤٩؛ سليمان حمد العودة: الإنقاذ من دعاوى الإنقاذ، ١٤٢١هـ، ص ٥-١٨؛ محمد عبد الله عبد القادر غبان: فتنة

مقتل عثمان، ج ١، ص ١٤٤-١٥١.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٦٢، ٦٣.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٦١٥، ٦٣٩، ٦٤١، ٦٤٧.

(٤) ابن حجر: لسان الميزان، ج ٤، ص ٤٨٤، ٤٨٥. وإسناد الأثر صحيح، ورجاله ثقات مشهورون بالعلم معروفون

بالأمانة. الخطيب البغدادي: الكفاية في معرفة أصول علم الدراية، تحقيق/ ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدمام،

الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، ج ٢، ص ١٧١، خالد كبير علّال: رؤوس الفتنة في الثورة على الخليفة الشهيد عثمان بن

عقّان، دار المحتسب، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٨.

(٥) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢٩، ص ٧؛ محمد عبد الله عبد القادر غبان: فتنة مقتل عثمان، ج ١، ص ١٥١.

رابعاً: اشتعال الفتنة:

على الرغم من الشكوك التي تدور حول رواية سيف التميمي للفتنة فإنّ الباحث يجد نفسه مضطراً للأخذ منها؛ لأنّ خروج المتمردين على عثمان ؓ من الكوفة والبصرة ومصر في آن واحد لا بدّ له من محرّك يرتّب الأمر بين هؤلاء جميعاً، خاصّة وأنّ الأشتر النخعي -أحد رؤوس الفتنة الكوفيّين- سنراه يعترف خلال حصار عثمان بأنّ يدا خفية كان لها دور كبير في إثارتهم وخروجهم^(١).

لما بلغت نذر الفتنة مسامع الخليفة استدعى عمّاله ليستكشف منهم أحوال البلدان، ويستشيرهم في مواجهة الأزمة^(٢)، فلم يكد العمال يخرجون من ولاياتهم ويتّجهون إلى المدينة النبوية حتّى سيطر المتمرّدون على مقاليد البلاد في مصر، وأجمعوا على منع إعادة الوالي سعيد بن العاص إلى الكوفة، فتمّ لهم ما أرادوه.

■ اشتعال الفتنة في الكوفة:

استغلّ زعماء الفتنة الكوفيّون غياب الوالي سعيد بن العاص، فقاموا بتحريض السكّان ضده، زاعمين أنّه يريد إنقاص العطاء، ونجح الأشتر النخعي في جمع المعارضين للوالي^(٣)، وعسكروا بالجرعة^(٤)، في ألف رجل^(٥)، ومنعوا الوالي عند عودته من دخول الكوفة وردّوه^(٦)، فرجع إلى المدينة^(٧).

وقد أثبتت روايات المحدثين هذه الحادثة التي تعدّ بداية للفتنة الفعلية، فقد عرض على حذيفة بن اليمان ؓ أن يخرج مع النّاس ليراقب الموقف فرفض، وقال: "إِنَّ الْفِتْنَةَ

(١) ينظر ص ٢٦٨ من هذا الكتاب.

(٢) تختلف الروايات في تحديد تاريخ استدعاء أمير المؤمنين عثمان ؓ لعمّاله بين سنتي ٣٤هـ، أو ٣٥هـ، والراجح من الأقوال أنّ الاجتماع كان عقب موسم الحجّ أواخر سنة ٣٤هـ؛ وذلك لأنّ المنحرفين عن عثمان خرجوا عليه قبل موسم سنة ٣٥هـ.

(٣) يذكر ابن سعد بدون إسناد أنّ الأشتر ورفاقه من أهل الفتنة رحلوا إلى عثمان وسألوه أن يعزله عنهم فأبى، فعادوا إلى الكوفة وعملوا على عزله بالقوّة. الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٣٣.

(٤) الجرعة: موضع بقرب الكوفة على طريق الحيرة فيه رمل وسهولة. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٣٣.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص ٣٧١، ح ٢٣٤٨، واستدركه الحاكم على شرط الشيخين، وصححه، وأقره الذهبي.

المستدرک، ج٢، ص ١٧٠، ح ٢٦٦٨. ورشحه الأرنؤوط للتحسين.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص ٣٣.

تَسْتَشْرِفُ مَنْ اسْتَشْرِفَ لَهَا" (١)، ولَمَّا قَالَ لَهُ جَنْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ ﷺ: "وَاللَّهِ لِيُهْرَاقَنَّ الْيَوْمَ دِمَاءً"، أَقْسَمَ حَذِيفَةَ مَرَارًا أَنَّهُ لَنْ يَحْدُثَ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢)، وَكَشَفَ حَذِيفَةَ ﷺ عَنْ مَصِيرِ رُؤُوسِ الْفِتْنَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ الْجَرَعَةِ فَقَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ يُصْبِحُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي وَمَا مَعَهُ شَيْءٌ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ وَمَا مَعَهُ شَيْءٌ، يُقَاتِلُ فِي الْفِتْنَةِ الْيَوْمَ، وَيَقْتُلُهُ اللَّهُ غَدًا" (٣).

وعَادَ سَعِيدٌ بِخَبَرِ مَتَمَرْدِي الْكُوفِيِّينَ، وَأَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ الْمَطَالِبَةَ بِالْبَدَلِ، وَيَخْتَارُونَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ، فَأَجَابَ الْخَلِيفَةَ طَلِبَهُمْ، "إِزَاحَةً لِعُذْرِهِمْ، وَإِزَالَةً لِشُبُهِهِمْ، وَقَطْعًا لِعِلْلِهِمْ" (٤)، وَظَلَّ يَتَعَامَلُ بِاللَّيْنِ، وَيُؤَثِّرُ جَانِبَ الرِّفْقِ وَالْهَوَادَةِ عَلَى الشَّدَةِ وَالصَّرَامَةِ، وَكَانَ أَهْلُ الْفِتْنَةِ قَدْ عَرَفُوا شَخْصِيَّةَ أَبِي مُوسَى الْمَشَابَهَةَ لِلْخَلِيفَةِ فِي اللَّيْنِ وَكُرْهِ الدِّمَاءِ وَإِثَارِ الْعَافِيَةِ، وَلِذَا لَجَّوْا فِي غِيهِمْ، وَضَعَفَ مَرْكَزُ الْوَالِيِّ وَالْخَلِيفَةِ عِنْدَهُمْ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ (٥).

❏ سيطرة المتمردين على البلاد المصرية:

انتهز أهل الفتنة بمصر غياب الوالي عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فانتزى ربيب عثمان العاق محمد بن أبي حذيفة العبشمي على خليفة ابن أبي السرح فعزله، وتأمّر على البلاد، وأرصد خيلاً لابن أبي السرح عند القلزم -السويس- فلَمَّا عاد منعوه من الدخول، فقال: "ويلكم، دَعُونِي أَدْخُلْ عَلَى جُنْدِي فَأُعَلِّمُهُمْ بِمَا جَنَّتْ بِهِ، فَإِنِّي قَدْ جَنَّتُهُمْ بِخَيْرٍ"، وَلَكِنَّهُمْ أَصْرَوْا عَلَى مَنَعِهِ، فَقَالَ: "وَاللَّهِ لَوُدِدْتُ أَنِّي دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فَأُعَلِّمْتُهُمْ بِمَا جَنَّتْ بِهِ ثُمَّ مِتُّ" (٦)، وَمَضَى إِلَى فِلَسْطِينَ، فَأَقَامَ بِهَا حَتَّى مَاتَ (٧).

(١) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٤٥٤، ح ٣٧١٦٧. بإسناد لا بأس به.

(٢) مسلم: الصحيح، (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر)، جـ ٤، ص ٢٢١٩، ح ٢٨٩٣.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٣٨، ص ٣٧١، ح ٢٣٣٤٨، واستدركه الحاكم على شرط الشيخين، وصححه، وأقره الذهبي.

المستدرک، جـ ٢، ص ١٧٠، ح ٢٦٦٨. ورشحه الأرنؤوط للتحسين.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ١٨٨.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٣٤.

(٦) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٦.

(٧) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، جـ ١، ص ٢٧٠؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٢٩، ص ٢٦. ولم يتحرّب ابن أبي السرح بعد عثمان لعلّي ولا لمعاوية، ودعا ربه أن يجعل خاتمة عمله الصلاة، فلَمَّا حانت وفاته تَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى الصُّبْحَ، فَقَرَأَ فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَالْعَادِيَّاتِ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَسُورَةَ، ثُمَّ سَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ، وَذَهَبَ يَسْلَمُ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَبِضَ اللَّهُ رُوحَهُ. ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ٣، ص ٩٩١، ٩٢٠.

دعا ابن أبي حذيفة إلى خلع عثمان رضي الله عنه، وأسعر البلاد، وحرّض على عثمان بكل شيء يقدر عليه^(١)، ويروي الكندي (ت: ٣٥٠هـ/٩٦٠م) نموذجاً لما كان يفعله ابن أبي حذيفة للتأثير على العامة وتأليب الناس على الخليفة فيقول: "كان يكتب الكتب على السنة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأخذ الرواحل فيضمّرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث لذلك معهم فيجعلهم على ظهور البيوت، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوّحهم تلويح المسافرين، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب، ثم يخرج محمد بن أبي حذيفة والناس كأنه يتلقّى رسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فإذا لقوهم، قالوا: لا خبر عندنا عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فيجتمع الناس في المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب، فيقول: إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عمل في الإسلام وما صنع في الإسلام^(٢)، فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء، ثم ينزل عن المنبر وينفّر الناس بما قرئ عليهم"^(٣).

وبعيداً عن صحّة هذا الأثر من عدمه، فقد ثبت تزوير رؤوس أهل الفتنة للكتب على لسان عائشة رضي الله عنها؛ فإنّها لما غضبت لمقتل عثمان رضي الله عنه وقالت: "تركتموه كالثوب النقي من الدّس، ثم قرّبتموه فذبّحتموه كما يذبّح الكبش؟ قال لها مسروق: هذا عملك أنت، كتبت إلى أناس تأمرينهم بالخروج، فقالت: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا"، وعلّق الأعمش (ت: ١٤٨هـ/٧٦٥م) بقوله: "فكانوا يرون أنه كتب على لسانها"^(٤)، كما زوروا الكتب على لسان علي رضي الله عنه؛ فلما قدم وفد مصر المدينة طالبوه بالقيام معهم، واتّهموه بالكتابة إليهم في الخروج على عثمان، فأقسم لهم بالله: "ما كتبت إليكم كتاباً قط"^(٥).

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٤؛ المقرئ: الخطط، ج ٤، ص ١٥٢.

(٢) يعددون المطاعن على عثمان. ابن حجر: الإصابة، ج ٦، ص ١٠.

(٣) الولاة والقضاة، ص ١٤، ١٥.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٦، ص ٣٦٣، ح ٣٢٠٥١؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٧٦؛ وإسناد الأثر صحيح إلى عائشة. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢١٨. وفي رواية أن الأشر قال لعائشة: "كتبتن إلينا تأمرننا، حتى إذا قامت الحرب على ساق أنشأتن تنهيننا". الخلال: السنة، ج ٢، ص ٣٤٠.

(٥) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥٢٠؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج ١، ص ٤٧١؛ وإسناد الأثر صحيح، ورجاله ثقات. ابن حجر: المطالب العالية، ج ٨، ص ٤٧.

ولما بلغت أخبار مصر مسامع الخليفة أرسل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى أهلها ليصلح أمرهم، فلما علم به ابن أبي حذيفة خطب في أتباعه: "ألا إن الكذاب ... قد بعث إليكم سعد بن مالك ليقلّ جماعتكم، ويشتت كلمتكم، ويوقع التخاذل فيكم، فانفروا إليه"، وخرج بنحو مائة منهم فلقوه قائلًا بمرحلة بني سعد وقد ضرب فسطاطه، فقلبوه عليه، وشجّوه، وسبّوه، فركب راحلته ودعا عليهم، وعاد من حيث جاء^(١).

خامساً: مسير الخوارج إلى المدينة ومقابلتهم لأمير المؤمنين عثمان:

رأى الخوارج المفتونون أنّ الفرصة قد واثقتهم بعد تسلّطهم على مصر، فكاتبوا إخوانهم في الكوفة والبصرة، وواعدوهم بالمسير إلى الخليفة في هيئة الحجاج لئلا يعترضهم الناس، وخرجوا في شوال سنة ٣٥هـ/٦٥٥م، على أن يجتمعوا في ضواحي المدينة النبوية، فتحرك خوارج مصر^(٢) برئاسة عبد الرحمن بن عديس البلوي، وخرج الكوفيون برئاسة مالك بن الحارث الأشتر النخعي، كما سار إليهم خوارج البصرة برئاسة حكيم بن جبلة العبدي^(٣).

ويتبيّن من الروايات الصحيحة أنّ الخوارج المصريين سبقوا العراقيين، وبلغ عثمان خبرهم، فخرج لاستقبالهم في قرية من ضواحي المدينة، وكره أن يدخلوها، فلما سمعوا به، أقبلوا إليه^(٤)، وذكروا له أموراً نقموا عليه بسببها^(٥)، ومنها:

(١) الكندي: الولاية والقضاة، ص ١٦.

(٢) يقدر سيف التميمي عدد الخوارج المصريين بين الستمائة والألف، ويجعل الكوفيين في مثل عددهم، وكذلك البصريين، بينما المصادر الأخرى تجعل الكوفيين مائتين، والبصريين نحوهم.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٧٧، من طريق الواقدي، وخليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٦٨، عن المدائني.

(٤) يحدد المدائني تاريخ قدومهم بيوم الأربعاء هلال ذي القعدة. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٦٨.

(٥) رواها جماعة من المحدثين عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري. ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥٢٠؛ أحمد ابن حنبل: فضائل الصحابة، ج ١، ص ٤٧٠؛ البزار: البحر الزخار، ج ٢، ص ٤٢؛ ابن حبان: الصحيح، ج ١٥، ص ٣٥٧-٣٦١، ح ٦٩١٩؛ واستدركها الحاكم على الصحيحين، وصححها على شرط مسلم، وأقره الذهبي. المستدرك، ج ٢، ص ٣٦٩، وقال الهيثمي: "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير أبي سعيد مولى أبي أسيد وهو ثقة". مجمع الزوائد، ج ٧، ص ٢٢٩، وأورده ابن حجر من طريق إسحاق بن راهويه وقال: "رواته ثقات، سمع بعضهم من بعض". المطالب العلية بزوائد المسانيد الثمانية، ج ١٨، ص ٤٧. وعلّق على رواية البزار فقال: "هذا إسناد صحيح، لأنّ أبا سعيد ثقة، والباقون من رجال الصحيح". ابن حجر: زوائد مسند البزار، تحقيق/ صبري عبد الخالق، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ١٦٩. وسنحيل على هذه الرواية دون إعادة ذكر مصادرها.

١- **حمية الحمى:** حيث طلبوا منه أن يدعو بالمصحف، وأمره أن يفتح سورة يونس، وكانوا يسمونها السابعة، فقرأ حتى أتى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١)، فاستوقفوه، وقالوا: أرأيت ما حميت من حمى الله تعالى، الله أدنى لك أم على الله تفتري؟ فبين لهم سبب نزولها، وكشف لهم حقيقة الحمى، فأخبرهم أن عمر رضي الله عنه حمى الحمى قبله لإبل الصدقة، فلما ولى هو وزادت إبل الصدقة، زاد في الحمى، لما زاد في الصدقة^(٢).

٢- **جمعه للقرآن:** زعموا أنهم ينقمون عليه جعله الحروف حرفاً واحداً، فأخبرهم بما كان من اختلاف الناس في القراءات، وأمر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه^(٣)، وقد ثبت أن بعض الناس عابوا على عثمان جمعه للقرآن في حضرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرد عنه، وقام يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَغْلُوا فِي عُثْمَانَ، وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا فِي الْمَصَاحِفِ وَإِحْرَاقِ الْمَصَاحِفِ، فَوَاللَّهِ مَا فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ فِي الْمَصَاحِفِ إِلَّا عَنْ مَلَأَ مِنَّا جَمِيعًا"، وأقسم عليٌّ فقال: "وَاللَّهِ لَوْ وَلَيْتُهُ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ"^(٤).

٣- **ضربه عمار بن ياسر:** قالوا لعثمان: "تَنَقُّمُ عَلَيْكَ ضَرْبُكَ عَمَّارًا"، فأجابهم بأن سعدا وعماراً أتياه وهو مشغول وغير مستعد لخصومتهم، فأمرهما بالانصراف ووعدهما يوماً آخر، فانصرف سعد وأبى عمار، فتناوله رسول من غير أمره؛ وأقسم لهم أنه ما أمر ولا رضي، وقدم يده عارضا اقتصاص عمار منها^(٥).

٤- **استعماله أقاربه:** ذكروا لعثمان رضي الله عنه نقيمتهم عليه لاستعماله السفهاء من أقاربه، فطالب عثمان أهل كل مصر بتسمية صاحبهم الذي يحبونه ليستعمله عليهم، ويعزل عنهم الذي يكرهون^(٦).

(١) سورة يونس: الآية ٥٩.

(٢) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- السابق ذكرها.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥٢٢، بإسناد ضعيف.

(٤) ابن أبي داود: المصنف، ص٩٧، وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج٩، ص١٨.

(٥) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥٢١، ٥٢٢. وهذا الأثر ضعيف الإسناد، وما يروى بعد هذا الأثر في ضرب عثمان

عماراً فلا إسناد له ولا يصح. محمد عبد الله عبد القادر غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٠٩-١١٢.

(٦) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥٢٢؛ البخاري: التاريخ الأوسط، ج١، ص٨٤. وإسناد الأثر ضعيف. محمد عبد

الله عبد القادر غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٥٦.

ويتقوى الثالث والرابع بما ثبت عن عائشة ؓ أنها قالت للقتلة عندما نزلت البصرة للطلب بدم عثمان: "غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتى، وموقع الغمامة، وضربة السوط والعصا، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه: حرمة الشهر، والبلد، والدم" (١).

وجعل الخوارج يأخذون عثمان ؓ بالآية من كتاب الله ﷻ فيذكر لهم سبب نزولها، ويبين لهم حقيقة الأفعال التي يتهمونه فيها زورا وبهتاناً بمخالفته لنهج رسول الله ﷺ وصاحبيه، إلا أنهم "أخذوه بأشياء لم يكن عنده منها مخرج، فعرفها"، واستغفر الله، وأعلن توبته منها (٢)، ويؤكد استتابتهم له أن عائشة ؓ قالت بعد استشهادها: "استتابوه حتى تركوه كالثوب الرحيض" (٣)، ثم قتلوه (٤).

وبلغ من مرونة عثمان ؓ مع الناقمين أنه قال لهم: "هاتان رجلان، فإن كان في كتاب الله أن تجعلوهما في القيود فاجعلوهما في القيود" (٥).

وعمل الخليفة الراشد عثمان ؓ على اجتثاث أسباب نقيمتهم ومعالجتها من أساسها، فسأل المصريين عما يريدون؟ فقالوا: "نريد أن لا يأخذ أهل المدينة عطاءً، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهذه الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ، فأعطاهم ذلك، فأخذوا ميثاقه، وأخذ عليهم أن لا يشقوا عصاً، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم، فرضوا، وأقبلوا معه إلى المدينة راضين، وقام عثمان ؓ فخطب قائلاً: "إني والله ما رأيت وفداً في الأرض هو خير من هذا الوفد الذي من أهل مصر، ألا من كان له زرعٌ فليحرق بزرعه، ومن كان له ضرعٌ فليحتلب، ألا إنه لا مال لكم عندنا، فغضب الناس، وقالوا: هذا مكر بني أمية، ورجع الوفد المصريون راضين" (٦).

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٣٠، وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٠.

(٢) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- التي سبق ذكرها.

(٣) الرحيض: المغسول. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ ٢، ص ٢٠٨.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٧٥، بإسناد حسن لغيره. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٤٦٨.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٦٩، ٧٠؛ ابن أبي شيبه: المصنف في الأحاديث والآثار، جـ ٧، ص ٥٢٣؛ أحمد

ابن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٥٤٤، ح ٥٢٤؛ فضائل الصحابة، جـ ١، ص ٩٢٤. وصحح الأثر صحيح محققو المسند.

(٦) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- التي سبق ذكرها.

ولما جاء الكوفيون والبصريون وعسكروا بذي المروة^(١)، خارج المدينة استشار عثمان عبد الله بن عمر بن الخطاب ؓ في أمرهم فأشار عليه أن يعرض عليهم كتاب الله، فأرسل عثمان إليهم علياً ؓ فالتقى بهم، وعرض عليهم الصلح على كتاب الله، فشادوه، وشادهم، مرتين أو ثلاثاً، ثم أجابوه، وكتبوا كتاباً اشترطوا فيه خمساً، "أنّ المنفيّ يَقلب، وأنّ المحروم يُعطى، وأنّ الفيء يوفّر، وأنّ يُعدل في القسم، وأنّ يُستعمل أولو القوة والأمانة"، كما اشترطوا أن يُردّ ابنُ عامر على البصرة، وأبو موسى الأشعريّ على الكوفة، ثمّ انصرفوا راجعين^(٢).

وكتب عثمان ؓ كتاباً إلى أهل العراق، يقول فيه: "إنّ جيش ذي المروة نزلوا بنا فكان ممّا صالحناهم عليه: أن يؤدّى إلى كلّ ذي حقّ حقّه، فمن كان له قبلنا حقّ فليركب إليه، فإن أبطأ أو تناقل فليتصدّق فإنّ الله يجزي المتصدقين"^(٣).

وبعد الصلح وعودة أهل الأمصار تبين لمثيري الفتنة أن خطّتهم قد فشلت، وأهدافهم الدنيئة لم تتحقّق، لذلك خطّطوا تخطيطاً آخر، يحيي الفتنة، ويدمر الصلح الذي جرى بين أهل الأمصار والخليفة^(٤)، وبينما المصريون في الطريق عائدين إذا هم براكب يتعرّض لهم ويفارقهم، ثمّ يرجع إليهم، ثمّ يفارقهم ويسبّهم، فسألوه عن شأنه فأخبرهم أنّه رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه، فإذا هم بالكتاب معه على لسان عثمان ؓ، عليه خاتمهُ إلى عامله بمصر أن يقتلهم أو يصلّبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فأقبلوا حتّى قدموا المدينة، فأتوا علياً ؓ فأطلعوه على الكتاب، وأعلنوا حلّ دم الخليفة، وطالبوا علياً بالقيام معهم، فأقسم بالله ألا يقوم معهم إليه، فقالوا: "فلم كتبت إلينا؟" فحلف لهم بالله: "ما كتبت إلّكم كتاباً قطّ"، فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: "لهذا تُقاتلون! أم لهذا تَغضبون!" فانطلق عليّ ؓ فخرج من المدينة إلى قرية^(٥).

(١) ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٣٩، ص ٤٧٨. والأثر حسن الإسناد. محمد غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٥٧.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٦٩، ١٧٠؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٠٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٥٨٦؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٣٩، ص ٣٢٤. وهذا أثر موقوف، وهو صحيح الإسناد إلى محمد بن سيرين، وهو ثقة مأمون، لكنه لم يدرك الفتنة. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٥٥.

(٣) ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٣٩، ص ٤٧٨. والأثر حسن الإسناد. محمد غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٥٧.

(٤) محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٥٧.

(٥) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاري - التي سبق ذكرها.

والناظر في الصورة التي بدا عليها الرسول من تعرّضه لهم، وسبّه لهم، وسلوكه في طريقهم، تدلّ على تزوير الكتاب، وأنه لا دخل لعثمان بأمره.

ولما قفل الخوارج إلى عثمان ؓ أخبر حذيفة بن اليمان ؓ بمسيرهم إليه، فأقسم بالله أنهم يقتلونه، وأنه في الجنة، وهم في النار^(١)، وانطلقوا حتى دخلوا على عثمان ؓ، فأطلقوه على الكتاب وقالوا: "إن الله قد أحلّ دمك"، فقال لهم: "إنهما اثنتان: أن تقيموا عليّ رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو، ما كتبت، ولا أملت ولا علمت، وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على كتاب الرجل، وقد يُنقش الخاتم على الخاتم"، ولكنهم لم يرضوا بقوله، وقالوا: "فوالله، لقد أحلّ الله دمك بنقض العهد والميثاق"^(٢).

ولم يقبل الخوارج حكم الله في عثمان ؓ مع أنه جعل نفسه متّهما ونصبهم للقيام بإدارة مهمة القضاء، وذلك لأن رؤوسهم لا يريدون تفويت الفرصة في إشعال الفتنة، وسنراهم يحبطون أي محاولة يمكن أن تؤدي إلى الصلح مع الخليفة.

وكان الصحابة ؓ قد أعجبهم ما أظهره المفتونون من عبادة عند نزولهم المدينة، فغشّهم أمرهم، وتهاونوا في التعامل معهم^(٣)، حتى قالت عائشة ؓ: "فوالله ما احتقرت أعمال أصحاب النبي ﷺ حتى نجم النفر الذين طعنوا في عثمان فقالوا قولاً لا يحسن مثله، وقرأوا قراءة لا يحسن مثله، وصلّوا صلاة لا يصلّي مثله، فلما تدبّرت الصنيع إذا هم والله ما يفاربون أعمال أصحاب رسول الله ﷺ"، ونصحت عبيد الله ابن عدي بن الخيار ألا يغترّ بالأقوال والمظاهر حتى يرى العمل^(٤).

ولهذا فكل ما أشيع حول الصحابة ؓ من موافاتهم لأهل الفتنة، وخاصة طلحة ؓ إنما هو لسكوته عن مواجهتهم في البداية بما أظهره من صنوف العبادة.

(١) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ٧، ص٥١٦؛ الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ٢، ص٧٦٢؛ وصحح الفسوي الأثر.

المعرفة والتاريخ جـ٢، ص٧٦٨.

(٢) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاري - التي سبق ذكرها.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٩.

(٤) البخاري: خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، تحقيق/ فهد سليمان الفهيد، دار أطلس الخضراء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥هـ، جـ٢، ص١٠٢؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ١، ص٤٦٢؛ أبو داود: الزهد،

ص٢٧٩. وإسناد الأثر صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٩.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٥٦، ح٥٥٢. وضعف المحققون إسناده.

سادسا: حصار عثمان:

لَمَّا رَجَعَ الْخَوَارِجُ إِلَى عِثْمَانَ ﷺ اسْتَدْعَى الْأَشْتَر، وَسَأَلَهُ عَمَّا يَرِيدُ النَّاسُ مِنْهُ؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ، إِمَّا أَنْ يَدَعَ لَهُمُ الْخِلَافَةَ لِيُخْتَارُوا مِنْ شَاعُوا، وَبَيْنَ أَنْ يُقَصَّ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنْ أَبَى فَإِنَّ الْقَوْمَ قَاتِلُوهُ، فَأَجَابَ عِثْمَانُ بِقَوْلِهِ: "أَمَّا أَنْ أُخْلَعَ لَهُمْ أَمْرُهُمْ فَمَا كُنْتُ لِأُخْلَعَ سِرْبَالًا سُرْبِلْتُهُ، وَأَمَّا أَنْ أُقَصَّ مِنْ نَفْسِي، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَيَّ كَانَا يُعَاقِبَانِ، وَمَا يَقُومُ بَدَنِي لِلْقِصَاصِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْتُلُونِي، فَوَاللَّهِ لئن قَتَلْتُمُونِي لَا تُحَابُونَ بَعْدِي أَبَدًا، وَلَا تُقَاتِلُونَ بَعْدِي عَدُوًّا جَمِيعًا أَبَدًا"^(١).

وعاد الأشتر إلى الخوارج بجواب الخليفة فأسرعوا إلى داره^(٢)، "فحاصروه"^(٣)، وامتلات الساحة التي تقع بين الدار والمسجد النبوي بالناس^(٤)، "فَلَوْ أَنَّ حَصَاةً أَلْفَيْتَهَا مَا سَقَطَتْ إِلَّا عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ"^(٥)، وظل عثمان ﷺ يصلي بالناس ويخطب حتى قال في خطبته: "إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتَّبِعُ جَنَازَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُؤَسِّنَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَإِنَّ نَاسًا يَعْلَمُونِي بِهِ عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَأَى قَطُّ"^(٦)، فقال له أَعَيْنُ {التميمي} ابن امرأة الفرزدق: "يَا نَعْلُ، إِنَّكَ قَدْ بَدَلْتَ"، فلما عرفه عثمان قال: "بَلْ أَنْتَ أَيُّهَا الْعَبْدُ، فَوَثَبَ النَّاسُ إِلَى أَعَيْنَ، وَجَعَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ يَزْعُمُهُ عَنْهُ حَتَّى أَدْخَلَهُ دَارَهُ"^(٧).

(١) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٤٤١، ح ٣٧٠٧٩؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١، ص ٨٢، ح ١١٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٧٢، ٧٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٧٠. وعلق عليه الهيثمي بقوله: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير وثاب، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه أحد". مجمع الزوائد، جـ ٧، ص ٢٣٢. وإسناده صحيح إلى وثاب، ولبعضه شاهد صحيح. محمد عبد الله غبان، فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٥١٥.

(٢) دار عثمان: هي داره الكبرى التي كان يسكنها في المدينة النبوية، ويسمى أحيانا الرواة بالقصر، وتقع شرق المسجد النبوي مقابل باب عثمان، وشرقها داره الصغرى التي تليها دار عمرو بن حزم، ويقابل داره الصغرى دار لأبي بكر الصديق. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ١٦٦.

(٣) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- التي سبق ذكرها. وتتراوح الأقوال في مدة الحصار بين اثنين وعشرين إلى تسعة وأربعين يوما. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٦٨.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٤٩١، ح ٤٣٧، وصحح المحققون إسناده على شرط الشيخين.

(٥) أورده البوصيري من طريق أبي يعلى بسند ضعيف. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ ٨، ص ١٣.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٥٣٢، ح ٥٠٤، وحسن الأرنؤوط إسناده.

(٧) رواه أبو يعلى في مسنده الكبير. الهيثمي: المقصد العلي إلى زوائد أبي يعلى الموصلي، تحقيق/ سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ ٤، ص ٣٨٥؛ المقدسي: الأحاديث المختارة، جـ ١، ص ٤٨١، وقال المحقق: "إسناده لا بأس به". وعلق عليه الهيثمي فقال: "رواه أحمد {دون ذكر أعين} وأبو يعلى في الكبير، ورجالهما رجال الصحيح، غير عباد بن زاهر، وهو ثقة". مجمع الزوائد، جـ ٧، ص ٢٢٨.

وشدّد الخوارج الحصار على عثمان رضي الله عنه، وامتنعوا عن كلامه حتّى أشرف عليهم وهو محصورٌ ذات يومٍ، فقال: "السّلام عليكم"، فحلف أبو سعيدٍ -راوي الخبر- بالله أنّه ما سمع أحدًا من النّاس ردّ عليه السّلام، إلّا أن يردّ الرّجل في نفسه، فناشدهم عثمان باللّهِ الَّذي لا إله إلا هو، وذكر شيئاً في شأنه، وذكر كتابته المفصل^(١).

وقال لهم يوماً: "أنشدكم باللّهِ والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدّم المدينة وليس بها ماءٌ يستعذب غير بئر رومة فقال: "مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةٍ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟" فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها حتّى أشرب من ماء البحر. فقالوا: اللّهم نعم. قال: أنشدكم باللّهِ والإسلام هل تعلمون أنّ المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةً آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدَهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟" فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا: اللّهم نعم. قال: أنشدكم باللّهِ والإسلام، هل تعلمون أنّي جهّزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللّهم نعم. قال: أنشدكم باللّهِ والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان على ثبيرٍ مكةً ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرّك الجبل حتّى تساقطت حجارتُه بالحضيض فركضه برجله وقال: "اسْكُنْ ثَبِيرٌ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ؟" قالوا: اللّهم، نعم. قال: اللّهُ أكبر، شهدوا لي وربّ الكعبة أنّي شهيدٌ، ثلاثاً^(٢).

ولمّا سمع النّاس ماثر عثمان رضي الله عنه قالوا: "مهلاً عن أمير المؤمنين، ففشا النّهي، وقام الأشتر فقال: فلعلّه قد مكر به وبكم، فوطئه النّاس حتّى لقي كذا وكذا"^(٣)، يعني من الشّدّة والأذى. ويتبيّن من هذه الحادثة أنّ الأشتر كان من المفتونين المدفوعين، وقد أثر ما حدث له على غيره من عامّة القوم، حتّى إنّ أبا سعيد ليقول: "ثمّ إنّّه صلى الله عليه وآله أشرف عليهم مرّةً أخرى، فوعظهم وذكرهم، فلم تأخذ فيهم الموعظة، وكان النّاس تأخذ فيهم الموعظة أوّل ما يسمعون بها، فإذا أعيدت عليهم لم تأخذ فيهم"^(٤).

(١) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- التي سبق ذكرها.

(٢) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن، وقد روي من غير وجه عن عثمان"، (كتاب المناقب)، ج٥، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٣٧٠٣، واجتبه النّسائي في السنن الصغرى، (كتاب الأحباس، باب وقف المساجد)، ج٦، ص٢٣٥، ح٣٦٠٨، وحسنه الألباني. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ج٦، ص٣٨-٤٠.

(٣) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- التي سبق ذكرها.

(٤) من الرواية السابقة.

ولمّا أيقن عثمان ؓ بعزم الخوارج النّاقمين على قتله اطلع إلى النّاس فقال: "أيّها النّاس لا تقتلونني واستعقبوا، فواللّهِ لئن قتلتموني لا تصلّون جميعاً أبداً، ولا تجاهدون عدوّاً أبداً، ولتختلّفنّ حتّى تصيروا هكذا، وشبّك بين أصابعه" (١).

وكان عثمان ؓ حريصاً على إقامة المسلمين لصلاتهم في المسجد النبويّ وهو محصور، ولمّا دخل عليه عبيد الله بن عديّ بن خياريّ وقال له: "إنّك إمام عامّة، ونزل بك ما نرى، ويصليّ لنا إمام فتنّة" (٢)، وتحرّج؟ قال: "الصّلاة أحسن ما يعمل النّاس، فإذا أحسن النّاس، فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم" (٣).

ولمّا دخل وقت الحجّ أشرف عثمان ؓ على النّاس فاستدعى ابن عبّاس ؓ فأمره أن يحجّ بالنّاس (٤).

وعندما اشتدّ الحصار على عثمان ؓ وحال المفتونون بينه وبين النّاس، ومنعوه كلّ شيء حتّى الماء صاح عمّار بن ياسر ؓ في الخوارج فقال: "سبحان الله! قد اشترى بئر رومة وتمنعوه ماءها! خلّوا سبيل الماء" (٥)، وأرسل عثمان ؓ في السرّ إلى أزواج النّبيّ ﷺ وإلى عليّ يطلب منهم الإغاثة بالماء، فركبت صفية بنت حيّ ؓ بغلة لها، وسارت مع غلمانها إلى باب الدّار، فإذا الأشتى وناسٌ معه حول الدّار، فأمرها بالرجوع إلى بيتها، فلمّا أبت رفع قنّاةً معه، أو رمحاً، فضرب عجز البغلة، فوثبت البغلة، ومال اليهودج، حتّى كاد أن يقع، فلمّا رأت ذلك أمرت غلمانها بردها (٦).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٧١؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥١٥؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٣٢، وأورده الحافظ ابن حجر من طريق أحمد بن منيع بسند صحيح، رواه ثقات كما قرر محقق المطالب العالية، جـ ١٨، ص ٦٦. وهو حكم البوصيري. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ ٣، ص ٤٩.

(٢) هو عبد الرحمن بن عديس البلوي، وقيل كنانة بن بشر، ورجحه ابن حجر. فتح الباري، جـ ٢، ١٨٩.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الجماعة والإمامة، باب إمامة المفتون والمبتدع)، جـ ١، ص ٢٤٦، ح ٦٦٣.

(٤) رواه الفسوي بإسناده عن ابن شهاب الزهري. المعرفة والتاريخ، (نصوص من الجزء الأول المفقود)، جـ ٣، ص ٣١١؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ١٢٩.

(٥) المحبّ الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة، جـ ٣، ص ٩٨. وذكر محبّ الدين أنّ الأثر رواه أبو الزناد عن أبي هريرة، ولم يسق إسناده، ولم يحكم عليه، وقد نقتب عنه فلم أجده إلا عند الديار بكري، حيث أورده عن المحبّ الطبري. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، جـ ٢، ص ٢٧٢.

(٦) إسحاق بن راهويه: المسند، جـ ٤، ص ٢٦١؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٨، ص ١٢٨؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٣٠٤، وحسن ابن حجر إسناده ابن سعد. الإصابة، جـ ٨، ص ٢١٢. وأورده ابن حجر عن إسحاق بن راهويه. المطالب العالية، جـ ١٨، ص ٩٧، ح ٣٩٢، وحسن المحقق إسناده الأثر.

وبعث الناس إلى أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها فجاءت على بغلة بيضاء وهي مستورة، فلما دنت من الباب وعلموا بها أقسموا على عدم دخولها وردوها^(١)، ويقال إن أم حبيبة تعلّت للخوارج بأن وصايا بني أمية عند عثمان، وأنها تخاف على هلاك أموال الأيتام والأرامل، فكذبوها، وقطعوا حبل بغلتها فنفرت، وكادت أن تسقط عنها، فتلقّاها الناس فأخذوها، وذهبوا بها إلى بيتها^(٢).

وجاء عليّ رضي الله عنه في الغلس فنادى المحاصرين: "إِنَّ الَّذِي تَفْعَلُونَ لَا يُشْبِهُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَمْرَ الْكَافِرِينَ، فَلَا تَقْطَعُوا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الْمَاءَ وَلَا الْمَادَّةَ، فَإِنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ لَتَأْسِرُ قُطْعِمُ وَتَسْقِي!" ولكنهم أصرّوا على منعه، ورفضوا إغاثة عثمان، فرمى عليّ بعمامة في الدّار ليدلّل على أنّه قد نهض فمنع^(٣).

وقد ثبت من طرق يقوي بعضها بعضاً أنّ عليّاً رضي الله عنه استجاب لطلب عثمان، وانطلق إلى الدّار، فرأى بعض أهله كتائب الخوارج حول الدّار فمنعوه من دخولها خوفاً عليه من القتل، فحلّ عمامته السوداء التي كان يرتديها، ورمى بها إلى رسول عثمان، ثم خرج حتّى انتهى إلى أحجار الزيت في سوق المدينة^(٤).

وفي تلك الأثناء التي شدّد الخوارج فيها الحصار على الدّار قامت أم المؤمنين صفية بنت حيّ رضي الله عنها بدور كبير في إغاثة عثمان رضي الله عنه وآل بيته، حيث "وضعت خشباً بين منزلها ومنزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام"^(٥).

(١) رواه عبد الله أحمد عن الحسن البصري. أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ١، ص ٤٩٢، وصحح المحقق إسناده.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٧٢، من طريق سيف. وروى ابن شبة أنّ الخوارج تركوا أم حبيبة فسقت عثمان. تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٣٠٥، لكن إسناده فيه رجل مجهول، ويخالف رواية الحسن الصحيحة في المنع.
(٣) رواه الطبري من طريق سيف. تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٧٢. وإذا كان سيف التميمي ضعيفاً في رواية الحديث والأخبار فإنّ لمحاولة عليّ مساعدة عثمان وإلقائه عمامته شواهد صحيحة. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ٢، ص ٧١٠.

(٤) ابن أبي شبيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥١٧؛ ابن سعد: الطبقات، جـ ٣، ص ٦٨، ٦٩؛ أبو العرب: المحن، تحقيق/ عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٧٧؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٣٩، ص ٣٦٩، ٣٧٠. وتتفق رواية أبي العرب برواية ابن سعد كما تتفق رواية ابن سعد بأبي العرب فيصير الإسناد حسناً لغيره. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٤٣٧.

(٥) ابن الجعد: مسند ابن الجعد، تحقيق/ عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٣٩٠؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٨، ص ١٢٨، وحسن ابن حجر إسناده ابن سعد. الإصابة، جـ ٨، ص ٢١٢.

سابعاً: تمسك عثمان بالخلافة وترك المقاتلة وموقف الصحابة منه:

عندما شاع بين الناس أن الخوارج عازمون على قتل عثمان ؓ ما لم يترك الخلافة جاء الحبر عبد الله بن سلام الإسرائيلي ؓ فناشد الخوارج ألا يقتلوا الخليفة وطالبهم أن يستعتبوه، وأقسم لهم بالله: "ما قتلتم أمة قط خليفتها، فيصلح الله بينهم حتى يهريقوا دم أربعين ألفاً"، فلم ينظروا فيما قال لهم^(١).

وكان منع الماء عن عثمان ؓ آخر محاولات الخوارج التي رجوا منها تنازله عن الخلافة، فلما رأوا تمسكه بالخلافة سارعوا في التخلص منه قبل عودة الناس من الحج، وعندئذ دخل المغيرة بن الأخنس^(٢) على عثمان ؓ وأشار عليه بالتنازل عن الخلافة؛ لأن أهل الفتنة لن يتركوه إلا بذلك، "فإن خلعت تركوه، وإن لم يخلع قتلوه"، فاستشار الخليفة عبد الله بن عمر ؓ في عرض المغيرة، فرفضه، وقال لعثمان: "أرأيت إن خلعت تترك مخلصاً في الدنيا، قال: لا، قال: فهل يملكون الجنة والنار؟ قال: لا، قال: أرأيت إن لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟ قال: لا، قال: فلا أرى أن تسن هذه السنة في الإسلام، كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه، لا تخلع قميصاً قمصك الله"^(٣).

وقد وافق كلام عبد الله بن عمر ؓ ما علمه الخليفة من وصية النبي ﷺ له، فقد روت عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: "يا عثمان، إن الله ﷻ عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه، فلا تخلعه حتى تلقاني"، وكررها ثلاث مرار^(٤).

وعلى الرغم من ذلك فقد اتخذ عثمان ؓ موقفاً واضحاً وحاسماً بعدم المقاومة، وألزم به الصحابة الذين نهضوا للدفاع عنه^(٥)، فعندما دخل عليه المغيرة بن شعبة ؓ وأشار عليه بمقاتلة الخوارج بأهل المدينة، أو الخروج من ظهر الدار والحق بمكة

(١) البغوي: معجم الصحابة، جـ ٤، ص ١٠٤، وإسناده جيد. ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ١١٩. وأورده البوصيري

بنحوه، وقال: "رواه إسحاق بن راهويه، ورواته ثقات". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ ٣، ص ١٠٨.

(٢) المغيرة بن الأخنس: هو المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي، حليف بني زهرة، مذكور في الصحابة، وقد استشهد وهو يدافع عن عثمان يوم الدار. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٧٧؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٦، ص ١٥٥.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥١٥، ح ٣٧٦٥٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٦٦. وإسناده الأثر صحيح، رجاله رجال الشيخين. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٤٣٠.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤١، ص ١١٣، ح ٢٤٥٦٦، و "إسناده صحيح، رجاله ثقات". ورواه الترمذي وقال: "حسن غريب"، ولفظه: "يا عثمان إنك لعل الله يقمصك قميصاً". سنن الترمذي، (كتاب المناقب)، جـ ٥، ص ٦٢٨، ح ٣٧٠.

(٥) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٣٤.

والبيت الحرام، أو المسير إلى معاوية وأهل الشام، فرفض عثمان كل هذه العروض، وردّ على المغيرة قائلا: "أَمَا أَنْ أَخْرُجَ فَأُقَاتِلَ، فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَأَمَا أَنْ أَخْرُجَ إِلَى مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّونِي بِهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يُلْحَدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ، يَكُونُ عَلَيْهِ نَصْفُ عَذَابِ الْعَالَمِ"، فَلَنْ أَكُونَ أَنَا إِيَّاهُ، وَأَمَا أَنْ أَلْحَقَ بِالشَّامِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ، وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ، فَلَنْ أَفَارِقَ دَارَ هَجْرَتِي، وَمَجَاوِرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" (١).

وقد توالى طلبات الصحابة على الخليفة في الإذن لهم بالقتال، فأرسل إليه الزبير ﷺ يستأذنه في مقاتلة محاصريه، ويعلمه استعدادده لهم برجال من الأنصار من بني عمرو ابن عوف، فقال عثمان ﷺ: "عَزَمْتُ عَلَى مَنْ كَانَتْ لِي عَلَيْهِ طَاعَةٌ أَلَّا يُقَاتِلَ" (٢)، وكان عثمان قد أمر عبد الله بن الزبير على الدار وأمر بطاعته، فلما طلب منه أن يقاتل الخارجين وقال: "لَقَدْ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ قِتَالَهُمْ" رفض الخليفة، وأقسم بالله: "لَا أُقَاتِلُهُمْ أَبَدًا" (٣)، وعأوده ابن الزبير قائلا: "إِنَّ مَعَكَ فِي الدَّارِ عَصَبَةٌ مُسْتَنْصِرَةٌ، يَنْصُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَقْلٍ مِنْهَا، فَأَذْنُ لِي فَلَأُقَاتِلَ" ردّ قائلا: "أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلًا أَهْرَاقَ فِي دَمِهِ، أَوْ قَالَ: أَهْرَاقَ فِي دَمًا" (٤). وكان أبو هريرة ﷺ قد تقلّد سيفه ودخل على عثمان يطلب الدفاع عنه (٥)، فقال له: "أَيَسْرُكَ أَنْ تَقْتُلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَإِيَّايَ؟" فقال: لا، قال: "فَإِنَّكَ وَاللَّهِ إِنْ قَتَلْتَ رَجُلًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسُ جَمِيعًا"، فرجع أبو هريرة ولم يقاتل (٦)، كما تقلّد عبد الله بن عمر ﷺ سيفه يومئذ وعزم على القتال، غير أن الخليفة عزم عليه أن يخرج مخافة أن يقتل (٧).

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥١٩، ح٤٨١. وإسناده ضعيف منقطع؛ لأنّ محمّد بن عبد الملك بن مروان لم يسمع من المغيرة. الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٧، ص٢٣٠. وذكر الدكتور أكرم ضياء العمري أنّ عرض المغيرة يعتضد بروايتين ضعيفتين. عصر الخلافة الراشدة، ص٤٢٦.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج١، ص٥١١، ح٨٣٦؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٣٧٣؛ وإسناده حسن. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٨.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠. وإسناده صحيح. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٣.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣. وأورده ابن حجر من طريق أحمد ابن منيع. المطالب العالمة، ج١٨، ص٩٥، ح٤٣٩١، وقال المحقق: "صحيح بهذا الإسناد، رواه جميعهم ثقات". ووثق البوصيري رجاله أيضا. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٧، ص١٨٧.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣. وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٢٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠. وإسناده صحيح. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٤٧.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣. وإسناده حسن. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٧.

ولم يكن الأنصار أقل استعداداً للدفاع عن عثمان من المهاجرين، فبالإضافة إلى بني عمرو بن عوف الذين اتفقوا مع الزبير بن العوام رضي الله عنه، نرى زيد بن ثابت رضي الله عنه يدخل على الخليفة فيخبره بتجمع الأنصار على الباب، ويطلب منه الإذن بالقتال قائلاً: "إن شئت كنا أنصار الله مرتين"، ولكن الخليفة أمره بالكف عن القتال^(١)، كما عرض عليه حارثة ابن النعمان الأنصاري استعداد الأنصار للقتال دونه^(٢).

وخاطب عثمان النفر الذين دخلوا الدار وعزموا على القتال كالحسن بن علي، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فقال: "أَعَزُّمُ عَلَى مَنْ كَانَ لَنَا عَلَيْهِ سَمْعٌ وَطَاعَةٌ لَمَّا كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ، فَإِنَّ أَعْظَمَكُمْ عِنْدِي غَنَاءَ الْيَوْمِ مَنْ كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ"^(٣)، وكان عبد الله بن عامر العنزي^(٤) قد شهد يوم الدار، فحدث عن عثمان رضي الله عنه بهذا القول^(٥).

ويلاحظ من خلال الروايات الصحيحة أن عثمان رضي الله عنه كان يشتد في رفض الدفاع عنه كلما زاد أصحابه في الإلحاح عليه بطلب المقاتلة، بل لما رأى إصراراً من بعضهم، وعظهم وذكرهم بالله، وناشدهم بما له عليهم من طاعة، مما يبين قوة عزمه على الكف عن القتال، وعدم تردده في ذلك^(٦).

ولما رأى عثمان رضي الله عنه أن الصحابة غير منتهين عنه أرسل إلى عبد الله بن سلام رضي الله عنه فسأله عن رأيه في التعامل مع محاصريه، فقال: "الْكَفُّ الْكَفُّ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ لَكَ فِي

(١) نعيم بن حماد: الفتن، تحقيق/ سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ج١، ص١٧٣؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٤٤٢؛ الخلال: السنة، ج٢، ص٣٣٣. ثلاثتهم من مرسل محمد بن سيرين، ولم يدرك الحادثة، ورواه ابن أبي شيبه عن الحسن البصري بسند صحيح. المصنف، ج٧، ص٥٢٤.

(٢) البخاري: التاريخ الأوسط، ج١، ص٧٦؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٣٩٧. وإسناده الأثر صحيح، رجاله ثقات، رجال مسلم. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٧٨.

(٣) ابن شيبه: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٤٤، ورجاله ثقات، وإسناده صحيح. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٣.

(٤) عبد الله بن عامر. هو عبد الله بن عامر بن ربيعة العنزي، حليف للخطاب بن نفيل العدوي، ولد على عهد النبي ﷺ، وكان عند وفاته ابن خمس سنين أو ست سنين. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص٩.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥١٥. وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٢٤.

(٦) محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٢.

الْحُجَّةِ" (١)، ثُمَّ تَوَجَّهَ عَثْمَانُ إِلَى الصَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ إِلَيَّ عَهْدًا وَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ" (٢)، وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَدْ اسْتَدْعَتْ عَثْمَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ جَعَلَ يَكَلِّمُهُ وَلَوْ عَثْمَانُ يَتَغَيَّرُ، فَكَانُوا يَرُونَ أَنَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ (٣).

وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ النَّازِرَ فِي رَوَايَاتِ الْمُحَدِّثِينَ يَلْتَمِسُ الْعُذْرَ لِلْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ بِحَتْمِيَّةِ حَدُوثِ الْفِتْنَةِ فِي أَيَّامِهِ وَإِصَابَتِهِ فِيهَا، وَقَدْ ثَبَتَتْ مَعْرِفَةُ عَثْمَانَ ﷺ وَبَعْضِ الصَّحَابَةِ بِذَلِكَ فِي أَحَادِيثٍ صَحِيحَةٍ كَثِيرَةٍ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ"، فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، فَبَشَّرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ"، فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فَقَالَ لِي: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ"، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ، فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ" (٤). وَلَعَلَّ هَذِهِ الْحَادِثَةُ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ يَمِيلُ إِلَى كَرِهِ الدَّمَاءِ وَيَتَّخِذُ مَوْقِفًا وَاضِحًا فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ فِتْنَةً، فَقَالَ: "يُقْتَلُ هَذَا فِيهَا مَظْلُومًا"، لِعُثْمَانَ (٥)، وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عَنْ تِلْكَ الْفِتْنَةِ: "يُقْتَلُ فِيهَا هَذَا الْمُقْتَعُ يَوْمَئِذٍ مَظْلُومًا"، فَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ إِلَيْهِ "فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ" (٦).

وَقَدْ حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ وَهُوَ مُحْصُورٌ فِي الدَّارِ فَقَالَ: "إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّكُمْ تَلْقَوْنَ بَعْدِي فِتْنَةً وَاخْتِلَافًا، أَوْ قَالَ: اخْتِلَافًا وَفِتْنَةً"، فَقَالَ

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٧١؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٧، ص ٥١٥؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، ج ٢، ص ٢٣٢، والأثر بإسناد صحيح. ينظر تخريج المطالب العالية لابن حجر، ج ١٨، ص ٦٦.

(٢) الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح غريب"، (كتاب المناقب)، ج ٥، ص ٦٣١، ح ٣٧١١؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج ١، ص ٤٦٧، ح ٤٠٧، وحسنه محققو المسند.

(٣) ابن ماجة: السنن، (المقدمة، باب فضل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، ج ١، ص ٤٢، ح ١١٣؛ ابن حبان: الصحيح، ج ٥، ص ٣٥٦، ح ٣٥٧، وقال الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

(٤) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، ج ٣، ص ١٣٥٠، ح ٣٤٩٠؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان)، ج ٤، ص ١٨٦٧، ح ٢٤٠٣.

(٥) الترمذي: السنن، وقال: "حديث حسن"، (كتاب المناقب)، ج ٥، ص ٦٣٠، ح ٣٧٠٨.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج ١٠، ص ١٦٩، ح ٥٩٥٣، والحديث صحيح لغيره عند محقق المسند.

لَهُ قَاتِلٌ مِنَ النَّاسِ: فَمَنْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "عَلَيْكُمْ بِالْأَمِينِ وَأَصْحَابِهِ"، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى عُمَانَ بِذَلِكَ^(١).

ولهذه الأحاديث ونحوها كان عثمان رضي الله عنه متيقناً بنهايته، وقد آثر العافية ولم يأخذ دعاة الفتنة بالشدة والبطش خشية أن يظلم بريئاً فيبوء بإثمه، واختار أن يكون كخير ابني آدم^(٢)، وعلى الرغم من ذلك فقد وقعت بعض المناوشات بين الشباب المدافعين عن الخليفة والخوارج، حيث شاهد كنانة -مولى صفية أم المؤمنين- أربعة من شبان قريش أخرجوا من الدار محمولين ملطخين بالدم، وهم: "الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم"^(٣)، ولكن مقاومة المدافعين لم تكن عنيفة؛ فقد انصرف أكثرهم عن الدار بسبب أوامر الخليفة التي أمرهم فيها بالكف عن القتال والخروج من الدار ولزوم بيوتهم، واختار حقن دمائهم وفداء أرواحهم بدمه وروحه^(٤).

ثامناً: دخول الخوارج على عثمان ومقتله:

ظلّ الخوارج المفتونون يحاصرون عثمان رضي الله عنه ويمنعون عنه الطعام والماء حتى تسور محمد بن أبي بكر في ثلاثة عشر من فوق الدار، ونزل على عثمان رضي الله عنه، فأخذ بلحيته حتى سُمع وقع أضراسه، وقال: "مَا أَغْنَى عَنْكَ مُعَاوِيَةُ، مَا أَغْنَى عَنْكَ ابْنُ عَامِرٍ، مَا أَغْنَتْ عَنْكَ كُتُبُكَ"^(٥)، فقال له عثمان رضي الله عنه: "لَقَدْ أَخَذْتَ مِنِّي مَأْخِذًا، أَوْ قَعَدْتَ مِنِّي مَقْعَدًا مَا كَانَ أَبُوكَ لِيَقْعُدَهُ -أَوْ لِيَأْخُذَهُ- فخرج وتركه"^(٦)، ويؤكد هذه الرواية أن كنانة -مولى أم

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١، ص ٢١٩، ٢٢٠، ح ٨٥٤١، واستدركه الحاكم على الشيخين، وصحح إسناده، وأقره الذهبي. المستدرک، جـ ٤، ص ٤٨٠، ح ٨٣٣٥، وحسن الإسناد محققو المسند.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٠٣.

(٣) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٩٧؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ٣، ص ١٠٤٦. والأثر حسن الإسناد. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٣٠.

(٥) ابن أبي شبة: المصنف، جـ ٧، ص ٤٤١، ح ٣٧٠٧٩؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١، ص ٨٢، ح ١١٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٧٣؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٣٩، ص ٤٠٤. وعلق عليه الهيثمي بقوله: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير وثاب، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرّحه أحدًا". مجمع الزوائد، جـ ٧، ص ٢٣٢. وإسناده صحيح إلى وثاب. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٥١٥.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٧٤، من رواية صحيحة إلى الحسن البصري، رجالها ثقات، وكان الحسن ممن حضر يوم الدار. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ص ٤٨٤. وهي في رواية أبي سعيد التي صححها ابن حجر وغيره. كما صحح هذا الحادثة الحافظ ابن كثير. البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٠٧.

المؤمنين صفية- قد حضر يوم الدار، وشاهد قتل عثمان، فسأله محمد بن طلحة عن اشتراك محمد بن أبي بكر في دم عثمان، فقال: "مَعَاذَ اللَّهِ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِي، وَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ فَخَرَجَ وَلَمْ يَنْدَ بِشَيْءٍ مِنْ دَمِهِ"^(١).

ويبتعد بعض القدامى والمحدثين عن البحث الموضوعي فيجهدون أنفسهم في تبرئة محمد بن أبي بكر من نية قتل عثمان، حتى يقول ابن شبة (ت: ٢٦٢هـ/٨٧٦م) عند تناوله لخبره: "فهذان الحديثان يبرئان محمد بن أبي بكر من أن يكون نوى قتل عثمان ﷺ، وسائر الأحاديث جاءت بخلافهما"^(٢)، ويتابعه محمد عبد الله الغبان فيقول: "وبهاتين الروايتين الصحيحتين تظهر لنا براءة محمد بن أبي بكر الصديق من دم عثمان، براءة الذنب من دم يوسف، كما تبين أن سبب تهمته هو دخوله عليه قبل القتل"^(٣).

وكان محمد بن أبي بكر قد تسور بمجموعته للدفاع عن عثمان أو للتسليم عليه، ولم يدافعه عثمان ﷺ عن نفسه ويقل له "لست بصاحب"، ويذكره بأبيه!!! ولذا قال ابن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧١م): "وقد نفى جماعة من أهل العلم والخبر أنه شارك في دمه"^(٤)، وهذا صحيح، لكنه حرّض على عثمان، وأجلب عليه، وعزم على قتله، ثم تاب في وقت لم يفد فيه الندم، ففي رواية وثاب -وكان يقوم بين يدي عثمان- أن محمد بن أبي بكر استعدى على عثمان رجلا يُعِينُهُ، فقام إليه بمشَقَصٍ حَتَّى وَجَأَ بِهِ فِي رَأْسِهِ فَأَثْبَتَهُ، ثُمَّ تَعَاوَنَ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى قَتَلُوهُ"^(٥).

ولذا قال الحافظ ابن كثير: "ويروى أن محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه، حتى دخلت في حلقه، والصحيح أن الذي فعل ذلك غيره، وأنه استحي ورجع حين

(١) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٩٧؛ أبو نعيم: معرفة الصحابة، جـ ١، ص ٦٦، ٦٧. وإسناد الأثر صحيح لغيره، وهو حسن لذاته، صحيح بما قبله. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ص ٤٨٦.

(٢) ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ ٢، ص ٢٩٧.

(٣) فتنة مقتل عثمان، ص ٢٥٦.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ ٣، ص ١٣٦٧.

(٥) ابن أبي شبيبة: المصنف في الأحاديث والآثار، جـ ٧، ص ٤٤١، ح ٣٧٠٧٩؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١، ص ٨٢، ح ١١٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٧٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ ٣٩، ص ٤٠٤. وعلق عليه الهيثمي بقوله: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير وثاب، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرّحه أحد". مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، جـ ٧، ص ٢٣٢. وإسناده صحيح إلى وثاب. محمد عبد الله عبد القادر غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٥١٥.

قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها، فتنذمت من ذلك، وغطى وجهه، ورجع وحاجز دونه، فلم يفد، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً^(١).

وقد ذكرت أم المؤمنين عائشة ؓ أخاها محمداً في قتلة عثمان ودعت عليهم فقالت: "أَقَادَ اللَّهُ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ بِهِ، وَسَاقَ اللَّهُ إِلَى أَعْيُنِ بَنِي تَمِيمٍ هَوَانًا فِي بَيْتِهِ، وَأَهْرَاقَ اللَّهُ دِمَاءَ بَنِي بُدَيْلٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَسَاقَ اللَّهُ إِلَى الْأَشْتَرِ سَهْمًا مِنْ سَهَامِهِ"، فحلف طلق ابن خُشَافٍ -راوي الأثر- بالله "مَا مِنَ الْقَوْمِ رَجُلٌ إِلَّا أَصَابَتْهُ دَعْوَتُهَا"^(٢)، وثبت عن القاسم ابن محمد بن أبي بكر أنه كان يقول: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي ذَنْبِهِ فِي عَثْمَانَ" ^(٣).

وكان أمير المؤمنين عثمان ؓ قد جهز نفسه لتلقي الشهادة التي بشره بها رسول الله ﷺ، حيث رآه في آخر ليلة من عمره يقول له: "أَفْطَرُ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ"^(٤)، فأصبح عثمان ؓ صائماً، ووضع المصحف بين يديه، حتى دخل عليه رجلٌ منهم، فقال: بيني وبينك كتابُ الله، فخرج وتركه، ثم دخل عليه آخر، فقال: بيني وبينك كتابُ الله، فأهوى له بالسيف، فاتقاه بيده فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها لأوّلُ كفٍّ خطت المفصل، فنضح الدّم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٥)، وأخذت بنتُ الفرافصة^(٦) حليّها ووضعت في حجرها، وذلك قبل أن يقتل، فلما قتل، تفاجت عليه، فقال

(١) البداية والنهاية، ج٧، ص٢٠٧.

(٢) البخاري: التاريخ الأوسط، ج١، ص٩٥؛ الطبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٨٨؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٦٥؛ ابن أبي الدنيا: مجابو الدعوة، تحقيق/ زياد حمدان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٤٩؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج٥٦، ص٣٨١، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير طلق، وهو ثقة". مجمع الزوائد، ج٩، ص٩٧. والأثر حسن الإسناد.

(٣) ابن حجر: المطالب العلية، ج١٨، ص٨٩، ح٤٣٨٨، وعلق عليه المحقق فقال: "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(٤) ثبت "أَنَّ عَثْمَانَ ؓ أَعْتَقَ عَشْرِينَ مَمْلُوكًا، وَدَعَا بِسَرَاوِيلَ فَشَدَّهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَلْبَسْهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْبَارِحَةَ فِي الْمَنَامِ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَإِنَّهُمْ قَالُوا لِي: اصْبِرْ، فَإِنَّكَ تَفْطَرُ عِنْدَنَا الْقَابِلَةَ، ثُمَّ دَعَا بِمُصْحَفٍ فَتَشَرَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُتِلَ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ". أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٤٥، ح٥٢٦؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج٦، ص١٨١، ح٣٠٥١٠؛ وقال الهيثمي: "رواه عبد الله وأبو يعلى في الكبير، ورجالهما ثقات". مجمع الزوائد، ج٩، ص٩٧، ح١٤٥٦٣، وقال البوصيري: "رواه أبو يعلى الموصلي ورواته ثقات". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٨، ص١١، ح٧٣٧٧. وقد جمع محقق المطالب العلية لابن حجر طرق هذا الحديث وانتهى إلى أنه حسن لغيره. ج١٨، ص٦١-٦٥.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٣٧.

(٦) بنت الفرافصة: هي نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة، تزوجها عثمان ؓ في خلافته، وكانت نصرانيّة فأسلمت قبل أن يدخل بها. ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج٧٠، ص١٣٧؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٠٩.

بعضهم: "قَاتَلَهَا اللَّهُ مَا أَعْظَمَ عَجِيزَتَهَا"، فقال الراوي أبو سعيد: "فَعَلِمْتُ أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الدُّنْيَا"^(١).

وصحَّ أن مقتل عثمان ؓ كان في أوسط أيام التشريق (الثاني عشر)^(٢) من شهر ذي الحجة سنة ٣٥هـ/٦٥٦م، وفي يوم الجمعة بلا خلاف^(٣)، وقد اختلفت الروايات في تعيين قاتل عثمان ؓ؛ وذلك لأن الخوارج الأشقياء تعاونوا على ضربه وقتله^(٤)، وأصح تلك الروايات ما حدث بها كنانة مولى صفية بنت حيي حيث قال: "رأيت قاتل عثمان، رجلاً أسوداً من أهل مصر وهو في الدار رافعاً يديه، أو باسطاً يديه، يقول: أنا قاتل نعتل"^(٥)، وكان رجلاً من سدوس^(٦) قد خنق عثمان ؓ قبل مقتله^(٧).

وقد اختلف الرواة في تجهيز عثمان ودفنه، والصحيح أنه حمل على باب بعد ما غُسل وكُفّن، ولا خلاف أنه دفن بحش كوكب^(٨)، شرقي البقيع، وذلك فيما بين المغرب والعشاء، خوفاً من الخوارج، ولما تولّى معاوية الخلافة اعتنى بمقبرة عثمان ؓ وأمر الناس بدفن موتاهم حولها حتى اتّصلت بمقابر المسلمين، وبلغت خلافة عثمان ثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً^(٩)، ومات وهو ابن اثنين وثمانين عاماً على الصحيح^(١٠).

(١) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد- التي سبق الاعتماد عليها مراراً.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٥٥، ج٦٥٤؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥٢٥. وإسناد الأثر صحيح، رجاله رجال الشيخين كما قرر محققو المسند.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٢١٢.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٤.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٨٣؛ ابن حجر: المطالب العالمة، ج١٨، ص٩٧، وإسناده حسن. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٣.

(٦) سدوس: عشيرة من قبيلة ذهل بن ثعلبة البكرية الربعية. ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج٢، ص١٠٩.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٥١٧٤، ١٧٥، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٠.

(٨) حش كوكب: الحش بفتح الحاء وضمها هو البستان، وكوكب رجل من الأنصار أضيف إليه، وكان عثمان ؓ قد اشتراه وزاده في البقيع. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٢.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١١٢-٢١٤.

(١٠) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٣، ص١٠٤٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٨١.

الباب الرابع

عليّ بن أبي طالب عليه السلام

(٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٥ - ٦٦٠ م)

الفصل الأول

سيرة عليّ قبل الخلافة

نسبه وكنيته:

هو عليّ، بن أبي طالب، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف^(١)، ووالده شقيق عبد الله والد النبي ﷺ^(٢)، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف^(٣)، ولما كان أبو طالب غائبا عند مولد عليّ فقد أسمته أمّه أسدا باسم أبيها أسد بن هاشم، فلما عاد أبو طالب لم يعجبه هذا الاسم وسمّاه عليّا^(٤)، وقد ثبت عن عليّ عليه السلام أنه ارتجز يوم خيبر فقال: "أنا الذي سمّني أمي حيدرة"^(٥).

ويكنى عليّ عليه السلام بأبي الحسن، نسبة إلى ابنه الأكبر الحسن^(٦)، كما كنّاه النبي ﷺ بأبي تراب، وكان يفرح إذا نودي بها، وذلك أنّ الرسول ﷺ أتى بيت فاطمة رضي الله عنها وقت القيلولة فلم يجد عليّا عندها، فسألها عن ابن عمّها، فأخبرته أنّه كان بينها وبينه شيء فغاضبها فخرج فلم يقلّ عندها، فكلف النبي ﷺ إنسانا أن ينظر أين هو؟ فأخبره أنّه راقد في المسجد، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع، وقد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل يمسحه عنه ويقول: "قُمْ أَبَا تراب، قُمْ أَبَا تراب"^(٧).

نشأته:

لقد أصاب الشاعر الحكيم المتنبي (ت: ٣٥٤هـ/٩٦٥م) عندما قال: "مصائب قوم عند قوم فوائد"^(٨)؛ لأنّ هذا ما حدث مع عليّ عليه السلام، فقد أصابت قريشاً أزمة اقتصادية قبل

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٢.

(٢) الصالح: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج١١، ص٨٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٢.

(٤) المحب الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة، ج٣، ص١٠٧.

(٥) مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها)، ج٤ ص١٨٧٢، ح٢٤٠٦. ولما كانت لعليّ وآبائه أسماء غير التي يشتهرون بها، فقد روي أنّ بعض أهل النسب سأل عن رجل من الصحابة من بني هاشم يقال له: أسد بن عبد مناف بن شيبه بن عمرو بن المغيرة بن زيد، فلم يجبه أحد حتّى قال: هو عليّ بن أبي طالب. ابن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق/ صالح عبد الله الغامدي، عمادة البحث العلمي، المدينة المنورة، ج١، ص٤٨٠، ٤٨١.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٢.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب المساجد، باب نوم الرجال في المسجد)، ج١، ص١٦٩، ح٤٣٠؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عليّ بن أبي طالب)، ج٤، ص١٨٧٤، ح٢٤٠٩.

(٨) ديوان المتنبي، تحقيق/ مصطفى السقا وآخرين، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص٢٣.

البعثة النبوية، وكانت لها آثارها القاسية على القرشيين، حتى جاع الناس جوعاً شديداً واضطروا لأكل الرَّمَم^(١)، وكان النبي ﷺ قد تزوّج من السيدة القرشية الثرية خديجة بنت خويلد الأسدية^(٢)، فوضعت مالها تحت تصرفه يوجّهه إلى الخير كيف يشاء^(٣)، ولذا كان النبي ﷺ عند حدوث تلك الأزمة من أيسر القرشيين بجانب عمّه العباس بن عبد المطلب^(٤)، الذي كان رجلاً تاجراً^(٥)، ذا مال كثير^(٦).

ولم يقف النبي ﷺ مكتوف اليدين وهو يرى الناس على شفا هلكة، ولكنه عمل على معالجة الأزمة على مستوى عشيرته الأقربين، ولم يكتف بما عزم عليه من القيام بتخفيف الأعباء عن المقلّين والمتضرّرين بمفرده؛ بل قام بدعوة الموسرين من عشيرته بتحمّل مسؤولياتهم تجاه تلك الأزمة^(٧).

ولما كان أبو طالب بن عبد المطلب من أكثر المتضرّرين من الأزمة الاقتصادية وقتئذٍ بسبب قلّة ماله وكثرة عياله، فقد اقترح النبي ﷺ على عمّه العباس الثريّ مساعدة أبي طالب، وقدم له خطة المساعدة التي تتمثل في ضمّ بعض أولاد أبي طالب إليهما والتكفل بالنفقة عليهم حتى تنجلي الأزمة، وصحب النبي ﷺ عمّه العباس إلى أبي طالب وعرضاً عليه خطة المساعدة فوافق عليها، فأخذ النبي ﷺ علياً، وأخذ العباس جعفرًا، فلم يزا لا معهما حتى استغنيا^(٨).

وبهذا يردّ النبي ﷺ الجميل والمعروف لعمّه أبي طالب الذي كفله بعد وفاة جدّه عبد المطلب، فكان هذا من أكبر نعم الله ﷻ على عليٍّ ؑ، حيث نشأ في بيت الإسلام

(١) الحاكم: المستدرک، ج٣، ص٦٦٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص١٣١.

(٣) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١، ص١٤٦.

(٤) الهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٢، ص٣٧٤.

(٥) أبو يعلى: المسند، ج٣، ص١١٧.

(٦) مسلم: الصحيح، (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ)، ج٢، ص٨٨٩، ح١٢١٨؛ ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٦٤٦.

(٧) محمد عبد العال محمد حسن: الأزمات الاقتصادية عند المسلمين في العهد النبوي، ص١٣.

(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٢٤٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٣٨، ٥٣٩، ولم تصح رواية هذه القصة حديثاً، لأنها منقطعة الإسناد عند ابن إسحاق، وعنه رواها الطبري والحاكم بنفس الطريق، وعلّق الهيثمي على رواية البزار المتصلة فقال: "فيه من لم أعرفهم"، مجمع الزوائد، ج٨، ص١٥٣. ولكن هذا الضعف لا يضير خبر هذه الأزمة في شيء؛ لأنّه حدث تاريخي بحث لا يتعلق بالعقيدة والأحكام.

وتعرّف على أسرارهِ في مرحلة مبكرة من حياته، وربّاه رسول الله ﷺ على أخلاق القرآن، فانعكس هذا الخلق القرآني على رز عليّ عليه السلام، وكفى بتربية النبي ﷺ تربية^(١).

❏ إسلامه:

سبق القول في الحديث عن إسلام أبي بكر الصديق بأنّ الروايات الصحيحة تتعارض في أوليّة من أسلم من الذكور بعد خديجة رضي الله عنها بين أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وقد اختلفت الأقوال في سنّ عليّ عليه السلام عند دخوله في الإسلام، فحدّده عروة بن الزبير بثماني سنين، وجعله ابن إسحاق في العاشرة من عمره، وصعد به الحسن البصريّ إلى خمس عشرة أو ستّ عشرة سنة^(٢).

وقد استبعد ابن الجوزي القول الثالث اعتماداً على حساب سنّ عمره؛ لأنّه إذا كان له يوم المبعث ثمان سنين، فقد عاش بعد المبعث ثلاثاً وعشرين، وبقي بعد رسول الله ﷺ نحو الثلاثين، فهذه مقاربة الستين على الصحيح في مقدار عمره، ومتى قيل إنّ كان له يوم إسلامه خمس عشرة سنة صار عمره ثمانياً وستين، ولم يقل هذا أحد^(٣).

وقد كثرت الروايات الواهية والموضوعة، حول تحديد يوم إسلام عليّ عليه السلام وصلاته بيوم الثلاثاء بعد خديجة بيوم واحد^(٤)، وأنّه صلّى قبل المسلمين بسبع سنين^(٥)، وفضائل عليّ عليه السلام الثابتة كثيرة فلا يحتاج إلى الكذب والمغالاة^(٦).

(١) علي محمد محمد الصلابي: أسرى المطالب في سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، دار الفجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١، ص٣٨.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٩٥؛ الحاكم: المستدرک، ج٣، ص٣٢٥؛ البيهقي: السنن الكبرى، ج٦، ص٢٠٧.

(٣) ابن الجوزي: التحقيق في أحاديث الخلاف، تحقيق/ مسعد عبد الحميد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ج٢، ص٢٣٥.

(٤) البزار: المسند "البحر الزخار"، ج٩، ص٣٢١، ح٣٨٧١؛ الطبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٣٢٠، ح٩٥٢؛ الحاكم: المستدرک، ج٢، ص٣٢٦؛ ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول، ج٨، ص٦٤٨، ح٦٤٨٤؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٩، ص١٠٣.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک لأبي عبد الله الحاكم (الأنبياء والسيرة النبوية)، ج١، ص٣٤٢، ٣٤٣.

(٦) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج١، ص١٣٤.

❏ مصاهرته للنبي ﷺ:

تزوج عليٌّ ﷺ من فاطمة ؓ بعد غزوة بدر الكبرى، وكان قد أصاب شارباً من مغنم يوم بدر، وأعطاه النبي ﷺ شارباً أخرى، فأناخهما عند باب رجلٍ من الأنصار وهو يريد أن يحمل عليهما إذخراً إلى سوق بني قينقاع ليستعين به علي وليمة زواجه، غير أن عمه حمزة ؓ كان قد جلس في ذلك البيت يشرب الخمر -قبل تحريمها- وجارية تغنيه، وتبعث همته على الكرم، فلعبت الخمر به، فخرج إلى الشارفين، وانهاه عليهما عقراً وبقراً، حتى أخذ من أكبادهما، وجاء عليٌّ يسعى، فرأى منظراً فظيعاً، فشكا عمه للنبي ﷺ فتغيظ عليه، ثم رجع لغلبة السكر على حمزة ؓ^(١).

وأراد عليٌّ ﷺ بعد فاجعته في ماله أن يتزوج، فأخبره النبي ﷺ بأنه لا بد للعرس من وليمة، فأعانه سعد بن أبي وقاص ؓ بكبش، كما ساعده جماعة من الأنصار بكمية من ذرة^(٢)، فتم زواجه من فاطمة ؓ، وأنجبت له الحسن والحسين، وهما سيّدا شباب أهل الجنة^(٣).

ولم يأذن النبي ﷺ لعليٍّ أن يتزوج ابنة أبي جهل^(٤) علي فاطمة ؓ؛ فقد حدث أن ذكرها عليٌّ ﷺ للزواج، فلما بلغ ذلك فاطمة ؓ أتت النبي ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك^(٥)، كما جاء بنو المغيرة يستأذنون النبي ﷺ في تزويج عليٍّ ﷺ، فرفض النبي ﷺ، وخطب فقال: "إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكَحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلَا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ، إِلَّا أَنْ يُحِبَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطْلَقَ ابْنَتِي وَيُنْكَحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيْبُنِي مَا رَابَهَا، وَيُوْذِنِي مَا آذَاهَا"^(٦).

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب المساقاة، باب بيع الحطب والكلاء)، جـ ٢، ص ٨٣٧، ح ٢٢٤٦؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر)، جـ ٣، ص ١٥٦٨، ح ١٩٧٩.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٣٨، ص ١٤٢، ح ٢٣٠٣٥، ورشع الأرنؤوط إسناده للتحسين، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، جـ ٢، ص ٢٠، ح ١١٥٣؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار، جـ ١٥، ص ٢٠١، ح ٥٩٤٧، وقال ابن حجر إسناده لا بأس به. فتح الباري، جـ ٩، ص ٢٣٠.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١٧، ص ٣١، ح ١٠٩٩٩، وصحح المحققون إسناده.

(٤) هي جويرية بنت أبي جهل. ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٨، ص ٢٦٢؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٨، ص ٧٢.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر أصهار النبي ﷺ)، جـ ٣، ص ١٣٦٤، ح ٣٥٢٣؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة)، جـ ٤، ص ١٩٠٣، ح ٢٤٤٩.

(٦) البخاري: الصحيح، (كتاب النكاح، باب ذب الرجل على ابنته في الغيرة والإنصاف)، جـ ٥، ص ٣٠٤، ح ٤٩٣٢؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة)، جـ ٤، ص ١٩٠٢، ح ٢٤٤٩.

"وَأَنَا أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا، وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالًا، وَلَا أُحِلُّ حَرَامًا، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبَدًا"^(١).

وقد استنبط العلماء من مجموع روايات هذه القصة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ عَلَى عَلِيٍّ ﷺ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ ابْنَتِهِ وَابْنَةِ أَبِي جَهْلٍ لِأَنَّ ذَلِكَ يُؤْذِيهِ، وَأُذْيَتُهُ حَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ^(٢)، وَأَنَّهُ رَاعَى خَاطَرَ فَاطِمَةَ ﷺ، وَرَجَّحَ ابْنَ حَجْرٍ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَلَا يَتَزَوَّجَ عَلَى بَنَاتِهِ، وَلَمْ يَمْنَعِ احْتِمَالَ خُصُوصِيَّتِهِ بِفَاطِمَةَ ﷺ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهَا أُصِيبَتْ بِأَمِّهَا ثُمَّ بِأَخَوَاتِهَا وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَبْقَ لَهَا مِنْ تَسْتَأْنِسَ بِهِ مِمَّنْ يَخَفُّ عَلَيْهَا الْأَمْرَ مِمَّنْ تَفْضِي إِلَيْهِ بِسَرِّهَا إِذَا حَصَلَتْ لَهَا الْغَيْرَةُ^(٣).

والذي يظهر لي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَنَعَ تَزْوِيجَ عَلِيٍّ ﷺ مِنْ ابْنَةِ أَبِي جَهْلٍ خَاصَّةً؛ وَذَلِكَ لِفَرْطِ حُبِّ فَاطِمَةَ لِأَبِيهَا ﷺ، وَهِيَ لَذَلِكَ لَا تَتَحَمَّلُ أَنْ تَرَى مِنْ تَذَكَّرَهَا بِالرَّجُلِ الَّذِي طَالَمَا آذَى أَبَاهَا ﷺ وَحَرَّضَ عَلَيْهِ، وَقَدْ شَاهَدَتْ هِيَ بِنَفْسِهَا بَعْضَ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ، بَلْ انْفَرَدَتْ بِالذَّبِّ عَنْهُ أَحْيَانًا، وَطَرَحَتْ سِلَاحَ الْجُزُورِ عَنْ ظَهْرِهِ الشَّرِيفِ، وَشَتَمَتْ الْمُشْرِكِينَ وَهِيَ جَوِيرِيَّةٌ^(٤).

❏ جهاده مع النبي ﷺ:

يطول الحديث بنا مع مواقف عليّ الجهادية مع رسول الله ﷺ، فقد عرف عليٌّ ﷺ بالشجاعة والبطولة، ولذا سيقصر الحديث هاهنا على بعض المواقف الشهيرة:

(أ) في الهجرة النبوية:

كان لعليّ بن أبي طالب ﷺ دورٌ كبيرٌ عند الهجرة النبوية يكشف عن بطولته وشجاعته، وأنه لا يبال بالتعرض للخطر، فقد دعاه النبي ﷺ عندما أذن له في الهجرة

(١) البخاري: الصحيح، (كتاب الخمس، باب ما ذكر من درع النبي ﷺ)، جـ ٣، ص ١١٣٢، ح ٢٩٤٣؛ (كتاب فضائل

الصحابية، باب ذكر أصحاب النبي ﷺ)، جـ ٣، ص ١٣٦٤، ح ٣٥٢٣، مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب

فضائل فاطمة)، جـ ٤، ص ١٩٠٣، ح ٢٤٤٩.

(٢) نقل الحافظ ابن حجر هذا القول عن ابن التين. فتح الباري، جـ ٩، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) المصدر السابق، جـ ٩، ص ٣٢٩.

(٤) ينظر موقف السيدة فاطمة في الذبّ عن أبيها ﷺ عند البخاري: الصحيح، (كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي

شيئا من الأذى)، جـ ١، ص ١٩٤، ح ٤٩٨؛ مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى

المشركين والمنافقين)، جـ ٣، ص ١٤١٨، ح ١٧٩٤.

فألْبَسَهُ بُرْدَهُ، وأَمَرَهُ بِالْمَبِيتِ فِي مَكَانِهِ، واجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَجَعَلُوا يَرْمُونَ عَلِيًّا ﷺ بِالْحَجَارَةِ كَمَا كَانَ يُرْمَى نَبِيَّ اللَّهِ وَهُوَ يَتَضَوَّرُ^(١)، قَدْ لَفَّ رَأْسُهُ فِي الثَّوْبِ لَا يَخْرُجُهُ حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ، فَقَالُوا: "إِنَّكَ لِلنِّيمِ، إِنَّكَ لَتَتَضَوَّرُ، وَكَانَ صَاحِبُكَ لَا يَتَضَوَّرُ، وَلَقَدْ اسْتَكْرَنَاهُ مِنْكَ"^(٢).

وَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَخَلَّفَ بِمَكَّةَ حَتَّى يُوَدِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوُدَاعَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنَّاسِ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ أَحَدٌ عِنْدَهُ شَيْءٌ يَخْشَى عَلَيْهِ إِلَّا وَضَعَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا يَعْلَمُ مِنْ صَدَقِهِ وَأَمَانَتِهِ^(٣)، فَأَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ لَذَلِكَ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَأَيَّامَهَا حَتَّى آدَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوُدَاعَ وَفَرَّغَ مِنْهَا، ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٤).

(ب) فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ:

لَمْ يَعْلَمْ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ بِحَفْرِ الْمُسْلِمِينَ لِلْخَنْدَقِ حَتَّى وَقَفَتْ عَلَيْهِ خِيُولُهُمْ، وَلَكِنْ فَرَسَانَهُمْ صَمَّمُوا عَلَى اقْتِحَامِهِ، وَرَاحُوا يَبْحَثُونَ عَنْ مَكَانٍ ضَيْقٍ غَفَلَ عَنْهُ الْحَرَّاسُ فَوَجَدُوهُ فِي نِصْفِ الْخَنْدَقِ الْغَرْبِيِّ فَافْتَحْتُمُوهُ نَفَرًا، مِنْهُمْ: عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدِّ الْعَامِرِيِّ، وَعُكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ^(٥). وَكَانَ ابْنُ عَبْدِ وَدِّ مِنْ فَرَسَانِ قَرِيشَ الْمَعْدُودِينَ، فَخَرَجَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ مَعْلَمًا، وَطَلَبَ الْمُبَارَزَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَتَلَهُ^(٦)، فَوَلَّى أَصْحَابُهُ هَارِبِينَ^(٧).

(١) يَتَضَوَّرُ: يَتَلَوَّى وَيَصِيحُ مِنْ وَجَعِ الضَّرْبِ. ابْنُ مَنْظُورٍ: لِسَانُ الْعَرَبِ، جـ ٤، ص ٤٩٤.

(٢) أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: الْمُسْنَدُ، جـ ٥، ص ١٨٠؛ وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ: 'رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ بِإِخْتِصَارٍ وَرَجَالَ أَحْمَدَ رَجَالَ الصَّحِيحِ غَيْرَ أَبِي بَلْجَ الْفَزَارِيِّ وَهُوَ ثَقَّةٌ وَفِيهِ لَيْنٌ'. مَجْمَعُ الزَّوَانِدِ، جـ ٩، ص ١١٩، وَاسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحِينَ وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ وَأَقْرَأَهُ الذَّهَبِيُّ. الْمُسْتَدْرَكُ، جـ ٣، ص ٢٢٨. غَيْرَ أَنَّ حَدِيثَ الْمُسْنَدِ مِنْ زَوَانِدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ عَلَى الْمُسْنَدِ، وَهُوَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ فِيهِ جَمَلٌ صَحِيحَةٌ لَهَا شَوَاهِدٌ فِي الصَّحَاحِ وَأُخْرَى مَكْذُوبَةٌ، وَمَا أَثْبَتْنَاهُ فِي الْمَتْنِ مَقْبُولٌ عَنْ أَبِي بَلْجَ. يَنْظُرُ تَعْلِيقُ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى هَذِهِ الرَّوَايَةِ.

(٣) ابْنُ هِشَامٍ: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، جـ ١، ص ٤٨٥؛ الْبَيْهَقِيُّ: السَّنَنِ الْكُبْرَى، جـ ٦، ص ٢٨٩، وَسَنَدُهُ قَوِيٌّ. ابْنُ حَجَرٍ: التَّلْخِيسُ الْحَبِيرُ، جـ ٣، ص ٩٨.

(٤) ابْنُ هِشَامٍ: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، جـ ١، ص ٤٩٣؛ الْبَيْهَقِيُّ: السَّنَنِ الْكُبْرَى، جـ ٦، ص ٢٨٩.

(٥) ابْنُ هِشَامٍ: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، جـ ٢، ص ٢٢٤؛ أَكْرَمُ ضِيَاءِ الْعَمَرِيِّ: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ، جـ ٢، ص ٤٢٦.

(٦) لَا يَوْجَدُ فِي مَبَارَزَةِ عَلِيٍّ ﷺ لِابْنِ عَبْدِ وَدِّ أَقْوَى مِنْ رَوَايَةٍ أَخْرَجَهَا الْحَاكِمُ مُخْتَصِرَةً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَدْ صَحَّحَ الْحَاكِمُ إِسْنَادَهَا وَأَقْرَأَهُ الذَّهَبِيُّ. الْمُسْتَدْرَكُ، جـ ٣، ص ٢٥٣، غَيْرَ أَنَّ إِسْنَادَهَا مَنْقُوعٌ. مُحَمَّدُ عَبْدِ الْعَالِ مُحَمَّدٌ حَسَنٌ: الْمَرْوِيَّاتُ التَّارِيخِيَّةُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، جـ ٢، ص ٥٣٨، ٥٣٩. وَأَهْلُ السِّيَرِ يَجْمَعُونَ عَلَى قَتْلِ عَلِيٍّ ﷺ لِابْنِ عَبْدِ وَدِّ.

(٧) ابْنُ هِشَامٍ: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، جـ ٢، ص ٢٢٥.

(ج) في غزوة خيبر:

لقد رُوِيَ بعض الآثار في بعث النَّبِيِّ ﷺ أبا بكر الصَّدِّيق ﷺ لفتح حصن ناعم فجهد ورجع منهزماً، ثم بعث عمر بن الخطاب ﷺ فرجع يجنِّ أصحابه ويجبِّونه، إلى أن دفع الرأية لعلي بن أبي طالب ففتح الحصن على يديه.

والمتتبع لتلك الروايات يشتم منها رائحة الخبث الشيعي والوضع، ويجدها لا تخلو من ضعيف أو متهم ببغض الشيخين، وقد روى البخاري^(١) ومسلم^(٢) حديث الرأية عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: "لأُعْطِينَ هذه الرأية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللهَ ورسولُهُ، فباتَ الناسَ يدُكُونُ ليلَتَهُمْ أيُّهُمْ يُعْطَاهَا"^(٣)، فلما أصبحَ الناسَ غدواً على رسول الله ﷺ كلُّهم يَرجُو أن يُعْطَاهَا، فقال: أَيْنَ عليُّ بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسولَ الله يشتكي عينيهِ، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيهِ، ودعا له، فبرأ، حتَّى كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الرأية، وهذه الرواية ليس فيها ذكرٌ من قريب ولا من بعيد لأبي بكر ولا لعمر، والاكتفاء بما في الصحيح أسلم في هذه المواضع التي تشعر بتفضيل عليٍّ ﷺ على الشيخين^(٤).

وعندما أخذ عليٌّ ﷺ الرأية قال: يا رسولَ الله، أَقَاتِلُهُمْ حتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فقال: "انْفِذْ على رِسْلِكَ حتَّى تنزلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فواللهِ لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ"^(٥)، وهذه الوصية من النَّبِيِّ ﷺ لعليٍّ بدعوة يهود خيبر -أو أهل الحصن المحاصر- إلى الإسلام تؤيد القول بأنه لم يرسل قبله أبا بكر ولا عمر؛ لأن دعوة المشركين إلى الإسلام إنما تكون قبل الشروع في القتال، وليس للقائد الثالث فقط!

وكان مَرَحَبُ اليهوديِّ قد خرج {من حصن ناعم} يطلب المبارزة وهو يَخطُرُ بسيفه، فبرز له عامرُ بن الأكوع، فاختلفا ضربتين، فمات عامر ﷺ من سيفه أثناء

(١) الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، جـ ٤، ص ١٥٤٢، ح ٣٩٧٣.

(٢) الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عليٍّ ﷺ)، جـ ٤، ص ١٨٧٢، ح ٢٤٠٦.

(٣) يدكُون: يخوضون ويموجون أيهم يدفعها إليه.

(٤) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخية في المستدرک، جـ ٢، ص ٥٧١، ٥٧٢.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، جـ ٤، ص ١٥٤٢، ح ٣٩٧٣؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل

الصحابة، باب من فضائل عليٍّ ﷺ)، جـ ٤، ص ١٨٧٢، ح ٢٤٠٦.

المبارزة، فظنَّ بعض الصَّحابة أنَّه قتل نفسه، وقالوا: بطلَ عملُ عامرٍ، ورفَّع خبره إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: "بلْ له أجره مرَّتَيْنِ"، ثمَّ خرج مرحبًا يطلب المبارزة مرَّةً أخرى، فخرج إليه عليُّ بن أبي طالب ﷺ فضرب رأسه فقتله، ثمَّ كان الفتحُ على يديه^(١).

(د) في غزوة تبوك:

عندما توجَّه النَّبيُّ ﷺ إلى تبوك استخلف عليًّا ﷺ على أهله^(٢)، فعزَّ عليه أن يتخفَّ عن شهود ذلك اليوم مع النَّبيِّ ﷺ فقال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُخَلِّفُنِي فِي النَّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ؟ فقال: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي"^(٣)، ويجمع الرواة وأهل التاريخ على أنَّ عليًّا ﷺ لم يتخفَّ إلا عن غزوة تبوك^(٤).

❏ فقه عليٍّ وقدرته على الإقناع:

عرَّف عليٌّ ﷺ ببراعته في القضاء، حتَّى كان عمر بن الخطَّاب ﷺ يقول: "أقضانا عليٌّ"^(٥)، وقد تميَّز عليٌّ بفقهه الدقيق وقدرته على التأثير والإقناع كما يلاحظ في إسلام قبيلة همدان^(٦) كلَّها على يديه في يوم واحد، وكان النَّبيُّ ﷺ قد أرسل إليهم خالد بن الوليد ﷺ فأقام فيهم ستَّة أشهر لا يجيبونه إلى شيء^(٧).

❏ وجوب حبِّ عليٍّ ﷺ:

ينبغي على كلِّ مسلم أن يحبَّ عليًّا ﷺ؛ لأنَّ حبه مقرون بحبِّ الله ورسوله، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ، وَمَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ"^(٨).

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قردٍ وغيرها)، ج٤ ص ١٨٧٢، ح ٢٤٠٦.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج٨، ص ١١٢.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة تبوك)، ج٤، ص ١٦٠٢، ح ٤١٥٤؛ مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب)، ج٤، ص ١٨٧٠، ح ٢٤٠٤.

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٤ ص ٨٧.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: "ما ننسخ من آية أو ننسها")، ج٤، ص ١٦٢٨، ح ٤٢١١.

(٦) همدان: إحدى قبائل كهلان القحطانية اليمنية الكبيرة. ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج٣، ص ٣٩١.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ١٩٧، بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٨٧.

(٨) الطبراني: الكبير، ج٢٣، ص ٣٨٠، ح ٩٠١؛ أبو طاهر المخلَّص: المخلَّصات، تحقيق/ نبيل سعد الدين، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٣، ص ١٥٠، ح ٢١٩٣. وحسن الهيتمي إسناده الطبراني. مجمع الزوائد، ج٩، ص ١٣٢، وصحح الألباني إسناده المخلَّص. السلسلة الصحيحة، ج٣، ص ٢٨٨.

وصحّ عن عليٍّ عليه السلام أنه قال: "وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ"^(١).

ومن سبّ عليّاً عليه السلام فقد ارتكب إثماً عظيماً؛ لأنّ رسول الله ﷺ قال: "مَنْ سَبَّ عَلِيّاً، فَقَدْ سَبَّنِي"^(٢).

وعندما سبّ رجلٌ من أهل الشام عليّاً عليه السلام عند ابن عباس رضي الله عنهما غضب عليه غضباً شديداً، وحصبه، وقال: "يَا عَدُوَّ اللَّهِ آذَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾"^(٣)، لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا لَأَذَيْتُهُ"^(٤).

(١) مسلم: الصحيح، (كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ حبّ الأنصار وعليّ عليه السلام من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق)، ج١، ص٨٦، ح٧٨؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج٦، ص٣٦٥، ح٣٢٠٦٤.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤، ص٣٢٨، ٣٢٩، ح٢٦٧٤٨، وصحّ إسناده محققو المسند، واستدركه الحاكم على الصحيحين، وصحّ إسناده، وأقره الذهبي. المستدرك، ج٣، ص١٣٠، ح٤٦١٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

(٤) استدركه الحاكم على الصحيحين، وصحّ إسناده، وأقره الذهبي. المستدرك، ج٣، ص١٣١، ح٤٦١٨.

الفصل الثاني

استخلاف واختلاف

كان عليٌّ ؓ قد أُنذر بعزم الخوارج على قتل عثمان ؓ، فأسرع إلى دار الخليفة، ولكنه لم يدركه إلا مقتولا، فرجع فأغلق عليه بابه^(١)، وأنكر نفسه، وطاش عقله^(٢)، وأصاب المسلمين بلاءً عظيمًا بمقتل الخليفة عثمان ؓ، وغدوا أمام تجربة جديدة لاستخدام الخوارج العنف في تغيير السلطة التي ما انفكت تنتقل سلميًا منذ وفاة النبي ﷺ إلى استخلاف عثمان^(٣).

وقد أدرك ثمامة بن عدي القرشي -كان عاملا لعثمان على صنعاء- ما يمكن أن يؤدي إليه هذا التحول الخطير عندما جاءه قتل عثمان، فخطب في أهل اليمن فبكى بكاءً شديداً، فلما أفاق واستفاق قال: "اليوم انتزعت خلافة النبوة من أمة محمد ﷺ، وصارت ملكاً وجبرية^(٤)، من أخذ شيئاً غلب عليه^(٥)."

وعمل القتل على ملء الفراغ الذي أحدثوه في منصب الخلافة فبادروا لمبايعة عبد الله بن عمر بن الخطاب ؓ فقالوا له: "أنت سيدنا، وابن سيدنا، اخرج يبايعك الناس، وكلهم بك راضٍ"، فقال: "لا والله، لا يهراق في سببي محجمة من دم، ما كان في رُوح"، وعادوا إليه فأطمعوه مرة، وهددوه بالقتل أخرى، فلم يقدروا منه على شيء^(٦).

وساعت الأمور في المدينة النبوية في الوقت الذي سيطر فيه القتل على مقاليد الأمور، فانطلق الناس إلى عليّ فضربوا عليه الباب، فدخلوا عليه فقالوا: "إن هذا الرجل قد قُتل، ولا بد للناس من خليفة، ولا نعلم أحداً أحق بها منك"، فتمنع عليّ في بداية

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ٢، ص ٥٧٣. والأثر عن محمد بن الحنفية بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٦٠.

(٢) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٠١. وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٣٩.

(٤) سنرى علياً ؓ يعمل جاهداً على إعادة الخلافة بالشورى بين المسلمين عقب مقتل عثمان مباشرة.

(٥) معمر بن راشد: الجامع، جـ ١١، ص ٤٤٧؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ ٢، ص ٩٠؛ وقال الهيثمي: "رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ٩٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٨٠. وصحح ابن حجر إسناده الأثر. الإصابة، جـ ١، ص ٥٢٧.

(٦) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ٢، ص ٨٩٥؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٤، ص ١٥١. والأثر عن الحسن البصري بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٩.

الأمر، وقال: "لا تَريدُوني، فَإِنِّي لَكُمْ وَرِيرٌ خَيْرٌ مِنِّي لَكُمْ أَمِيرٌ"، فلَمَّا أَلْحَوْا عَلَيْهِ^(١)، قال: "إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَبَايَعَ وَعُثْمَانُ قَتِيلٌ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ"، فانصرفوا حَتَّى دُفِنَ عُثْمَانُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّاسُ فَسَأَلُوهُ الْبَيْعَةَ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي مُشْفِقٌ مِمَّا أَقْدَمُ عَلَيْهِ"، ثُمَّ جَاءَتْ عَزِيمَةُ فَبَايَعَ^(٢)، ولم يرَ أحداً أُولَى بِالْخَلَاةِ مِنْهُ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٣)، غيرَ أَنَّهُ اشْتَرَطَ أَنْ تَكُونَ بَيْعَتُهُ عَلَانِيَةً فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فَوَافَقُوهُ، وَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَبَايَعَهُ النَّاسُ^(٤)، وَفِي مَقْدَمَتِهِمْ جَمِيعُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ^(٥)، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَأْتُونَ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ ؓ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ؓ فَتَأْمُرُهُمْ بِلِزُومِ جَانِبِ عَلِيٍّ ؓ^(٦).

وبَايَعَ طَلْحَةَ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ عَلِيًّا ؓ مَعَ النَّاسِ^(٧)، وَصَرَحَ عَلِيٌّ بِذَلِكَ^(٨)، فَلَمَّا بَوَّعَ لَهُ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ دَخَلَ قَتْلَةَ عُثْمَانَ وَأَعَاوَنَهُمْ فِي طَاعَتِهِ، وَأَصْبَحُوا مِنْ جَمَلَةِ أَتْبَاعِهِ^(٩)، كَمَا بَايَعَ أَهْلَ الْأَمْصَارِ لِعَلِيٍّ ؓ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَعَاوِيَةَ ؓ وَأَهْلِ الشَّامِ

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج ٢ ص ٥٧٣. والأثر عن محمد بن الحنفية بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٦٠.

(٢) الحاكم: المستدرک، ج ٣، ص ١٠١. وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٣) محمد بن المظفر البزاز: حديث شعبة بن الحجاج، تحقيق/ صالح عثمان اللحام، الدار العثمانية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٢. وإسناده صحيح، رجاله ثقات، كما خرجه محقق المطالب العالمة لابن حجر، ج ١٨، ص ١٠٥.

(٤) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج ٢ ص ٥٧٣. والأثر عن محمد بن الحنفية بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٦٠.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٣١؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٤١.

(٦) رواد ابن أبي شيبة عن عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وهو السائل لأم المؤمنين. المصنف، ج ٧، ص ٥٤٥. وإسناد الأثر جيد. ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٧.

(٧) الطبري: المنتخب من ذيل المذيل، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص ١٤٨؛ تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٤٧. والأثر من قول الأشتر النخعي بسند صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٧، ٥٨، وثبت بإسناد صحيح أنَّ عَلِيًّا ؓ قال لطلحة والزبير يوم الجمل: "ألم تبايعاني؟" قالوا: نطلب دم عثمان. ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٧، ص ٥٤٦. وصح ابن حجر إسناده. فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٧.

(٨) البيهقي: الاعتقاد، ص ٣٧٢، ورواه ابن الجزري وجود إسناده. مناقب الأسد الغالب ممزق الكتاب ومظهر العجائب ليث بني غالب أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، تحقيق/ طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص ٣٧. وأورده البوصيري من طريق إسحاق بن راهويه، وصح إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج ٤، ص ٢١٦-٢١٨. وقد خرَّجَ محقق المطالب العالمة هذا الأثر، وانتهى إلى أنَّ إسناده ليس صحيحاً ولا جيداً، وإنَّما هو حسن لغيره. ينظر ابن حجر: المطالب العالمة، ج ١٨، ص ١٠١-١٠٥.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٥٧.

وخواصّ من الناس^(١)، وذلك أنّ عليّاً ثبتّ أبا موسى الأشعريّ ﷺ على ولاية الكوفة فأخذ له البيعة من معظم أهلها^(٢)، وولّى عثمان بن حنيف الأنصاريّ ﷺ على البصرة، فضبط أمرها^(٣)، على انقسام في أهلها، فمنهم من بايع، ومنهم من اعتزل، ومنهم من رفض البيعة حتى يُقتل قتلة عثمان^(٤)، وعزل عليّ خالد بن العاص المخزوميّ من إمارة مكّة، واستعمل عليها أبا قتادة الأنصاريّ مدة شهرين، ثمّ عزله وعيّن قثم بن العباس^(٥).

وكان محمد بن أبي حذيفة قد استولى على مصر في غياب عبد الله بن سعد ابن أبي السرح، فلما قتل عثمان واجه معارضة عثمانية تطالب بالقصاص من قتلة عثمان^(٦)، وبعث عليّ عبيد الله بن العباس والياً على اليمن^(٧)، فأخذ له البيعة من أكثر أهلها^(٨).

المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان:

إنّ مبايعة المسلمين لعليّ ﷺ بالخلافة على كتاب الله وسنة رسوله تقتضي منه الإسراع في تنفيذ حدود الله ﷻ، ولذا كانت قضية القصاص من قتلة عثمان ﷺ هي أخطر ما يواجهه الخليفة الجديد، وكان ابن عباس ﷺ قد نبّه عليّاً على خطورة الموقف قبل تولّيه الخلافة، وأعلمه أنّ الناس سيلزمونهم دم عثمان ﷺ^(٩).

ونظراً لتفرّق الناس على أمير المؤمنين عليّ ﷺ فقد اضطرّ لانتهاج سياسة إماتة الفتنة وتخطّيها بعدم إيقاع القصاص على القتلة حتّى يستتبّ له الأمر وتدخل الأمة كلّها في بيعته؛ وذلك لأنّ القتلة كانوا عسكرياً مختلطاً بجيشه، ولهم قبائل تغضب لهم، ولا يتمكّن من قتلهم إلا بفتنة تزيد الأمر شراً وبلاءً، -كما سيحدث بعد مسير طلحة والزبير إلى البصرة- "وَدَفْعُ أَفْسَدِ الْفَاسِدِينَ بِالتَّزَامِ أَدْنَاهُمَا أَوْلَى مِنَ الْعُكْسِ"^(١٠).

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢١٢.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢١٣؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٤١.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢٢٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٦، ص ٣٣٣.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٧٨، ٢٠١؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٤٢.

(٦) عبد الرزاق: المصنف، جـ ٥، ص ٤٥٨، ٤٥٩. من مرسل صحيح للزهري.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٦، ص ٣٤٩؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٥٨.

(٨) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٤٢، ٤٤٣.

(٩) سورة الإسراء: الآية ٣٣. والأثر رواه معمر بن راشد: الجامع، جـ ١١، ص ٤٨. وإسناده صحيح. أكرم ضياء

العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٤٣.

(١٠) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، تحقيق/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦، جـ ٤، ص ٤٠٧.

ولو تمكّن عليٌّ ؓ من قتلة عثمان لسارع بتطبيق حكم الله فيهم^(١)، فقد قال عندما بويح: "اللَّهُمَّ خُذْ مِنِّي لِعُثْمَانَ حَتَّى تَرْضَى"^(٢)، وثبت عن ابن عباس -أكبر مساعديه- أنه خطب فقال: "لَوْ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَطْلُبُوا بِدَمِ عُثْمَانَ لَرُجِمُوا بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ"^(٣)، فكان أمر القصاص من القتلة عند عليٍّ وأعوانه مسألة وقت حتى تستتب الأمور، خوفا من ازدياد الفتنة وتحولها إلى حرب أهلية قبل تثبيت أركان الدولة^(٤).

غير أن المطالبين بدم عثمان لم يعذروا عليًا في هذه السياسة، بل سيتطور الأمر إلى اتّهامه بمشاركة القتلة أو موافقتهم، ويروح يحلف: "وَاللَّهِ مَا قَتَلْتُ عُثْمَانَ، وَلَا أَمَرْتُ بِقَتْلِهِ، وَلَكِنْ غُلِبْتُ"^(٥).

وكانت عائشة ؓ قد يمّمت وجهها شطر المسجد الحرام عندما شدّد الخوارج الحصار على عثمان ؓ ولم يعرفوا حقًا لأمّهات المؤمنين^(٦)، وعادت من مكة عقب الموسم فسمعت بمقتل عثمان ؓ في طريق عودتها، فاستدارت حتى دخلت المسجد الحرام، واجتمع الناس إليها، فحشّتهم على الطّلب بدم الخليفة المقتول، وراحت تنادي وتقول: "إِنَّ الْأَمْرَ لَا يَسْتَقِيمُ وَلِهَذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزّوا الإسلام"^(٧)، "تَرَكْتُمُوهُ كَالثُّوبِ النَّقِيِّ مِنَ الدَّنَسِ، ثُمَّ قَرَّبْتُمُوهُ فَذَبَحْتُمُوهُ كَمَا يُذْبَحُ الْكَبْشُ"^(٨)، "قُتِلَ وَاللَّهِ مَظْلُومًا، لَعَنَ اللَّهُ قَتَلَتَهُ"^(٩).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٥٧.

(٢) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٠١. وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١، ص ٨٤؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٨٠. وقال الهيثمي: "رواه الطبراني في الكبير والأوسط، رجال الكبير رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ٩٧. وإسناد ابن سعد حسن لغيره. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٤٦٥.

(٤) محمد أمحزون: تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين، دار طبية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، جـ ٢، ص ١٠٨.

(٥) معمر بن راشد: الجامع، جـ ١١، ص ٤٥٠. وإسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، أخرج به مسلم في عدة مواضع. محمد عبد الله غبان، جـ ١، ص ٤٨٨.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ٦٧٣، من طريق سيف.

(٧) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٧.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٣٦٣، ح ٣٢٠٥١؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٧٦؛ وإسناد الأثر صحيح إلى عائشة. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢١٨.

(٩) البخاري: التاريخ الكبير، جـ ٤، ص ٣٥٨. وإسناده حسن. محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ ١، ص ٤٢٦.

وأقام طلحة والزبير رضي الله عنهما بالمدينة أربعة أشهر، فلما وجدا الوقت يمرّ دون معاقبة الجناة، بل هم الذين يستحذون على عليّ رضي الله عنه استأذناه في العمرة، فأذن لهم، واجتمعا بمكة مع عائشة رضي الله عنها ^(١)، واتفقوا على المطالبة بدم عثمان ^(٢)، وأيدهم على ذلك سبعمائة رجل، وقد أسهم بعض عمال عثمان في تجهيزهم؛ لأنّ الأمير عبد الله بن عامر ابن كريز كان في مكة آنذ يحثّ الناس على الخروج ويعرض المعونة المادية، كما كان أمير اليمن يعلى بن أمية التميمي ^(٣) قد خرج لإعانة عثمان رضي الله عنه، ووصل مكة بعد مقتل الخليفة بكثير من المال والسلاح والدواب، فجعل ما معه في طلب قتلة عثمان ^(٤).

وعقد القادة المطالبون بدم عثمان رضي الله عنه مجلسا استشاريا لاختيار المكان الذي يتوجهون إليه، فقرّ رأيهم على البصرة، وسارعوا بالخروج إليها ^(٥)، وكانت أمّهات المؤمنين قد وافقن عائشة على المطالبة بدم عثمان، ولكنهنّ فارقنها عندما عدل المطالبون بالقصاص عن المدينة إلى البصرة ^(٦)، ولم تبق معها إلا حفصة رضي الله عنها حتّى عزم عليها أخوها عبد الله بن عمر بالرجوع ^(٧).

وقد مرّت عائشة رضي الله عنها في مسيرها إلى البصرة بالليل على مياه بني عامر التي يقال لها "ماء الحوآب" ونبحت عليها الكلاب، فقالت: "مَا أَظُنُّنِي إِلَّا رَاجِعَةً"، وحدثتهم بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لأزواجه ذات يوم: "كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبُحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوَآبِ؟"، فقال الزبير رضي الله عنه: "بَلْ تَقْدَمِينَ فِيرَاكِ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللَّهُ ﷻ ذَاتَ بَيْنِهِمْ" ^(٨).

ولما وصل المطالبون بالقصاص إلى البصرة نزلوا جانب الخريبة، وفوجئ أهل البصرة بقدوم طلحة والزبير وأمّ المؤمنين رضي الله عنهما في جمعهم فارتاعوا لهم، وجاءوا

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٤١٩، وجوّذ الذهبي إسناده، وانظر ابن حجر: فتح الباري، جـ ٨، ص ١٢٨.

(٣) يعلى بن أمية: حليف بني نوفل بن عبد شمس القرشيين، وأمّه منية، فينسب حيناً إلى أبيه، وحيناً إلى أمّه، وهو من مُسلمة الفتح. ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٥، ص ٥٦؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ ٤، ص ١٥٨٥.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢٢١؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٣، ٩.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٩.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٥٨.

(٧) ابن حبان: الثقات، جـ ٢، ص ٢٨٠.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤٠، ص ٢٩٨، ٢٩٩، ح ٢٤٢٥٤؛ جـ ٤١، ص ١٩٧، ح ٢٤٦٥٤، وصحح إسناده ابن حبان والحاكم وابن كثير والذهبي وابن حجر. البداية والنهاية، جـ ٦، ص ٢٣٦؛ فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٥.

يسألونهم عن أمرهم، فكان جوابهم أنهم "خرجوا غضبا لعثمان، وتوبة مما صنعوا من خذلانه"، وسأل الناس طلحة والزبير عن مبايعتهم عليا ؓ والدخول في أمره فقالوا: "دخلنا واللح على أعناقنا"^(١).

وعلى الرغم من تشدد أمير المؤمنين عثمان ؓ في النهي عن مقاتلة محاصريه فإن الضغوط النفسية على أعصاب بعض الصحابة جعلتهم يتهمون أنفسهم بأنهم خذلوا الخليفة المظلوم، ولم يفعلوا شيئا لإيقاف قتله، ورأوا أنه لا تكفير لذنبهم إلا بالخروج للمطالبة بدمه^(٢)، ولذا نرى أم المؤمنين عائشة ؓ تقول للكوفيين: "غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتى، وموقع الغمامة، وضربة السوط والعصا، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه: حرمة الشهر، والبلد، والدم"^(٣).

وكان طلحة بن عبيد الله ؓ يحسن بالتفريط وبالتهاون مع القتل ومجاملتهم فيندم، ويرغب في التكفير عن ذلك كله^(٤)، فقد حدث التابعي علقمة بن وقاص أنه رأى طلحة بعد نزوله البصرة خاليا وحده وهو مهموم فقال له: "إن تكره هذا اليوم فدعه، فليس يكرهك عليه أحد"؟ فقال: "لا تلمني، كنا يدا واحدة على من سوانا، فأصبحوا اليوم جبلىن، يزحف أحدنا إلى صاحبه، ولكنّه كان مني في أمر عثمان ما لا أرى كفارته إلا أن يسفك دمي في طلب دمه"^(٥)، وقد سمع طلحة ؓ يوم الجمل وهو يقول: "إنا كنا قد داهنا"^(٦) في أمر عثمان فلان نجد بدا من المبالغة^(٧).

وكان لمثل هذا الكلام الصادر عن رؤوس المطالبين بالدم أثر سلبي عليهم، فجاءهم مطرف بن عبد الله بن الشخير في جماعة من البصريين فقالوا للزبير ؓ: "ما

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٣٠. وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٠.

(٢) على محمد محمد الصلابي: علي بن أبي طالب، جـ ٢، ص ٤٢.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٣٠. وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٠.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٤٣.

(٥) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٤١٩، وجوّد الذهبي إسناده في تلخيص المستدرک، ووافقه محققو سير الأعلام. الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ١، ص ٣٤.

(٦) يفهم من المداينة لين الصحابة مع الخوارج في معاتبة عثمان ؓ لما رأوا من حسن كلامهم وصورة صلاتهم كما سبق بيانه من السيدة عائشة.

(٧) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٦، ص ٢٠٥، ح ٣٠٦٩٧. وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٤٣. ويقصد بالمبالغة التشدد في القصص.

جاءَ بِكُمْ، ضَيَّعُكُمْ الْخَلِيفَةُ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بِدَمِهِ؟ فقال الزبير: إِنَّا قَرَأْنَاهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١)، لَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَّا أَهْلُهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ^(٢).

وكان الأحنف بن قيس التميمي^(٣) قد نزل المدينة النبوية في طريقه للحج سنة ٣٥هـ/٦٥٦م، فوافق الخوارج يحاصرون عثمان ﷺ، وتوقع مقتل الخليفة، فسأل أم المؤمنين وطلحة والزبير ﷺ عن الرجل الذي يأمرونه ببيعته بعد وفاة عثمان، فأشاروا عليه بعلي ﷺ، فلما نزلوا خريبة البصرة، وأرسلوا إليه يستنصرونه، أتاه أفضع أمر قط، فقال: "إِنَّ خِذْلَانِي هَؤُلَاءِ وَمَعَهُمْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَحَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَشَدِيدٌ، وَإِنْ قَتَلَنِي ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَمَرُونِي بِبَيْعَتِهِ لَشَدِيدٌ"، ولهذا اعتزل الفريقين في زهاء ستة آلاف^(٤).

ولم يعمل المطالبون بدم عثمان ﷺ على جذب الكوفيين لفصهم بل أرسلت عائشة إلى أبي موسى الأشعري -والى الكوفة- تعلمه بأنها خرجت للإصلاح بين الناس، وتطلب منه أن يأمر الكوفيين بالبقاء في منازلهم، والرضا بالعافية حتى يأتيهم ما يحبون من صلاح أمر المسلمين^(٥).

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣، ص٣١، ح١٤١٤؛ المقدسي: الأحاديث المختارة، ج٣، ص٦٦، ح٨٧٢، وقال الهيثمي: "رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج٧، ص٢٧. وقد جود الأرنؤوط إسناده الأثر، وحسنه محقق المختارة، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تخريجه للمسنند. طبعة دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص١٩١.

(٣) الأحنف: هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين السعدي التميمي، من كبار التابعين وساداتهم، جمع بين رئاسة الدنيا والدين، وضرب بحلمه وسؤدده المثل، وكان له دور كبير في فتوح خراسان، وكان من قواد جيش علي يوم صفين، وتوفي بالكوفة في إمرة مصعب بن الزبير على العراق. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٦-٩٦؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج٣، ص٢٠٢.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥٤٠؛ ورواه إسحاق بن راهويه بإسناد ابن أبي شيبه. ابن حجر: المطالب العلية، ج٨، ص١٢٦. ورواه الطبري بإسناد ابن أبي شيبه أيضا، وأشار إلى أنه رواية المحدثين التي تخالف رواية سيف في أمر الأحنف. تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٤. وصح ابن حجر إسناده الطبري. فتح الباري، ج١٣، ص٣٤. وتعقبه محقق المطالب العلية بأن في سنده عمر بن جवान وهو مجهول، وجزم بأنه لا وجه لتصحيح الحافظ ابن حجر للأثر. ج٨، ص١٢٩.

(٥) عبد الرزاق: المصنف، ج٥، ص٤٥٧.

الفصل الثالث

موقعة الجمل

تسارعت الأحداث في البصرة بعد نزول طلحة والزبير بها، فقد حاول عثمان بن حنيف الأنصاري -والي البصرة لعلّي- تهدئة الأمور والإصلاح قدر المستطاع^(١)، فاتَّفَق مع المطالبين بالدم على نزولهم البصرة والكفّ عن القتال، مع احتفاظه بدار الإمارة والمسجد وبيت المال^(٢)، إلا أنّ الأمور خرجت من يده بسبب انضمام أكثر قبائل البصرة إلى جموع طلحة والزبير، وقد ألقى القبض على الوالي، ثم أطلق سراحه ليلتحق بعلي^(٣). واتَّجه المعارضون إلى بيت المال ودار الرزق فاعترضهم حكيم بن جبلة العبدي -أحد زعماء القتلة- في سبعمائة من قومه، وجرت بين الطرفين معركة قُتل فيها حكيم وسبعون من قومه كانوا قد شاركوا في حصار دار عثمان رضي الله عنه^(٤)، وتمكّن المطالبون بدم الخليفة المظلوم من السيطرة على مدينة البصرة بقيادة الزبير بن العوام^(٥)، واستولوا على بيت المال بما فيه من الذهب والفضة^(٦)، وذلك في ربيع الآخر سنة ٣٦هـ/٦٥٦م. وعندما علم عليّ رضي الله عنه بنزول طلحة والزبير رضي الله عنه البصرة وطرحهم لعامله عثمان ابن حنيف رضي الله عنه أدرك خطورة الموقف، وقرّر اتباعهم^(٧)، وإعادتهم إلى الطاعة، لكيلا يفتقروا في الإسلام فتقاً، ولا يخرقوا جماعة^(٨).

واستنفر عليّ رضي الله عنه أهل المدينة للخروج معه فاجتمع معه حوالي سبعمائة رجل^(٩)، وتناقل عنه عدد من كبار الصحابة، منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٦، ص ٣٣٣.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٨٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١٧.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٠.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١٧.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٩، بسند حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٠.

(٦) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٣، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٠.

(٧) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٦، بإسناد صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٨.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٣١، بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٠.

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢٣٣، بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥١. وفي

رواية لابن أبي خيثمة بإسناد صحيح أنّهم كانوا ستمائة رجل: التاريخ الكبير، تحقيق/ صلاح فتحى هلال، مكتبة

الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، جـ ٣، ص ٤٩.

مسعود الأنصاري، وعبد الله بن سلام، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، إذ رأوا أنها أحداث فتنة ينبغي عدم الخوض فيها، وقد اختص النبي صلى الله عليه وسلم بعضهم بالتحذير من المشاركة في الفتن الدأخلية، فاعتذروا لعلي رضي الله عنه بذلك^(١).

وقد حاول الحبر عبد الله بن سلام رضي الله عنه منع علي رضي الله عنه من المسير إلى العراق ومغادرة المدينة النبوية، ونصحه بلزوم منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، "فوالله لئن تركته لا تراه أبداً"، فأراد جماعة من قتلة عثمان المحيطين بالخليفة أن يقتلوه، فنهاهم علي رضي الله عنه بقوله: "إن عبد الله بن سلام منا رجل صالح"^(٢).

وتوجه علي رضي الله عنه صوب العراق، فلما انتهى إلى الربيعة عسكر بها، فحاول الحسن ابن علي رضي الله عنهما أن يثنيه عن التوجه إلى العراق، فقام إليه وهو يبكي، فقال له: "تكلم ولا تحن حنين الجارية"، فقال: "أمرتك حين حصر الناس هذا الرجل أن تأتي مكة فتقيم بها فعصيتني، ثم أمرتك حين قتل أن تلزم بيتك حتى ترجع إلى العرب غوارب أحلامها، فلو كنت في جحر ضب لضربوا إليك آباط الإبل حتى يستخرجوك من جحرِكَ فعصيتني، وأنشدك بالله أن تأتي العراق فتقتل بحال مضيعة"، فقال علي رضي الله عنه: "أما قولك: آتي مكة، فلم أكن بالرجل الذي تستحل لي مكة، وأما قولك: قتل الناس عثمان، فما ذنبي إن كان الناس قتلوه، وأما قولك: آتي العراق، فأكون كالضبع تستمتع اللحم"^(٣).

وأصر علي رضي الله عنه على إعادة المعارضين له إلى الطاعة محتجاً ببيعتهم له بالمدينة، غير أن عدد المنضمين إليه بالربيعة كان قليلاً، فلم يزد على مائتي رجل^(٤)، فأرسل محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن جعفر، لاستنفار الكوفيين للنهوض معه ومناصرته، ولكن

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥١٤.

(٢) البغوي: معجم الصحابة، ج ٤، ص ١٠٤، وإسناده جيد. ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ١١٩. ورواه إسحاق بن راهويه بسند رجاله ثقات. البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج ٨، ص ١١، كما صحح محقق المطالب العالية إسناده الأثر، ج ١٨، ص ٥٨. وفي رواية أنه قال له: "يا أمير المؤمنين لا تخرج منها، فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً! فسيؤده. فقال: دعوا الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم". الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٠، وإسناده صحيح.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥٤١؛ ابن أبي خيثمة: التاريخ الكبير، ج ٣، ص ٤٩، ٥٠؛ ابن شبة: تاريخ المدينة، ج ٢، ص ٢٧٣، بإسناده صحيح. واللحم هو اللطم والضرب بشيء ثقیل يُسمع وقعُه، وذلك أن الصياد يضرب للضبع فتخرج من جحرها فيصيدها، فأراد أنه لا يخذع كما تخذع الضبع. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٢، ص ٥٣٩.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٥؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥١٤.

الرّسولين أخفقا في مهمّتهما^(١)، لأنّ أبا موسى الأشعريّ -والي الكوفة- كان معارضا لانخراط النّاس في تلك الفتنة^(٢)، فحذّرهم من المشاركة فيها، وذكرهم بقول رسول الله ﷺ: "اَكْسِرُوا قَسِيَكُمْ -يعني في الفتنة- واقطعوا الأوتار، والزّموا أجواف البيوت، وكُونُوا فيها كالخير من ابني آدم"^(٣).

وكان أمير المؤمنين عليّ ﷺ يعول كثيرا على أهل الكوفة، فلمّا أخفق هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص في التّأثير عليهم غادر الخليفة الرّبذة حتّى اقترب من الكوفة فنزل بذي قار، وعسكر بها^(٤).

وتابع عليّ ﷺ رسله إلى الكوفيّين من ذي قار، فأرسل عبد الله بن عباس فأبطنوا عليه^(٥)، وبلغ عليّا أنّ أبا موسى لا ينتهي عن تخذيل النّاس عن النهوض فعزله عن الكوفة، وولى عليها قرظة بن كعب الأنصاري^(٦)، كما بعث ولده الحسن بن عليّ وعمار ابن ياسر يستنفران أهل الكوفة، فاجتهد عمار في إقناعهم بالنّهوض مع عليّ ﷺ، ولم يعبأ بملامة أبي موسى الأشعريّ وأبي مسعود الأنصاريّ له على تسرّعه في الأمر، وأنكر عليهما قعودهما^(٧)، وخطب النّاس فقال: "إنّ عائشة قد سارت إلى البصرة، واللّه إنّها لزوجة نبيكم ﷺ في الدّنيا والآخرة، ولكنّ الله ﷻ ابتلاكم ليعلّم إياه تطيعون أم هي"^(٨).

وهذا القول يعدّ من إنصاف عمار ﷺ وشدة ورعه، وتحرّيه قول الحقّ، فلئن كان يرى الصّواب مع عليّ فإنّه يقرّ لأمّ المؤمنين بالجنة^(٩)، وقد سأل قيس بن عبّاد عمّارا ﷺ "أرأيت هذا الأمر، رأيا رأيتموه؟ فإنّ الرّأي يخطئ ويصيب، أو عهدا عهدت إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال ما عهد إلينا رسول الله ﷺ، شيئا لم يعهده إلى النّاس كافّة"^(١٠).

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٢.

(٢) البخاري: الصحيح، (كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج موج البحر)، ج ٦، ص ٢٦٠١، ح ٦٦٨٩.

(٣) ابن أبي شعبة: المصنف، ج ٧، ص ٤٤٨. وإسناده صحيح. الألباني: السلسلة الصحيحة، ج ٤، ص ٣٠، ح ١٥٢٤.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١١؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٥٢.

(٥) ابن أبي شعبة: المصنف، ج ٧، ص ٥٤٥. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٨.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٦؛ ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٨.

(٧) البخاري: الصحيح، (كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج موج البحر)، ج ٦، ص ٢٦٠١، ح ٦٦٨٩.

(٨) البخاري: الصحيح، (كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج موج البحر)، ج ٦، ص ٢٥٩٩، ح ٦٦٨٣.

(٩) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٨.

(١٠) أحمد بن حنبل: المسند، ج ٣١، ص ١٨٠، ١٨١، ح ١٨٨٨٥؛ أبو يعلى: المسند، ج ٣، ص ١٩٠، ح ١٦١٦.

وإسناده صحيح، كما قرر محققو المسندين.

ولم يزل عمار رضي الله عنه يستنفر أهل الكوفة حتى خرجوا إلى علي رضي الله عنه ^(١)، في اثني عشر ألفاً ^(٢)، كما التحق به ألفان من أهل البصرة من قبيلة عبد القيس، وجماعات من قبائل أخرى، وضم جيشه ثمانمائة من الأنصار، وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان ^(٣). وتقدم علي رضي الله عنه نحو البصرة فعسكر بالزأوية ^(٤) أياماً، وطلب من الأحنف بن قيس أن يكف الناس عن الالتحاق بالزبير، وأن يفي بوعده لطلحة في اعتزال القتال ^(٥).

وقد نزل علي رضي الله عنه إلى جانب البصرة في الوقت الذي خندق فيه طلحة والزبير على عسكرهما ^(٦)، وكان أهبان بن صيفي الغفاري رضي الله عنه بالبصرة، فأتاه علي حتى وقف على باب حجرته، وطلب منه القيام معه وإعانتته على معارضيه، فوافقه على أن يخرج معه بسيفه الخشبي، وعلل ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم "عهد إليه إذا كانت فتنة بين المسلمين، أن يتخذ سيفاً من خشب"، فتركه علي، ورجع ^(٧)، كما بعث إلى محمد بن مسلمة رضي الله عنه، فجيء به، فسأله عن سبب تخلفه عنه؟ فأخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع إليه سيفاً، وقال له: "قاتل به ما قُوتل العدو، فإذا رأيت الناس يقتل بعضهم بعضاً، فأعمد به إلى صخرة، فاضربه بها، ثم الزم بيتك حتى تأتيك مئة قاضية، أو يد خاطئة"، فأمر علي رضي الله عنه بإخلاء سبيله ^(٨).

وتخوف كثير من البصريين من الفتنة التي لم يتبين لهم وجهها، ولهذا أتاه قيس ابن عباد البصري، فقال له: "أرأيت مسيرك هذا عهد عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم رأي رأيته؟ قال: "ما تريد إلى هذا؟ قال: ديننا ديننا، فقال علي: "ما عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً ولكن رأي رأيته" ^(٩).

(١) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥٤٥. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٣.

(٤) الزأوية: موضع قريب من البصرة. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٢٨.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٦؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٣.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣١، بسند حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٠.

(٧) الترمذي: السنن، وقال: "حسن غريب"، (كتاب الفتن، باب ما جاء في اتخاذ سيف من خشب في الفتنة)، ج٤، ص٤٩٠، ح٢٢٠٣؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٤، ص٢٧٠، ٢٧١، ح٢٠٦٧٠. والحديث حسن بمجموع طرقه وشواهده كما قال محققو المسند، وصححه الألباني بمجموع طرقه أيضاً. السلسلة الصحيحة، ج٣، ص٣٦٩.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٩، ص٤٩٦، ح١٧٩٧٩. وقد حسن محققو المسند هذا الحديث بمجموع طرقه.

(٩) أبو داود: السنن، (كتاب السنة، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة)، ج٤، ص٢١٧، ح٤٦٦٦؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٤١٧، ح١٢٧١، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

وقد اتفق أمير المؤمنين عليّ وطلحة والزبير عليهم السلام على إقامة فسطاط آمن بين المعسكرين ليجتمع فيه القادة الثلاثة للتفاوض في إيجاد حلٍّ سلميٍّ، فظلَّ عليّ والزبير وطلحة يأتون تلك الخيمة ثلاثة أيام قبل نشوب المعركة، ولم يتوصل الطرفان إلى حلٍّ خلال تلك الأيام^(١)، ولما قال عليّ لطلحة والزبير: "ألم تبأيعاني؟" قالوا: نطلب دم عثمان؛ فقال: ليس عندي دم عثمان^(٢)، ولما كان يوم الجمل -ثالث الأيام- دعا عليّ ابن عباس فبعثه إلى طلحة والزبير برسالة يقول فيها: "إنَّ أخاكم يقرنكم السلام ويقول لكم: هل وجدتم عليّ حيفاً في حكمٍ أو استنثاراً بفيء؟" فقال الزبير: "لا في واحدةٍ منها"^(٣).

وهذه الروايات الثلاثة تكذب الإخباريَّ المفتري سيف بن عمر التميمي الذي زعم أنَّ علياً عليه السلام أرسل القعقاع بن عمرو التميمي من ذي قار فالتقى بعائشة وطلحة والزبير وتوصل معهم إلى الصلح الذي وافقوا فيه على "التسكين"، والتريث في المطالبة بدم عثمان من بقية القتلة حتى تستتب الأمور^(٤)، ولو اتفقوا مع القعقاع المذكور لما ظلوا ثلاثة أيام يتفاوضون مع الخليفة دون الوصول إلى حلٍّ^(٥)، كما أنَّ أمر عليّ لجنده: "لا تبدعواهم بالقتال حتى يقاتلوكم"^(٦)، يؤكد عدم اتفاقهم على الصلح أولاً وآخراً. كما أنهم لو اتفقوا على الصلح لما عبثوا الجيوش وصفوها إزاء بعضها، ولالتقوا في مكان بعيد عن المعسكرين بحضور السادات والأشراف فقط^(٧).

وكان البصريون المتحمسون للنار من قتلة عثمان عليه السلام أسرع في إنشاد الحرب، فقد عرض أحدهم على الزبير اغتيال عليّ، فرفض الزبير، وسأله: "وكيف تقتله ومعه الجنود؟" قال: ألحق به فأفكك به، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: "إنَّ الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن"^(٨).

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ٢، ص ٥٩٦؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٣٧. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٤.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٦. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٧.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٣٨؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ٢، ص ٥٩٦. وإسناد الأثر صحيح.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٢٩.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: مختلقات سيف بن عمر التميمي في تاريخ قومه، ص ١١٣.

(٦) السرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، جـ ٤، ص ٢٠٧.

(٧) عبد العزيز صالح الهلابي: عبد الله بن سبأ، ص ٣٧.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٣، ص ٤١، ح ١٤٢٦؛ جـ ٣، ص ٤٥، ح ١٤٣٣. وصحح المحققون الحديث.

وفي الوقت الذي أخفق فيه الطرفان في الوصول إلى حلٍّ سلميٍّ واتَّجه الموقف إلى سلِّ السلاح ركب عليٌّ بغلته لمقابلة الزبير^(١)، فلما التقيا وتحادثا، "رجع الزبير على دابته يشقُّ الصفوف، فعرضَ له ابنُه عبدُ الله، فقال: ما لك؟ فقال: ذكر لي عليٌّ حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: "لَتَقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ"، فلا أَقَاتِلُهُ، قال: وَلِلْقِتَالِ جُنْتُ؟ إِنَّمَا جُنْتُ لِتُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ وَيُصْلِحَ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ بِكَ، قال: قَدْ حَلَفْتُ أَنْ لَا أَقَاتِلَ، قال: فَأَعْتَقْ غُلَامَكَ جَرِيسَ وَقِفْ حَتَّى تُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ، قال: فَأَعْتَقَ غُلَامَهُ جَرِيسَ وَقَفَّ فَاخْتَفَ أَمْرُ النَّاسِ، فَذَهَبَ عَلَى فَرَسِهِ"^(٢).

وكان الزبير ﷺ قد دعا ولده عبد الله فقال له: "يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإِنِّي لَا أُرَانِي إِلَّا سَاقُتْلُ الْيَوْمَ مَظْلُومًا"^(٣)، فاتبعه عمرو بن جرموز التميمي فقتله غيلة بوادي السباع أثناء نومه أو صلاته، وجاء يستأذن على عليٍّ ﷺ لينال الحظوة عنده، فقال عليٌّ للآذن: "بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ"، إِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَ الزُّبَيْرِ"^(٤)، وأمسك بسيف الزبير ﷺ وبكى، وقال: "كَمْ مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ فَرَجَهَا السَّيْفُ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"^(٥).

بدأت الحرب يوم الجمل من الصبيان، فقد تسابوا، ثم تراموا، ثم تبعهم العبيد، ثم السفهاء فنشبت الحرب^(٦)، وكان جند عليٍّ ﷺ ملتزمين بطاعته، فقد كفهم عن قتال طلحة والزبير وأصحابهما، وكفَّ يده حتى بدَّعوه، فأصدر أمره بالقتال بعد صلاة الظهر^(٧)، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ (ديسمبر ٦٥٦م)^(٨).

(١) ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ١٨، ص ٤١٠.

(٢) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٤١٣، ح ٥٥٧٥، وقد رواه الحاكم من طريقين حسن الألباني إحداهما وصح الأخرى. السلسلة الصحيحة، جـ ٦، ص ٣٣٩، ح ٢٦٥٩.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب الخمس، باب بركة الغازي في ماله حيًا وميتًا مع النبي ﷺ وولاية الأمر)، جـ ٣، ص ١١٣٧، ح ٢٩٦١.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢، ص ٩٩، ح ٦٨١، وحسن محقق المسند إسناده، وصححه ابن حجر. فتح الباري، جـ ٦، ص ٢٢٩.

(٥) الخلال: السنة، جـ ٢، ص ٤٦٨، ح ٧٣٥، وصحح الزهراني إسناده.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٧.

(٧) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٦. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٧.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٥٩.

ولما التقى الجمعان "خرج كعبُ بنُ سُورٍ ناشِراً مُصَحِّفَةً، يُذَكِّرُ هَؤُلَاءِ، وَيُذَكِّرُ هَؤُلَاءِ، حَتَّى أَتَاهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ"^(١)، ورمى مروانُ بنَ الحكم طُلْحَةَ بنَ عبيد الله ﷺ بسهم في ركبته فلم يزل الدَّمُ ينزف منها حَتَّى مات^(٢)، وجزم قيس بن أبي حازم بأنَّه رأى مروان ابن الحكم حين رمى طُلْحَةَ يومئذٍ بسهم^(٣)، وحدث الجارود بن أبي سبرة أنَّ مروان نظراً إلى طُلْحَةَ يومَ الجمل فقال: "لا أطلبُ ثأري بعدَ اليوم، فنزع له بسهم فقتله"^(٤).

ولهذه الآثار وغيرها قال ابن عبد البر: "لا يختلف العلماء الثَّقَاتُ في أنَّ مروان قتلَ طُلْحَةَ"^(٥)، وأكَّد ابن حجر قولَه بقوله: "جاء من طرق كثيرة أنَّ مروان بن الحكم رماه فأصاب ركبته، فلم يزل ينزف الدَّمُ منها حَتَّى مات، وكان يومئذٍ أوَّلَ قَتِيلٍ"^(٦).

وقاتل عبد الله بن الزَّبير قتالا شديدا حَتَّى أُتُخِنَ بالجراح، وتقابل مع الأُشتر النَخَعِيِّ، فاجتهد كل واحد منهما في قتل صاحبه، ثُمَّ سَلِمَا، وثبت أنَّ عائشة ﷺ عاتبت الأُشتر عقب موقعة الجمل على عزمه قتل ابن الزَّبير^(٧).

وارتفعت أصوات الدَّعاء في المعسكرين وقد شجروا رماحهم حَتَّى لو شاءت الرِّجالُ لمشت عليها، وهم يقولون: "الله أكبر، سبحان الله"^(٨)، فتكلَّمت عائشة ﷺ في المربد بلعن قتلة عثمان، وهتف مؤيِّدوها بلعنهم، فلما سمع ذلك عليٌّ ﷺ قال: "لَعَنَ اللَّهُ قَتْلَةَ عُمَانَ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ"^(٩)، "اللَّهُمَّ احْلُلْ بِقَتْلَةِ عُمَانَ خِزْيًا"^(١٠).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٧، ص ٩٢؛ الطبري تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٣٤، ٣٥. وصحح ابن حجر إسناده الأثر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٣٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٢٢٣؛ ابن أبي شبيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٣٦، ح ٣٧٧٧؛ وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٥.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١، ص ١١٣. وقال الهيثمي: رواه الطبراني، رجاله رجال الصحيح، جـ ٩، ص ٢١٠، وروى يعقوب بن سفيان الفسوي هذا الأثر عن قيس بن أبي حازم بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، جـ ٣، ص ٤٣٢.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٨١؛ البغوي: معجم الصحابة، جـ ٣، ص ٤١١. وصحح ابن حجر إسناده البغوي. الإصابة، جـ ٣، ص ٤٣٢.

(٥) الاستيعاب، جـ ٢، ص ٧٦٦.

(٦) فتح الباري، جـ ٧، ص ٨٢.

(٧) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤٠، ص ٣٤٩، ح ٢٤٣٠٤؛ جـ ٤٢، ص ٤٦٢، ٤٦٣، ح ٢٥٧٠٠. وصححه ابن حجر. فتح الباري، جـ ٦، ص ٢٢٩. وروى الطبري خبر تقاتلها بسند صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٧.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٩٨. وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٦.

(٩) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ١، ص ٤٥٥؛ ابن أبي شبيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٣٨. والأثر صحيح الإسناد.

(١٠) ابن أبي شبيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٢. بإسناد صحيح.

وكانت عائشة ؓ قد ركبت جملها وقامت بين الناس في هودجها تدعو إلى الإصلاح^(١)، فاستشاط القتل غيظا عليها، فصوبوا سهامهم نحوها، وقد أحاط بها بنو ضبة، فاستبسوا في الدفاع عنها، فبلغ من كثرة السهام التي استهدفت أم المؤمنين أن رؤي جملها يومئذٍ "كَأَنَّهُ قَنَظٌ مِنَ النَّبْلِ"^(٢).

ولم يزل القتال مستعرا حول جمل عائشة ؓ حتى كثرت القتل حولها، ووقع ما أخبر به النبي ﷺ عندما قال لنسائه: "أَيُّتُكُنَّ صَاحِبَةَ الْجَمَلِ الْأَدَبِ"^(٣)، تَخْرُجُ فَتَنْبَحُهَا كِلَابُ الْحَوَابِ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَمَا قَدَّ كَادَتْ"^(٤)، و "مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ وَحَوْلَ الْجَمَلِ عَيْنٌ تَطْرَفُ مِمَّنْ كَانَ يَذُبُّ عَنْهُ"^(٥)، ورأى عليّ ؓ الرؤوس تنذر فجعل يلوذ بولده الحسن ؓ ويضمه إلى صدره، ويقول: "إِنَّا لِلَّهِ يَا حَسَنُ، أَيُّ خَيْرٍ يُرْجَى بَعْدَ هَذَا"^(٦)، "وَدِدْتُ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ هَذَا بَعَثَرِينَ سَنَةً"^(٧)،

وانتهى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي إلى عائشة ؓ وهي في الهودج فقررها بوصيتها له بلزوم جانب عليّ ؓ عند مقتل عثمان فسكتت، فأمر من معه بعقر الجمل، ونزل ابن بديل مع محمد بن أبي بكر الصديق فاحتملا الهودج حتى وضعاه بين يدي عليّ، فأمر بها فأدخلت بيتا^(٨).

وكان لفقد المطالبين بالدم أم المؤمنين أثر كبير في انتهاء القتال، "فَلَمْ يَنْشَبْ أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنْ أَنْهَزُوا، فَصَرَخَ صَارِخٌ لِعَلِيٍّ: لَا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ، وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحٍ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَ دَارِهِ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ طَرَحَ السَّلَاحَ آمِنٌ"، وكان مروان بن الحكم يحدث بأنه لم

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج ٨، ص ١٢٨.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٩٠؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٢٤٢. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٦.

(٣) الأدب: كثير وير الرأس. ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٣٧٣.

(٤) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥٣٨؛ ح ٣٧٧٨؛ البزار: البحر الزخار، ج ١١، ص ٧٣، ح ٤٧٧٧، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي وابن حجر. مجمع الزوائد، ج ٧، ص ٢٣٤، ح ١٢٠٣٦؛ فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٥.

(٥) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥٤٦، وإسناد الأثر صحيح. فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٧.

(٦) الخطابي: العزلة، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ، ص ١٤.

(٧) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥٤٤؛ الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج ٢، ص ٧٨١، وأورده ابن حجر من طريق الحارث بن أبي أسامة. المطالب العلية، ج ١٨، ص ١٤٤، ح ٤٤٠٦، والأثر صحيح.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٥٣٨، ح ٣٧٧٨. وجود ابن حجر إسناد الأثر. فتح الباري، ج ١٣، ص ٥٧.

ير أحدا أحسن غلبة من عليّ بن أبي طالب لهذا الموقف، وكان مروان قد دخل دارا فاحتفى بها، واستجار بالحسن والحسين وابن عباس وعبد الله بن جعفر فكلّموا له أمير المؤمنين، فأمنه، وسمح له بالتوجّه حيث يشاء، فأتاه عندئذ فبايعه^(١).

وانتهى عمار   إلى أم المؤمنين عائشة فقال: "السّلامُ عَلَيْكِ يَا أُمَّتَاهُ"، فردّت بالسّلام على من اتّبع الهدى، مرتين، أو ثلاثا، وقالت: "لَسْتُ لَكَ بِأُمٍّ"، فقال: "أَمَّا وَاللّهِ إِنَّكَ لَأُمِّي وَإِنْ كَرِهْتِ"^(٢)، ولما فرغوا من الموقعة قال لها: "مَا أَبْعَدَ هَذَا الْمَسِيرِ مِنَ الْعَهْدِ الَّذِي عَهْدَ إِلَيْكُمْ"^(٣)، فقالت له: "وَاللّهِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتَ لِقَوْلٍ بِالْحَقِّ، قال: الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي قَضَى لِي عَلَى لِسَانِكَ"^(٤).

وقد ندمت أم المؤمنين عائشة   على مسيرها إلى البصرة فقالت: "لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ ثَكَلْتُ عَشْرَةَ كُلِّهِمْ مِثْلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَأَنِّي لَمْ أُسِرْ مَسِيرِي الَّذِي سِرْتُ"^(٥)، وإنّ اعتراف أم المؤمنين عائشة   بخطئها وندمها على خروجها ليدلّ على كمالها، و "أنّ خطأها من الخطأ المغفور بل المأجور"^(٦).

ولم تستمرّ المعركة يوم الجمل أكثر من نصف نهار، فقد بدأت عند الزوال، وانتهت عند غروب الشّمس، وجاء النّاس من الغد يكلمون عليّا   في الغنيمة، فحاورهم محاورة رائعة ظهر فيها فقهه العظيم في مقاتلة البغاة من المسلمين وفيها:

قال عليّ  : "أَيُّكُمْ لِعَائِشَةَ؟

قالوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، أُمَّنَا.

قال: أَحَرَامٌ هِيَ؟

قالوا: نَعَمْ.

قال: فَإِنَّهُ يَحْرُمُ مِنْ بَنَاتِهَا مَا يَحْرُمُ مِنْهَا.

(١) سعيد بن منصور: السنن، جـ ٢، ص ٣٨٩؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٨، ص ١٨١، ح ١٦٥٢٣. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٧.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤٠، ص ٣٤٩، ح ٢٤٣٠٤؛ جـ ٤٢، ص ٤٦٢، ح ٤٦٣، جـ ٢٥٧٠٠. وصححه محققو المسند.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: "وقرن في بيوتكن". ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٨.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٦١. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٨.

(٥) الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ١٢٨، ح ٤٦٠٩. وإسناده حسن. أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٥٩.

(٦) الألباني: السلسلة الصحيحة، جـ ١، ص ٨٥٤.

وقال: أَفَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَعْتَدْنَ مِنَ الْقَتْلِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا؟
قَالُوا: بَلَى.

قال: أَفَلَيْسَ لَهُنَّ الرُّبْعُ وَالْثَمْنُ مِنْ أَرْوَاجِهِنَّ؟
قَالُوا: بَلَى.

وأمر عليٌّ ﷺ مولى له فنادى: "مَنْ عَرَفَ شَيْئًا فَلْيَأْخُذْهُ"، فكان الرجل يمرّ على القدر وأتباع عليٍّ يطبخون فيها فيأخذها منهم^(١).

وقد خطب عليٌّ ﷺ لما ظهر يوم الجمل فقال: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ الْإِمَارَةِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُوَ رَأْيِي رَأْيَانَاهُ"^(٢)، وأمر بردّ أم المؤمنين ﷺ إلى المدينة مع أخيها محمد بن أبي بكر^(٣)، وروي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ: "إِنَّهُ سَيَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَائِشَةَ أَمْرٌ، قَالَ: فَأَنَا أَشْقَاهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَأَرُدْهَا إِلَيَّ مَأْمَنَهَا"^(٤).

ورجع أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ مهموما حزينا إلى الكوفة، فوصلها في ١٢ رجب سنة ٣٦ هـ (ديسمبر ٦٥٦ م)^(٥).

وتكثر الروايات المتخالفة في أعداد القتلى يومئذ، حتى أجمل المسعودي ذلك بقوله: "قد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين، فمن مقلّ ومكثر، فالمقلّ يقول: قتل منهم سبعة آلاف، والمكثر يقول: عشرة آلاف؛ على حسب ميل الناس وأهوائهم إلى كلّ فريق منهم"^(٦).

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ ٧، ص ٥٤٦. وإسناد الأثر صحيح. فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٧.

(٢) البخاري: التاريخ الكبير، جـ ٦، ص ٣٣٤، ٣٣٥؛ عبد الله بن الإمام أحمد: السنّة، تحقيق/ محمد سعيد القحطاني، دار

ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، جـ ٢، ص ٥٧٠. وصحح محقق كتاب السنّة إسناد الأثر.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٦٠.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤، ص ١٧٥، ح ٢٧١٩٨، وقال الهيثمي: "رواه أحمد والبخاري والطبراني، ورجاله ثقات".

مجمع الزوائد، جـ ٧، ص ٢٣٤، ح ١٢٠٢٤. وحسن ابن حجر إسناده. فتح الباري، جـ ١٣، ص ٥٥، وقد خالفهما

محققو المسند فضعفوا الحديث.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٥٢.

(٦) مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ٢، ص ٣٥١.

الفصل الرابع

موقعة صفين

أقرت البلدان الإسلامية بالبيعة العامة أو بالأغلبية لعليّ ﷺ إلا أهل الشام وأميرهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ^(١)، فإنهم قالوا: "لا نبايع من يؤوي القتل"^(٢).

وكانت بلاد الشام قد اهتزت عند سماع مقتل الخليفة عثمان ﷺ فاجتمع الناس في المساجد الكبيرة لسماع كلام العلماء، وقام خطباء بإيلياء، فقام من آخرهم مرة بن كعب البهزي ﷺ فقال: "لَوْلا حَدِيثُ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا قُمْتُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ فِتْنَةً، فَمَرَّ رَجُلٌ مُتَقَنَّعٌ فَقَالَ: "هَذَا وَأَصْحَابُهُ يَوْمُئِذٍ عَلَى الْحَقِّ"، فَانْطَلَقْتُ فَأَخَذْتُ بِمَنْكِبِهِ، وَأَقْبَلْتُ بِوَجْهِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: هَذَا؟ قَالَ: "نَعَمْ"، فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ"^(٣).

ولما جمع معاوية ﷺ الشاميين بعد مقتل عثمان ﷺ للمطالبة بدمه قام مرة أخرى فقال: "لَوْلا شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا قُمْتُ هَذَا الْمَقَامَ، فَلَمَّا سَمِعَ معاوية بِذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَجْلَسَ النَّاسَ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا عُثْمَانُ ﷺ وَأَتْبَاعُهُ عَلَى الْهَدْيِ قَامَ ابْنُ حَوَالَةَ الْأُرْدِيِّ فَقَالَ: "وَاللَّهِ إِنِّي لَحَاضِرٌ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي فِي الْجَيْشِ مُصَدَّقًا كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ"^(٤).

ولما بلغ معاوية ﷺ أَنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ؓ تَحَدَّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِعُثْمَانَ ثَلَاثَ مَرَارٍ: "إِنَّ اللَّهَ ﷻ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ، فَلَا تَخْلَعُهُ حَتَّى تَلْقَانِي"، بَعَثَ إِلَيْهَا أَنْ تَكْتُبَ لَهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ بِهِ كِتَابًا^(٥).

ولهذا سينظر الشاميون لأنفسهم بأنهم على الهدى بمدافعتهم عن الخليفة عثمان، خلافاً للقتلة الذين سيكونون أصحاب ضلالة، ويستحل معاوية ﷺ والشاميون قتال أمير المؤمنين عليّ متأولين، ولا يتبين لبعضهم خطأ موقفهم إلا فيما بعد مقتل عمار بن ياسر في صفين ومقتل المخدج في النهروان^(٦).

(١) ابن حجر: فتح الباري، جـ ٧، ص ٧٢.

(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ١٣٠.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٩، ص ٦٠١، ٦٠٢، ح ١٨٠٦٠؛ جـ ٢٩، ص ٦٠٩، ح ١٨٠٦٨. وصححه المحققون.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٩، ص ٦٠٨، ح ١٨٠٦٧. وصححه إسناده محققو المسند.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٤١، ص ١١٣، ح ٢٤٥٦٦. وقال المحققون: "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(٦) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٦٥.

وقد عمل جماعة من صلحاء المسلمين على حل النزاع بين عليٍّ ومعاوية في بداية الأمر، فأتى التابعي أبو مسلم الخولاني معاوية رضي الله عنه في أناس معه فقالوا له: "أنت تنازع علياً في الخلافة أو أنت مثله؟ قال: لا والله، إني لأعلم أنه أفضل مني، وأحق بالأمْرِ مني، ولكن السُّمَّ تَعْلَمُونَ أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ مَظْلُوماً، وَأَنَا ابْنُ عَمِّهِ، وَوَلِيُّهُ أَطْلُبُ بَدَمَهُ، فَأَتُوا عَلِيّاً فَقُولُوا لَهُ يَدْفَعُ لَنَا قَتْلَةَ عُثْمَانَ، فَاتَوَهُ فَكَلَّمُوهُ فَقَالَ: يَدْخُلُ فِي الْبَيْعَةِ وَيَحَاكِمُهُمْ إِلَيَّ، فَاْمْتَنَعَ مُعَاوِيَةُ"^(١).

ولما فشلت محاولات الصلح عزم عليٌّ رضي الله عنه على المسير إلى الشام لإخضاع معاوية وأتباعه بالقوة، فتحرك بجيشه^(٢) من العراق حتى نزل صفين^(٣)، وكان الشاميون^(٤) قد سبقوهم إلى ذلك المكان وعسكروا به، فحالوا بين العراقيين وبين الماء، فوجه عليٌّ رضي الله عنه إليهم الأشعث بن قيس فقاتلهم على الماء حتى أزالهم^(٥).

وبدأ القتال بين الجمعين في أول ذي الحجة سنة ٣٦هـ/ مايو ٦٥٧م، واستمر متواصلاً طوال هذا الشهر على شكل كتائب صغيرة، فكان عليٌّ رضي الله عنه يخرج من جيشه الكتيبة الصغيرة، ويؤمر عليها أميراً، فيخرج لها معاوية رضي الله عنه ما يقابلها، فيلتقيان، فيقتتلان مرة أو مرتين، ثم يعودان، وكانوا يكرهون اللقاء بجميع رجال الجيشين؛ مخافة الاستئصال والهلاك^(٦)، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين، تصان به الأرواح، وتحقق به الدماء^(٧)، ولذلك فعندما أهل عليهم شهر المحرم، توادع الطرفان على ترك الحرب فيه إلى انقضائه؛ طمعاً في الصلح^(٨).

(١) رواه يحيى بن سليمان الجعفي -أحد شيوخ البخاري- في كتاب صفين (المفقود) بسند جوده ابن حجر. فتح الباري، جـ ١٣، ص ٨٦، وأورده الذهبي بإسناد الجعفي. سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ١٤٠. ووثق محققو السير رجال الأثر.

(٢) يصل بعض الرواة بعدد جيش علي إلى مائة وخمسين ألفاً. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٩٣. وإسناده حسن، ويرى الدكتور أكرم ضياء العمري أن جيش علي كان أكثر من خمسين ألفاً. عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٦٥.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٣، ص ٨٦.

(٤) وتختلف الروايات الضعيفة في تقدير عدد جيش معاوية بين ستين ألفاً، ومائة وخمسين ألفاً. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٦٥.

(٥) ابن أبي شبيبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٩؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٩٣. وإسناده حسن.

(٦) نصر بن مزاحم: وقعة صفين، تحقيق/ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، ص ١٩٥؛ محمد عبد العال محمد حسن: بنو شيبان ودورهم السياسي والحضاري في العراق والجزيرة الفراتية، ص ٨٧.

(٧) على محمد الصلابي: الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، جـ ١، ص ١١١.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٧٩.

وكان الفريقان يدركان أن القتال بين طائفتين من المؤمنين، إلا في بعض الحالات الفردية، ولما سمع عليٌّ رضي الله عنه رجلاً من جنده يدعو بلعن الشاميين قال: "لا تسبَّ أهل الشام جمًّا غفيراً، فإنَّ بها الأبدال^(١)، فإنَّ بها الأبدال^(٢)".

ولما كانت أغلب القبائل موزعة بين الفريقين فقد كانوا كلِّما توادعوا "دخلَ هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء"^(٣).

ولما انسلخ المحرم سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م، ولم يقع بين الطرفين صلح، استؤنف القتال بين الفريقين في أول صفر^(٤) بالمبارزات الفردية والمجموعات القتالية القبليَّة^(٥)، واستمرَّ قتال الكتائب والفرق، والمبارزات الفردية، طوال الأسبوع الأول من صفر ٣٧هـ / ٦٥٧م^(٦)، حتَّى ملَّه عليٌّ رضي الله عنه، فقرَّر أن يزحف بجيشه كلَّه إلى الشاميين، فالتقى الجمعان في يوم الأربعاء الثامن من صفر، فاقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كلَّه، ثمَّ انصرفوا دون أن تترجَّح إحدى الطائفتين على الأخرى^(٧).

وعاد الفريقان للحرب في يوم الخميس، فقاتل العراقيون قتالاً شديداً حتَّى وصلوا إلى قبة معاوية^(٨)، ولكن جماعة من الشاميين تابعوا على الموت، وصمدوا لليمنية العراقية التي هاجمت معاوية، فردَّوهم إلى مكانهم، وانهزمت اليمنية والقلب عن عليٍّ رضي الله عنه، فانحاز إلى ميسرته التي تصطفَّ فيها قبائل ربيعة، فثبَّتوا يدافعون عنه^(٩).

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه يقاتل مع عليٍّ رضي الله عنه وقد جاوز التسعين من عمره^(١٠)، وهو مع ذلك يحمس النَّاس، ويحرِّضهم على القتال، ويستنهض هممهم، ويقول: "مَنْ سَرَهُ أَنْ تَكْتَفِيَهُ، الْحُورُ الْعَيْنُ فَلْيَتَقَدَّمْ بَيْنَ الصَّفِّينِ مُحْتَسِباً، فَإِنِّي لَأَرَى صَفًّا لِيُضْرِبَكُمْ

(١) الأبدال: جمع بدلٍ وبدل، وهم الأولياء والعباد، سمَّوا بذلك لأنَّه كلما مات واحدٌ منهم أبدلَ بآخر. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ ١، ص ١٠٧.

(٢) معمر بن راشد: الجامع، جـ ١١، ص ٢٤٩؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ ٢، ص ٩٠٥. والأثر صحيح كما خرجه محقق المطالب العالية لابن حجر، جـ ١٣، ص ٣٦٤.

(٣) الطبراني: الكبير، جـ ١٣، ص ٤٦١؛ الحاكم: المستدرک، جـ ٣، ص ٤٣٦. وقال الهيثمي: "رواه الطبراني وأحمد باختصار، وأبو يعلى بنحو الطبراني، ورجال أحمد وأبو يعلى ثقات". مجمع الزوائد، جـ ٧، ص ٢٤١.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٨٢.

(٥) ابن مزاحم: وقعة صفين، ص ٥٥٦؛ ابن حبان: الثقات، جـ ٢، ص ٢٩١.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٨٢، ٨٣.

(٧) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٨٤.

(٨) المصدر السابق، جـ ٣، ص ٨٥، ٨٦.

(٩) ابن مزاحم: وقعة صفين، ص ٢٤٨، ٢٤٩؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٨٦.

(١٠) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٤، ص ١٤٥؛ ابن حجر: الإصابة، جـ ٤، ص ٥٧٥.

ضَرْبًا يَرْتَابُ مِنْهُ الْمُبْطِلُونَ" (١)، وبالرغم من ذلك فقد كان راسخ الإيمان عارفا لموضع قدمه في تلك الفتنة، فلما سمع أحد العراقيين يقول: "كَفَرَ أَهْلُ الشَّامِ"، قال عَمَّارٌ: "لَا تَقُولُوا ذَلِكَ، نَبِيْنَا وَنَبِيَّهُمْ وَاحِدٌ، وَقَبْلَتُنَا وَقَبْلَتُهُمْ وَاحِدَةٌ؛ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مَقْتُونُونَ جَارُوا عَنِ الْحَقِّ، فَحَقَّ عَلَيْنَا أَنْ نَقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَيْهِ" (٢).

وتقدم عَمَّارٌ ﷺ فقاتل قتالاً شديداً، وهو يقول: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ ضَرَبُونَا حَتَّى يَبْلُغُوا بِنَا سَعَفَاتِ هَجْرٍ" (٣)، عَرَفْنَا أَنَّ مُصْلِحِينَ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ" (٤)، وَأَتَى عَمَّارٌ ﷺ بِشَرْبَةِ لَبَنٍ، فَضَحَكَ، وَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "آخِرُ شَرْبَةٍ تَشْرَبُهَا مِنَ الدُّنْيَا شَرْبَةُ لَبَنٍ"، فَشَرَبَهَا، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَتَلَ (٥).

وفور مقتل عَمَّارٌ ﷺ هرع رجالان إلى معاوية ﷺ حتى دخلا وهما يختصمان في رأس عَمَّارٍ، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: "لِيُطَبَّ أَحَدُكُمَا بِهِ نَفْسًا لِسَاحِبِهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاطِغَةُ"، فقال معاوية: "أَلَا تُغْنِي عَنَّا مَجْنُونُكَ يَا عَمْرُو؟ فَمَا بَالُهُ مَعَنَا؟" قَالَ: "إِنِّي مَعَكُمْ وَلَسْتُ أَقَاتِلُ، إِنَّ أَبِي شَكَانِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَطْعِ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ"، فَأَنَا مَعَكُمْ وَلَسْتُ أَقَاتِلُ" (٦)، ولما تأثر عمرو بن العاص ﷺ بكلام ولده وراجع معاوية فيه قال له: "لَا تَزَالُ تَأْتِينَا بِهِنَةٍ أَنْحُنْ قَتَلْنَاهُ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ الَّذِينَ جَاعُوا بِهِ أَنْحُنْ قَتَلْنَاهُ، إِنَّمَا قَتَلَهُ مَنْ جَاءَ بِهِ" (٧).

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٤٧؛ وصحاح ابن حجر إسناده الأثر. فتح الباري، جـ١٣، ص٨٦.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٤٧؛ محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، تحقيق/ عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، جـ٢، ص٥٤٦. ويعتضد الأثر بشواهد إلى الحسن لغيره. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٦٩.

(٣) سَعَفَاتِ هَجْرٍ: أغصان النخيل، وإنما خصَّ هَجْرٌ للمباعدة في المسافة، ولأنها موصوفة بكثرة النخيل. ابن منظور: لسان العرب، جـ٩، ص١٥١.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣١، ص١٧٨، ١٧٩، ح١٨٨٨٤؛ ابن حبان: الصحيح، جـ١٥، ص٥٥٥، ٥٥٦، وقال محققو الصحيح: "رواته ثقات"، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني بإسناد حسن". مجمع الزوائد، جـ٩، ص٢٩٨. ومال الألباني إلى تحسينه. التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، دار با وزير، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، جـ١٠، ص١٧١.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣١، ص١٧٢، ح١٨٨٨٠؛ جـ٣١، ص١٧٨، ح١٨٨٨٣؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٥٢، ح٣٧٨٧٧؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٥٧. والحديث صحيح كما خرجه محققو المسند والألباني. السلسلة الصحيحة، جـ٧، ص٦٦٤.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١١، ص٥٢٣، ح٦٩٢٩، وصحاح محققو المسند إسناده. وقال الهيثمي: "رواه أحمد، ورواته ثقات". مجمع الزوائد، جـ٧، ص٢٤٤. وصححه البوصيري. إتحاف الخيرة المهرة، جـ٣، ص١٠٩.

(٧) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١١، ص٤٢، ح٦٤٩٩. وصحاح المحققون إسناده.

وفي رواية: "دُحِضَتْ فِي بَوْلِكَ، أَوْ نَحْنُ قَتَلْنَاهُ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ عَلِيٌّ وَأَصْحَابُهُ، جَاءُوا بِهِ حَتَّى أَلْقَوْهُ بَيْنَ رِمَاحِنَا، أَوْ قَالَ: بَيْنَ سَيُوفِنَا"^(١).

وعقب مقتل عمار ؓ في مساء يوم الخميس ٩ صفر ٣٧هـ / ٦٥٧م^(٢)، أسرع علي ؓ في تنظيم جيشه، وبايع أصحابه على الموت^(٣)، وتقدّمهم على بغلته، فحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، حتّى بلغوا معاوية^(٤)، فلمّا استحرّ القتل في أهل الشام انحاز بهم معاوية إلى تلّ مجاور لأرض المعركة فاعتصموا به^(٥)، وهذا ما جعل معاوية ؓ يفكر في طريق آخر غير السيّف؛ لإنقاذ نفسه، وعسكره من سيوف العراقيين.

وعرض عمرو بن العاص ؓ على معاوية أن يرسل إلى عليّ بمصحف، ويدعوه إلى كتاب الله، فقبل عرضه، وأرسل رجلاً من أصحابه إلى عليّ فقال: "بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾"^(٦)، فقبل عليّ التّحاكم إلى كتاب الله، وقال: "أَنَا أَوْلَى بِذَلِكَ"^(٧)، واعتبره فتحاً^(٨).

وقد أحدثت هذه الفكرة انقساماً في صفوف العراقيين؛ فقبلها عليّ ؓ وغالبية أتباعه^(٩)، ورفضها كثير من القرّاء^(١٠)، وطالبوا عليّاً ؓ بمواصلة القتال، وإعمال السيّف

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٩، ص ٣١٦، ح ١٧٧٧٨، وصحح المحققون إسناده.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٩٨؛ ابن الوردي: التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، جـ ١، ص ١٥١.

(٣) الحاكم: المستدرک، جـ ٤، ص ١١٨.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ٩٤.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٥، ص ٣٤٨، ح ١٥٩٧٥. وصحح ابن حجر إسناده. المطالب العالية، جـ ١٨، ص ٢١٧، ح ٤٤٣٩، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٢٣.

(٧) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٥، ص ٣٤٨، ح ١٥٩٧٥. وصحح ابن حجر إسناده. المطالب العالية، جـ ١٨، ص ٢١٧، ح ٤٤٣٩، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٨. وصحح ابن حجر إسناده. المطالب العالية، جـ ١٨، ص ٢١٧.

(٩) محمد أمّحزون: تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين، جـ ٢، ص ٢١٧.

(١٠) القرّاء: هذه النسبة إلى قراءة القرآن، ويراد بها هنا جماعة الخوارج الذين رفضوا التّحكيم، وخرجوا على أمير المؤمنين عليّ، ولما كانوا من قرّاء القرآن الكريم كان الناس يسمونهم بذلك. ابن الأثير: اللّباب في تهذيب الأنساب، جـ ٣، ص ٢٠؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ ٨، ص ٥٨٨.

في المتحصنين بالتلّ، فلمّا رفض طلبهم، خرجوا عليه؛ لقبوله التّحكيم، ووقّف القتال^(١)، وقالوا: "لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ"، فقال عليّ ؓ: "كَلِمَةٌ حَقٌّ أُرِيدُ بِهَا بَاطِلٌ"^(٢).

وقد انشقّ المحتجّون من القرّاء واعتزلوا جيش عليّ ؓ محتجّين بأنّه محا اسمه من إمرة المؤمنين^(٣)، وانتهى الأمر باختيار أبي موسى الأشعريّ ممثلاً لعليّ والعراقيين، وعمرو بن العاص عن معاوية وأهل الشّام^(٤)، وقد ألحّت أم المؤمنين حفصة ؓ على أخيها عبد الله بن عمر ؓ في حضور الحكومة خوفاً من فرقة المسلمين، ولم تدعه حتّى ذهب إليهم^(٥).

وقد حاول معاوية استمالة أبي موسى إلى صفّه فكتب إليه: "إِنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَدْ بَايَعَنِي عَلَى الَّذِي قَدْ بَايَعَنِي عَلَيْهِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ: لَنْ بَايَعْتَنِي عَلَى مَا بَايَعَنِي عَلَيْهِ لِأُبْعَثَنَّ ابْنَيْكَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْبَصْرَةِ وَالْآخَرُ عَلَى الْكُوفَةِ، وَلَا يُغْلَقُ دُونُكَ بَابٌ، وَلَا تُقْضَى دُونُكَ حَاجَةٌ"، فكان جواب أبي موسى ؓ: "فَإِنَّكَ كَتَبْتَ إِلَيَّ فِي جَسِيمِ أَمْرِ أُمّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي إِذَا قَدِمْتَ عَلَيْهِ، لَا حَاجَةَ لِي فِيمَا عَرَضَتْ عَلَيَّ"، وعقب أبو بردة بن أبي موسى بقوله: "فَلَمَّا وَلِيَ أُنَيْتُهُ، فَلَمْ يُغْلَقْ دُونِي بَابٌ، وَلَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً إِلَّا قُضِيَتْ"^(٦).

وقد حاولت الروايات الضعيفة أن تعطي صورة محرّقة عن أبي موسى الأشعريّ ؓ، وأنّه اختير للتّحكيم من قبل الجند العراقيّ، وفرض على أمير المؤمنين عليّ ؓ دون رضاه، والصّحيح أنّ عليّاً كان راضياً عن اختيار أبي موسى^(٧)، ولو لم يكن الأمر برضا عليّ ما قال لأبي موسى عندما توجّه للتّحكيم: "احْكُمْ وَلَوْ يَخِرُّ عُنْقِي"^(٨).

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢٥، ص ٣٤٨، ح ١٥٩٧٥. وصحاح ابن حجر إسناده. المطالب العائية، جـ ١٨، ص ٢١٧، ح ٤٤٣٩. وصححه محقق المسند على شرط الشيخين.

(٢) مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج)، جـ ٢، ص ٧٤٩، ح ١٠٦٦؛ النسائي: السنن الكبرى، (كتاب الخصائص، باب ذكر ما خصّ به عليّ من قتال المارقين)، جـ ٥، ص ١٦٠، ح ٨٥٦٢؛ ابن حبان: الصحيح، جـ ١٥، ص ٣٨٧، ٣٨٨، ح ٦٩٣٩. وإسناده ابن حبان صحيح على شرط مسلم.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٥، ص ٢٦٣، ح ٣١٨٧، بإسناد حسن، واستدركه الحاكم على الصحيحين، وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي. المستدرک، جـ ٢، ص ١٦٤.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١٠٣.

(٥) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب)، جـ ٤، ص ١٥٠٨، ح ٣٨٨٢.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٤، ص ١١١، ١١٢؛ ابن عساکر: تاريخ دمشق، جـ ٣٢، ص ٩٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ٣٩٦. والأثر بإسناد صحيح كما قرر محققو سير الأعلام.

(٧) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٧٥.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٤٨، ح ٣٧٨٥٣، وإسناده صحيح.

وقد اجتمع الحكماء بدومة الجندل^(١)، فاتّجه رأيهما إلى المبايعة لعبد الله بن عمر ابن الخطاب ؓ، وفي ذلك يقول نافع مولى عبد الله بن عمر: "لَمَّا قَدِمَ أَبُو مُوسَى، وَعَمَرُو بْنُ الْعَاصِ أَيَّامَ حُكْمَا، قَالَ أَبُو مُوسَى: لَا أَرَى لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُمَرَ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُبَايِعَكَ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُعْطِيَ مَا لَا عَظِيمًا عَلَى أَنْ تَدَعَ هَذَا الْأَمْرَ لِمَنْ هُوَ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْكَ؟ فَغَضِبَ ابْنُ عُمَرَ، فَقَامَ، فَأَخَذَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِطَرْفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّمَا قَالَ: تُعْطِيَ مَا لَا عَلَى أَنْ أَبَايَعَكَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَيَحْكُ يَا عَمْرُو! قَالَ عَمْرُو: إِنَّمَا قُلْتُ: أَجْرَبُكَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِي عَلَيْهَا شَيْئًا، وَلَا أُعْطَى، وَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا عَنْ رِضَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ"^(٢).

وعلق الحافظ الذهبي على موقف ابن عمر ؓ بقوله: "كاد أن تنعقد البيعة له يومئذ، مع وجود مثل الإمام عليّ وسعد بن أبي وقاص، ولو ببيع، لما اختلف عليه اثنان، ولكن الله حماه، وخار له"^(٣).

وكان من أمر الحكمين أنهما اتّفقا على أن يتركا الأمر لكبار الصحابة، فلمّا بلغ ذلك معاوية، وكان قد حضر إلى مكان التحكيم^(٤)، أرسل حُضَيْنَ بن المنذر الذهلي لاستطلاع الخبر، فلمّا أتى حُضَيْنَ عمرو بن العاص واستكشفه عن الأمر، قال له: "قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النّفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يُستعن بكما ففيكما معونة، وإن يُستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما"^(٥).

(١) يذكر ابن سعد أنّ الحكمين اجتمعوا بأذرح. الطبقات الكبرى، جـ ٣، ص ٣٢٢، ٣٣. ويذكر خليفة بن خياط أنّ الاجتماع كان بدومة الجندل، ورجّحه على أذرح، وعقب بأنّ موقع أذرح قريب من دومة الجندل. تاريخ خليفة، ص ١٩٢.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ١، ص ٤٧٣؛ أبو نعيم: حلية الأولياء، جـ ١، ص ٢٩٣، ٢٩٤؛ الذهبي: السير، جـ ٣، ص ٢٢٦، ٢٢٧. وإسناد البلاذري حسن، وإسناد أبي نعيم صحيح. أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٧٣.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ٢٢٧.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٩٢؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٧٧.

(٥) رواه البخاري مختصرا بإسناد رجاله ثقات. التاريخ الكبير، جـ ٥، ص ٣٩٨، ورواه ابن عساكر بسند معلول. تاريخ دمشق، جـ ٤٦، ص ١٧٦. علي محمد محمد الصلابي: علي بن أبي طالب، جـ ٢، ص ١٧٧. وأورد ابن العربي هذا الخبر عن الدارقطني بإسناد صحيح إلى حُضَيْنَ بن المنذر. العواصم من القواصم، ص ١٤٠؛ خالد كبير علّال: قضية التحكيم في موقعة صفين بين الحقائق والأباطيل، دار البلاغ، الجزائر، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٤٨.

ويُشيع رواية الأخبار زوراً أَنَّ أبا موسى وعمراً اتَّفقا على عزل عليٍّ ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين، ليختاروا لأنفسهم من أحبوا، وأنَّ أبا موسى أظهر وهناً وغفلةً خلال التحكيم، فاستغلَّ ذلك عمرو بن العاص وخدع أبا موسى، حيث قدَّمه لإلقاء الحكم على النَّاس، فصعد المنبر فخلع عليّاً ومعاوية، ثمَّ صعد عمروٌ بعده فخلع عليّاً وثبَّت معاوية، فاتَّهمه أبو موسى بالغدر وتشاتماً^(١).

ولما تفرَّق النَّاس دون اتِّفاق خطب معاوية فقال: "مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَلْيُطْلِعْ لَنَا قَرْنَهُ، فَلَنَحْنُ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ وَمِنْ أَبِيهِ"، فسأل حبيب بن مسلمة عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن ردِّ فعله فقال: "حَلَلْتُ حُبُوتِي"^(٢)، وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ: أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكَ مَنْ قَاتَلَكَ وَأَبَاكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَمْعِ، وَتَسْفِكُ الدَّمَ، وَيَحْمِلُ عَنِّي غَيْرُ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِي الْجَنَانِ"، فقال حبيب: حَفِظْتَ وَعَصِمْتَ^(٣).

وهذا الحديث قاطعٌ في أَنَّ التحكيم يومئذٍ كان في أمر الخلافة، وليس في القصاص من قتلة عثمان كما يراه بعض الحديثيين^(٤)، وكان رأي معاوية في الخلافة تقديم الفاضل في القوَّة والرأي والمعرفة على الفاضل في السَّبق إلى الإسلام والدين والعبادة، فلهذا أطلق أنَّه أحقُّ، وكان ابن عمر يرى خلاف ذلك، وأنَّه لا يبايع المفضول إلا إذا خُشي الفتنة، ولهذا بايع بعد ذلك معاوية، ثمَّ ابنه يزيد، ونهى بنيه عن نقض بيعته^(٥).

وبقيت الأوضاع على حالها، فظلَّ عليٌّ رضي الله عنه خليفة المسلمين، وبقي معاوية رضي الله عنه أميراً على الشَّام، ولم يبايع معاوية بالخلافة إلا بعد اغتيال الخوارج لعليٍّ، وكانت بيعته ببیت المقدس في شهر رمضان سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م^(٦).

(١) عبد الرزاق: المصنَّف، ج٥، ص ٤٦٣، (رواية موقوفة على الزهري الذي لم يدرك الحادثة). البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ٣٣٧، ٣٣٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١١٢، ١١٣، (رواية أبي مخنف الشيعي الرافضي المحترق). وليس لهذه الرواية طريق صحيح أثبتة. يحيى إبراهيم اليحيى: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ، ص ٤٠٤ - ٤٠٨؛ علي محمد محمد الصلابي: علي بن أبي طالب، ج٢، ص ١٧٤ - ١٧٧.

(٢) الحُبوة: ثوب يلقى على الظهر ويربط طرفاه على السَّاقين بعد ضمَّهما. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص ٤٠٤.

(٣) البخاري: الصحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب)، ج٤، ص ١٥٠٨، ح ٣٨٨٢.

(٤) منهم محمد آحزون: تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين، ج٢، ص ٢٣٣، ٢٣٤؛ وخالد كبير علان: قضية التحكيم في موقعة صفين بين الحقائق والأباطيل، ص ٤٦.

(٥) ينظر ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص ٤٠٤.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٨، ص ١٣٩؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٧٧.

الفصل الخامس

فتنة الخوارج ومقتل عليؓ

لَمَّا كَاتَبَ عَلِيٌّ مُعَاوِيَةَ ۞ وَحَكَّمَ الْحَكَمِينَ، اعْتَرَضَ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةُ آلَافٍ مِنْ قُرَاءِ النَّاسِ وَقَالُوا لَهُ: "انْصَلَحْتَ مِنْ قَمِيصِ الْبَسَكَةِ اللَّهُ تَعَالَى، وَاسْمُ سَمَاكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، ثُمَّ انْطَلَقْتَ فَحَكَمْتَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَلَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى"، وَاعْتَزَلَ هَؤُلَاءِ الْقُرَاءَ، فَنَزَلُوا بِحَرُورَاءَ^(١)، وَلَمْ يَدْخُلُوا الْكُوفَةَ^(٢).

وَقَدْ نَشِطَ الْخَوَارِجُ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى رَأْيِهِمْ، حَتَّى بَلَغَ عَدَدُهُمْ بَضْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا^(٣)، فَانْزَعَجَ لِذَلِكَ عَلِيٌّ ۞ وَاجْتَمَعَ بِحِمْلَةِ الْقُرْآنِ فِي الْكُوفَةِ حَتَّى امْتَلَأَتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَدَعَا بِمَصْحَفِ إِمَامٍ عَظِيمٍ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَصُكُّهُ بِيَدِهِ وَيُنَادِيهِ أَنْ يَحْدِثَ النَّاسُ، فَتَعَجَّبَ الْجَمْعُ مِنْ صَنِيعِهِ، وَقَالُوا: "إِنَّمَا هُوَ مِدَادٌ فِي وَرَقٍ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِمَا رُوِينَا مِنْهُ"، وَسَأَلُوهُ مَاذَا يُرِيدُ؟ فَقَالَ: أَصْحَابُكُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا، بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ ۞، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(٤)، فَأَمَّةٌ مُحَمَّدٌ ۞ أَعْظَمُ دَمًا وَحَرَمَةً مِنْ امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ. وَنَقِمُوا عَلَيَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ: كَتَبَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَقَدْ جَاءَنَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ۞ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشًا، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ۞: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا تَكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ: "كَيْفَ نَكْتُبُ؟" فَقَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ۞: "فَاكْتُبْ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ"، فَقَالَ: لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أُخَالِفْكَ، فَكَتَبَ: هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

(١) حروراء: قرية بظاهر الكوفة، وقيل موضع على ميلين منها، نزل بها الخوارج الذين خالفوا علي بن أبي طالب ۞ فانسبوا إليها. ياقوت: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٤٥.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢، ص ٨٤، ح ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٣٦٧، ح ٤٧٤. واستدركه الحاكم على الصحيحين وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. المستدرك، جـ ٢، ص ١٦٥، ح ٢٦٥٧، واختاره الضياء في الأحاديث المختارة، جـ ٢، ص ٢٢٣، ح ٦٠٥، وصحح ابن كثير إسناده. البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣١٢، وتابعه الألباني. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، جـ ٨، ص ١١٣، ح ٢٤٥٩.

(٣) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٨؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ١٦٥، وقال الهيثمي: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ٢٣٨، وصحح ابن حجر إسناده الأثر. المطالب العلية، جـ ١٨، ص ٣١٧.

(٤) سورة النساء: من الآية ٣٥.

قَرِيْشًا. والله ﷻ يقول في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١).

وقد استأذن ابنُ عباس عليًا ﷺ في إتيان الخوارج بحروراء بعد اجتماع عليٍّ بقرّاء الكوفة فبعثه إليهم، فلما توسّط عسكرهم ورآه زعيمهم عبد الله بن الكوّاء اليشكُريّ قام في الخوارج فحذّرهم من مناظرته، وأمرهم برده إلى عليٍّ فلم يقبلوا منه، وواضعوا ابنَ عباس ﷺ الكتاب ثلاثة أيّام، فحاجّهم بمثل حجج عليٍّ ﷺ فتأب منهم أربعة آلاف، ورجعوا معه، ودخلوا الكوفة، وفيهم ابنُ الكوّاء^(٢)، وشبث بن ربعي التميمي، وهما رئيسا الخوارج^(٣).

وخرج عليٌّ ﷺ بنفسه عقب ابن عباس ﷺ إلى حروراء، فوقع الرّضا بينه وبين بقيّة الخوارج فعادوا معه، ولكنهم فهموا خطأ أنّه أعلن توبته ورجع عن التّحكيم والكفر، فلما بلغ عليًا ﷺ قولهم أعلن لهم موقفه في خطبة له، وعاب عليهم أمرهم، فتنادوا من نواحي المسجد: "لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ"، وناداه أحدهم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤)، فأجابه عليٌّ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٥)، وأخذ عليٌّ ﷺ يقلّب يديه، ويعلن موقفه منهم: "لا نمنعكم صلاةً في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفَيْءِ ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتّى تقاتلونا"^(٦).

وقد طالب الخوارج عليًا ﷺ بنقض القضية، والعودة لقتال أهل الشام، وقالوا: "إِنْ قَبِلَ عَلِيٌّ الْقَضِيَّةَ قَاتَلْنَا عَلَى مَا قَاتَلْنَا يَوْمَ صِفِّينَ، وَإِنْ نَقَضَهَا قَاتَلْنَا مَعَهُ"، فلما أبى عليهم

(١) سورة الأحزاب: من الآية ٢١. وينظر الأثر عند أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢، ص ٨٤، ح ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٣٦٧، ح ٤٧٤. وصحاح ابن كثير إسناداه. البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣١٢، وتابعه الألباني. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، جـ ٨، ص ١١٣، ح ٢٤٥٩.

(٢) من رواية الإمام أحمد وأبي يعلى الصحيحة السابقة.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، جـ ١٢، ص ٢٨٤.

(٤) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٥) سورة الروم: الآية ٦٠.

(٦) ابن أبي شعبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٦٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١١٥؛ الطبراني: المعجم الأوسط، جـ ٧، ص ٣٧٦، ح ٧٧٧١؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٨، ص ٣١٩، ويتفق الأثر بمجموع طرقه إلى الحسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٨٣.

فارقوه، وساروا من الكوفة متسللين حتى بلغوا النهروان^(١)، وكتبوا لإخوانهم من أهل البصرة لموافاتهم بها^(٢)، فخرجوا إليهم مجتمعين^(٣)، ولم يعمل عليٌّ عليه السلام على منع تجمعاتهم أو إعادتهم إلى الطاعة، بل سمح لهم بالمسير حيث شاءوا، وبعث إليهم: "بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا تَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا، أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلًا، أَوْ تَظْلِمُوا دِمَّةً، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمْ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ"^(٤).

ولما فشل الحكمان وافترقا دون اتفاق لم يرجع الخوارج إلى صف عليٍّ عليه السلام، رغم أنه أعد جيشه لمواجهة أهل الشام وعسكر بالنخيلة قرب الكوفة^(٥)، وبينما عليٌّ يتجهز للمسير إلى الشام بلغه أن فرقة من الخوارج بالنهروان "جَعَلُوا يَهْدُونَ النَّاسَ قِتْلًا"، فأنكر عليهم أصحابهم، وقالوا: "مَا عَلَى هَذَا فَارَقْنَا عَلِيًّا"^(٦)، ولكنهم لم ينتهوا حتى مروا على عبد الله بن خباب بن الارت وقد اعتزل الفتنة بنواحي النهروان فقتلوه، وبقروا بطن سريته وهي حبلى^(٧)، وكان من عجب أمرهم أنهم لما أخذوا عبد الله بن خباب مرّ أحدهم على تمرّة ساقطة من نخلة لأهل العهد فأخذها فألقاها في فيه، فأنكروا عليه استحلاله أكلها دون ثمن، وعظّموا عليه حرمة مال المعاهد حتى ألقاها من فيه، ثم مروا على خنزير فبعجه أحدهم بسيفه، فأنكروا عليه استحلاله خنزير معاهد؟ فانتهز عبد الله بن خباب تلك الفرصة وأخبرهم أنه أعظم عليهم حرمة من التمرة والخنزير، وأنه لم يترك صلاة ولا صياما، وعدد عليهم أشياء فعلها، فلم يعبئوا به، وقدموه فضرّبوا عنقه^(٨).

(١) ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٨؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ١٦٥، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ٢٣٨، وصحاح ابن حجر إسناده الأثر. المطالب العلية، جـ ١٨، ص ٣١٧.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١١٥.

(٣) يذكر البلاذري أن عددهم ثلاثمائة رجل. أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ١٣٦، بينما في رواية الطبري أن عددهم خمسمائة رجل. تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١١٦.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢، ص ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٤٧٤، وصحاح ابن كثير إسناده. البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣١٢، وتابعه الألباني. إرواء الغليل، جـ ٨، ص ١١٣، ح ٢٤٥٩.

(٥) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٨٤.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ ٢، ص ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٤٧٤، وصحاح المحققون إسناده الأثر.

(٧) أخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي بسند صحيح إلى حميد بن هلال. فتح الباري، جـ ١٢، ص ٢٩٧.

(٨) أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال، ص ٢٢٨، ٢٢٩؛ ابن أبي شيبه: المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٤، ح ٣٧٨٩٣؛ الدارقطني: السنن، جـ ٣، ص ١٣١، ح ١٥٦؛ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٨، ص ٣٢٠، ح ١٦٦٦٧، وقال البوصيري في الإتحاف:

"رواه مسند بسند رجاله ثقات". وصحاح الأثر محقق المطالب العلية لابن حجر، جـ ١٨، ص ٢٢٠.

ولما كان عليٌّ ؓ قد نهى أصحابه عن مقاتلة الخوارج حتى يحدثوا حدثاً، فقد أرسل إليهم أن أقيدونا بعبد الله بن خباب، فأرسلوا إليه: "كُنَّا قَتَلَهُ"، فأمر أصحابه عندئذ أن يسقطوا عليهم^(١)، وقد حلف عبد الله بن شداد لأَم المؤمنين عائشة ؓ أن علياً ؓ لم يقاتل الخوارج "حتى قَطَعُوا السَّبِيلَ، وَسَفَكُوا الدَّمَ، وَاسْتَحْلَوْا أَهْلَ الذِّمَّةِ"^(٢).

وقام عليٌّ ؓ في أصحابه فأعلمهم أن الخوارج قد سفكوا الدماء الحرام، وأغاروا في سرح الناس، وأمرهم بتعجيل مقاتلتهم والقضاء عليهم قبل المسير إلى أهل الشام، لنلا يخلفونهم في ذراريهم وأموالهم، وذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: "يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تَجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لَا تَكَلُّوا عَنِ الْعَمَلِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ، وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلْمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعْرَاتٌ بَيْضٌ"^(٣).

وتحرك عليٌّ ؓ بجيشه لمواجهة الخوارج حتى عسكر على شاطئ النهرين الغربي، وأرسل إليهم الرسل يدعونهم، فقتلوا رسوله، فأمر عليٌّ ؓ بقتالهم^(٤).

ولما التقى الجمعان بالنهرين واقتربا بعضهما من بعض خاف عبد الله بن وهب الراسبي - رئيس الخوارج يومئذ - على أصحابه من مقاربة جند عليٍّ ومحاورتهم، فصاح فيهم: "الْقُوا الرِّمَاحَ، وَسَلُّوا سِيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ"، فرجع الخوارج فسلُّوا السيوف، وهجموا على جند عليٍّ فالتقوهم برماحهم فقتل بعضهم على بعض^(٥)، ولم يصيبوا من أتباع عليٍّ إلا بضعة عشر رجلاً^(٦).

(١) من نفس الرواية الصحيحة السابقة التي رواها أبو عبيد وغيره.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج ٢، ص ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج ١، ص ٤٧٤، وصح ابن كثير إسناده. البداية والنهاية، ج ٧، ص ٣١٢، وتابعه الألباني. إرواء الغليل، ج ٨، ص ١١٣، ح ٢٤٥٩.

(٣) مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج)، ج ٢، ص ٧٤٨، ح ١٠٦٦؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج ٢، ص ١١٣، ١١٤، ح ٧٠٦.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف، ج ٧، ص ٥٦١. وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٨٥.

(٥) مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج)، ج ٢، ص ٧٤٨، ح ١٠٦٦؛ أبو داود: السنن، (كتاب السنة، باب في قتال الخوارج)، ج ٤، ص ٤٧٦٨.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ١٩٧؛ النسائي: السنن الكبرى، (كتاب الخصائص، باب ثواب من قاتلهم)، ج ٥، ص ١٦٣، ح ٨٥٧٠؛ الفسوي: المعرفة والتاريخ، ج ٣، ص ٣١٥.

ولما كان عليٌّ ؓ قد جعل المخدج^(١) ذا النديّة شاهدا على صحّة موقفه وضلال الخوارج فقد اهتمّ بالبحث عنه وأمر جنده بذلك، "فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ"^(٢)، حتّى اتهم بعضهم عليّا ؓ أنّه غرهم حتّى قتلوا إخوانهم، "فَدَمَعَتْ عَيْنُ عَلِيٍّ"^(٣)، وقام يبحث عنه بنفسه، فلما وقف عليه كبر، وقال: "صَدَقَ اللَّهُ، وَبَلَغَ رَسُولُهُ"^(٤)، "وَفَرَحَ النَّاسُ وَرَجَعُوا"^(٥)، وذلك سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م)^(٦).

وقد عامل عليٌّ ؓ الخوارج معاملة البغاة، فلم يسبهم^(٧)، ولم يكفرهم، ولما سئل عنهم أَمْشُرِكُونَ هُمْ؟ قال: مِنَ الشَّرِّكَ فَرُّوا، قِيلَ: فَمَنْافِقُونَ هُمْ؟ قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا، قِيلَ لَهُ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: قَوْمٌ بَعَوْا عَلَيْنَا فَقَاتَلْنَاهُمْ"^(٨). وتحقّق قول النّبىّ ﷺ: "تَفْتَرِقُ أُمَّتِي فِرْقَتَيْنِ، فَيَمُرُقُ بَيْنَهُمَا مَارِقَةٌ، تَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ"^(٩)، فكان هذا دليلا آخر على بغي معاوية ؓ والشّاميين على أمير المؤمنين عليّ ؓ.

ولما فرغ عليٌّ ؓ من النهروان قال: "لَا أَغْزُو الْعَامَ، وَرَجَعَ إِلَى الْكُوفَةِ"^(١٠)، غير أنّ النهروان لم تكن نهاية المطاف مع الخوارج، فلقد تركت تلك المعركة جراحاً أليمة في

(١) المخدج: الناقص الخلُق. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ ٢، ص ١٣.

(٢) مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج)، جـ ٢، ص ٧٤٨، ح ١٠٦٦.

(٣) ابن أبي شعبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٩، ح ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٣٦٦، ح ٤٧٣، وقال الهيثمي: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ٢٣٨، وصحح ابن حجر إسناده الأثر. المطالب العلية، جـ ١٨، ص ٣١٧.

(٤) مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج)، جـ ٢، ص ٧٤٨، ح ١٠٦٦.

(٥) ابن أبي شعبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٩، ح ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٣٦٦، ح ٤٧٣، وقال الهيثمي: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ٢٣٨، وصحح ابن حجر إسناده الأثر. المطالب العلية، جـ ١٨، ص ٣١٧.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١٢١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ١١٦.

(٧) البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٨، ص ٣١٥، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٨٦.

(٨) ابن أبي شعبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٦٣؛ محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، جـ ٢، ص ٥٤٣، وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده الأثر في تحقيقه لصحيح ابن حبان، جـ ١٥، ص ١٣٤.

(٩) مسلم: الصحيح، (كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم)، جـ ٢، ص ٧٤٦، ح ١٠٦٤؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ ١٧، ص ٢٩٠، ح ١١١٩٦. وهذا لفظ المسند.

(١٠) ابن أبي شعبة: المصنف، جـ ٧، ص ٥٥٩، ح ٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، جـ ١، ص ٣٦٦، ح ٤٧٣، وقال الهيثمي: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، جـ ٦، ص ٢٣٨، وصحح ابن حجر إسناده الأثر. المطالب العلية، جـ ١٨، ص ٣١٧.

الكوفة العلوية الاتجاه والبصرة العثمانية معاً، حيث ينتمي معظم الخوارج إلى قبائل المدينتين^(١)، وانضم إلى من بقي من الخوارج من مال إلى رأيهم^(٢)، وانطوت صدورهم على جرح عميق؛ بسبب المقتلة التي تعرض لها أصحابهم، وتحركوا للتأثر من عليّ ؓ وأصحابه والانتقام منهم، حتى أصبحت النهروان بالنسبة للخوارج -فيما بعد- مثل كربلاء بالنسبة للشيعة، في طلب التأثر لأصحابها^(٣).

وقد توالى تحركات الخوارج بعد النهروان بمعدل تحرك في كل شهر^(٤)، فكان الرجل منهم يخرج ومعه المائة والمائتان، فإذا قضي على واحد خرج آخر، وتتجدد القضية، ثم لا تنقضي إلا لتتجدد^(٥)، وأصيب الجيش العراقي بالوهن، فلم يجد عليّ ؓ فيهم النشاط لقتال الشاميين، وأفاد معاوية ؓ من الظروف التي أحاطت بهم، فمد نفوذه إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص وبالتعاون مع العثمانية فيها^(٦)، مما أضاف إليه قوة بشرية واقتصادية، كما راسل وجوه القادة في العراق محاولاً استمالتهم^(٧).

وأمام الوهن والشقاق وضعف الطاعة في جيش عليّ لم يتمكن من القيام بأية حملة ضد القوات الشامية، وبلغ من سوء تعامل العراقيين مع أمير المؤمنين عليّ ؓ أنهم ازدحموا عليه حتى أدموا رجله، فقال: "اللهم إني قد كرهتهم وكرهوني، فأرحني منهم وأرحهم مني"^(٨).

ويتبين من خطب عليّ الأخيرة مدى ما عاناه من الملل والألم إذ كان يقول: "اللهم إني قد سئمتهم، وسئمتوني، ومللتهم، وملتوني، فأرحني منهم، وأرحهم مني، فما يمنع أشفاكم أن يخضبها بدم؟ ووضع يده على لحيته"^(٩).

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٨٨.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٢، ص ٢٨٤.

(3) Nicholson: A Literary of the Arabs, London, 1907. p. 208.

(٤) لطيفة البكاي: حركة الخوارج، نشأتها وتطورها إلى نهاية العصر الأموي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م ص ٤٩.

(٥) طه حسين: الفتنة الكبرى (علي وبنوه)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، بدون تاريخ، ص ١٣٩.

(٦) الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٥، ٢٦.

(٧) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٨٨.

(٨) ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٤٤٣، وإسناد الأثر صحيح.

(٩) عبد الرزاق: المصنف، ج ١٠، ص ١٥٤؛ ابن أبي شيبه: المصنف، ج ٧، ص ٤٤٤، وإسناد الأثر صحيح.

وقد تعددت إشارات عليّ عليه السلام للعراقيين بقرب نهايته ومقتله، فذكر لهم أن عبد الله ابن سلام قد تعلّق به عند خروجه من المدينة للعراق فقال له: "أَمَا إِنَّكَ إِنْ جِئْتَهَا لِيُصِيبَنَّكَ بِهَا ذُبَابُ السَّيْفِ"، وأقسم عليّ عليه السلام أنه سمع ذلك من رسول الله ﷺ^(١).

وكان النبي ﷺ قد أخبر علياً عليه السلام بأن أشقى الأولين هو الذي عقر الناقة، وأن أشقى الآخرين هو الذي يضربه على يافوخه، فكان عليّ يقول لأهل العراق: "وَدِدْتُ أَنَّهُ قَدْ انْبَعَثَ أَشْقَاكُمْ يُخَضَّبُ هَذِهِ - يَعْنِي لِحْيَتَهُ - مِنْ هَذِهِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مُقَدَّمِ رَأْسِهِ"^(٢).

ولما سمع العراقيون علياً عليه السلام يقول: "لَتُخَضَّبَنَّ هَذِهِ مِنْ هَذَا، فَمَا يَنْتَظِرُ بِي الْأَشْقَى"، قالوا: "أَخْبَرْنَا بِهِ نُبِيرُ عِثْرَتِهِ"، قال: "إِذَا تَالَلَّهَ تَقْتُلُونَ بِي غَيْرَ قَاتِلِي"، وطالبوه أن يستخلف عليهم، فقال: "لَا، وَلَكِنْ أَتْرُكُكُمْ إِلَى مَا تَرَكَكُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"، قالوا: "فَمَا تَقُولُ لِرَبِّكَ إِذَا أَتَيْتَهُ؟" قال: "أَقُولُ: اللَّهُمَّ تَرَكْتَنِي فِيهِمْ مَا بَدَا لَكَ، ثُمَّ قَبَضْتَنِي إِلَيْكَ وَأَنْتَ فِيهِمْ، فَإِنْ شِئْتَ أَصْلَحْتَهُمْ وَإِنْ شِئْتَ أَفْسَدْتَهُمْ"^(٣).

وكان عليّ عليه السلام يعرف قاتله الشقي، فقد ثبت أنه دعا الناس إلى البيعة، فجاء عبد الرحمن بن ملجم المرادي فردّه مرتين، ثم أتاه فقال: "مَا يَحْبِسُ أَشْقَاهَا، لَتُخَضَّبَنَّ أَوْ لَتُصْبَغَنَّ هَذِهِ مِنْ هَذَا"، يعني لحيته من رأسه، ثم تمثّل بهذين البيتين:

أَشْدُّ حَيَازِيمِكَ لِلْمَوْتِ * * * فَإِنَّ الْمَوْتَ آتِيكَ
وَلَا تَجْزَعُ مِنَ الْقَتْلِ * * * إِذَا حَالَ بِوَادِيكَ^(٤)

(١) الحميدي: المسند، ج١، ص ١٨٠، ١٨١، ح ٥٣؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص ٣٨١، ح ٤٩١، وصحح الدكتور حسين سليم أسد إسناده الحديث في تحقيقه لمسند أبي يعلى، وقال الهيثمي: "رجال أبي يعلى رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل، وهو ثقة مأمون". مجمع الزوائد، ج٩، ص ١٣٨، وحسن محقق المطالب العالية لابن حجر إسناده الحديث، ج١٨، ص ٢٢٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٣٥؛ البزار: المسند، (البحر الزخار)، ج٤، ص ٢٥٤، ح ١٤٢٤؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص ٣٧٧، ح ٤٨٥، وصحح الألباني الحديث بشواهده. السلسلة الصحيحة، ج٣، ص ٧٨، وقد انتهى محقق المطالب العالية لابن حجر إلى أن الحديث حسن لغيره بمجموع الطرق والشواهد، ج١٨، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص ٣٢٥، ح ١٠٧٨؛ ابن أبي شيبة: المصنف، ج٧، ص ٤٤٣، والأثر حسن لغيره كما قال محقق المسند، وقال الهيثمي: "رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن سبيع، وهو ثقة، ورواه البزار بإسناد حسن". مجمع الزوائد، ج٩، ص ١٣٧.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٣٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص ٥٠٠؛ ابن أبي الدنيا: مقتل عليّ، تحقيق/ إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ٤٣. والأثر صحيح الإسناد. أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي: سلسلة الآثار الصحيحة، (الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين)، دار الفاروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج٢، ص ٢٥٠.

وعندما علم عليٌّ ﷺ بالمؤامرة عليه لاقى منه انتظارا، فقد جاءه رجلٌ من مُرادٍ وهو يصلي في المسجد ونصحه أن يحترس؛ لأنّ ناسا من مراد يريدون قتله، فقال له: "إِنَّ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ مِمَّا لَمْ يُقَدَّرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلِيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ الْأَجَلَ جَنَّةٌ حَصِينَةٌ" (١).

وكان ثلاثة نفر من الخوارج قد تآمروا على قتل أمير المؤمنين عليّ، ومعاوية ابن أبي سفيان، وعمرو بن العاص ﷺ، وسمّوا سيوفهم، وتعاهدوا على تلك المهمة، فعمد عبد الرحمن بن ملجم المرادي إلى عليّ، وقصد البرك بن عبد الله التميمي معاوية، وتوجّه عمرو بن بكير التميمي إلى عمرو، فتمكّن الأشقي عبد الرحمن بن ملجم المرادي من ضرب عليّ ﷺ (٢)، فجر ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ/يناير ٦٦١م (٣)، ويؤيد هذا التاريخ تصريح الحسن بن عليّ ﷺ بأنّ أباه قتل في الليلة التي نزل فيها القرآن (٤).

ولما كان عليٌّ ﷺ من الخلفاء الراشدين، وسادات الصحابة السابقين، فلا نستغرب منه وصيته لبنيه بقاتله خيرا حيث يقول: "إِنَّهُ أَسِيرٌ فَأَحْسِنُوا نُزْلَهُ، وَأَكْرِمُوا مَنَاقِبَهُ، فَإِنْ بَقِيَ قَتَلْتُ أَوْ عَفَوْتُ، وَإِنْ مِتُّ فَأَقْتُلُوهُ قَتْلَتِي، وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (٥)، وبقي عليٌّ ﷺ حتى فارق الحياة في صبيحة إحدى وعشرين من رمضان (٦)، فمات شهيدا، كما بشره النبي ﷺ عندما كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: اهْذَأْ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صَدِيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ" (٧).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٨٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٣٥.

(٣) المصدر السابق، ج٦، ص١٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٥٥؛ الذهبي العبر في خبر من غبر، تحقيق/ صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ج١، ص٤٦.

(٤) أبو يعلى: المسند، ج١٢، ص١٢٤؛ وصح الدكتور حسين سليم أسد إسناد الأثر، وحسنه محقق المطالب العالية لابن حجر، ج١٨، ص٢٣٨.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٣٥؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج٢، ص٥٦٠، ويتقوى الأثر بطرقه إلى الحسن لغیره. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٨٩.

(٦) البخاري: التاريخ الكبير، ج١، ص٩٩، بإسناد صحيح.

(٧) مسلم: الصحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل طلحة والزبير)، ج٤، ص١٨٨٠، ح٢٤١٧؛ الترمذي: السنن، وقال: "حديث صحيح"، (كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان)، ج٥، ص٦٢٤، ح٣٦٩٦.

وقد دفن عليٌّ ؓ بالكوفة عند مسجد الجماعة بدار الإمارة^(١)، وعُمي موضع قبره، خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا جثته^(٢)، فلما تغلب الملوك البويهيون الروافض على الخلفاء العباسيين في القرن الرابع الهجري أقاموا له مشهداً بمدينة النجف، غير أن انقطاع معرفة القبر لثلاثة قرون يشكك في كون المشهد على القبر^(٣).

وقد جزم الحافظ ابن كثير بتزوير المشهد بقوله: "وما يعتقده كثير من جهلة الروافض من أن قبره بمشهد النجف فلا دليل على ذلك ولا أصل له، ويقال إنما ذاك قبر المغيرة بن شعبه"^(٤).

وحكى الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧٢م) عن غير واحد من العلماء أن الحسن بن عليٍّ ؓ حول أباه إلى المدينة^(٥).

ولما قتل عليٌّ ؓ استخلف الحسن بن عليٍّ ؓ، فسار بسيرة أبيه، ثم بعث بالبيعة إلى معاوية بن أبي سفيان ؓ^(٦)، وسلم إليه الخلافة، فقدم الكوفة، وباع له أهلها سنة ٤١هـ/٦٦١م^(٧)، واجتمعت الأمة كلها عليه، وعرفت تلك السنة بعام الجماعة^(٨)، وحقق الحسن ؓ ما أخبر به جدّه المصطفى ﷺ^(٩) حين قال: "إنّ ابني هذا سيّدٌ، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"^(١٠).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٣٦٥.

(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق/ عبد الرحمن محمد قاسم، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، ج٧، ص٤٤٦.

(٤) البداية والنهاية، ج٧، ص٣٦٥.

(٥) تاريخ بغداد، ج١، ص٤٦٥، ٤٦٦.

(٦) ابن أبي شيبه: المصنف، ج٧، ص٥٥٩، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٦، ح٤٧٣، وقال الهيثمي: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد، ج٦، ص٢٣٨، وصحح ابن حجر إسناده الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٦٧.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٢٠٣؛ ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٣٨٧.

(٩) الذهبي: العبر في خبر من غير، ج١، ص٤٧.

(١٠) البخاري: الصحيح، (كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ: "ابني هذا سيّد")، ج٢، ص٩٦٢، ح٢٥٥٧؛ الترمذي: السنن، وقال: "حسن صحيح"، (كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين)، ج٦، ص١٢١، ح٣٧٧٣.

تَمَّة

موقف أهل السنة من الفتنة بين الصحابة

ينبغي علينا -نحن المسلمين- عند ذكر الفتنة التي وقعت بين الصحابة ﷺ أن نستحضر قوله الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١)، فقد "سمّاهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدلل الإمام البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم"^(٢).

ولا تنس أيها القارئ لما شجر بين الصحابة ﷺ أن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٣)، فعلياً أن نستغفر لهم، وأن نترضى عنهم، وأن نتذكر أنّ هدايتنا للإسلام بجهودهم، وفي ميزانهم.

وأما الذين لم يعرفوا للصحابة ﷺ حقاً وبسطوا فيهم ألسنتهم بالسوء، كما قالت أمّا السيدة عائشة ؓ: "أمرُوا بالاستِغْفَارِ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَسَبَّوهُمْ"^(٤)، فهؤلاء نبغضهم ولا نحبههم، ونشتدّ عليهم، ولا نلين لهم.

ويرحم الله عمر بن عبد العزيز، فقد سئل عن قوله في أهل صفين؟ فقال: "تلك دماء طهر الله أيدي منها، فلا أحبُّ أن أخضب لسانِي فيها"^(٥).

بِحَمْدِ اللَّهِ

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق/ خالد محمد محرم، المكتبة العصرية، الطبعة الثالثة، صيدا، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٤، ص١٨٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٤) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ج١، ص٥٧، وصحح الألباني إسناده على شرط الشيخين. ابن أبي عاصم: السنة، (ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة للألباني)، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج٢، ص٤٨٤.

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٩، ص١١٤.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
-	الباب الأول: خلافة أبي بكر الصديق
٨	الفصل الأول: موجز حياة الصديق قبل الخلافة
١٥	الفصل الثاني: استخلاف أبي بكر الصديق
٢٩	الفصل الثالث: منهج أبي بكر الصديق في الحكم
٣٩	الفصل الرابع: حروب الردّة
٧١	الفصل الخامس: فتوح العراق في عهد أبي بكر الصديق
٨٦	الفصل السادس: فتوح الشام في عهد الصديق
-	الباب الثاني: خلافة الفاروق عمر
١٠٩	الفصل الأول: سيرة عمر قبل الخلافة
١١٧	الفصل الثاني: استخلاف عمر ومنهجه في الحكم
١٢١	الفصل الثالث: إتمام فتح العراق
١٥٧	الفصل الرابع: فتوح بلاد فارس (إيران)
١٧٠	الفصل الخامس: فتوح البلاد الشامية والجزيرة الفراتية
١٨٠	الفصل السادس: فتح مصر
١٩٠	الفصل السابع: سياسة الفاروق مع ولاته

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن: تدوين الدواوين	٢٠٠
الفصل التاسع: استشهاد الفاروق عمر	٢٠٦
الباب الثالث: خلافة عثمان بن عفّان	-
الفصل الأول: سيرة عثمان قبل الخلافة وأهم صفاته	٢١٢
الفصل الثاني: استخلاف عثمان ومنهجه في الحكم	٢٢٠
الفصل الثالث: جمع القرآن في عهد عثمان	٢٢٧
الفصل الرابع: مواصلة الفتوحات في عهد عثمان	٢٣٠
الفصل الخامس: أحداث الفتنة	٢٤٥
الباب الرابع: عليّ بن أبي طالب	-
الفصل الأول: سيرة عليّ قبل الخلافة	٢٨٠
الفصل الثاني: استخلاف واختلاف	٢٨٩
الفصل الثالث: موقعة الجمل	٢٩٦
الفصل الرابع: موقعة صفّين	٣٠٦
الفصل الخامس: فتنة الخوارج ومقتل عليّ عليه السلام	٣١٤
فهرس الموضوعات	٣٢٤